النهج الأسمى

في شرح أسماء الله الحسنى

تأليف

محمد الحمود النجدي

المجلد الثاني

القسم الأول

طبعة جديدة منقحة ومزيدة

مكتبة الإمام الذهبي

الكويت

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله الذي بيَّن لأمته طريق النجاة، وحذرهم طرق الغَيِّ والهلكات ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيراً.

وبعد:

فهذا هو «**الجزء الثالث**» من «**القسم الأول**»[١] من كتابنا «النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى» نقدمه للقراء الكرام، عسى الله أن ينفعنا.

والذي حال بيننا وبينه ظروف وأشغال ليست بتقديرنا، ثم حرصنا على أن يخرج الكتاب بأكمل وجه وبأجزائه الثلاثة[٢] بعد الزيادة وتصحيح الأخطاء الطباعية والتنقيح.

ويتبع هذا الجزء «**القسم الثاني**» من هذا الكتاب وهو الأسماء التي ثبتت في السنة المطهرة.

وأسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يغفر لي زلاتي، وأن يتقبَّل

(١) وهو في الأسماء الحسنى التي ثبتت بالقرآن الكريم.

(٢) ثم رأينا أن يخرج الكتاب كاملاً في مجلدين اثنين.

مني حسناتي إنه غفور شكور.

وسبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتبـــه

محمد بن حمد الحمود النجدي

الكويت(٦) شوال سنة (١٤١٢هـ)

الحقُّ
جَلَّ جلالُه وتقدَّست أسماؤُه
(٥٨)

*** المعنى اللغوي:**

الحق نقيض الباطل ، وجمعه حقوقٌ وحِقَاقٌ ، وليس له بناء أدنى عدد.

وحقَّ الأمر يَحِق وحقوقًا : صار حقًا وثبت.

قال الأزْهري : معناه وَجَبَ يجب وجوبًا.

وقال ابن دريد : وحَقَّقَ الرجل إذا قال: هذا الشيء هو الحق، كقولك : صدَّق ، ويقال : أحقَقت الأمر إحقاقًا ، إذا أحكمته وصححتَه.

وحَقَّ الأمرُ يحُقُّه وأحقَّه : كان منه على يقين(١).

*** وروده في القرآن الكريم :**

ورد الاسم في عشر آيات من القرآن ، منها :

قوله تعالى : ﴿**ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ**﴾ [الانعام: ٦٢].

---

(١) «اللسان» مادة حقق (٢/٩٣٩-٩٤٠) ، «الصحاح» للجوهري (٤/ ١٤٦٠ - ١٤٦١) وانظر «تفسير الأسماء» للزجّاج (ص٥٣)، «اشتقاق الأسماء» للزجاجي (ص١٧٨).

وقوله تعالىٰ : ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٣٠].

وقوله تعالىٰ : ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢].

وقوله تعالىٰ : ﴿هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف: ٤٤].

وقوله تعالىٰ : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحج: ٦].

وقوله تعالىٰ : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

وقوله تعالىٰ : ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦].

وقوله تعالىٰ : ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥][1].

*** معنىٰ الاسم في حق الله تعالىٰ :**

قال ابن جرير في تفسير آية يونس : ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ﴾ : ورجع هؤلاء المشركون يومئذٍ إلىٰ الله ، الذي هو ربهم ومالكهم الحق لا شك فيه ، دون ما كانوا يزعمون أنهم لهم أرباب من الآلهة والأنداد ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ يقول : وبطل عنهم ما

(١) والباقي من الآيات التي ذكر فيها الاسم : آية (١١٤) من سورة طه ، وآية (٣٠) من سورة لقمان .

كانوا يتخرصون من الفرية والكذب على الله بدعواهم أوثانهم أنها لله شركاء ، وأنها تقربهم منه زلفى[1] .

وقال في قوله : ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ يقول تعالى ذكره لخلقه : أيها الناس فهذا الذي فعل هذه الأفعال فيرزقكم من السماء والأرض ويملك السمع والأبصار ، ويخرج الحي من الميت والميت من الحي ، ويدبر الأمر : الله ربكم الحق لا شك فيه ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ﴾ يقول : فأي شيء سوى الحق إلا الضلال وهو : الجور عن قصد السبيل .

يقول : فإذا كان الحق هو ذا ، فادّعاؤكم غيره إلهًا وربًا هو الضلال والذهاب عن الحق لا شك فيه فأنى تصرفون[2] .

وقال في قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ يعني تعالى ذكره بقوله ذلك هذا الفعل الذي فعلت من إيلاجي الليل في النهار ، وإيلاجي النهار في الليل لأني أنا «الحق» الذي لا مثل لي ولا شريك ولا ند ، وأن الذي يدعوه هؤلاء المشركون إلهًا من دونه هو الباطل الذي لا يقدر على صنعة شيء ، بل هو المصنوع [3] .

وقال الخطابي : الحقُّ هو المُتَحقِّقُ كونه ووجوده ، وكل شيء صح وجوده وكونهُ فهو حقٌّ ، ومنه قول الله سبحانه ﴿الْحَاقَّةُ ۝١ مَا الْحَاقَّةُ﴾ [الحاقة: ١، ٢] معناه والله أعلم : الكائنةُ حقًا لاشك في كونها ، ولا مدفع لوقوعها .

---

(١) «جامع البيان» (١١/٧٩) .

(٢) المصدر السابق (١١/ ٨٠) .

(٣) المصدر السابق (١٧/ ١٣٧) باختصار.

ويقال : الجنة حقٌّ والنار حقٌّ والساعة حق ، يُراد أنَّ هذه الأشياء كائنة لا محالة .

والعرب تقول : إن فلانًا الرجلُ حقّ الرجل، والشجاعُ حق الشجاع وحاقّ الشجاع وحاقّةَ الشجاع ، إذا أثبتوا له الشَجاعة وحقيقَتَها[1] .

وقال الحليمي : (الحق) ما لا يسع إنكاره ، ويلزم ثبوته والاعتراف به ، ووجود الباري عزَّ ذكره أولى ما يجب الاعتراف به[2] ، ولا يسع جحوده إذ لا مُثْبَت يتظاهر عليه من الدلائل البينة الباهرة، ما تظاهرت على وجود الباري جلّ جلاله[3] .

وقال القشيري[4] : (الحق) من أسمائه ، وهو بمعنى الموجود الكائن وكذا معناه في اللغة [5] .

وقال الغزالي :(الحق) هو الذي في مقابلة الباطل ، والأشياء قد تُستبان بأضدادها ، وكل ما يخبر عنه فإما باطلٌ مُطلقًا ، وإما حقٌّ مُطلقًا

---

(١) «شأن الدعاء» (ص٧٦) باختصار يسير .

(٢) قال البيهقي في «الأسماء» (ص١٣) : يعني عند ورود أمره بالاعتراف به .

(٣) «المنهاج في شعب الإيمان» (١/ ١٨٤) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات الباري جل ثناؤه والاعتراف بوجوده ، ونقله البيهقي في «الأسماء» (١٢ ـ ١٣).

(٤) هو الشيخ الزاهد أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري الخراساني النيسابوري الشافعي الصوفي المفسر ، ولد سنة (٣٧٥ هـ) ، قال الخطيب : كتبنا عنه وكان ثقة وكان حسن الوعظ ، مليح الإشارة يعرف الأصول على مذهب الأشعري والفروع على مذهب الشافعي ، وقال الذهبي : وكان عديم النظير في السلوك والتذكير ، لطيف العبارة ، طيب الأخلاق ، غواصًا على المعاني . مات سنة (٤٦٥ هـ) «تاريخ بغداد» (١١/ ٨٣) ، « السير » (١٨/ ٢٢٧ ـ ٢٣٣).

(٥) « التحبير في التذكير » (ص ٨٦) ط دار الكتاب العربي (١٩٦٨) .

وإما حقٌّ من وجه ، باطل من وجه ، فالممتنع بذاته هو الباطل مطلقًا ، والواجب بذاته هو الحق مطلقًا ، والممكن بذاته الواجب بغيره هو حق من وجه باطل من وجه[1].

وقال ابن الأثير : (الحق) هو الموجود حقيقة المُتحقّق وجودُه وإلهيتُه ، والحق ضد الباطل [2].

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١- الله تعالى هو الحقُّ المبين ، لا شك ولا ريب في وجوده ، ولا يسع أحدًا إنكاره لظهور دلائل إثباته ، وكيف يخفى سبحانه وهو أحق باسم (الحق) من كل حق ، وهو سبحانه حقٌّ في ذاته ، حقٌّ في صفاته حقٌّ في أقواله ، حق في أفعاله .

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله تعالى : «الحق» في ذاته وصفاته ، فهو واجب الوجود ، كامل الصفات والنُّعوت ، وجوده من لوازم ذاته ، ولا وجود لشيء من الأشياء إلا به ، فهو الذي لم يزل ولا يزال بالجلال والجمال والكمال موصوفًا .

ولم يزل ولا يزال بالإحسان معروفًا .

فقـوله حق .

وفعـله حق .

ولقاؤه حق .

ورسله حق .

وكتـبه حق .

---

(١) «المقصد الأسنى» (ص٧٩) باختصار، ونحوه عند الرازي (ص٢٩٠) .

(٢) «النهاية» (١/٤١٣) .

ودينه هو الحق .

وعبادته وحده لاشريك له هي الحق .

وكل شيء يُنسب إليه فهو حق .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ [الحج: ٦٢].

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩].

﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ ﴾ [يونس: ٣٢] .

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١][1].

٢- وقد كان النبي ﷺ يَستفتح صلاته من الليل بذكر هذا المعنى ، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما : كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجَّد قال : «**اللهمَّ لك الحمدُ أنتَ قيِّمُ السماوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمدُ لك مُلْكُ السماوات والأرض ومن فيهن ، ولكَ الحمدُ أنت نُور السماوات والأرض ، ولك الحمدُ أنتَ مَلكُ السماوات والأرض، ولك الحمدُ أنت الحقُّ ، ووعدكَ الحق ، ولقاؤكَ حقٌّ ، وقولك حقٌّ ، والجنةُ حقٌّ ، والنارُ حقٌّ ، والنبيونَ حقٌّ ، ومحمدٌ ﷺ حق ، والساعة حق...**» الحديث [2].

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٥/ ٣٠٥) .

(٢) أخرجه البخاري (٣/ ٣) (١١/ ١١٦) (١٣/ ٣٧١ ، ٤٢٣ ، ٤٦٥)، ومسلم (١/ ٥٣٢ - ٥٣٣) واللفظ للبخاري في التهجد .

قال الحافظ: «وإطلاق اسم (الحق) على ما ذكر من الأمور معناه : أنه لا بد من كونها ، وأنها مما يجب أن يصدق بها ، وتكرار لفظ (حق) للمبالغة في التأكيد». (الفتح ٣/ ٤).

٣- والله تعالىٰ هو الإله والرب الحق ، الذي لا تنبغي الألوهية والربوبية إلا له عز وجل وحده لا شريك له ، وما سواه من الآلهة والمعبودات فباطل زائل ، وقد دلَّل الله سبحانه علىٰ ذلك بالأدلة الواضحة ، والبراهين الظاهرة في غير ما موضع من كتابه الكريم .

كقوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [يونس: ٣١، ٣٢].

ثم قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣٤) قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [يونس: ٣٤، ٣٥].

وقال تعالىٰ آمرًا نبيه ﷺ أن يقول : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ١٠٤].

وقوله تعالىٰ في «سورة الحج» : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٦١) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٦٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ

بإذْنه إنَّ اللَّهَ بالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٦٥) وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إنَّ الإنسَانَ لَكَفُورٌ﴾ [الحج: ٦١ - ٦٦][1].

فذكر الله تعالى في هذه الآيات ـ وغيرها كثير ـ من دلائل ألوهيته الحقَّة وربوبيته أمرًا عظيمًا ، من كونه :

يرزق من السماء والأرض .

يملك السمع والأبصار .

يُخرج الحي من الميت وعكسه .

يُدبر الأمر .

يَبدؤ الخلق ثم يعيده .

يهدي إلى الحق .

يتوفى الأنفس .

يولج الليل في النهار وعكسه .

يحيي الأرض بالماء ويخرج نباتها .

يملك السماوات والأرض وما فيها .

يُسخِّر للناس ما في السماوات والأرض .

يُمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه .

﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾

[لقمان: ١١].

٤- لما كان الله هو الحق ويحب الحق ويأمر به فإنه لا يستحيي من بيانه للناس ، وإظهاره لهم بأنواع الأمثلة الحسية التي تُعين على فهم

---

(١) وانظر الآيات (٢٥ ـ ٣٢) من سورة لقمان .

الحق وقبوله ، والإعراض عما سواه من الباطل .

قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

ولا يستحيي من الأمر به والحثِّ عليه في سائر شئون الناس لأن في ذلك صلاحهم في معاشهم ومعادهم ، وفي تَرْكِ الحق حياءً أو خوفًا أو مُداهنة فَسَادُ حياة الناس ، ولنا في آية الحجاب عبرة وعظة ، في التمسك بالحق قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

قال ابن جرير الطبري في الآية : إن دخولكم بيوت النبي ﷺ من غير أن يؤذن لكم ، وجلوسكم فيها مستأنسين للحديث بعد فراغكم من أكل الطعام الذي دعيتم له ، كان يؤذي النبي ﷺ فيستحيي منكم أن يخرجكم منها إذا قعدتم فيها للحديث بعد الفراغ من الطعام ، أو يمنعكم من الدخول إذا دخلتم بغير إذن ، مع كراهيته لذلك منكم ، والله لا يستحيي من الحق أن يتبين لكم ، وإن استحيا نبيكم فلم يبين لكم كراهية ذلك حياءً منكم(١).

---

(١) «جامع البيان» (٢٢/٢٨) ، وانظر «تفسير ابن كثير» (٣/٥٠٣ ـ ٥٠٥) .

المُبين

جلَّ جلاله وتقَدَّست أسماؤه

(٥٩)

* المعنى اللغوي :

بان الشيءُ بيانًا : اتَّضح فهو بيِّنٌ .

وأبانَ الشيء فهو مُبين ، وأَبَنْتُهُ أنا : أي أوضحته، واستبان الشيء: وضح ، واسْتَبَنته أنا : عرفته ، وتبيَّن الشيء : وضح وظهر .

والتَّبْيين: الإيضاح والوضوح ، والبيان: الفصاحة واللَسن.

والبَيْنُ: الفِراق ، تقول منه : بانَ يبين بينًا وبَيْنُونةً . تقول : ضربه فأبان رأسه من جسده وفصله ، فهو مُبين .

والمباينة : المفارقة .

والبين: الوصل أيضًا وهو من الأضداد [١].

وقال الزجاجي : (المبينُ) اسم الفاعل من أبان فهو مبينٌ إذا أظهر وبيَّن إما قولاً وإما فعلاً [٢].

---

(١) «الصحاح» (٥/٢٠٨٢ ـ ٢٠٨٣)، و«اللسان» (١/٤٠٣ ـ ٤٠٤) مادة (بين) ، و«شأن الدعاء» (ص١٠٢) .

(٢) «اشتقاق أسماء الله» (ص١٨٠) .

* ورود الاسم في القرآن الكريم :

ورد مرة واحدة في قوله تبارك وتعالى : ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥].

* معنى الاسم في حق الله تعالى :

قال ابن جرير : وقوله : ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ : يقول ويعلمون يومئذٍ أنَّ الله هو الحق الذي يُبَيِّنُ لهم حقائق ما كان يَعدهم في الدنيا من العذاب ، ويزول حينئذٍ الشك فيه عن أهل النفاق الذين كانوا فيما يَعدهم في الدنيا يمترون [(١)].

وقال الزجاجي بعد أن بين المعنى اللغوي للاسم : . . فالله تبارك وتعالى المبين لعباده سبيلَ الرشاد ، والموضِّح لهم الأعمال الموجبة لثوابه والأعمال الموجبة لعقابه ، والمبين لهم ما يأتونه ويَذَرُونه [(٢)].

وقال الخطابي : (المبينُ) هو البَيِّنُ أمْرُهُ في الوحدانية ، وأنه لا شريك له [(٣)].

وقال الحليمي : (المبين) وهو الذي لا يَخْفَى ولا ينْكَتِم ، والباري جل ثناؤه ليس بخاف ولا منكتم ، لأنَّه له من الأفعال الدالَّة عليه ما يستحيل معها أن يخفى فلا يُوقف عليه ولا يُدرى [(٤)].

وقال الأصبهاني : (المبين) ومعناه البيِّنُ أمره، وقيل : البين

(١) «جامع البيان» (١٨/ ٨٤) .

(٢) «اشتقاق الأسماء» (ص ١٨١) .

(٣) «شأن الدعاء» (ص١٠٢) .

(٤) «المنهاج» (١/ ١٨٩) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات الباري جلَّ ثناؤه والاعتراف بوجوده ، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص١٣) .

الربوبية والملكوت ، يقال : أبان الشيء بمعنى بيَّنَ ، وقيل معناه : أبانَ للخلق ما احتاجوا إليه [1].

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١- الله تبارك وتعالى البيِّنُ أمره في الألوهية والربوبية فلا يخفى على خلقه بما نَصَبَ لهم من الدلائل والبينات الدالة عليه سبحانه وتعالى ، بل دلائل وحدانيته وملكه وربوبيته أوضح من الشمس في رابعة النهار :

وكيف يَصحُّ في الأذهان شيءٌ إذا احتاجَ النَّهارُ إلى دليل[2]

٢- أنه تعالى (المبين) الذي أوضح لخلقه سُبُلَ النجاة من عقابه، والفوز بجنته ومرضاته ، بما فَطَر عليه الناس من التوحيد ﴿ **فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الروم: ٣٠].

وبما أرسل إليهم من الرسل صلوات الله عليهم أجمعين وأنزل إليهم الكتب ، قال سبحانه : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ [إبراهيم: ٤].

وقال : ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ** ﴾ [الحديد: ٢٥].

وأيدهم بالبراهين والمعجزات الدَّالة على صدقهم وصدق دعوتهم.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : ومن الآيات التي في الأرض ما يُحدثه الله فيها كل وقت ما يصدق به رسله فيما أخبرت به فلا تزال آيات

(١) «الحجة في المحجة» (ق ٢١أ) .

(٢) وانظر آثار الإيمان بـ (الظاهر) .

الرسل وأعلام صدقهم ، وأدلة نبوتهم ، يُحدثها الله سبحانه وتعالى في الأرض ، إقامة للحجة على من لم يشاهد تلك الآيات التي قاربت عصر الرسل ، حتى كأن أهل كلٍّ قرنٍ يشاهدون ما يشاهده الأولون أو نظيره كما قال : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

وهذه الإرادة لا تختص بقرن دون قرن بل لا بد أنْ يُري الله سبحانه أهلَ كلٍّ قرنٍ من الآيات ما يُبيِّنُ لهم أنه الله الذي لا إله إلا هو ، وأن رسله صادقون ، وآيات الأرضِ أعظم مما ذكر وأكثر ، فنبَّه باليسير منها على الكثير [1].

٣- وقد سمَّى الله تعالى رسوله ﷺ بـ (المبين) كما في قوله ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف: ١٨٤] وقوله : ﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾ [الحجر: ٨٩] وغيرهما من الآيات.

٤- وسمى الله تعالى كتابه بـ (المبين) في آيات كثيرة ، منها قوله تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٥ ، ١٦].

وقوله : ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ﴾ [الحجر: ١] .

وقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤].

---

(١) «أقسام القرآن» (ص١٨٧) وانظر ما قبلها وما بعدها في بيان آيات الله تعالى .

ووصفه بأنه آيات بينات :

كما في قوله : ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

وقوله : ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٩].

ففي القرآن البيانُ البيِّنُ الواضح لكل ما يحتاجه بنو الإنسان في حياتهم بأروع عبارة وأجمل أسلوب .

في القرآن بيان كل شيء من البداية إلى النهاية ، حتى يستقر أهل الجنة في نعيمهم وأهل النار في جحيمهم .

فمعرفة الله ومعرفة أسمائه وصفاته ، وما يجب له تعالى وما لا يجب ، والعقيدة الإسلامية ، وأحكام العبادات والمعاملات ، وجميع الشئون الاجتماعية ، والأحوال الشخصية ، وكل ما تحتاجه المجموعة البشرية ، في كل زمان ومكان ، وأحكام المعاد والبعث والنشور ، والحساب والجزاء والعقاب وغير ذلك مما هو مبين وموضح ، وصدق الله تعالى :﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ [الإسراء: ١٢] [(١)].

* * *

(١) «الهدى والبيان في أسماء القرآن» للشيخ صالح البليهي رحمه الله (ص١٧٢) باختصار وتصرف يسير .

الوكيل ، الكفيل[1]

جل جلاله وتقدست أسماؤه

(٦٠ ـ ٦١)

***المعنى اللغوي :**

قال ابن سيده : وَكِلَ بالله وتوكَّل عليه واتكل : استسلم له ، يقال : توكَّل بالأمر إذا ضَمِن القيام به ، ووكَلْت أمري إلى فلان ، أي ألجأته إليه واعتمدت فيه عليه ، ووَكَّل فلانٌ فلانًا : إذا استكفاه أمرَه ثقةً بكفايته ، أو عجزًا عن القيام بأمر نفسه .

ووَكَل إليه الأمر : سلَّمه .

ووَكَلَه إلى رأيه وَكْلاً ووكُولاً : تركه[2].

وقال الجوهري : والتوكُّل : إظهار العجز والاعتماد على غيرك ، والاسم التُّكْلان[3].

وقال الزجاجي : الوكيل فعيل ، من قولك : وكلت أمري إلى فلان وتوكل به ، أي جعلته يليه دوني وينظر فيه .

والوكيل : الكفيل أيضًا ، كذلك قالوا في قوله تعالى عز وجل في

---

(١) لقرب معناهما فقد جعلنا الكلام عليهما في فصل واحد.

(٢) «اللسان» (٦/ ٤٩٠٩) مادة (وكل) .

(٣) «الصحاح» (٥/ ١٨٤٤ ـ ١٨٤٥) .

سورة يوسف ﴿اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: ٦٦] أي: كفيل [١].

وقال الراغب الأصفهاني: (الوكيل) فعيلٌ بمعنى المفعول[٢].

وأما (الكفيل) فهو من:

كَفَلَه يكفُلُه وكفَّله إياه، والكافل: العائل، وفي التنزيل العزيز ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: ٣٧] [٣].

وفي الحديث: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة، له ولغيره» والكافل: القائم بأمر اليتيم المربي له، وهو من الكفيل الضَّمِين.

وقال ابن الأعرابي: كفيل وكافل، وضمين وضامن بمعنى واحد.

وفي «التهذيب» للأزهري: وأما الكافل فهو الذي كَفَلَ إنسانًا يَعُوله وينفق عليه [٤].

*** ورود الاسمين في القرآن الكريم:**

* ورد (الوكيل) في القرآن أربع عشرة مرة، منها:

قول تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ [النساء: ٨١].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ

---

(١) «اشتقاق الأسماء» (ص١٣٦ ـ ١٣٧).

(٢) «المفردات» (ص٥٣١).

وانظر «النهاية» (٥/ ٢٢١)، و«الكتاب الأسنى» للقرطبي (ق ٤١١أ).

(٣) وقد قرئت بالتثقيل ونصب زكريا، وذكر الأخفش أنه قُرئ ﴿وكَفِلها زكريا﴾ بكسر الفاء.

(٤) «اللسان» (٥/ ٣٩٠٦)، «الصحاح» (٥/ ١٨١١)، «النهاية» (٤/ ١٩٢)، و«الأسنى» (ورقة ٤١٢ب).

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: ٦٦].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً﴾ [الإسراء: ٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾ [المزمل: ٩].

* وأما (الكفيل) فقد جاء مرة واحدة:

في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٩١].

*** معنىٰ الاسم في حق الله تعالىٰ:**

قال الفراء في قوله تعالىٰ: ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾: كفيلاً بما وعدك [١].

وقال في قوله تعالىٰ: ﴿أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً﴾: يقال: ربًا، ويقال: كافيًا [٢].

---

(١) «معاني القرآن» (٣/١٩٨)، وكذا قال ابن قتيبة في «غريب القرآن» (ص٢١٩) في قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: ٦٦] أي: كفيل.

(٢) «معاني القرآن» (٢/١١٦).

وقد أنكر الزجاج أن يكون معنىٰ «الوكيل» هو الكافي، فقال في «شرح الأسماء» (ص٥٤): يحكىٰ عن أبي زكريا الفراء أنه كان يذهب إلىٰ أن قولنا: الوكيل هو الكافي، ونحن لا نعرف في الكلام وكلتُ، ولا وكلت إليه إذا: كُفيت، فلا ندري من أين له هذا القول! ولكن الوكيل فعيل بمعنىٰ مفعول، من قولك: وكلت أمري إلىٰ فلان: إذا سلمتَه إليه، والله تعالىٰ موكول إلىٰ تَطَوله الامور، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَأُفَوِّضُ =

وقال ابن جرير في قوله تعالى : ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ : كفانا الله، يعني : يكفينا الله ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ يقول : ونعم المولى لمن وليه وكفله ، وإنما وصف الله تعالى نفسه بذلك ، لأن (الوكيل) في كلام العرب هو : المُسْنَدُ إليه القيام بأمر من أسند إليه القيام بأمره ، فلما كان القوم الذين وصفهم الله بما وصفهم به في هذه الآيات قد كانوا فَوَّضُوا أمرهم إلى الله ، ووثقوا به ، وأسندوا ذلك إليه ، وصف نفسه بقيامه لهم بذلك ، وتفويضهم أمرهم إليه بالوكالة ، فقال : ونعم الوكيل الله تعالى لهم[1].

وقال في قوله تعالى : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ : وتوكل أنت يا محمد على الله ، يقول : وفوّض أنت أمرك إلى الله ، وثق به في أمورك ، وولها إياه ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ يقول : وكفاك الله ، أي : وحسبك بالله وكيلاً ، أي : فيما يأمرك ، ووليًا لها ودافعًا عنك وناصراً[2].

وقال في قوله تعالى :﴿وهو عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ : والله على كل ما خلق من شيء رقيب وحفيظ ، يقوم بأرزاق جميعه وأقواته وسياسته وتدبيره وتصريفه بقدرته[3] .

وقال الخطابي بعد أن ذكر قول الفراء أنه (الكافي) : ويقال معناه : أنه الكفيل بأرزاق العباد ، والقائم عليهم بمصالحهم ، وحقيقته : أنه

= أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [غافر : ٤٤] اهـ . قلت : وما أنكره فيه نظر ! فإن من قام بأمر غيره فقد كفاه كما لا يخفى ، راجع المعنى اللغوي .

(١) «جامع البيان» (٤/١١٨ ـ ١١٩).

(٢) «جامع البيان» (٥/١١٣) .

(٣) «المصدر السابق» (٧/١٩٩) .

الذي يَستقلُّ بالأمر الموكول إليه ، ومن هذا قول المسلمين ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ أي : نعم الكفيل بأمورنا القائم بها [(١)].

وقال أبو عبد الله الحليمي : (الوكيل) وهو : الموكَّل والمفوَّض إليه علمًا بأن الخلق والأمر له ، لا يملك أحد من دونه شيئًا[(٢)] .

فيتلخَّص في (الوكيل) ثلاثة معان:

١- الكفيل .

٢- الكافي .

٣- الحفيظ .

وأما (الكفيل) :

فقال ابن جرير في قوله تعالى : ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً﴾ : وقد جعلتم الله بالوفاء بما تعاقدتم عليه على أنفسكم راعيًا ، يرعى الموفي منكم بعهد الله الذي عاهد على الوفاء به والناقض [(٣)].

وساق بسنده إلى مجاهد في معنى (كفيلاً) قال : وكيلاً[(٤)] .

وقال الحليمي : (الكفيل) ومعناه : المتقبل للكفايات ، وليس ذلك بعقد وكفالة[(٥)] ككفالة الواحد من الناس ، وإنما هو على معنى أنه لما خلق المحتاج وألزمه الحاجة ، وقدَّر له البقاء الذي لا يكون إلا مع إزالة

---

(١) «شأن الدعاء» (ص٧٧) ، وقال نحوه البيهقي في «الاعتقاد» (ص٦١) .

(٢) «المنهاج» (٢٠٨/١) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه ، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص٨٧) .

(٣) «جامع البيان» (١١٠/١٤) .

(٤) المصدر السابق (١١١/١٤) وسنده ضعيف ، فيه : الحسين بن داود ، الملقب : سنيد ، ضُعِّف لكونه كان يُلقن شيخه حجاج بن محمد .

(٥) في «المنهاج» : وضمان ، وما أثبتناه من «الأسماء» للبيهقي .

العلة ، وإقامة الكفاية ، لم يُخْلِهِ من إيصال ما علق بقاؤه به إليه ، وإدْرَاره في الأوقات والأحوال عليه .

وقد فعل ذلك ربُّنا جل ثناؤه ، إذ ليس في وسع مرتزق أن يرزق نفسه ، وإنما الله جلَّ ثناؤه يرزق الجماعة من الناس والدواب ، والأجنة في بطون أمهاتها ، والطير التي تغدو خِماصًا وتروح بطانًا ، والهوام والحشرات ، والسباع في الفلوات[1] .

وقال القرطبي : (كفيلاً) يعني : شهيدًا ، ويقال : حافظًا ، ويقال : ضامنًا[2] .

* آثار الإيمان بهذين الاسمين :

١- إن الله سبحانه وتعالى هو القائم بأمر الخلائق أجمعين والمتكفل برزقهم وإيصاله لهم ، والرعاية لمصالحهم ، وما ينفعهم في دنياهم وأخراهم ، وهذا لا بد يتضمن أوصافًا عظيمة من أوصافه كحياته وعلمه وقدرته وقوته ورحمته وحكمته وجُوده وكرمه ووفاء عهده ، وصدق وعده . . إلى غير ذلك من الأوصاف الجليلة ، اللائقة بكماله وعظمته .

قال القرطبي : فيجبُ على كل مؤمنٍ أن يعلم أن كلَّ ما لا بدَّ له منه ، فالله سبحانه هو الوكيل والكفيل المتوكل بإيصاله إلى العبد ، إما بنفسه فيخلقُ له الشَّبع والرِّي ، كما يخلق له الهداية في القلوب ، أو بواسطة سبب مَلَك أو غيره يوكل به[3] .

---

(١) «المنهاج» (١/ ٢٠٤) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه ، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص٦٧) .

(٢) التفسير (١٠/ ١٧٠) .

(٣) «الأسنى» (ورقة ٤١٢ أ) .

٢- الفرق بين وكالة الخالق ووكالة المخلوق :

بينَّا فيما سبق أن الخلق قد يشركون مع الخالق في بعض دلالات الأسماء الحسنىٰ كالسمع والبصر والحياة . . وغيرها من الصفات .

ولكن هذا لا يعني التشابه في الصفات لمجرد الاشتراك في الأسماء فأين سمع الإِنسان من سمع الرحمن ، وأين بصره من بصره ، وأين علمه من علمه ، وأين التراب من رب الأرباب سبحانه وتعالىٰ .

وإذا كان بعض الخلق قد يتوكل بغيره من الضعفاء واليتامىٰ والمساكين والأرامل ، فلا يعني هذا أنه قد شابه الله تعالىٰ في صفته ، فإن هذا المتوكل بأمر غيره ، هو نفسه محتاج إلىٰ رزق الله ومَعُونته ورحمته وفضله .

قال ابن العربي : فإذا علمتم معنىٰ (الوكيل) فلله في ذلك منزلته العلياء ، بأحكامٍ تختصُّ به أربعة :

الأول : انفراده بحفظ الخلق .

الثاني : انفراده بكفايتهم .

الثالث : قدرته علىٰ ذلك .

الرابع : إن جميع الأمر ، من خير وشر ، ونفع وضُرٍّ ، كل ذلك حادث بيده .

ثم قال :

المنزلة السُّفْلىٰ للعبد وله في ذلك ثلاثة أحكام :

أن يتبرأ من الأمور إليه لتحصل له حقيقة التوحيد ويرفع عن نفسه شغب مشقة الوجوب . .

الثاني : أن لا يستكثر ما يَسْئل فإن الوكيل غني ، ولهذا قيل : من علامة التوحيد كثرة العيال على بساط التوكل .

الثالث : أنك إذا علمت أن وكيلك غنيٌّ وفيٌّ قادر مَلِيٌّ ، فأعرض عن دنياك وأقبل على عبادة من يتولاَّك [1].

ونضيف بأن الوكيل يكون قادرًا على القيام بأمر مُوكله في وقت وعاجزًا عنها في وقت آخر ، غنيًا في وقت فقيرًا في آخر ، عالمًا بشيء جاهلاً بغيره ، حيا في وقت ميتًا في غيره ، والله جل شأنه يتعالى عن ذلك كله .

قال تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾ [النساء ٨١] .

وقال : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [هود: ١٢٣].

وقال : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان: ٥٨].

وقال الغزالي مبينًا بعض الفروق أيضًا : (الوكيل) هو الموكول إليه الأمور ، ولكن الموكول إليه ينقسم إلى :

١- من وُكِلَ إليه بعضُ الأمور ، وذلك ناقص .

٢- وإلى من وُكل إليه الكلُّ ، وليس ذلك إلا الله تعالى :

والموكول إليه ينقسم إلى :

١- من يستحق أن يكون موكولاً إليه لا بذاته ولكن بالتوكيل والتفويض ، وهذا ناقص لأنه فقيرٌ إلى التفويض والتَّولية .

٢- وإلى من يستحق بذاته أن تكون الأمور مَوكُولةً إليه ، والقلوب

---

(١) «الكتاب الأسنى» (ورقة ٤١٢ أ ـ ٤١٢ ب) .

متوكلة عليه ، لا بتولية وتفويض من جهة غيره ، وذلك هو الوكيل المطلق .

والوكيل أيضًا ينقسم إلى :

١- من يفي بما يُوكل إليه وفاءً تامًا من غير قصور .

٢- وإلى من لا يفي بالجميع .

والوكيل المطلق هو الذي الأمور مَوكُولةٌ إليه ، وهو مَلِيٌّ بالقيام بها، وفيٌّ بإتمامها ، وذلك هو الله تعالى فقط ، وقد فهمتَ من هَذا مقدار مدخل العبد في هذا الاسم[1] .

٣- وليس في إجراء هذا الاسم على الله تعالى نقصٌ كما يتوهمه البعض ، من حيث مباشرة الرب تبارك وتعالى لأمر الخلائق وما يصلح حالهم .

قال ابن الحصار : وقد ظنَّ بعض الناس أن هذا الاسم نقصٌ لا يجوز وصف الخالق به !! وهذا جهلٌ ورد للنصوص ، ولو علم أن اختراع الأفعال لا تصح إلا من الله وحده ، وأن من المستحيل أن ينوب عن الله سبحانه في ذلك أحدٌ غيره ، لعلم وجوب اتصافه سبحانه بهذا الاسم حقيقة ، وهو مجاز في غيره ، فمن عرف الله حق معرفته حُقَّ له أن يتوكل عليه في جميع أموره ، ويُفوِّض إليه جميع شؤونه ، قال الله تعالى: ﴿ **وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾ [المائدة: ١١][2].

٤- حضَّ الله تبارك وتعالى على التوكل عليه ، وتفويض الأمور إليه، وجعل هذا من صفات المؤمنين به ، فقال سبحانه :﴿ **وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا**

(١) «المقصد الأسنى» (ص٨١) .

(٢)« الأسنى» (ورقة ٤١٢ ب) .

إن كُنتُم مُّؤْمنينَ ﴾ [المائدة: ٢٣] . وقال : ﴿ إنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢].

وقال سبحانه : ﴿ إن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٨٤].

فالتوكل إذاً يزيد بزيادة الإيمان ، وينقص بنقصانه .

وكيف لا يتوكل المؤمن على الله وهو ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الزمر: ٦٢].

وهو الكافي لمن توكل عليه وفوَّض أمره إليه ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾ [النساء: ١٧١].

وقد أخبر سبحانه عن محبته لمن اتصف بهذه الخصلة فقال مخاطبًا نبيه ﷺ : ﴿ فَإذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ووعدهم بالأجر العظيم والثواب الجزيل ، فقال : ﴿ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الشورى: ٣٦].

وحرَّم سبحانه على عباده التوكل على غيره فهو وحده حسبهم ونعم الوكيل ، فقال : ﴿ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً ﴾ [الإسراء: ٢].

وقال: ﴿ رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إلَهَ إلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴾ [المزمل: ٩].

وقال : ﴿ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٨].

٥- وقد بلغ النبي ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين الغاية في التوكل على الله تعالى والإنابة له ، وتفويض الأمور إليه ،وقد مدحهم

ربهم تبارك وتعالى في كتابه الكريم في غير موضع .

فقال سبحانه : ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣، ١٧٤] .

وذلك أن النبي ﷺ أخبر أن أبا سفيان وأصحابه يقصدونهم ـ وذلك بعد غزوة أحد ـ فقال ﷺ : «حسبنا الله ونعم الوكيل» .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقيَ في النار ، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾[1] .

وكذا ما كان منهم في «غزوة الخندق» من إظهار التوكل على الله وتسليم الأمر له ، وقد حكاه عنهم ربهم تبارك وتعالى في قوله : ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب: ٢٢، ٢٣].

٦- ومن عجيب ما قصَّه النبي ﷺ على أصحابه عن بني إسرائيل في هذا الباب ، ما أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه «عن رسول الله ﷺ أنه ذكر رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يُسلفه ألف دينار فقال: ائتني بالشهداء أشهدهم ، فقال كفى بالله شهيدًا ،

---

(١) رواه البخاري (٨/ ٢٢٩) .

قال : فائتني بالكفيل قال : كفى بالله كفيلاً ، قال : صدقت، فدفعها إليه على أجلٍ مُسَمى فخرج في البحر فقضى حاجته ، ثم التمس مركبًا يركبُها يقدم عليه للأجل الذي أجَّله فلم يجد مركبًا ، فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار وصحيفةً منه إلى صاحبه ثم زجج موضعها ، ثم أتى بها إلى البحر فقال : اللهم إنك تعلم أني كنت تسلَّفت فلانًا ألف دينار فسألني كفيلاً فقلت كفى بالله كفيلاً ، فرضي بك ، وسألني شهيدًا فقلت كفى بالله شهيدًا ، فرضيَ بذلك . وإني جهدت أن أجد مركبًا أبعث إليه الذي له فلم أقدر ، وإني أستودِعُكها ، فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه ، ثم انصرف وهو في ذلك يلتمس مركبًا يخرج إلى بلده ، فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعلَّ مركبًا قد جاء بماله ، فإذا بالخشبة التي فيها المال ، فأخذها لأهله حطبًا ، فلما نشرها وجد المال والصحيفة ، ثم قدم الذي كان أسلفه فأتى بالألف دينار فقال : والله ما زلت جاهدًا في طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركبًا قبل الذي أتيت فيه . قال : هل كنت بعثت إليَّ بشيء؟ قال : أخبرك أني لم أجد مركبًا قبل الذي جئت فيه . قال : فإنَّ الله قد أدَّى عنك الذي بعثت في الخشبة ، فانصرف بالألف الدينار راشدًا»[1].

* * *

(١) الفتح (٤/٤٦٩) .

القَويُّ ـ المتينُ
جَلَّ جلالُه وتقدَّست أسماؤُه
(٦٢ ـ ٦٣)

*** المعنى اللغوي :**

قال الجوهري : القوةُ خِلاف الضعف ، ورجل شديد القُوى أي : شديد أسْرِ الخَلْق .

وأقوى الرجل أي : نزل القَوَاء (وهي الأرض الخالية) (١).

وقال ابن الأعرابي : أقوى إذا استغنى ، وأقوى إذا افتقر ، وأقْوى القوم : إذا وقعوا في قِيٍّ من الأرض ، والقيُّ : الأرض المستوية الملساء وهي الخوية أيضًا (٢).

* أما المَتينُ في اللغة : فالمَتْنُ ما غلظ من الأرض وصلب ، وجمعه : مِتان .

وَمَتُنَ الشيء بالضم مَتَانةً فهو متين أي : صلبٌ . ورجل مَتْنٌ من الرجال أي صُلبٌ .

ومَتْنا الظهر : مُكْتَنَفا الصُلْبِ عن اليمين وشمال من عصب ولحم ، ويذكر ويؤنث(٣) .

---

(١) «الصحاح» (٦/٢٤٦٩ ـ ٢٤٧٠) .

(٢)« اللسان» (٥/٣٧٨٩) ، وانظر «النهاية» (٤/١٢٧) .

(٣) «الصحاح» (٦/ ٢٢٠٠)، «اللسان» (٥/ ٤١٣٠) ، «اشتقاق الأسماء» (ص ١٩٤ ـ ١٩٧)

* ورود الاسمين في القرآن الكريم :

أما (القوي) فقد جاء هذا الاسم في تسعة مواضع من الكتاب العزيز قوله تعالى شأنه : ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٥٢].

وقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [هود: ٦٦].

وقوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

وقوله تعالى : ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٤].

وقوله تعالى : ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [الشورى: ١٩].

وقوله تعالى : ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

وغيرها من الآيات .

وأما (المتين) فقد ورد مرة واحدة في قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

* معنى الاسمين في حق الله تعالى :

قال ابن جرير في قوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ : إنَّ الله قويٌّ لا يغلبه غالب ، ولا يرد قضاءه رادٌّ ، ينفذ أمره ويمضي قضاءه في خلقه شديدٌ عقابه لمن كفر بآياته وجحد حُجَجَه[١] .

وقال في قوله : ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ : إنَّ ربَّك هو القوي

(١) «جامع البيان» (١٠/ ١٧ - ١٨) .

في بطشه ، إذا بَطَش بشيء أهلكه ، كما أهلك ثمود حين بطش بها [1].

وقال الزَّجَّاج : (القوي) هو الكامل القدرة على الشيء ، تقول : هو قادرٌ على حَمله ، فإذا زدتَه وصفًا قلت : هو قوي على حمله ، وقد وَصَفَ نفسه بالقوة ، فقال عزَّ قائلاً : ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات : ٥٨] [2].

وقال الخطابي : القوي قد يكون بمعنى : القادر ، ومن قَوِيَ على شيء فقد قدر عليه ، ويكون معناه : التامُّ القوة الذي لا يستولي عليه العجزُ في حال من الأحوال ، والمخلوق وإن وُصِفَ بالقوة ، فإن قوتَه مُتناهية ، وعن بعض الأمور قاصرة [3] .

وقال ابن كثير في قوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ : أي لا يغلبه غالبٌ ، ولايفُوته هارب [4].

وقال السعدي : (القوي المتين) : هو في معنى العزيز .

قلت : وقد ذكره قبله فقال :

(العزيز) الذي له العزة كلها : عِزَّةُ القوة ، وعِزَّة الغلبة ، وعِزَّة الامتناع ، فامتنع أن يناله أحد من المخلوقات ، وقَهَرَ جميع الموجودات

---

(١) «جامع البيان» (١٢/ ٣٩) .

(٢) «تفسير الأسماء» (٢/ ٥٤) .

(٣) «شأن الدعاء» (ص٧٧) ، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص٤٣) وقال نحوه في «الاعتقاد» (ص٦١) .

(٤) «التفسير» (٢/ ٣٢٠) .

ودانت له الخَلِيقة ، وخضعت لعظمته [1].

وهو ما قد نظمه ابن القيم في «النونية» فقال :

وهو القويُّ له القوة جَمعًا تعـ ـالى رب ذي الأكوانِ والأزْمَانِ

ثم قال :

وهو العـزيزُ فلن يُـرامَ جَنَـابُه أنَّى يُرام جَـنَابُ ذِي السُّلطانِ

وهو العزيزُ القَاهِرُ الغَلابُ لم يَـغلـبه شـيءٌ هـذه صِـفَتـانِ

وهو العزيزُ بقوةٍ هـي وَصْفُـهُ فـالعِـزُّ حيـنئذٍ ثـلاثُ مَـعَانِ

وهي التي كَمُلَتْ له سبحـانه من كلٍّ وجهٍ عادم النقصان[2]

* أما معنى (المتين) :

فقد قال الفراء : قرأ يحيى بن وَثاب (المتين) بالخفض ، جعله من نعت القوة ، وإن كانت أنثى في اللفظ ، فإنه ذهب إلى الحبل وإلى الشيء المفتول ، أنشدني بعض العرب :

لكل دهرٍ قد لبست أثوبًا من ريطةٍ واليُمنَةَ المعصَّبا

فجعل المعصَّب نعتًا لليُمنة وهي مؤنثة في اللفظ ، لأن اليمنة ضرب وصنف من الثياب : الوشي، فذهب إليه .

وقرأ الناس (المتين) رفعٌ من صفة الله تبارك وتعالى[3] .

وقال ابن جرير بعد أن ذكر قول الفراء :

والصواب من القراءة في ذلك عندنا ﴿ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ رفعًا على أنه

---

(١) «تيسير الكريم» (٥/ ٣٠٠ ـ ٣٠١) .

(٢) «النونية» (٢/ ٢١٨) .

(٣) «معاني القرآن» (٣/ ٩٠) .

من صفةِ الله جل ثناؤه ، لإِجماع الحجة من القُرَّاء عليه ، وأنه لو كان من نعتَ القوة لكان التأنيث به أولى ، وإنْ كان للتذكير وجه[1] .

وقال ابن قتيبة : (المتين) : الشديد القوي[2] .

وقال الزجاج : أصله فعيلٌ من المتن الذي هو العُضو ، ويقال : مَاتَنتُه على ذلك الأمر ، إذا : قاويته مُقاواةً .

وهو يفيد في حق الله سبحانه : التناهي في القوة والقدرة[3] .

وقال الخطابي : و(المتين) : الشديد القويُّ الذي لا تنقطع قوته ، ولا تَلحقه في أفعاله مشقةٌ ، ولا يمسُّه لُغُوب[4] .

وفي «المقصد» : القوة تدل على القدرة التامة .

والمتانة تدل على شدة القوة لله تعالى .

فمن حيث إنه بالغ القدرة تامها : (قوي) ، ومن حيث إنه شديد القوة : (متين)، وذلك يرجع إلى معاني القُدرة ، وسيأتي ذلك[5].

*** من آثار الإِيمان بهذين الاسمين :**

١- أنَّ القوة لله تعالى جميعًا ، وحده لا شريك له ، فلا رادَّ لقضاءه، ولا مُعقب لحكمه ، ولا غالب لأمره ، يعز من يشاء ويذل من يشاء ، ينصر من يشاء ، ويخذل من يشاء ، فالعزيز من أعزَّه الله ،

---

(١) «جامع البيان» (٢٧/ ٨ ـ ٩) ، وانظر «تفسير القرطبي» (١٧/ ٥٦ ـ ٥٧) .

(٢) «غريب الحديث» (ص٤٢) .

(٣) «تفسير الأسماء» (ص٥٥) .

(٤) «شأن الدعاء» (ص٧٧) .

(٥) «المقصد الأسنى» (ص ٨١ ـ ٨٢) .

والذليل من أذلَّه ، والمنصور من نصره ، والمخذول من خذله ، فسبحان الملك القوي العزيز ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى .

٢- تَمَدَّحَ سبحانه بأنه هو الناصر لرسله صلوات الله عليهم أجمعين المعز لحزبه الموحدين ، لأنهم نصروا دينه بقلوبهم وأقوالهم وأفعالهم فاستحقوا نصر ربهم ووعده الصادق إذ يقول : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠].

ويقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴾ [الصافات: ١٧١، ١٧٢].

ويقول تعالى : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: ٢١].

وانظر مثالاً على ذلك : نصر الله سبحانه لرسوله ﷺ ولأصحابه في «غزوة الأحزاب» ، التي اجتمع فيها أهل الكفر من جهات شتى لحرب المؤمنين المستضعفين في المدينة ، فنصر الله عباده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده بقوته لا شريك له ، وما كانت قوتهم لتغني عنهم شيئًا ، لولا تأييد الله تعالى لهم ، ورده الكفار لم ينالوا خيرًا ، قال تعالى مُمتنًا على عباده بذلك : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب: ٩ - ١١] .

إلى أن قال تعالى : ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا

﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥] . فردَّهم الله تعالى خائبين ، وظهر أمر الله وهم كارهون ، فسبحان من له القوة والجبروت .

٣- كثيرًا ما ينسى الإنسان نفسه وضعفه وحاجته ويُبارز ربَّه العَدَاء ، ويشرك به ما ليس له به علم ، ويُظَاهِر عليه ، ويفسد في الأرض ويتكبر فيها بغير الحق ، وخصوصًا إذا حَبَاه الله تعالى بالنعمة والملك والجاه والمال والولد .

وقد حكى الله تعالى لنا في كتابه عن أمم عَتَتْ عن أمره ورسله ، فحاسبها حسابًا شديدًا وعذَّبها عذابًا نكرًا .

قال تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٢١) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [غافر: ٢١، ٢٢] .

منهم قوم هود عليه السلام ، الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥] .

فماذا كان عاقبة أمرهم ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٦] .

اغتروا بقوة أبدانهم ، وضخامة أجسادهم ، وعظيم بطشهم في البلاد والعباد ، فلم تغن عنهم من عذاب الله تعالى من شيء : ﴿فَأَصْبَحُوا لَا

يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٥] .

وأمم غيرهم كثير قصَّهم الله سبحانه علينا في كتابه ، جاءهم النذير ، فقابلوه بالنكير ، فأخذهم العزيز القدير ، ومأواهم جهنم وبئس المصير .

٤- لا قوة للعبد على طاعة الله تعالى إلا بقوة الله تعالى وتوفيقه ، ولا حول له على اجتناب المعاصي ودفع شرور النفس إلا بالله تعالى ، وقد نبَّه الشارع ﷺ أمته إلى ذلك بقوله لعبد الله بن قيس : «**يا عبد الله بن قيس ، ألا أُعلِّمُكَ كلمةً هي من كُنُوزِ الجنة : لا حَوْلَ ولا قُوةَ إلا بالله**» (١).

قال النووي : قال العلماء : سبب ذلك أنها كلمة استسلام وتفويض إلى الله تعالى ، واعتراف بالإذْعان له ، وأنه لا صانع غيره ، ولا رادَّ لأمره ، وأن العبد لا يملك شيئًا من الأمر .

ثم قال : قال أهل اللغة : (الحول) الحركة والحيلة ، أي : لا حركة ولا استطاعة ولا حيلة إلا بمشيئة الله تعالى .

وقيل معناه: لا حول في دفع شر، ولا قوة في تحصيل خير إلا بالله.

وقيل : لا حول عن معصية الله إلا بعصمته ، ولا قوة على طاعته إلا بمعونته ، وحكي هذا عن ابن مسعود رضي الله عنه وكله متقارب (٢).

* * *

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (١١/٢١٣ ـ ٢١٤) ، وفي القدر (١١/ ٥٠٠) ، ومسلم بشرح النووي في الذكر (١٧/ ٢٥ ـ ٢٧) .

وقوله «كنز من كنوز الجنة» قال النووي: ومعنى الكنز هنا أنه ثوابٌ مدخر في الجنة ، وهو ثواب نفيس كما أن الكنز أنفس أموالكم .

وقال الحافظ : وحاصله أن المراد أنها من ذخائر الجنة أو من محصلات نفائس الجنة

(٢) «شرح النووي» (١٧/ ٢٦ ـ ٢٧) .

الوَلِيُّ ـ المَوْلَىٰ
جَلَّ جلالُه وتقدَّست أسماؤُه
(٦٤ ـ ٦٥)

*** المعنىٰ اللغوي :**

الوَلْيُ : القُرْبُ والدنو ، يقال : تباعد بعد وَلْيٍ .

«وكل مما يَليك» أي : مما يقاربك .

والوَليُّ : ضد العدو ، والموالاة ضد المعاداة ، يقال فيه : تولاّه .

والمَوْلَىٰ : المُعتِقُ والمُعتَقُ ، وابن العم ، والناصر ، والجار ، والصديق ، والتابع ، والمحب ، والحليف ، والشريك ، وابن الأخت.

والولي : المولىٰ .

والوَلي : الصِهر ، وكل من وَلِيَ أمر أحد فهو وَليُّه .

وولاّه الأمير عمل كذا، وولاه بيع الشيء، وتولىٰ العمل : أي تقلَّد.

وتولَّىٰ عنه : أي أعرض ، وولىٰ هاربًا : أي أدبر .

والولاية بالكسر : السلطان ، والوَلاية والوِلاية : النُّصرة [١].

وقال الزجاجي : «الولي» في كلام العرب علىٰ ضروب عشرة ، مخرجها كلها من قولهم : هذا الشيء يلي هذا الشيء ، وأوليت الشيء الشيء : إذا جعلته يليه لا حاجز بينهما [٢].

---

(١) «الصحاح» (٦/٢٥٢٨ ـ ٢٥٣١) ، «اللسان» (٦/ ٤٩٢٠ ـ ٤٩٢٦) مادة (ولي) .

(٢) «اشتقاق الأسماء» (ص ١١٣) .

* ورود الاسمين في القرآن الكريم :

ورد اسمه «الولي» في آيات كثيرة ، منها :

قوله تعالى : ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] .

وقوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٤٥] .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة: ٥٥] .

وقوله تعالى : ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٧] .

وقوله تعالى : ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦] .

وقوله تعالى : ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١] .

وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨] .

* وأما اسمه (المولى) فقد ورد اثنتي عشرة مرة ، منها :

قوله تعالى : ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦] .

وقوله تعالى : ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٠] .

وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ

﴿الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢] .

وقوله تعالىٰ : ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الأنفال: ٤٠] .

وقوله تعالىٰ : ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨] .

وقوله تعالىٰ : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ١١] .

* معنىٰ الاسمين في حق الله تعالىٰ :

* أما (الولي) :

فقال ابن جرير في قوله تعالىٰ : ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ : نصيرهم وظهيرهم ، يتولاَّهم بعونه وتوفيقه ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ يعني بذلك : يُخرجهم من ظلمات الكفر إلىٰ نور الإيمان [١].

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا﴾ : وكفاكم وحسبكم بالله ربكم وليًا يليكم ويلي أموركم بالحيَاطة لكم ، والحراسة من أن يَستفزَّكم أعداؤكم عن دينكم ، أو يصدوكم عن اتباع نبيكم [٢].

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ : يقول تعالىٰ ذكره لنبيه محمد ﷺ قل يا محمد للمشركين من عبدة الأوثان : إنَّ وليي ونصيري ومعيني وظهيري عليكم الله الذي نزل الكتاب عليَّ بالحق، وهو يتولىٰ من صلح عمله بطاعته من خلقه [٣].

---

(١) «جامع البيان» (٣/ ١٥) .

(٢) المصدر السابق (٥/ ٧٥) .

(٣) المصدر السابق (٩/ ١٠٣) .

وقال الزجاج : «الولي» هو فعيلٌ ، من الموالاة ، والولي : الناصر وقال الله تعالى : ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] . وهو تعالى وليُّهم بأن يتولى نصرهم وإرشادهم ، كما يَتَولى ذلك من الصبي وليُّه ، وهو يتولى يوم الحساب ثوابهم وجزاءهم(١) .

وذكر الخطابي نحو كلام الزجاج ، وزاد : والولي أيضًا المتولِّي للأمر والقائم به ، كولي اليتيم ، وولي المرأة في عقد النكاح عليها ، وأصله من الوَلْي ، وهو القُرْبُ(٢) .

وقال الحليمي : (الولي) وهو الوالي ، ومعناه : مالك التدبير ، ولهذا يقال للقيِّم على اليتيم : ولي اليتيم ، وللأمير : الوالي(٣) .

وقال في «المقصد» : (الولي) هو : المحب الناصر(٤) .

*** وأما (المولى):**

فقال ابن جرير في قوله تعالى : ﴿أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أنت وليُّنا بنصرك ، دون من عاداك وكَفَرَ بك ، لأنا مؤمنون بك ومطيعون فيما أمرتنا ونهيتنا ، فأنت وليٌّ من أطاعك وعَدُوٌّ من كفر بك فعصاك ، فانصرنا لأنَّا حزبك ، على القوم الكافرين الذين جحدوا وحدانيتك وعبدوا الآلهة والأنداد دونك ، وأطاعوا في معصيتك الشيطان.

والمولى في هذا الموضع المفعل ، من ولي فلان أمر فلان فهو يليه

---

(١) «تفسير الأسماء» (ص٥٥) .

(٢) «شأن الدعاء» (ص٧٨) .

(٣) «المنهاج» (١/ ٢٠٤) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه ، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص٦٧) ، وانظر «الاعتقاد» (ص٦٢) .

(٤) «المقصد الأسنى» (ص٨٢) .

ولايةً وهو وليه ومولاه ، وإنما صارت الياء من ولي ألفًا لانفتاح اللام قبلها التي هي عين الاسم [1].

وقال الخطابي : و«المولى» الناصر والمعين ، وكذلك النصير : فعيلٌ بمعنى فاعل ، كما تقول : قديرٌ وقادر ، وعليم وعالم .

كقوله تعالى : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ [الحج : ٧٨] [2].

وقال الحليمي في معناه : أنه المأمول في النصر والمعونة ، لأنه هو المالك ، ولا مفزع للمملوك إلا مالكه [3].

*** من آثار الإيمان بهذين الاسمين :**

١- أنَّ الله جل جلاله ولي الذين آمنوا ، أي نصيرهم وظهيرهم ينصرهم على عدوهم ، وكفى به وليًا ونصيرًا ، فهو السميع لدعائهم وذكرهم ، القريب منهم ، يعتزون به ويستنصرونه في قتالهم .

جاء في حديث البراء رضي الله عنه في «غزوة أحد» أن أبا سفيان قال بعد أن أصيب المسلمون : أفي القوم محمد؟ فقال : (أي النبي ﷺ) : «**لا تجيبوه**» ، فقال : أفي القوم ابن أبي قحافة؟ قال : «**لا تجيبوه**» ، فقال : أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال : إن هؤلاء قتلوا ، فلو كانوا أحياء لأجابوا فلم يملك عمر نفسه فقال : كذبت عدو الله ، أبقى الله عليك ما يخزيك قال أبو سفيان : أعْلُ هُبَل ، فقال النبي ﷺ : «**أجيبوه**» ، قالوا : ما

---

(١) «جامع البيان» (٣/١٠٦) .

(٢) «شأن الدعاء» (ص ١٠١) .

(٣) «الكتاب الأسنى» (ورقة ٣٣٥أ) ولم أجده في «المنهاج» ، ونقله عنه البيهقي في «الأسماء» (ص ٦٨) بعد أن ذكر (الولي) .

نقول ؟ قال : قولوا : الله أعلىٰ وأجلُّ ، قال أبو سفيان : لنا العزّىٰ ولا عُزىٰ لكم ؟ فقال النبي ﷺ : «أجيبوه» ، قالوا : ما نقول ؟ قال قولوا: «الله مولانا ولا مولىٰ لكم ...» [1].

وفي هذه الغزوة تنبيهٌ للمسلمين ، وتحذير لهم ولمن بعدهم، وعبرة لمن يعتبر علىٰ مر العصور ، أنه بقدر ما يوافق المسلم كتاب ربه وسنة نبيه قولاً وعملاً واعتقادًا ، تكون له النُّصرة والمعونة من الله جل شأنه ، وما حصلت تلك الهزيمة في أحد إلا بسبب معصية الرماة ومخالفتهم لأمر نبيهم ﷺ بترك أماكنهم علىٰ الجبل ، بعد أن رأوا بشائر النصر وهرعوا إلىٰ الغنيمة .

قال ابن القيم رحمه الله : والمقصود أنه بحسب متابعة الرسول تكُون العزَّة والكفاية والنُّصرة ، كما أنه بحسب متابعته تكونُ الهدايةُ والفلاح والنجاة ، فالله سبحانه علَّق سعادة الدارين بمتابعته ، وجعل شَقاوة الدارين في مخالفته ، فلأتباعه الهدىٰ والأمن ، والفلاحُ والعزَّة ، والكفاية والنصرة ، والولاية والتأييد ، وطيبُ العيش في الدنيا والآخرة ، ولمخالفيه الذِّلَّة والصَّغَار ، والخوفُ والضلال ، والخِذلان والشقاءُ في الدنيا والآخرة [2].

٢- الله عز وجل وليُّ المؤمنين بإنعامه عليهم ، وإحسانه إليهم ، وتوليه سائر مصالحهم ، فهو وليُّ نعمتهم .

فهل يصح هذا المعنىٰ في الكفار ؟.

قال الزجاجي : فإن قال قائل : فقد أنعم الله عز وجل علىٰ الكافرين

(١) رواه البخاري (٧/٣٤٩ ـ ٣٥٠) .

(٢) «زاد المعاد» (١/٣٧) .

كما أنعم على المؤمنين ، أفيجوز أن تقول : ولي الكافرين ؟

قيل له : لم نقل إنه لا معنى للولي إلا هذا ، بل قلنا : إن هذا أحد وجوه الولي ، ومع ذلك فإن الله عز وجلّ اسْمه لما أنعم على المؤمنين فقابلوا إنعامه بالشكر والإِقرار والطاعة والتوحيد ، جاز أن يقال الله ولي الذين آمنوا بإنعامه عليهم وقبولهم وشكرهم .

وإن كان قد أنعم على الكفار فلا يقال : هو وليهم لجحودهم ذلك وتركهم الإِقرار ، كما قال عز وجل لنبيه ﷺ : ﴿**إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا**﴾ [النازعات: ٤٥] وقد أنذر من لم يخش أيضًا ولكن لما ينتفع بإنذاره غير من خشي قيل : « أنت منذرُ منَ يَخْشَها » ولم يقل أنت منذر من لم يخش إذ لم ينتفع بذلك الإِنذار .

ومع ذلك فلما كان (الوليٌّ) قد يكون بمعنى الناصر والموالي والمثني وغير ذلك ، لم يجز أن يقال : الله ولي الكافرين ، فيسبق إلى ظن السامع أنه يراد به أهل تلك الأوجه ، إذ كانت أشهر وأعرف وأكثر استعمالاً ، ومنع من إطلاق ذلك للكفار التنزيل ، لأنه قال عز وجل : ﴿**اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ**﴾ [البقرة: ٢٥٧] (١).

وهذا كلام متين .

وقد تعرض لهذه المسألة العلامة المحقق ابن قيم الجوزية في كتابه المفيد «بدائع الفوائد» فقال : وأما المسألة الثامنة : وهي أنه خص أهل السعادة بالهداية دون غيرهم ، فهذه مسألةٌ اختلف الناس فيها ، وطال الحجاج من الطرفين وهي أنه هل لله على الكافر نعمة أم لا؟

فمن ناف محتج بهذه - يعني قوله تعالى : ﴿**صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ**

---

(١) «اشتقاق الأسماء» (ص١١٤) ، وانظر كذلك «الكتاب الأسنى» (ورقة ١٣٣٤ ـ ب).

عَلَيْهِمْ﴾ - وبقولـه تعالـى : ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] فخصَّ هؤلاء بالإنعام ، فدلَّ على أن غيرهم غير منعم عليه ، ولقوله لعباده المؤمنين : ﴿وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٠] وبأن الإنعام ينافي الانتقام والعقوبة ، فأي نعمة على من خُلق للعذاب الأبدي.

ومن مُثبتٍ محتجٌّ بقوله : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤] وقوله لليهود : ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] وهذا خطاب لهم في حال كفرهم ، وبقوله في سورة النحل التي عَدَّد فيها نعمه المشتركة على عباده من أولها إلى قوله ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١) فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [النحل: ٨١ - ٨٣].

وهذا نصٌّ صريح لا يحتمل صرفًا ، واحتجوا بأن البر والفاجر والمؤمن والكافر كلهم يعيش في نعمته ، وهذا معلوم بالاضطرار عند جميع أصناف بني آدم ، إلا من كابر وجحد حقَّ الله تعالى وكفر بنعمته .

وفصلُ الخطاب في المسألة :

أن النعمة المطلقة مختصةٌ بأهل الإيمان لا يشركهم فيها سواهم ، ومطلق النعمة عامة للخليقة كلهم برهم وفاجرهم مؤمنهم وكافرهم ، فالنعمة المطلقة التامة هي المتصلة بسعادة الأبد وبالنعيم المقيم فهذه غير مشتركة .

ومطلق النعمة عام مشترك .

فإذا أراد النافي سلب النعمة المطلقة أصاب ، وإنْ أراد سلب مطلق

النعمة أخطأ ، وإنْ أراد المثبت إثبات النعمة المطلقة للكافر أخطأ ، وإن أراد إثبات مطلق النعمة أصاب .

وبهذا تتفق الأدلة ويزول النزاع ، ويتبين أن كل واحد من الفريقين معه خطأ وصواب ، والله الموفق للصواب[1] .

٣- ولا ينافي ما سبق أن نقول بأن الله جل شأنه مولى الخلق أجمعين بمعنى أنه سيدهم ومالكهم وخالقهم ومعبودهم ، كما قال تعالى في كتابه العزيز ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢] .

قال ابن جرير رحمه الله : يقول تعالى ذكره : ثم ردَّت الملائكة الذين توفوهم فقبضوا نفوسهم وأرواحهم إلى الله سيدهم الحق ﴿أَلا لَهُ الْحُكْمُ﴾ يقول: ألا له الحكم والقضاء دون من سواه من جميع خلقه : ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾[2] .

وقال الشنقيطي رحمه الله : قوله تعالى : ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ﴾ هذه الآية الكريمة تدل على أن الله مولى الكافرين ، ونظيرها قوله تعالى : ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٣٠] .

وقد جاء في آية أخرى ما يدل على خلاف ذلك ، وهي قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ١١].

---

(١) «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٢ ـ ٢٣) ، وقد سبق بيان شيء من هذه المسألة في الجزء الثاني من كتابنا (ص٥٠) ولم نذكر فيه هذا البحث النفيس للإمام ابن القيم ، وفيه إضافة لما سبق وتتميم ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

(٢) «جامع البيان» (٧/ ١٤٠) .

والجـواب عـن هـذا: أن معنى كونـه مـولى الكافـرين أنـه مالكهم المتصـرف فيهم بمـا شاء ، ومعنى كونــه مـولى المؤمنيـن دون الكافرين ، أي: ولاية المحبة والتوفيق والنصر ، والعلم عند الله تعالى .

وأما على قول من قال : إن الضمير في قوله ﴿رُدُّوا﴾ وقوله : ﴿مَوْلاهُمُ﴾ عائد إلى الملائكة فلا إشكال في الآية أصلاً ، ولكن الأول أظهر[1] .

٤- والله تعالى هو المحب لأوليائه من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين : ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٧] أي : هو وليُّهم بسبب أعمالهم الصالحة التي قدموها وتقربوا بها إلى ربهم[2] .

٥- يصح إطلاق هذين الاسمين على العباد ، نطق به التنزيل ، كما في قوله تعالى : ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤] .

وقـال تعـالى : ﴿وَالْمُؤْمِنُـونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١] .

وقـال تعـالى : ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ﴾ [النساء: ٣٣] .

٦- وأولياء الله تعالى هم محبُّوه وناصرو دينه ، قال تعالى : ﴿أَلا إِنَّ

---

(١) «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» (ص ١١٦) للعلامة محمـد الأمين الشنقيطي رحمه الله تعالى.

(٢) وانظر تفصيل ذلك في آثار الإيمان بـ (الودود) الجزء الأول (ص٤٢٢) .

أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤] .

ومن صفة الولي من عباد الله : أنه يحب الله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ ، ويحب من يحب الله ورسوله ، ويبغض من يبغض الله ورسوله ، ويُوالي من والى الله ورسوله ، ويعادي من يعادي الله ورسوله ، يعمل بطاعة الله عز وجل وينتهي عن معصيته .

ولا تنال الولاية إلا بالإيمان الصادق ، والعلم الراسخ ، والعمل المتواصل الثابت ، والاهتداء بهدي الكتاب والسنة وعمل السلف الصالح من هذه الأمة .

فولاية الله تعالى إذن كَسْبيةٌ ، لها أسبابها وأعمالها القلبية والبدنية ، وليست وَهْبيةً لا سبب لها ولا عمل ، كما يتفوّه به جهال المتصوفة وزنادقتهم ، فنسبوا الولاية للمجانين والفسقة والظلمة والزنادقة من أهل وحدة الوجود والاتحاد ، بمجرد حصول بعض الخوارق والشعوذات الشيطانية على أيدي هؤلاء ، كالدخول في النيران ، وحمل الأفاعي ، وضرب بعضهم البعض بالسيوف والخناجر ، وغيرها من أفعال السحرة الفجرة [١].

فهذه هي ولايتهم البدعية ، أما الولاية السنية فطريقها لزوم الكتاب والسنة والعمل بها ، واتباع سبيل المؤمنين ، الأتقياء الأنقياء ، البررة

---

(١) انظر في تفصيل هذا الموضوع كتاب «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» لشيخ الإسلام ابن تيمية الدمشقي .

الكرام قال تعالى موصيًا نبيه الكريم ﷺ : ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٨، ١٩].

* * *

الحَميدُ
جَلَّ جلالُه وتقدَّست أسماؤُه
(٦٦)

*** المعنىٰ اللغوي :**

الحَمْدُ نقيض الذمِّ ، تقول : حَمِدت الرجل أحمدُه حمدًا ومَحمدةً ، فهو حميد ومحمود .

والتحميد أبلغ من الحمد ، والحمد أعمُّ من الشكر .

والمحمَّدُ : الذي كثرت خصاله المحمودة [(١)].

والحمد والشُّكر متقاربان ، والحمد أَعمهما ، لأنك تحمد الإِنسان علىٰ صفاته الذَّاتية وعلىٰ عطائه ، ولا تشكره علىٰ صفاته[(٢)] .

والتَّحميد : حَمْدُكَ الله عز وجل مرةً بعد مرة .

وقال الأزهري : التحميد كثرةُ حمد الله سبحانه بالمحامد الحسنة ، والتحميد أبلغ من الحمد[(٣)] .

*** وروده في القرآن الكريم :**

ورد هذا الاسم سبع عشرة مرة ، منها :

---

(١) «الصحاح» (٢/ ٤٦٦ ـ ٤٦٧) و«اللسان» (٢/ ٩٨٧) مادة (حمد).

(٢) سبق بيان الفرق بين الحمد والشكر في الجزء الأول من هذا الكتاب (ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣) ، وقد تعرض لبيان الفرق ابن تيمية رحمه الله ، كما في «مختصر الفتاوىٰ المصرية» (ص٧٨) ، ويأتي كلام له أيضًا في آثار الإيمان بهذا الاسم .

(٣) «اللسان» (٢/ ٩٨٨) .

قوله تعالى : ﴿وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧] .

وقوله تعالى : ﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣] .

وقوله تعالى : ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨] .

وقوله تعالى : ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ [الحج: ٢٤] .

وقوله تعالى : ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ١٢] .

وقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] .

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢] .

وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨] .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨] .

*** معنى الاسم في حق الله تعالى :**

قال أبو عبيدة : (حميد مجيد) أي : محمود ماجد [١].

---

(١) «مجاز القرآن» (١/ ٢٩٣) .

قال ابن جرير في قوله تعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ : ويعني بقوله (حميد) : أنه محمود عند خلقه بما أولاهم من نِعَمِهِ ، وبَسَط لهم من فضله [١].

وقال في قوله تعالى : ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النساء: ١٣١] : و(الحميد) : الذي استَوْجَب عليكم أيها الخلق الحمد بصَنَائِعِه الحميدة إليكم ، وآلائه الجميلة لديكم ، فاستديموا ذلك أيها الناس باتقائه ، والمسارعة إلى طاعته فيما يأمركم به وينهاكم عنه [٢].

وقال الزجاج : (الحميد) هو فعيلٌ في معنى مفعولٍ، والله تعالى هو المحمودُ بكلِّ لسان ، وعلى كل حَال ، كما يقال في الدعاء : الحمد الله الذي لا يُحمدُ على الأحوالِ كلِّها سواه [٣].

وقال الخطابي : (الحميد) هو المحمودُ الذي استحق الحمد بفعاله ، وهو فعيل بمعنى مفعول ، وهو الذي يُحمدُ في السراء والضَّرَّاء ، وفي الشدة والرخاء ، لأنه حكيمٌ لا يجري في أفعاله الغلط ، ولا يعترضُهُ الخطأ ، فهو محمودٌ على كل حال [٤].

وقال الحليمي : (الحميد) هو المستحقٌّ لأن يحمد ، لأنَّه جل ثناؤه بَدَأَ فأَوْجَد ، ثم جمع بين النعمتيــن الجليلتين : الحياة والعقــل، ووَالى بين[٥] مِنَحِهِ ، وتابعَ آلاءَهُ ومننَه ، حتى فاتَت العدَّ ، وإن استُفْرِغ فيها الجهد فَمن ذا الذي يستحق الحمد سواه ؟ بل له الحمد كله لا لغيره ،

---

(١) «جامع البيان» (٣/٥٨) .

(٢) المصدر السابق (٥/٢٠٥) .

(٣) «تفسير الأسماء» (ص ٥٥) .

(٤) «شأن الدعاء» (ص٧٨) .

(٥) في «الأسماء» للبيهقي (ص٥٩) : بعد منحه ، وكذا في «الكتاب الأسنى» (ورقة ٢٩٤ب).

كما أنَّ المنَّ منه لا من غيره [1].

وقال البيهقي : هو المحمود الذي يستحق الحمد ، وقيل : من له صفات المدح والكمال .

وهذه صفةٌ يستحقها بذاته [2].

وقال ابن كثير : وهو (الحميـد) أي : المحمود في جميع أفعاله وأقواله ، وشرعه وقدره ، لا إله إلا هو ولا رب سواه [3].

وقال السعدي : (الحميد) في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله ، فله من الأسماء أحسنها ، ومن الصفات أكملها وأحسنها، فإن أفعاله تعالى دائرة بين الفضل والعدل[4].

وقال ابن القيم في النونية :

وهو الحميدُ فكلُّ حمدٍ واقعٍ أو كان مَفْرُوضًا مَدَىٰ الأزمانِ
مَلأَ الوُجُودَ جَميعه ونَظيره من غير ما عَدٍّ ولا حُسْبَانِ
هو أهلُهُ سُبحانه وبحمدهِ كلُّ المَحَامِدِ وَصْفُ ذِي الإِحْسَانِ[5]

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١- الإيمان بأنَّ الله جل ثناؤه هو المستحق للحمد على الإطلاق ، كما قال سبحانه عن نفسه ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الفاتحة: ٢] ، والألف

---

(١) «المنهاج» (١/ ٢٠٢) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه ، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٥٩ ـ ٦٠) .

(٢) «الاعتقاد» (ص٦٢) ، وانظر «المقصد الأسنى» (ص٨٢) .

(٣) تفسيره (١/ ٣٢١) .

(٤) «تيسير الكريم الرحمن» (٥/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠) .

(٥) «النونية» (٢/ ٢١٥) .

واللام في (الحمد) للاستغراق ، أي هو الذي له جميع المحامد بأسرها ، وليس ذلك لأحد إلا لله تعالى ، ولا نحصي ثناءً عليه ، هو كما أثنى على نفسه، فهو الحميد في ذاته وصفاته وفي أسمائه وفي أفعاله، فله الحمد على كل حال ، في كل زمان ومكان ، في الشدة والرخاء ، والعسر واليسر ، وفيما نحب ونكره ، كيف لا ! وهو العليم الحكيم ، الفعَّال لما يريد ، المختار لما يشاء ، فمهما يقضي ويقدِّر فهو الموافق للحكمة البالغة ، والعلم التام .

وكان ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الركوع : **«اللهم ربَّنا لك الحمدُ ملءَ السماوات وملء الأرض وما بينهما ، وملء ما شئت من شيء بعد ، أَهل الثَّناء والمَجْد ، لا مانعَ لما أعطيت ، ولا مُعطي لما منعت ولا ينفع ذا الجدِّ منك الجدُّ»** (١).

وكان ﷺ يقول إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل : **«اللهم لك الحمدُ أنتَ نُور السماوات والأرض ، ولك الحمد أنت قيَّام السماوات والأرض ولك الحمدُ أنت ربُّ السماوات والأرض ومن فيهن ، أنت الحق ووعدك الحق .. »** (٢).

وكان مرة يصلي بأصحابه فرفع رأسه من الركوع فقال : **«سمع الله لمن حمده»** فقال رجل وراءه : ربنا ولك الحمدُ حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه ، فلما انصرف قال : من المتكلم ؟ قال رجل : أنا ، فقال ﷺ : **«رأيتُ بضعةً وثلاثين مَلَكًا يَبْتَدِرُونها أيُّهم**

---

(١) رواه مسلم (١/٣٤٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، ورواه أيضًا من حديث ابن أبي أوفى وأبي سعيد الخدري .

(٢) سبق تخريجه (ص ٤٤٠) .

يَكْتُبها أوَّل» [1].

وكان ﷺ يسبِّح الله تعالى في أدبارِ الصلَوات ثلاثًا وثلاثين ويحمده ثلاثًا وثلاثين . . الذكر المشهور .

وقال ﷺ مُبيِّنًا عِظم حَمْدِ الله تبارك وتعالى : «**الطهُور شطرُ الإيمان والحمدُ لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن (أو تملأ) ما بين السماوات والأرض . .**» [2].

وقال : «**أحب الكـلام إلى الله أربعٌ : سبُـحانَ الله والحمدُ لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، لا يَضرُّكَ بأيِّهن بدأت . .**»[3] .

وعن مطرِّف بن عبدالله بن الشخير قال : قال لي عمران بن حصين : إني لأحدثك بالحديث اليوم ، لينفعَك الله عز وجل به بعد اليوم ، اعلم أنَّ خيرَ عباد الله تبارك وتعالى يوم القيامة الحمَّادُون . .[4]

وهذا له حكم الرفع ، فهو مما لا يقال بالرأي [5].

---

(١) أخرجه البخاري (٢/ ٢٨٤) من حديث رفاعة بن رافع الزرقي رضي الله عنه .

(٢) أخرجه مسلم (١/ ٢٠٣) من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه .

(٣) أخرجه مسلم (٣/ ١٦٨٥) من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤/ ٤٣٤) حدثنا إسماعيل أنا الجريري عن أبي العلاء بن الشخير عن مطرف به ، وتمامه : «**واعلم أنَّه لن تزال طائفةٌ من أهل الإسلام يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم حتى يقاتلوا الدجال ، واعلم أن رسول الله ﷺ قد أعمر من أهله في العشر فلم تنزل آية تنسخ ذلك ، ولم ينه عنه رسول الله ﷺ حتى مضى لوجهه ، ارتأى كل امرئ بعد ما شاء الله أن يرتئي**».

وسنده صحيح ، مطرف هو ابن عبد الله بن الشخير ، وأبو العلاء هو يزيد بن عبد الله ، وهما أخوان ثقتان ، وإسماعيل هو ابن علية وهو ممن روى عن الجريري قبل الاختلاط .

(٥) قال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٩٥) بعد أن ذكر الحديث : رواه أحمد موقوفًا وهو شبه=

وقال ﷺ في فضل الحمد على النعم : «**ما أنعمَ الله على عبدٍ نعمةً فقال : الحمدُ لله ، إلا كان الذي أعطاهُ أفضلَ مما أخذَ**»[1].

أي كان إلهامُ الله له من الحمد والشكر ، أفضل مما أخَذَ من النعمة.

وأخبر ﷺ أن حمدَ الله تعالى من أسباب رضاه عن العبد ، وذلك في قوله : «**إن الله ليرضى عن العبد أنْ يأكلَ الأكْلَةَ فيَحمَده عليها ، أو يشرب الشَّرْبَةَ فيحمده عليها**»[2].

٢- وقد اقترن هذا الاسم في الكتاب ببعض الأسماء الحسنى كقوله تعالى : ﴿**أن الله غني حميد**﴾ وقوله : ﴿**إنه حميد مجيد**﴾ وقوله : ﴿**الولي الحميد**﴾ وقوله : ﴿**العزيز الحميد**﴾ ، ويفيد ذلك قدرًا زائدًا على مفرديهما.

ففي الآية الأولى : له الحمد على غناه وجميل نعمه.

وفي الثانية : له الحمد على مَجْده وعظمته وكبريائه.

وفي الثالثة : له الحمد على تولِّيه المؤمنين بنصرته ورعايته لهم ،

= المرفوع ، ورجاله رجال الصحيح.

(١) حديث حسن.

أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٢٥٠) واللفظ له ، وابو بكر بن السني في «عمل اليوم والليلة» برقم (٣٥٨) عن أبي عاصم الضحاك بن مخلد عن شبيب بن بشر عن أنس مرفوعًا به.

وسنده حسن ، شبيب بن بشر وثقه ابن معين ولينه أبو حاتم ، وقال الحافظ في «التقريب» : صدوق يخطئ.

وله شاهد ، يرويه الطبراني في «الكبير» (٨/ ١٩٣/ ٧٧٩٤) عن سويد بن عبد العزيز عن ثابت بن عجلان عن القاسم عن أبي أمامة مرفوعًا بنحوه.

وفيه سويد بن عبد العزيز ، ضعيف ، وبذلك أعلَّه الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٩٥).

(٢) رواه مسلم (٤/ ٢٠٩٥).

ونعمته عليهم ، ومحبته لهم .

وفي الرابعة : له الحمد على عِزّته وغلبته ، وعلى إعزازه لأوليائه ، ونصره لحزبه وجنده .

وفي هذه يقول العلامة أبو عبد الله ابن قيم الجوزية في بيانه لصفات الرب : صِفةٌ تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر ، وذلك قدر زائد على مفرديهما ، نحو (الغني الحميد) (العفو القدير) (الحميد المجيد) ، وهكذا عامة الصفات المُقْترنة ، والأسماء المزدوجة في القرآن.

فإن الغنى صفة كمال والحمد كذلك ، واجتماع الغنى مع الحمد كمال آخر ، فله ثناء من غناه ، وثناء من حمده ، وثناء من اجتماعهما ، وكذلك (العفو القدير) و(الحميد المجيد) و(العزيز الحكيم) فتأمله ! فإنه من أشرْف المعارف [1].

وعن معنى الاسمين (الحميد ـ المجيد) وسر اقترانهما في الكتاب يقول : أما الحميد فلم يأت إلا بمعنى المحمود ، وهو أبلغ من المحمود فإن «فعيلاً» إذا عدل به عن مفعول دلَّ على أن تلك الصفة قد صارت مثل السَّجِيَّة الغريزية والخُلُق اللازم ، كما إذا قلت : فلانٌ طريف أو شريف أو كريم ، ولهذا يكون هذا البناء غالبًا من فعل بوزن «شَرُفَ» وهذا البناء من أبنية الغرائز والسجايا اللازمة ككَبُرَ وصَغُرَ وحَسُنَ ولَطُفَ ونحو ذلك .

ولهذا كان (حبيب) أبلغ من (محبوب)، لأنَّ الحبيب هو الذي حصلت فيه الصفات والأفعال التي يُحَبُّ لأجلها ، فهو حبيب في نفسه ، وإن قُدِّرَ

(١) «بدائع الفوائد» (١/ ١٦١) .

أن غيره لا يُحبه لعدم شعوره به أو لمانع منعه من حبه ، وأما المحبوب فهو الذي تَعلَّق به حب المحب فصار محبوبًا بحب الغير له ، وأما الحبيب فهو حبيب بذاته وصفاته تعلق به حب الغير أو لم يتعلق ، وهكذا الحميد والمحمود .

فالحميد الذي له من الصفات وأسباب الحمد ما يقتضي أن يكون محمودًا ، وإن لم يحمده غيره فهو حميد في نفسه ، والمحمود من تعلَّق به حَمْدُ الحامدين ، وهكذا المجيد والمُمَجَّد ، والكبير والمُكبَّر والعظيم والمُعَظَّم .

والحمد والمجد إليهما يرجع الكمال كله ، فإن الحمد يستلزم الثناء والمحبة للمحمود ، فمن أحببته ولم تُثْن عليه لم تكن حامدًا له وكذا من أثنيت عليه لغرضٍ ما ولم تُحبه لم تكن حامدًا له حتى تكونُ مثنيًا عليه محبًا ، وهذا الثناء والحب تَبَعٌ للأسباب المقتضية له ، وهو ما عليه المحمود من صفات الكمال ونعوت الجلال والإحسان إلى الغير ، فإن هذه هي أسباب المحبة ، وكلما كانت هذه الصفات أجمع وأكمل ، كان الحمد والحب أتَمَّ وأعظم .

والله سبحانه له الكمالُ المطلق الذي لا نقصَ فيه بوجهٍ ما ، والإحسان كلُّه له ومنه ، فهو أحقُّ بكلِّ حمدٍ وبكل حب من كل جهة ، فهو أهلٌ أنْ يُحَبَّ لذاته ولصفاته ولأفعاله ولأسمائه ولإحسانه ولكل ما صدر منه سبحانه .

وأما المجد فهو مستلزم للعظمة والسَّعَة والجلال ، كما يدل عليه موضوعه في اللغة ، فهو دَالٌّ على صفات العظمة والجلال ، والحمد يدل على صفات الإكرام والله سبحانه ذو الجلال والإكرام ، وهذا معنى

قول العبد : «لا إله إلا الله والله أكبر» ، فلا إله إلا الله دالٌّ على أُلوهيته وتفرده فيها ، فألوهيته تستلزم محبته التامة ، «والله أكبر» دالٌّ على مجده وعظمته وذلك يستلزم تمجيده وتعظيمه وتكبيره .

ولهذا يَقْرِنُ سبحانه بين هذين النوعين في القرآن كثيرًا كقوله : ﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣] وقوله سبحانه : ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١] فأمر بحمده وتكبيره ، وقال تعالى : ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨] وقال : ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧] .

وفي «المسند» و«صحيح أبي حاتم» وغيره من حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال : «**أَلِظُّوا بيا ذا الجلال والإكرام**» يعني الزموها وتعلقوا بها ، فالجلال والإكرام هو الحمد والمجد .

ونظير هذا قوله : ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠] وقوله : ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩] وقوله : ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ٧] وقوله : ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٤، ١٥] وهو كثير في القرآن [1].

٣- كلُّ ما يُحْمَدُ به العباد فهو من الله تبارك وتعالى ، فيرجع إليه سبحانه لأنه الواهب للصفات المحمودة .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : وأيضًا فإن الله سبحانه

---

(١) «جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام» (ص١٨٦ ـ ١٨٧) ، ويأتي تخريج حديث : «**ألظوا بياذا الجلال**..» في الاسم نفسه .

أخبر أنه له الحمد ، وأنه حميد مجيد ، وأن له الحمد في الأولى والآخرة ، وله الحكم ، ونحو ذلك من أنواع المحامد.

والحمد نوعان : حمدٌ على إحسانه إلى عباده ، وهو من الشكر .

وحمدٌ لما يستحقه هو بنفسه من نُعوت كماله ، وهذا الحمد لا يكون إلا لمن (١) هو في نفسه مستحق للحمد ، وإنما يستحق ذلك من هو متصفٌ بصفات الكمال ، وهي أمور وجودية ، فإن الأمور العدمية المحضة لا حمد فيها ، ولا خير ولا كمال .

ومعلوم أن كل ما يحمد فإنما يحمد على ما له من صفات الكمال فكل ما يحمد به الخلق فهو من الخالق ، والذي منه ما يحمد عليه هو أحقُّ بالحمد ، فثبت أنه المستحقُّ للمحامد الكاملة ، وهو أحق من كل محمودٍ بالحمد ، والكمال من كل كامل ، وهو المطلوب (٢) .

* * *

---

(١) في الأصل: لا يكون إلا على ما هو في نفسه... ولعل الصواب ما أثبتناه.

(٢) "مجموع الفتاوي" (٨٣/٦ ، ٨٤).

الحيُّ
جَلَّ جلالُه وتقدَّست أسماؤُه
(٦٧)

*** المعنى اللغوي :**

الحياةُ : ضدُّ الموت ، والحيُّ ، ضد الميت .

وحَيِيَ حياةً ، وحيَّ يحيا ويَحَيُّ فهو حَيٌّ وللجميع حَيُّوا .

وأحياه الله فحيي وحيَّ ، والإدغام أكثر [1].

*** وروده في القرآن الكريم :**

ورد هذا الاسم في خمس آيات من الكتاب العزيز ، وهي :

قوله تعالى : ﴿**اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ**﴾ [البقرة: ٢٥٥] .

وقوله تعالى : ﴿**الٓمٓ ۝١ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ**﴾ [آل عمران: ١، ٢]

وقوله تعالى : ﴿**وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا**﴾ [طه: ١١١] .

وقوله تعالى : ﴿**وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا**﴾ [الفرقان: ٥٨] .

وقوله تعالى : ﴿**هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾ [غافر: ٦٥] .

---

(١) «الصحاح» (٦/٢٣٢٣) (حيا) ، و«اشتقاق الأسماء» (ص١٠٢) و«اللسان» (٢/١٠٧٥ - ١٠٧٦).

* معنى الاسم في حق الله تعالى :

قال الطبري : وأما قوله (الحي) فإنه يعني الذي له الحياة الدائمة ، والبقاء الذي لا أولَ له يُحَدُّ ، ولا آخر له يؤمد[1] إذ كان كل ما سواه فإنه وإنْ كان حيًا فلحياته أولٌ محدود ، وآخر مأمود ، ينقطع بانقطاع أمدها ، وينقضي بانقضاء غايتها [2].

وقال في آية آل عمران: وقال آخرون: معنى ذلك أن له الحياة الدائمة التي لم تزلْ له صفة ولا تزال كذلك ، وقالوا : إنما وَصَفَ نفسه بالحياة لأن له حياةً ، كما وصفها بالعلم لأنَّ لها علمًا ، وبالقدرة لأن لها قدرة .

ومعنى ذلك عندي : أنه وَصَفَ نفسه بالحياة الدائمة التي لا فناء لها ولا انقطاع ، ونفى عنها ما هو حالٌّ بكلِّ ذي حياةٍ من خلقه ، من الفناء وانقطاع الحياة عند مجيء أجله ، فأخبر عباده أنه المستوجب على خلقه العبادة والأُلُوهة .

و(الحيُّ) الذي لا يموت ولا يبيد ، كما يموت كل من اتُّخِذَ من دونه

(١) من الأمد : وهو الغاية ومنتهى الأجل .

(٢) «جامع البيان» (٣/ ٤) .

وقد حكى بعد ذلك الاختلاف في تأويل هذا الاسم وما يدل عليه من الصفة ، فقال :

وقد اختلف أهل البحث في تأويل ذلك فقال بعضهم : إنما سمى الله نفسه «حيًا» لصرفه الأمور مصارفها ، وتقديره الأشياء مقاديرها ، فهو حي بالتدبير لا بحياة !

وقال آخرون : بل هو حي بحياة هي له صفة .

وقال آخرون : بل ذلك اسم من الأسماء تسمى به فقلناه تسليمًا لأمره اهـ كلام ابن جرير .

والعجب كيف سكت على القول الأول وهو من أقوال الجهمية نفاة الصفات ، إذ كلامهم هنا يقتضي نفي الصفة وتفسيرها بلوازمها وهو التقدير والتدبير .

والقول الأخير أيضًا هو مذهب المفوضة المبتدعة . والصواب هو القول الثاني ، وقد اختاره في الموضع الآتي ذكره .

ربًا ، ويبيد كل من ادَّعى من دونه إلهًا ، واحتج على خلقه بأن : من كان يبيد فيزول ويموت فيفنى ، فلا يكون إلهًا يستوجب أن يعبد دون الإله الذي لا يبيد ولا يموت ، وأن الإله هو الدائم الذي لا يموت ولا يبيد ولا يفنى ، وذلك الله الذي لا إله إلا هو[1] .

وقال الزجاج : (الحي) يُفيدُ دوام الوجود ، والله تعالى لم يَزلْ مَوجودًا ، ولا يزال موجودًا[2] .

وقال الزجاجي : (الحيُّ) في كلام العرب : خِلافُ الميت ، والحَيَوان خلاف الموات .

فالله عز وجل الحي الباقي ، الذي لا يجوز عليه الموت ولا الفناء عز وجل وتعالى عن ذلك علوًا كبيرًا .

ولا تعرف العرب عن الحيِّ والحياة غير هذا[3] .

وقال الخطابي : (الحي) من صفة الله تعالى : هو الذي لم يزل موجودًا وبالحياة موصوفًا ، لم تحدث له الحياة بعد موت ، ولا يعترضه الموت بعد الحياة ، وسائر الأحياء يَعْتَورُهُم الموت أو العدم في أحد طَرَفَي الحياة أو فيهما معًا، و﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] [4].

وذكر البيهقي العبارة الأولى للخطابي ثم قال : فالحياة له صفةٌ قائمةٌ بذاته [5].

وقال ابن كثير : (الحي القيوم): أي الحي في نفسه الذي لا يموت

---

(١) «جامع البيان» (٣/١٠٩) وهنا قد صرَّح باختياره للمذهب الحق في معنى الاسم والحمد لله.

(٢) «تفسير الأسماء» (ص٥٦) .

(٣) «اشتقاق الأسماء» (ص١٠٢) .

(٤) «شأن الدعاء» (ص٨٠) .

(٥) «الاعتقاد» (ص٦٢) .

أبدًا ، القيم لغيره[1] .

ويأتي كلام السعدي وابن القيم عن هذا الاسم في معنى اسمه (القيوم) .

* **من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١- إن الله تبارك وتعالى حيٌّ بحياة هي له صفة ، حيٌّ أبدًا لا يموت والجن والإنس يموتون ، بل كل ما على الأرض، كما قال تعالى : ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧] .

فهذا الاسم فيه إثبات صفة الحياة ، وهي من الصفات الذاتية ، فحياته سبحانه أكمل حياة وأتمها ، ويستلزم ثبوت كل كمال يُضادُّ نفيه كمال الحياة.

وقد فرَّ الزمخشري المعتزلي من إثبات هذه الصفة ففسرها بلازمها ، فقال في كشافه : (الحي) الباقي الذي لا سبيل عليه للفناء ، وهو على اصطلاح المتكلمين الذي يصح أن يَعْلم ويقدر[2] .

٢- وحياته جل وعلا مُنزهةٌ عن مشابهة حياة الخلق، فلا يجري عليها الموت أو الفناء ، ولا تعتريها السِّنَة ولا النوم ، والسِّنَةُ هي : النعاس الذي يكون في العين ويسبق النوم ، وكلاهما ينافي كمال القدرة والحياة ، لأن النوم قاهر للحي منَّا معطلٌ لحواسه وقدرته وعلمه ، ولا يصح أن يُوصف الله بذلك . وكيف يتصور جريان النوم عليه ، ولا قيام للسماوات والأرض إلا به؟! قال سبحانه: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا**

---

(١) «التفسير» (١/ ٣٠٨) .

(٢) «الكشاف» (١/ ٣٨٤) .

غفورًا﴾ [فاطر: ٤١].

وقال ﷺ : « **إنَّ الله لا ينام ، ولا ينبغي له أنْ ينام ، يَرْفَعُ القسط ويخفضُهُ ، ويُرفع إليه عملُ النَّهارِ بالليل ، وعملُ الليلِ بالنَّهار** »[1].

٣- الله جلَّ شأنه هو الذي يهب أهل الجنة تلك الحياة الدائمة الباقية التي لا تفنى ولا تبيد ، قال سبحانه :﴿ **وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ** ﴾ [العنكبوت: ٦٤] .

فحياتهم دائمة بإدامة الله لها ، لا أنَّ الدوام وصفٌ لازمٌ لها لذاتها ، بخلاف حياة الرب تعالى ، وكذلك سائر صفاته ، فصفات الخالق كما يَليق به ، وصفات المخلوق كما يليق به .

فالحياة الدنيا كالمنام ، والحياة الآخرة كاليقظة[2] .

٤- كان من دعاء المصطفى ﷺ أنه كان يقول : «**اللهم لكَ أسلمتُ وبكَ آمنتُ ، وعليك توكلتُ ، وإليك أنبت ، وبك خَاصمت ، اللهم إني أعوذُ بعزتك لا إله إلا أنت أن تُضِلَّني أنتَ الحيُّ الذي لا يموتُ ، والجنُّ والإِنس يموتون**» [3].

* * *

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٩٥ ، ٤٠١ ، ٤٠٥) ومسلم في الإيمان (١/ ١٦٢) عن أبي موسى رضي الله عنه .

(٢) انظر «شرح العقيدة الطحاوية» (ص١٢٤) عند قول الطحاوي : «حيٌّ لا يموت قيوم لا ينام» .

(٣) أخرجه البخاري مختصرًا في التوحيد (١٣/ ٣٦٨ ـ ٣٦٩) ومسلم في الذكر (٤/ ٢٠٨٦) والبيهقي في «الأسماء» (ص١١١ـ ١١٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .
(وإليك أنبت) : أي أقبلت بهمتي وطاعتي وأعرضت عما سواك.
(وبك خاصمت) : أي بك أحتج وأدافع وأقاتل .

القَيُّومُ

جل جلاله وتقدست أسماؤه

(٦٨)

* **المعنى اللغوي :**

القِيام نقيض الجلوس .

قال ابن بَرِّيٍّ : قد ترتجل العرب لفظة «قام» بين يدي الجُمَل فيصير كاللغو ، ومعنى القيام : العزم ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩] أي : لما عزَمَ ، وقوله تعالى : ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الكهف: ١٤] أي: عزموا فقالوا.

قال : وقد يجيء القيام بمعنى المحافظة والإصلاح ، ومنه قوله تعالى : ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣٤] وقوله تعالى : ﴿مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ [آل عمران: ٧٥] أي : ملازمًا محافظًا .

ويجيء القيام بمعنى الوقوف والثبات ، يقال للماشي : قف لي ، أي: تحبس مكانك حتى آتيك ، وكذلك قم لي بمعنى قف لي ، وعليه فسَّروا قوله سبحانه : ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ [البقرة: ٢٠] .

ومنه التوقف في الأمر ، وهو الوقوف عنده من غير مجاوزة له . ومنه قامت الدابة إذا وقفت عن المسير ، وقام عندهم الحق ، أي ثبت ولم يبرح ، ومنه قولهم : أقام بالمكان هو بمعنى الثبات[1] .

(١) باختصار من «اللسان» (٥/ ٣٧٨١) (قوم) ، وانظر «الصحاح» (٥/ ٢٠١٦ ـ ٢٠١٨) .

وقال الزجاج : (القيوم) : هو فيعول من قام يقوم ، الذي بمعنى : دام ، لا القيام المعروف ، وقال الله تعالى ذكره : ﴿ **وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً** ﴾ [آل عمران: ٧٥] ، أي : دائمًا ، والله أعلم . القيوم هــو الدائم ، وكــان من قراءة عمر بن الخطاب رضى الله عنه : «الحي القيّام»(١) .

* وروده في القرآن الكريم :

ورد الاسم في ثلاث آيات من القرآن ، وهي :

قوله تعالى : ﴿ **اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ** ﴾ [البقرة: ٢٥٥] .

وقوله تعالى : ﴿ **اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ** ﴾ [آل عمران: ٢] .

وقوله تعالى : ﴿ **وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً** ﴾ [طه: ١١١] .

* معنى الاسم في حق الله تعالى :

قال أبو عبيدة : القائم وهو الدائم الذي لا يزول ، وهو فيعول(٢) .

وقال ابن جرير بعد أن ذكر اختلاف القراء في قراءة (القيوم) : فأما تأويل جميع الوجوه التي ذكرنا أن القرَّاء قرأت بها فمتقارب ، ومعنى ذلك كله :

---

(١) «تفسير الأسماء» (ص٥٦) . وقال الفراء في «معاني القرآن» (١/ ١٩٠) : (الحي القيوم) قراءة العامة ، وقرأها عمر بن الخطاب وابن مسعود (القيام) ، وصورة القيوم : الفيعول ، والقيام الفيعال ، وهما جميعًا مدح ، وأهل الحجاز أكثر شيء قولاً : الفيعال من ذوات الثلاثة فيقولون للصوّاغ : الصياغ ١ هـ . وانظر «اشتقاق الأسماء» للزجاجي (ص١٠٥ ـ ١٠٨) فقد ذكر نحو ما ذكره ابن بري من الأوجه في معنى (القيام) .

(٢) «مجاز القرآن» (١/ ٧٨) .

القيم بحفظ كل شيء ورزقه ، وتصريفه فيما شاء وأحب ، من تغيير وتبديل ، وزيادة ونقص .

وقال آخرون : معنى ذلك القيام على مكانه ، ووجهوه إلى القيام الدائم الذي لا زوالَ معه ولا انتقال، وأن الله عز وجل إنما نفى عن نفسه بوصفها بذلك التغيير والتَّنقل من مكان إلى مكان ، وحدوث التبدل الذي يحدث في الآدميين وسائر خلقه غيرهم . ونقله عن محمد بن جعفر بن الزبير .

ثم رجَّح ابن جرير فقال : وأولى التأويلين بالصواب ما قاله مجاهد والربيع ، وأن ذلك وَصْفٌ من الله تعالى وذكره نفسه بأنه القائم بأمر كلِّ شيء في رزقه ، والدفع عنه وتدبيره وصرفه في قدرته ، من قول العرب: فلانٌ قائم بأمر هذه البلدة ، يعني بذلك : المتولي تدبير أمرها .

فالقيوم إذ كان ذلك معناه الفيعول ، من قول القائل : الله يقوم بأمر خلقه[1] .

وقال الزجاجي : (القيوم) : فيعول من قام يقوم ، وهو من أوصاف المبالغة في الفعل ، وهو من قوله عز وجل : ﴿**أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ**﴾ [الرعد: ٣٣] أي : يحفظ عليها ويُجازيها ويحاسبها[2] .

وقال الخطابي : (القيوم) هو : القائم الدائم بلا زوال ، ووزنه فيعول من القيام وهو نعتُ المبالغة في القيامة على الشيء .

ويقال : هو القَيِّمُ على كلِّ شيء بالرعاية له ، ويقال قمت بالشيء ،

---

(١) «جامع البيان» (٣/ ١١٠) ثم ذكر بعد ذلك أصل القيوم هو : القيووم ، وأصل القيام هو : القيوام ، وأما القيم فهو : الفيعل من قام يقوم ، وكلها أبلغ في المدح من القائم .

(٢) «اشتقاق الأسماء» (ص١٠٥) .

إذا وليته بالرعاية والمصلحة[1] .

وقال البيهقي : (القيوم) هو القائم الدائم بلا زوال .

فيرجع إلى صفة البقاء ، والبقاء صفة الذات .

وقيل : هو المدبِّر والمتولي بجميع ما يجري في العالم .

وهو على هذا المعنى من صفات الفعل[2] .

وقال القرطبي : (القيوم) من قام ، أي القائم بتدبير ما خلق[3] .

وقال السعدي : (الحي القيوم) كامل الحياة ، والقائم بنفسه ، القيوم لأهل السماوات والأرض ، القائم بتدبيرهم وأرزاقهم وجميع أحوالهم ، فالحي : الجامع لصفات الذات ، والقيوم : الجامع لصفات الأفعال[4] .

وقال العلامة ابن القيم في النونية :

هذا ومِنْ أوْصَافِهِ القَيُّوم والـ ـقيوم في أوصَافِـهِ أمْرَانِ
إحَداهما القَيُّوم قامَ بنفسه والكونُ قامَ به هما الأمْرَانِ
فالأولُ استْغناؤُه عن غيرهِ والفَقْر من كلٍّ إليه الثاني
والوصف بالقيوم ذو شان عظـ ـيم هكذا مَوْصُوفُه أيضًا عظيم الشَّان
والحي يتلوه فأوصاف الكما ل هما لأفق سَمائها قُطْبانِ
فالحيُّ والقيوم لن تتخلفَ الـ أوْصَافُ أصلاً عنهما ببيان[5]

---

(١) «شأن الدعاء» (ص٨٠) .

(٢) «الاعتقاد» (ص٦٢) .

(٣) «التفسير» (٣/ ٢٧١) ، وبنحوه قال الحليمي في «المنهاج» (١/ ٢٠٠) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع نفي التشبيه عن الله تعالى جده ، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص٤٨) .

(٤) «تيسير الكريم الرحمن» (٥/ ٣٠٣) .

(٥) «النونية» (٢/ ٢٣٦) .

* من آثار الإيمان بهذا الاسم :

١- وَصْفُ الله تعالى ذكره بأنه قيوم بنفسه ، لا يحتاج في قيامه ودوامه إلى أحد ، يُطْعِم ولا يُطْعَم ، وكيف يحتاج إلى غيره أو أحد من خلقه ، وهم أنفسهم لا قيامَ لهم إلا بإقامة الحي القيوم لهم ؟!

فقيامه تعالى بذاته وليس ذلك إلا له تعالى .

٢- وصفه تعالى بأنه المدبر لأمر الخلائق في السماء والأرض ، المصرف لشؤونها ، لأنها ليست قائمة بنفسها بل محتاجة للحي القيوم الذي يرزقها ويحييها ويقيمها .

ولاشك أن من عرَف هذه الصفة في ربه توكل عليه، وانقطع قلبه عن الخلق إليه ، وذلك أنهم محتاجون مفتقرون مثله إلى خالقهم في قيامهم وقعودهم ، وحياتهم وبعد مماتهم ، في دينهم ودنياهم ، فكيف يرجوهم بعد ذلك ؟!

٣- ومن كمال قيوميته تعالى أنه لا ينام ، إذ هو مختص بعدم السنة والنوم دون خلقه فإنهم ينامون(١) .

٤- اقترن هذا الاسم بالحي في ثلاثة مواضع كما سبق ، واقترانه بالحي يستلزم سائر صفات الكمال ، ويدلُّ على بقائها ودوامها ، وانتفاء النقص والعدم عنها أزلاً وأبدًا ، ولهذا كان قوله ﴿ **اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ** ﴾ [البقرة: ٢٥٥] أعظم آية في القرآن ، كما ثبت ذلك في الصحيح عن النبي ﷺ(٢).

---

(١) انظر آثار الإيمان بـ (الحي) .

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٤١ ـ ١٤٢) ومسلم في صلاة المسافرين (١/٥٥٦) عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ : «**يا أبا المنذر أتدري أيُّ آيةٍ من كتاب الله معك أعظم؟**» قال: =

فعلى هذين الاسمين مَدارُ الأسماء الحسنى كلِّها ، وإليهما تَرجعُ معانيها ، فإن الحياة مستلزمة لجميع صفات الكمال ، فلا يتخلَّف عنها صفةٌ منها إلا لضعف الحياة ، فإذا كانت حياته تعالى أكملَ حياةٍ وأتمَّها ، استلزم إثباتها إثبات كل كمال يُضادُّ نفيه كمالَ الحياة .

وأما (القيوم) فَمُتضمِّنٌ كمالَ غناه وكمال قدرته ، فإنه القائم بنفسه ، فلا يحتاج إلى غيره بوجهٍ من الوجوه، المقيم لغيره ، فلا قيام لغيره إلا بإقامته .

فانتظم هذان الاسمان صفاتِ الكمال أتمَّ انتظام[1] .

٥- جاء في السنة المطهرة ما يدل على عظمة هذين الاسمين ، والدعاء بهما مجتمعين ، حتى قال بعض العلماء إنهما الاسم الأعظم للرب تبارك وتعالى ، كما في حديث أنس رضي الله عنه قال : كنت جالسًا مع النبي ﷺ في المسجد ورجل يصلي فقال : اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت الحنَّان المنَّان ، بديع السماوات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا حيُّ يا قيوم ، فقال النبي ﷺ : **«دعا الله باسمه الأعظم ، الذي إذا دُعي به أجَاب ، و إذا سُئِل به أعطى»** [2].

وقد سبق بيان أن الصواب في الاسم الأعظم هو (الله) جل جلاله وتقدست أسماؤه[3] .

= قلت : الله ورسوله أعلم، قال: **«يا أبا المنذر أتدري أيُّ آية من كتاب الله معك أعظم؟»** قال قلت: **﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾** قال: فضرب على صدري وقال : **«ليَهْنك العلم أبا المنذر»** . أي ليكن العلم هنيئًا لك .

(١) انظر «شرح الطحاوية» (ص١٢٥) من ط المكتب الإسلامي ، و(١/ ٩١ ـ ٩٢) ط الرسالة.

(٢) سبق تخريجه في الجزء الأول (ص٦٤) .

(٣) انظر بيان هذه المسألة في الجزء الأول (ص ٦٣ ـ ٦٩) .

وعلىٰ كل حال فدعاء الله بهما من امتثال أمره في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٠] .

٦- ومنها : حديث أنس أنه قال : «كان رسول الله ﷺ يدعو : يا حَيُّ يا قَيُّوم»(١) .

وفي رواية «كان من دعاء النبي ﷺ : أي حيُّ أى قيوم»(٢) .

٧- ومنها : حديث أنس بن مالك قال : قال النبي ﷺ لفاطمة : «**ما يَمنعُك أن تَسمعي ما أُوصيك به! أنْ تقولي إذا أصبحت وإذا أمسيت : يا حيُّ يا قَيُّوم برحمتكَ أسْتَغيثُ ، أصْلحْ لي شأني كلَّه ، ولا تكلني إلىٰ نفسي طَرْفَة عين**» (٣).

---

(١) حديث حسن ، أخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٦١٢) قال : أخبرنا محمد بن عقيل أخبرنا حفص حدثني إبراهيم عن الحجاج بن الحجاج عن قتادة عن أنس به .
ورجاله ثقات ، سوىٰ حَفْص وهو ابن عبد الله السليمي النيسابوري كاتب إبراهيم بن طهمان ذكره ابن أبي حاتم (٣/ ١٧٥) وقال سمعت أبي يقول : هو أحسن حالاً من حفص ابن عبد الرحمن ، وحفص بن عبد الرحمن هو البلخي ويعرف بالنيسابوري قال فيه : صدوق وهو مضطرب وحفص بن عبد الله أحسن حالاً منه .
والحجاج هو الباهلي الأحول ، وثقه ابن معين وأبو حاتم وأبو داود .

(٢) إسنادها صحيح ، أخرجها النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٦١٣) وفي النعوت من «الكبرىٰ» ـ كما في «التحفة» (١/ ٢٣٤) ـ والبيهقي في «الأسماء» (١١٤) عن محمد بن عبد الأعلىٰ حدثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه عن أنس به .
ووقع عند البيهقي : «**يا حي يا قيوم**» ! والمثبت موافق للنسائي و«تحفة الأشراف» .

(٣) إسناده حسن ، أخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٥٧٠) وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٤٨) والبزار (٣١٠٧) «زوائد»، والحاكم (١/ ٥٤٥) والبيهقي في «الأسماء» (ص١١٢) من طرقٍ عن زيد بن الحباب حدثني عثمان بن موهب الهاشمي قال : سمعت أنس بن مالك يقول فذكره .
قال الحاكم : صحيح علىٰ شرط الشيخين ووافقه الذهبي !

٨- ومنها : حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**من قالَ أستغفرُ الله الذي لا إله إلا هو الحيُّ القيوم وأتوبُ إليه ثلاثًا غُفِرت ذُنُوبه وإنْ كان فارًا من الزَّحْف**»(١) .

= قال الهيثمي (١٠/١١٧) : رواه البزار ورجاله رجال الصحيح!

كذا قالوا ! مع أن عثمان بن موهب ليس من رجال الشيخين !

بل تفرد بالإخراج عنه النسائي ، قال أبو حاتم : صالح الحديث .

وقال الحافظ : مقبول !

وأخرج الترمذي (٥/٣٥٢٤) ، وابن السني (٣٣٩) عن يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ إذا كربه أمر قال : «**يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث**» .

قال الترمذي : حديث غريب .

وفيه يزيد الرقاشي ، ضعيف .

وله شاهد من حديث ابن مسعود : أخرجه الحاكم (١/٥٠٩) وفيه عبد الرحمن بن إسحاق أبو شيبة الواسطي ، ضعيف ، والنضر بن إسماعيل ، ليس بالقوي .

ومع ذلك حسنه الألباني حفظه الله في «الكلم الطيب» (١١٨) !

وأخرجه البيهقي في «الأسماء» (ص١١٣) عن عبد الرحمن بن إسحاق عن القاسم عن ابن مسعود . وقال إنها مع إرسالها أصح من الطريق السابقة .

(١) حديث صحيح ، أخرجه الحاكم (١/٥١١) (٢/١١٧ ـ ١١٨) عن إسرائيل عن أبي سنان عن أبي الأحوص عن ابن مسعود به .

وقال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

فتعقبه الذهبي بقوله : أبو سنان هو ضرار بن مرة لم يخرج له البخاري .

قلت : وهو كما قال الذهبي من رجال مسلم فقط ، وهو ثقة ثبت .

والحاكم عاد في الموضع الثاني فقرر هذا بقوله : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

وأخرجه ابن أبي شيبة (١٠/٣٠٠) عن إسماعيل عن أبي سنان عن أبي الأحوص به.

وإسماعيل هو ابن يحيى الشيباني ـ كما في «تهذيب الكمال» ـ متهم بالكذب .

وللحديث شاهد من حديث زيد مولى رسول الله ﷺ .

فقد أخرجه أبو داود (١/١٧٨) والترمذي (٥/٣٥٧٧) والبيهقي في «الأسماء» (ص٤٧ ،=

قال أبو نعيم الأصبهاني : هذا يدل على أن بعض الكبائر تُغفر ببعض

= (١١٢) عن موسى بن إسماعيل حدثنا حفص بن عمر الشَّنِّي حدثني أبي عمر بن مرة قال سمعت بلال بن يسار بن زيد مولى النبي ﷺ قال: سمعت أبي يحدثنيه عن جدي أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : **«من قال أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه غفر له ، وإن كان قد فرَّ من الزحف»** .

قال الترمذي : حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

قال ابن علان في «تخريج الأذكار» (٧/٢٨٨) : قال الحافظ المنذري إسناده جيد متصل ، فقد ذكر البخاري في تاريخه أن بلالاً سمع أباه يساراً ، وأن يساراً سمع من أبيه زيد مولى رسول الله ﷺ ا هـ.

قال مقيده عفا الله عنه : زيد مولى النبي ﷺ صحابي ليس له غير هذا الحديث ، قاله البغوي ، وبلال ويسار لم يوثقهما سوى ابن حبان في الثقات ، وقال الحافظ في كل منهما : مقبول .

وله شاهد من حديث أبي سعيد الخدري :

أخرجه أحمد (٣/ ١٠) والبيهقي في «الأسماء» (ص١١٢ ـ ١١٣) عن عبيد الله بن الوليد الوصافي عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري مرفوعًا : **«من قال حين يأوي إلى فراشه: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه ثلاث مرات غفر الله له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر ، وإن كانت مثل رمل عالج ، وإن كانت مثل عدد ورق الشجر»** .

وفي سنده ضعيفان : عطية العوفي وهو مدلس أيضًا ، وعبيد الله بن الوليد .

وأخرجه ابن أبي شيبة (١٠/ ٢٩٩) بسند حسن عن أبي سعيد الخدري موقوفًا بلفظ : **«من قال أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه خمس مرات غفر له وإن كان عليه مثل زبد البحر»** .

وله شاهد من حديث معاذ : خرجه ابن أبي شيبة أيضًا (١٠/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠) عن شريك عن أبي إسحاق عن معاذ بن جبل موقوفًا بنحو حديث ابن مسعود .

وأخرجه عبد الرزاق (٢/ ٢٣٦) عن معمر بن إسرائيل عن أبي إسحاق عن رجل عن معاذ، وفيه رجل لم يسم .

العمل الصالح ، وضابطه الذنوب التي لا توجب على مرتكبها حكمًا في نفس ولا مال ، ووجه الدلالة منه أنه مثل بالفرار من الزحف وهو من الكبائر ، فدل على أن ما كان مثله أو دونه يغفر إذا كان مثل الفرار من الزحف ، فإنه لا يوجب على مرتكبه حكمًا في نفسٍ ولا مال[1] .

* * *

(١) «الفتح» (١١/ ٩٨) .

الواحد ـ الأحد
جَلَّ جلالُه وتقدَّست أسماؤُه
(٦٩ ـ ٧٠)

* **المعنى اللغوي :**

أحَدٌ بمعنى الواحد ، وهو أول العدد ، تقول : أحدٌ واثنان ، وأحد عشر وإحدى عشرة .

قال الكسائي : تقول : لا أحدَ في الدار ، ولا تقل : فيها أحدٌ .

وأما قولهم : ما في الدار أحد ، فهو اسم لمن يصلح أن يخاطب ، يستوي فيه الواحد والجمع والمؤنث ، قال تعالى : ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [الأحزاب: ٣٢] .

وقال : ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٧] .

وأستأْحَدَ الرجل : انفرد[١] .

والوَحْدَة : الانفراد ، تقول : رأيته وحدَه .

ورجل واحد : متقدم في بأسٍ أو علم أو غير ذلك ، كأنه لا مِثلَ له فهو وحده لذلك[٢] .

وقال الزجاج : (الواحد) : وضع الكلمة في اللغة إنما هو للشيء الذي ليس باثنين ولا أكثر منهما[٣].

---

(١) «الصحاح» (٢/ ٤٤٠) (أحد) ، «اللسان» (١/ ٣٥) .

(٢) «الصحاح» (٢/ ٥٤٧ ـ ٥٤٨) (وحد) ، «اللسان» (٦/ ٤٧٧٩ ـ ٤٧٨٣) .

(٣) «تفسير الأسماء» (ص٥٧) .

وقال في (الأحد) : قال أهل العربية : أصله «وَحَدٌ» ثم قلبت الواو همزَة ، وهذا الكلام عزيز جدًا أن تُقلب الواو المفتوحة همزة ، ولم نعرف له نظيرًا إلا أحرفًا يسيرة ، منها أناة ، وأحرف نظيرتها ، ويقال : هذا واحدٌ ووَحَدٌ ، كما قدمناه من سالم وسلم ، حاكم وحكم ، وقال النابغة :

علي مُستَأنسٍ وَحَدِ .

وقال بعض أصحاب المعاني : الفرق بين الواحد والأحد : أن الواحد يفيد وحدة الذات فقط ، والأحد يفيده بالذات والمعاني .

وعلى هذا جاء في التنزيل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أراد المنفرد بوحدانيته في ذاته وصفاته ، تعالى الله عُلوًا كبيرًا [1] .

وقال أبو حاتم[2] في كتاب «الزينة» : (أحد) هو اسمٌ أكمل من الواحد ألا ترى أنك إذا قلت : فلانٌ لا يقوم له واحد ، جاز في المعنى أنْ يقوم اثنان فأكثر ، بخلاف قولك : لا يقوم له أحد .

وفي (الأحد) خصوصيةٌ ليست في الواحد ، تقول : ليس في الدار واحد ، فيجوز أن يكون من الدواب والطَّير والوحش والإِنس فيعم الناس

---

(١) المصدر السابق (ص٥٨) وانظر «اشتقاق الأسماء» للزجاجي (ص٩٢) .

(٢) هو الإمام العلامة أبو حاتم السجستاني سهل بن محمد بن عثمان البصري المقرئ النحوي اللغوي ، صاحب التصانيف ، أخذ عن يزيد بن هارون وأبي عبيدة بن المثنى والأصمعي وغيرهم ، وحدث عنه أبو داود والنسائي والبزار وتخرج به أئمة منهم أبو العباس المبرد قال الحافظ : صدوق فيه دعابة .

من كتبه : «إعراب القرآن» ، «ما يلحن فيه العامة» ، «المقصور والممدود» ، «القراءات» وغيرها ، توفي سنة خمس وخمسين ومائتين وقيل سنة خمسين . انظر «التهذيب» (٤/٢٥٧ ـ ٢٥٨) ، «السير» (١٢/ ٢٦٨ ـ ٢٧٠) .

وغيرهم ، بخلاف ليس في الدار أحد ، فإنه مخصوصٌ بالآدميين دون غيرهم .

قال : ويأتي (الأحد) في كلام العرب بمعنى الأول وبمعنى الواحد ، فيستعمل في الإثبات وفي النفي نحو ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] أي : واحد وأول ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ﴾ [الكهف: ١٩] وبخلافهما فلا يستعمل إلا في النفي ، تقول : ما جاءني من أحد ، ومنه ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ [البلد: ٥] ﴿أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ [البلد: ٧] ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ [الحاقة: ٤٧] ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ﴾ [التوبة: ٨٤] . وواحد يستعمل فيهما مطلقًا يستوي فيه المذكر والمؤنث . قال تعالى : ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ﴾ [الأحزاب: ٣٢] بخلاف الواحد فلا يقال كواحد من النساء بل كواحدة .

و(أحد) يصلح في الإفراد والجمع ، قلت : ولهذا وُصِفَ به في قوله تعالى : ﴿فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾ بخلاف الواحد . و(الأحد) له جمع من لفظه وهو الأحدون والآحاد ، وليس للواحد جمع من لفظه ، فلا يقال : واحدون بل اثنان وثلاثة .

و(الأحد) ممتنع الدخول في الضرب والعدد والقسمة وفي شيء من الحساب بخلاف (الواحد) . انتهى كلامه .

نقله السيوطي ثم قال : وقد تحصل من كلامه سبعة فروق[1] .

*** ورود الاسمين في القرآن الكريم :**

ورد اسمه (الواحد) في ثنتين وعشرين آيةً ، منها :

قوله تعالى : ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] .

---

(١) «الإتقان في علوم القرآن» للسيوطي (١/ ١٩١) ط الحلبي .

وقوله تعالى : ﴿وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [النساء: ١٧١] .

وقال تعالى على لسان يوسف عليه الصلاة والسلام : ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩] .

وقال تعالى : ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦] .

وقال تعالى : ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ④ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ [الصافات: ٤، ٥] .

وقال تعالى : ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤] .

وقال تعالى : ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] .

* وأما اسمه (الأحد) فورد مرة واحدة في مطلع سورة الأخلاص وهو قوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] .

*** معنى الاسمين في حق الله تعالى :**

قال ابن جرير في قوله تعالى : ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ : قد بيَّنا فيما مضى معنى الألوهية وأنها : اعتباد الخلق ، فمعنى قوله : ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ الذي يستحق عليكم أيها الناس الطاعة له ، ويستوجب منكم العبادة معبودٌ واحد ، وربٌّ واحد ، فلا تعبدوا غيره ولا تشركوا معه سواه ، فإن من تشركونه معه في عبادتكم إياه هو خلقٌ من خلقِ إلهكم مثلكم ، وإلهكم واحد لا مثل له ولا نظير .

ثم قال : واختلف في معنى وحدانيته تعالى ذكره ، فقال بعضهم :

معنى وحدانية الله معنى نفي الأشباه والأمثال عنه ، كما يقال : فلانٌ واحد الناس ، وهو واحدُ قومه ، يعني بذلك أنه ليس له في الناس مثل ، ولا له في قومه شبيهٌ ولا نظير فكذلك معنى قول الله واحد ، يعني به الله لا مثل له ولا نظير .

فزعموا أن الذي دلَّهم على صحة تأويلهم ذلك أن قول القائل (واحد) يفهم لمعان أربعة :

أحدها : أن يكون واحدًا من جنس ، كالإنسان الواحد من الإنس .

والآخر : أن يكون غير متصرف كالجزء الذي لا ينقسم . والثالث : أن يكون معنيًا به المثل والاتفاق ، كقول القائل : هذان الشيئان واحد ، يراد بذلك أنهما متشابهان حتى صارا لاشتباههما في المعاني كالشيء الواحد .

والرابع : أن يكون مرادًا به نفي النظير عنه والشبيه .

قالوا : فلما كانت المعاني الثلاثة من معاني الواحد مُنتفيةً عنه، صح المعنى الرابع الذي وصفناه .

وقال الآخرون : معنى وحدانيته تعالى ذكره معنى انفراده من الأشياء وانفراد الأشياء منه ، قالوا : وإنما كان منفردًا وحده لأنه غير داخلٍ في شيء ، ولا داخل فيه شيء ، قالوا : ولا صحة لقول القائل واحد من جميع الأشياء إلا ذلك ، وأنكر قائلو هذه المقالة المعاني الأربعة التي قالها الآخرون[1] .

وقال الخطابي : (الواحد) هو الفَرْدُ الذي لم يزلْ وحده ، ولم يكن

---

(1) «جامع البيان» (٣٦/٢) .

معه آخر .

وقيل : هو المنقطع القرين ، المعدوم الشريك والنظير .

وليس كسائر الآحاد من الأجسام المؤلفة ، إذ كلُّ شيءٍ سواه يُدعى واحدًا فهو واحدٌ من جهة غيرُ واحد من جهات .

والله سبحانه الواحد الذي ليس كمثله شيء .

وقال : والفرق بين (الواحد) و(الأحد) ، أن (الواحد) هو المنفرد بالذات لا يضامُّهُ آخر .

و(الأحد) : هو المنفرد بالمعنى لا يشاركه فيه أحد ، ولذلك قيل للمتناهي في العلم والمعرفة ، هو أحد الأحَدَينِ .

وقال : وأما الوحيد فإنما يوصف به في غالب العُرف المنفرد عن أصحابه ، المنقطع عنهم ، وإطلاقه في صفة الله سبحانه ليس بالبيِّن عندي صوابُه ، ولا أستحسنُ التسميةَ بعبد الوحيد كما استحسنها بعبد الواحد وبعبد الأحد ، وأرى كثيراً من العامة قد تسمَّوا به [1].

وقال البيهقي : (الواحد) هو الفرد الذي لم يزل وحده بلا شريك .

وقيل : هو الذي لا قَسيم لذاته ولا شبيه له ولا شريك .

وهذه صفةٌ يستحقها بذاته .

وقال في (الأحد) : الذي لا شبيه له ولا نظير[2].

وقال السعدي: (الواحد الأحد): وهو الذي تَوحَّدَ بجميع الكمالات، بحيث لا يُشاركه فيها مشارك ، ويجب على العبيد توحيده : عقدًا وقولاً

---

(١) «شأن الدعاء» (ص ٨٢ ـ ٨٣) باختصار .

(٢) «الاعتقاد» (ص ٦٣ ، ٦٧) .

وعملاً ، بأن يعترفوا بكماله المطلق ، وتفرده بالوحدانية ويفردوه بأنواع العبادة [1].

* من آثار الإيمان بهذين الاسمين :

١- الله جل ثناؤه هو الإله (الواحد الأحد) الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له ، في ذاته ولا في صفاته ولا أفعاله كما قال سبحانه : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١] وقال : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم: ٦٥] وقال : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ٤] .

فلا يجوز أن يُشَبَّه ربُّنا تعالى جَدُّه بشيء من مخلوقاته لأنه تعالى أخبرنا عن نفسه ـ وهو أعلم بنفسه ـ أنه ليس مشابهًا لشيء منها ، فكل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك ، فهو الواحد الذي ليس له نِدٌّ ولا نظير ، ولا شبه ولا مثيل[2] .

قال سبحانه : ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٦٣] وقال : ﴿ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴾ [الصافات: ٤ ، ٥]

وقال : ﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [ص: ٦٥] .

وبيَّن أنه لم يأمر إلا بأن يعبد وحده ويفرد بالعبادة ، فقال ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ [التوبة: ٣١] ، وقال : ﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴾ [الزمر: ٢]

وكفَّر وضلل من اتخذ إلهًا سواه أو معه ، فقال : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٥/٢٩٨ ـ ٢٩٩) .

(٢) وهو المعنى الذي اختاره ابن جرير رحمه الله كما سبق

تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٤ - ٦٦].

وقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧].

وقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

وكيف يعبد غيره والله سبحانه قد تفرد بالخلق والإيجاد، والرزق والإمداد، والبسط والقبض، والرفع والخفض، والنفع والضر، قال سبحانه: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١، ١٩٢].

وقد نَبَّه الله تعالى عقول الناس وفطرهم إلى هذا الأمر في مواضع كثيرة، من أعظمها ما جاء في سورة النمل حيث ذكر الله تعالى عظيم مخلوقاته وتصرفاته، في آيات تهتز لها الجبال فكيف أحلام الرجال ؟!

قال سبحانه: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن

﴿ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [النمل: ٥٩ – ٦٤] .

٢– فهذه الآيات دالة على انفراده بالخلق والإيجاد والتصرف والتدبير فلا إله غيره ، ولا يستحق العبادة سواه ، وقد ختم كل آية بقوله ﴿ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾ أي أإله مع الله يعبد وقد تبين لكم ولكل ذي لب انفراده بهذا الخلق والتصرف ؟! تعالى الله عما يشركون .

وهذا التوحيدَ هو الذي من أجله أُرسلت الرسل وأنزلت الكتب ، وبه افترق الناس إلى مؤمنين وكفار ، وسعداء وأشقياء ، وهو معنى قول : لا إله إلا الله ، الذي دعت الرسل أقوامها إليه ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [المؤمنون: ٢٣] فهذه دعوة أول رسول أرسله الله تعالى بعد حدوث الشرك ، وتتابعت الرسل بعد ذلك كلهم يدعو إليها ويأمر بها كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقد أمر الرسول ﷺ رسوله إلى أهل اليمن أن يبدأ أولاً بدعوتهم إلى توحيد الله تعالى ، كما في حديث ابن عباس قال : «لما بعث النبي ﷺ مُعاذًا إلى نحو أهل اليمن قال له : **إنك تقدم على قومٍ من أهل الكتاب فليكن أَولَ ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى ، فإذا عرفوا ذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات ..**» .

فالعبد لا يدخل الإسلام حتى يُوحد الله تعالى بأن يشهد أن لا إله إلا الله ، ولا يقبل له عملٌ صالح حتى يحقق التوحيد ، ولذا لم يأمره

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (١٣/٣٤٧) .

ﷺ أن يأمرهم بالصلاة أولاً أو بالزكاة ، بل بالإيمان أولاً ، كما قال تعالى : ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤] .

وقال : ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩] .

وغيرهما من الآيات التي اشترط الله تعالى فيها الإيمان لقبول العمل الصالح .

٣- الله تعالى هو الواحد الأحد الذي لا يجوز أن تُصْرَف العبادة لغيره فهو المعبود بحقٍّ وغيره يعبد بالباطل ، فلا يجوز لعبيده أن يتوجهوا لغير سيدهم بعبادة من العبادات ، صلاةً كانت أو دعاءً أو ذبحًا أو نذرًا أو توكلاً أو رجاءً أو خوفًا أو خشوعًا أو خضوعًا ، بل يكونوا كما أمر نبينا ﷺ أن يقول : ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣] .

٤- جاء في الصحيح أن من نسب لله تعالى الولد فقد شتمه تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا ، وهو قوله عليه الصلاة والسلام : «**قال الله تعالى : كذَّبني ابنُ آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياي فقوله : لن يعيدني كما بدأني ، وليس أولُ الخلق بأهونَ عليَّ من إعادته ، وأما شتمه إياي فقوله : اتخذ الله ولداً ، وأنا الأحدُ الصَّمد ، لم ألد ولم أولد ، ولم يكن لي كفواً أحد**»[1] .

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٨/ ٧٣٩) عن أبي هريرة ، وفي بدء الخلق (٦/ ٢٨٧). وأخرجه في التفسير أيضًا (٨/ ١٦٨) عن ابن عباس .

٥- وجاء في فضل تهليل الله تعالى وتوحيده أحاديث جمة تقال في مواضع عديدة ، لتجديد التوحيد والإيمان بالله سبحانه ووحدانيته ، لما في ذلك من دفع المسلم للخير والعمل الصالح ، إذ أن منبعه هو التوحيد الخالص .

فمنها حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : **«من قال لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له ، له الملكُ ، وله الحمدُ وهو على كل شيء قدير في اليوم مائة مرة ، كانت له عَدْلَ عشرِ رقاب ، وكتبت له مائةُ حسنة، ومُحيتْ عنه مائة سيئة ، وكانت له حِرْزًا من الشيطان يومَه ذلك حتى يُمسي ، ولم يأتِ أحدٌ بأفضلَ مما جاء به ، إلا رجلٌ عمل أكثر منه»** [1].

ومنها ما يقال في دبر الصلوات المكتوبات .

٦- عدلت السورة التي جاء فيها هذان الاسمان ثلث القرآن كما في الحديث الصحيح [2].

❋ ❋ ❋

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٦/٣٣٨) وفي الدعوات (١١/٢٠١) ومسلم في الذكر والدعاء (٤/٢٠٧١) عن أبي صالح عن أبي هريرة به .

(٢) انظر تخريجه والكلام عليه في الكلام على اسمه (الصمد) .

الصَّمد
جَلَّ جلالُه وتقدَّست أسماؤُه
(٧١)

*** المعنى اللغوي :**

صَمَدَه يَصمدُهُ صَمْدًا ، وصَمَدَ إليه كلاهما : قَصَدَه .

والصَّمَدُ : السيد المطاع الذي لا يُقضى دونه أمر .

وقيل : هو الذي يُصمد إليه في الحوائج أي يُقصد ، وأنشد الجوهري :

علوتُه بحسامٍ ثم قلتُ له ... خُذْها حذيفُ فأنتَ السَّيدُ الصَّمد

وأصْمَدَ إليه الأمر : أسنده .

والمصْمَدُ : لغة في المُصْمت وهو الذي لا جوف له .

والصَمْدُ : المكان المرتفع الغليظ من الأرض(١) .

*** وروده في القرآن الكريم :**

ورد مرةً واحدةً في قوله تعالى : ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ**﴾ [الإخلاص: ١، ٢] .

*** معنى الاسم في حق الله تعالى :**

قال ابن جرير رحمه الله : واختلف أهل التأويل في معنى (الصمد)

---

(١) «الصحاح» (٢/٤٩٩) ، «اللسان» (٤/٢٤٩٥ ـ ٢٤٩٦) ، «اشتقاق الأسماء» (ص٢٥٢ ـ ٢٥٣) ، و«الكتاب الأسنى» للقرطبي (ورقة ٢٩١ أ ـ ب) .

فقال بعضهم : هو الذي ليس بأجوف ولا يأكل ولا يشرب .

ذِكْرُ من قال ذلك [١] .

قال مجاهد : (الصمد) المصمت الذي لا جوف له [٢] .

وقال الحسن : (الصمد) الذي لا جوف له ، وعن عكرمة مثله [٣] .

وقال الشعبي : (الصمد) الذي لا يَطْعم الطعام .

وقال : الذي لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب [٤] .

ثم قال ابن جرير : وقال آخرون : هو الذي لا يخرج منه شيء .

ذكر من قال ذلك :

قال عكرمة : (الصمد) الذي لم يخرج منه شيء ، ولم يلد ولم يولد .

وفي رواية أخرى : الذي لا يخرج منه شيء [٥] .

ثم قال ابن جرير : وقال آخرون هو الذي لم يلد ولم يولد .

ذكر من قال ذلك [٦] .

وقال آخرون : هو السيد الذي قد انتهى سؤدده .

ذكر من قال ذلك :

قال أبو وائل : الصمد هو السَّيدُ الذي قد انتهى سؤدده [٧] .

---

(١) وسوف نقتصر على إيراد ما صح من الآثار دون ذكر أسانيدها ، كعادتنا في هذا الكتاب .

(٢) «جامع البيان» (٣٠/ ٢٢٢) وقد رواه بسندين صحيحين عنه .

(٣) المصدر السابق ، رواه بسندين صحيحين عن الحسن ، وبسند صحيح عن عكرمة .

(٤) المصدر السابق ، رواه بثلاثة أسانيد صحيحة .

(٥) المصدر السابق (ص٢٢٣) أخرجهما عنه بسندين صحيحين .

(٦) ذكر بعده آثاراً لا تصح ، وقد تقدم عن عكرمة مثله .

(٧) «جامع البيان» (٣٠/ ٢٢٣) عنه بسندين صحيحين .

وقال آخرون : بل هو الباقي الذي لا يفنى .

ذكر من قال ذلك :

كان الحسن وقتادة يقولان : الباقي بعد خلقه ، قال : هذه سورة خالصة ليس فيها ذكر شيء من أمر الدنيا والآخرة[1] .

وقال قتادة : (الصمد) : الدائم [2].

قال أبو جعفر : الصمد عند العرب هو : السيد الذي يُصمد إليه ، الذي لا أحد فوقه ، وكذلك تُسمي أشرافها ، ومنه قول الشاعر :

ألا بكر النَّاعي بخَيري بني أسد بعمرو بنِ مسعود وبالسَّيِّدِ الصَّمَد

فإذا كان ذلك كذلك ، فالذي هو أولى بتأويل الكلمة المعنى المعروف من كلام من نزل القرآن بلسانه» ا هـ [3].

وقال أبو عبيدة ﴿**اللَّهُ الصَّمَدُ**﴾ : هو الذي يُصمد إليه ، ليس فوقه أحدٌ ، والعرب كذلك تسمي أشرافها [4].

وقال الزجاج : وأصحُّه : أنه السيد المصمود إليه في الحوائج [5].

---

(١) المصدر السابق ، وسنده حسن .

(٢) المصدر السابق (٣٠/٢٢٣ ـ ٢٢٤) وسنده صحيح .

(٣) «جامع البيان» باختصار ، وانظر «مجموع الفتاوى» (١٧/٢١٩ ـ ٢٢٥) لشيخ الإسلام فقد ذكر أكثر هذه الآثار بأسانيدها .

(٤) «مجاز القرآن» (٢/٣١٦) .

(٥) «تفسير الأسماء» (ص٥٨) وبنحوه قال الزجاجي في «اشتقاق الأسماء» (ص٢٥٢) ، والحليمي في «المنهاج» (١/٢٠١) وذكره في الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص٥٨) .

وقال الخطابي : (الصَّمد) هو السيد الذي يُصمد إليه في الأمور ، ويقصد في الحوائج والنوازل ، وأصل الصَّمْد : القَصْدُ ، ويقال للرجل : اصْمِد صَمْدَ فلان ، أي : اقصد قصده ، وجاء في التفسير : أن الصمد: الذي قد انتهى سؤدده .

وقيل (الصمد) : الدائم .

وقيل : الباقي بعد فناء الخلق .

وأصحُّ هذه الوجوه ، ما شهد له معنى الاشتقاق ، والله أعلم (1).

وقال الشنقيطي : من المعروف في كلام العرب إطلاق الصمد على السيد العظيم ، وعلى الشيء المصمت الذي لا جوف له ، فمن الأول قول الزبرقان:

سِيروا جميعًا بنصفِ الليل واعْتَمروا ولا رهينةَ إلا سَيدٌ صَمد

ومن الثاني قول الشاعر :

شِهابُ حُرُوبٍ لا تزالُ جِيادُهُ عَوَابِس يَعْلكنَ الشَّكيم المُصْمَدا

فإذا علمت ذلك ، فالله تعالى هو السيد الذي وحده الملجأ عند الشدائد والحاجات ، وهو الذي تنزَّه وتقدس وتعالى عن صفات المخلوقين كأكل الطعام ونحوه ، سبحانه وتعالى عن ذلك علوًا كبيرًا (2).

---

(1) «شأن الدعاء» (ص58) .

قال القرطبي في «الأسنى» (ورقة 292ب) بعد ذكره لقول الخطابي (وأصح ما قيل فيه ما يشهد له الاشتقاق) : قلت : وهو قول أهل اللغة أجمعين ، فيما ذكر ابن الأنباري ، وقال القشيري : وهو الصحيح ولم يذكر أبو حامد غيره .

(2) «أضواء البيان» (2/187) .

وقال ابن القيم في نونيته :

وهو الإله السَّيِّدُ الصَّمدُ الذي حَمَدَتْ إليه الخَلْقُ بالإذْعَان

الكاملُ الأوْصَافِ كَماله ما فيه من كلِّ الوُجُوه مِن نُقْصَان[1]

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

كلُّ ما سبق من الأقوال يصح أن يُوصف به ربُّنا سبحانه وتعالى ، كما قال الحافظ الطبراني في كتابه «السنة» - كما في «تفسير ابن كثير» (٤/ ٥٧٠) بعد إيراده كثيرًا من هذه الأقوال في تفسير (الصَّمد) قال : وكل هذه صحيحة وهي صفات ربنا عزَّ وجل، هو الذي يُصْمَدُ إليه في الحوائج ، وهو الذي قد انتهى سُؤدده ، وهو الصمد الذي لا جوفَ له ، ولا يأكل ولا يشرب ، وهو الباقي بعد خلقه .

وقال البغوي : والأولى أنْ يُحمل لفظ (الصَّمد) على كل ما قيل فيه لأنه محتملٌ له ، فعلى هذا يقتضي أن لا يكون في الوجود صمدٌ سوى الله تعالى ، العظيم القادر على كل شيء ، وأنه اسم خاص بالله تعالى انفرد به ، له الأسماء الحسنى والصفات العليا ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾[2] .

ولنفصِّل ما تُوجبه تلك المعاني من آثار إيمانية في قلب المؤمن بالله تعالى وصفاته .

فنقول :

١- قد احتوى هذا الاسم على أوصافٍ عظيمة ومدائح جميلة لربنا جل في علاه ، لا تنبغي إلا لمن تناهى سؤدده ، وعَظُمَ فضله وجُوده

---

(١) «النونية» (٢/ ٢٣١ - ٢٣٢) .

(٢) «معالم التنزيل» (٧/ ٣٢١) .

وهو الله وحده .

فقد قالوا إن معنى (الصمد) : هو الذي ليس بأجوف أو لا جوف له ولا يأكل ولا يشرب .

وهو كذلك فإنه سبحانه الغني عن كل شيء ، وهذا من صفات كماله كما قال سبحانه : ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤] .

وقال : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨] .

وقد ردَّ الله تعالى على النصارى الذين قالوا بإلهية عيسى عليه الصلاة والسلام بقوله : ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥] .

فدلت الآية على أن الإله الحق ينبغي أن يكون مستغنيًا عن الطعام والشراب .

٢- وقالوا : إن معنى (الصمد) : هو الذي لم يَلد ولم يُولد .

وهذا حقٌّ أيضًا ، فقد نفى الله سبحانه أن يكون له مثيل أو نظير أو مكافئ في آيات لا تُحصر ، كقوله تعالى : ﴿تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] وقوله : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤] وغيرها .

وإذا ثبت إنه ليس لله تعالى مثيل ، بطل أن يكون متولدًا من شيء ، ذ الشيء لا يتولد إلا عن جنسه .

وبثبوت ما سبق ـ وهو أنه ليس لله تعالى مثيل ـ يبطل أن يكون لله

ولد ، إذ الولد لا يكون إلا عن زوجة ، والزوجة منتفية لعدم المثيل ، فينتفي الولد تبعًا .

قال سبحانه : ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الانعام: ١٠١] .

٣- وقالوا : إن (الصمد) هو السيد الذي قد انتهى سؤدده .

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله : (الصمد) السيد الذي قد كَمُلَ في سؤدده ، والشريف الذي قد كمل في شرفه ، والعظيم الذي قد كمل في عظمته ، والحليم الذي قد كمل في حلمه ، والغني الذي قد كمل في غناه ، والجبار الذي قد كمل في جبروته ، والعالم الذي قد كمل في علمه ، والحكيم الذي قد كمل في حكمته ، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد ، وهو الله سبحانه هذه صفته لا تنبغي إلا له[1].

فصفات السؤدد كلها كاملة له ، لا يشاركه في هذا شيء من مخلوقاته .

٤- وقالوا : إن (الصمد) الباقي الذي لا يفنى .

وهذ حقٌّ لا مرية فيه فإنه سبحانه أولٌ بلا ابتداء، دائمٌ بلا انتهاء، كما قال سبحانه عن نفسه : ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣] وفسَّره النبي ﷺ بقوله : «اللهم أنتَ الأولُ فليس قبلك شيء ، وأنت

---

(١) رواه ابن جرير (٣٠/٢٢٣) وابن أبي حاتم ـ كما في «مجموع الفتاوى» (١٧/ ٢٢٠) عن علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس به ، وفي روايته عن ابن عباس انقطاع ، قال دحيم : لم يسمع التفسير من ابن عباس : وقال أبو حاتم : علي بن أبي طلحة عن ابن عباس مرسل إنما يروي عن مجاهد والقاسم بن محمد ، انظر «جامع التحصيل» (ص ٢٩٤) .

الآخر فليس بعدك شيء»[1].

وقال تعالىٰ : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧] .

وكل ما سبق ذكره من صفات السؤدد والكمال ، باقية له لم تزل ولا تزال ـ كذلك أبديًا ـ لا يطرأ عليها النقص ولا الآفات ولا الاختلال ، كما هو شأن المخلوق الذي يكون سؤدده وكماله في حال دون حال ، فسبحان الواحد الصمد ذي العزة والجلال .

قال الأُقْليشي : فعلىٰ هذا يتشعَّبُ من صفات الصمد صفات السؤدد كلها من الجود والحلم وغير ذلك .

وإذا قلنا إن (الصمد) هو العالي من قولهم : بناءٌ مصمدٌ ، ومكان مرتفع فيتشعب من صفات (الصمد) صفات التعالي كلها من العزة والقهر والعُلو إلىٰ غير ذلك مما يضاهيه .

وإذا قلنا إن (الصمد) مأخوذٌ من قولهم : شيء مصمدٌ إذا لم يكن أجوف ، ففيه نفي التركيب عن الله تعالىٰ ، وأنه لا بعض له كما قلنا في (الأحد) وإلىٰ هذا أشار من قال : (الصمد) لا جوف له ، ومن قال : هو الذي لا يَطْعَم ، ومن قال : هو الذي لم يلد ولم يولد ، ومن قال : هو الباقي الدائم .

فترجع حقيقة الصمدانية في حقه إلىٰ قيامه بذاته واستغنائه عن غيره ، واحتياج كل شيء إليه ، فهي صفةٌ ذاتية له سبحانه وتعالىٰ ، تارة دون إضافة إذا نُظِرَ إلىٰ عين ذاته وصَمَدانيته ، وتارة بإضافة إذا نُظر إلىٰ صمد

---

(١) رواه مسلم (٤/ ٢٠٨٤) .

الخلق إليه وقيامهم به واحتياجهم إليه في جميع أمورهم[1] .

٥- ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في معنى هذا الاسم لغةً ، وفي حق الله تعالى ، وما يتضمنه من الصفات الجليلة بحثٌ موسع طيب ننقل منه ما يناسب هذا الموضع ، قال رحمه الله :

وأما اسم (الصمد) فقد استعمله أهل اللغة في حق المخلوقين ، كما تقدم ، فلم يقل الله صمد ، بل قال ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ فبين أنه المستحق، لأن يكون هو الصمد دون ما سواه ، فإنه المستوجب لغايته على الكمال، والمخلوق وإن كان صمداً من بعض الوجوه ، فإن حقيقة الصمدية منتفية عنه ، فإنه يقبل التفرق والتجزئة ، وهو أيضًا محتاج إلى غيره ، فإن كل ما سوى الله محتاج إليه من كل وجه ، فليس أحد يصمد إليه كل شيء ولا يصمد هو إلى شيء إلا الله تبارك وتعالى ، وليس في المخلوقات إلا ما يقبل أن يتجزأ ويتفرق ويتقسم ، وينفصل بعضه من بعض ، والله سبحانه هو الصمد الذي لا يجوز عليه شيء من ذلك ، بل حقيقة الصمدية وكمالها له وحده واجبة لازمة لا يمكن عدم صمديته بوجه من الوجوه ، كما لا يمكن تثنية أحديته بوجه من الوجوه ، فهو أحد لا يماثله شيء من الأشياء بوجه من الوجوه ، كما قال في آخر السورة ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ استعملها هنا في النفي أي ليس شيء من الأشياء كفوا له في شيء من الأشياء لأنه أحد .

وقال رجل للنبي ﷺ : أنت سيدنا فقال : «السيد الله»[2] ودلَّ قوله :

---

(١) «الكتاب الأسنى» (ورقة ٢٩٣ أ) .

(٢) حديث صحيح ، أخرجه أحمد (٤/ ٢٤ ـ ٢٥) وأبو داود (٤٨٠٦) وغيرهما من طرق عن مطرف بن عبد الله بن الشِّخِّير به ، وسيأتـي تخريجـه في القسم الآخر من الكتاب إن شاء الله تعالى .

(الأحد ، الصمد) ، على أنه لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، فإن الصمد هو الذي لا جوف له ولا أحشاء ، فلا يدخل فيه شيء ، فلا يأكل ولا يشرب سبحانه وتعالىٰ كما قال : ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ﴾ وفي قراءة الأعمش وغيره : (ولا يَطعم) بالفتح . وقال تعالىٰ : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ ومن مخلوقاته الملائكة ، وهم صمد لا يأكلون ولا يشربون ، فالخالق لهم جلَّ جلاله أحق بكلِّ غنىً وكمال جعله لبعض مخلوقاته ، فلهذا فسر بعض السلف (الصمد) بأنه : الذي لا يأكل ولا يشرب ، والصمد المصمد الذي لا جوف له ، فلا يخرج منه عين من الأعيان ، فلا يلد .

ولذلك قول من قال من السلف : هو الذي لا يخرج منه شيء ، ليس مرادهم أنه لا يتكلم ، وإن كان يقال في الكلام إنه خرج منه ، كما قال في الحديث : «**ما تَقرَّب العباد إلىٰ الله بشيء أفضل مما خرج منه**» يعني القرآن[1] .

---

(١) حديث ضعيف ، أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٨)، والترمذي في فضائل القرآن (٥/ ١٧٦/ ٢٩١١) عن بكر بن خنيس عن ليث بن أبي سليم عن زيد بن أرطاة عن أبي أمامة مرفوعًا به وأوله: «**ما أذن الله لعبد في شيء أفضل من ركعتين يصليهما ..**» قال الترمذي : حديث غريب ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وبكر بن خنيس قد تكلم فيه ابن المبارك وتركه في آخر عمره ، وقد رُوي هذا الحديث عن زيد بن أرطاة عن جبير بن نفير عن النبي ﷺ مُرسل اهـ .

ثم ساقه كما ذكر مرسلاً بلفظ : «**إنكم لن ترجعوا إلىٰ الله بأفضل مما خرج منه ، يعني القرآن**» . وفي سنده أيضًا : ليث بن أبي سليم كان قد اختلط .

والحديث أخرجه أيضًا عبد الله في «السنة» (١/ ١٤٠) بالطريق الثاني . =

وقال أبو بكر الصديق لما سمع قرآن مسيلمة : إنَّ هذا لم يخرج من إله .

فخروج الكلام من المتكلم هو بمعنى أنه يتكلم به فَيُسْمع منه ، ويبلغ إلى غيره ليس بمخلوق في غيره، كما يقول الجهمية ، ليس بمعنى أنَّ شيئًا من الأشياء القائمة به يفارقه، وينتقل عنه إلى غيره ، فإن هذا ممتنع في صفات المخلوقين ، أن تفارق الصفة محلها ، وتنتقل إلى غير محلها ، فكيف بصفات الخالق جل جلاله، وقد قال تعالى : في كلام المخلوقين : ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥] وتلك الكلمة هي قائمة بالمتكلم، وسمعت منه ليس خروجها من فيه ، أن ما قام بذاته من الكلام فارق ذاته، وانتقل إلى غيره، فخروج كل شيء بحسبه ، ومن شأن العلم والكلام إذا استفيد من العالم والمتكلم أن لا ينقص من محله، ولهذا شبه بالنور الذي يقتبس منه كل أحد الضوء ، وهو باق على حاله لم ينقص ، فقول من قال من السلف : الصمد هو الذي لم يخرج منه شيء ، كلام صحيح ، بمعنى أنه لا يفارقه شيء منه.

ولهذا امتنع عليه أن يلد وأن يولد ، وذلك أن الولادة والتولد وكل ما يكون من هذه الألفاظ لا يكون إلا من أصلين ، وما كان من المتولد عينًا قائمة بنفسها فلا بد لها من مادة تخرج منها ، وما كان عرضًا قائمًا بغيره فلا بدله من محل يقوم به، فالأول نفاه بقوله: (أحد)، فإن الأحد هو الذي لا كفؤ له ولا نظير، فيمتنع أنْ تكون له صاحبة ، والتولد إنما يكون بين شيئين ، قال تعالى : ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١] فنفى سبحانه الولد بامتناع لازمه عليه،

= لكن قد صح موقوفًا على خباب رضي الله عنه، انظر «السنة» لعبد الله (١/ ١٤١ -١٤٢).

فإن انتفاء اللازم يدل على انتفاء الملزوم ، وبأنه خالق كل شيء ، وكل ما سواه مخلوق له ، ليس فيه شيء مولود له.

والثاني : نفاه بكونه سبحانه الصمد ، وهذا المتولد من أصلين يكون بجزئين ينفصلان من الأصلين ، كتولد الحيوان من أبيه وأمه بالمني الذي ينفصل من أبيه وأمه ، فهذا التولد يفتقر إلى أصل آخر ، وإلى أنْ يخرج منهما شيء ، وكل ذلك ممتنع في حق الله تعالى ، فإنه أحَدٌ فليس له كُفُؤٌ يكون صاحبة ونظيراً ، وهو صمد لا يخرج منه شيء ، فكل واحد من كونه أحدًا ، ومن كونه صمدًا يمنع أن يكون والدًا ، ويمنع أنْ يكون مولودًا بطريق الأولى والأحرى ا هـ[1].

٦- وإذا كان ربنا كذلك فينبغي على العباد أن لا يلجأوا إلا إليه ، ولا يطلبوا إلا منه ، فهو سبحانه السيد الصمد الذي لا شيء فوقه بيده الخير، وهو على كل شيء قدير .

قال القرطبي : فيجب على كل مكلف أن يعلم أن لا صمدانية ولا وحدانية إلا لله وحده ، فلا يقصد غيره ولا يلجأ في حوائجه إلا إليه .

ثم عليه أن يَتخلّق بأخلاق السيادة والسادة حتى يكون مصمودًا ، وبابه مقصودًا ، روى هشام بن عروة عن أبيه قال : أدْركتُ سعد بن عبادة ومناد ينادي على أُطمة : من أحب شحمًا ولحمًا فليأت سعدًا ، ثم أدركت ابنه قيسًا ينادي مثل ذلك[2] .

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٧/ ٢٣٨ ـ ٢٤١) .

(٢) «الكتاب الاسنى» (ورقة ٢٩٤ آ) .

والأثر عزاه الحافظ في الإصابة (٢/ ٣٠) إلى الدارقطني في كتاب «الأسخياء» وزاد: وكان سعد يقول : اللهم هبْ لي مجدًا ، لا مجدَ إلا بفعال ، ولا فعال إلا بمال ، اللهم إنه =

٧- جاء في الصحيح أن سورة الإخلاص - التي ورد فيها (الصمد) و(الأحد) تعدل ثلث القرآن ، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ لأصحابه : «**أيعجز أحدُكم أن يقرأ ثلثَ القرآن في ليلة؟**» فشقَّ ذلك عليهم وقالوا : أيُّنا يطيقُ ذلك يا رسول الله؟ فقال : «**الله الواحدُ الصَّمدُ ثلث القرآن**» (١).

وفي رواية : «**إنَّ الله جزَّأ القرآن ثلاثةَ أجزاء ، فجعل ﴿قل هو الله أحد﴾ جُزءاً من أجزاء القرآن**» (٢).

قال القرطبي: اشتملت هذه السورة على اسمين من أسماء الله تعالى، يتضمنان جميع أصناف الكمال ، لم يُوجدا في غيرها من السور ، وهما: (الأحد - الصَّمد) لأنهما يدلان على أحَدية الذات المقدسة الموصوفة بجميع أوصاف الكمال ، وبيان ذلك :

أن (الأحد) يُشعر بوجوده الخاص الذي لا يشاركه فيه غيره .

و (الصَّمد) يُشعر بجميع أوصاف الكمال ، لأنه الذي انتهى إليه سؤدده فكان مرجع الطلب منه وإليه .

ولا يتم ذلك على وجه التحقيق إلا لمن حَازَ جميع خصالِ الكمال ،

= لا يصلحني القليل ولا أصلح عليه .

ثم ذكر عن محمد بن سيرين قال : كان سعد بن عبادة يعشي كل ليلة ثمانين من أهل الصُّفَّة .

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٩/ ٥٩) عن أبي سعيد الخدري.

وله لفظ آخر مع قصة أخرجه البخاري (٩/ ٥٨ - ٥٩) ، (١١/ ٥٢٥) ، (١٣/ ٣٤٧) عنه أيضًا وأخرجه مسلم (١/ ٥٥٧) عن عائشة . وأخرجه مسلم (١/ ٥٥٧) عن أبي هريرة مرفوعًا به .

(٢) أخرجه مسلم (١/ ٥٥٦) عن أبي الدرداء مرفوعًا به .

وذلك لا يصلح إلا لله تعالى ، فلما اشتملت هذه السورة على معرفة الذات المقدسة ، كانت بالنسبة إلى تمام المعرفة بصفات الذات وصفات الفعل ثلثًا[1] .

وقيل غير ذلك في معناه .

من ذلك ما نقله في «الأسنى» : وقد قيل : إن (قل هو الله أحد) إنما عَدَلَتْ ثلث القرآن ـ على ما جاء في الصحيح ـ لأجل هذا الاسم يعني (الصمد) الذي لا يوجد في غيرها من السور وكذلك أحد ، والله أعلم .

وقيل : إن القرآن أُنزل أثلاثًا : ثلث منه أحكام ، وثلثٌ منه وعدٌ ووعيد ، وثلثٌ منه أسماء وصفات ، وقد جمعت ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أحد الأثلاث وهو الأسماء والصفات فقيل إنها ثلث القرآن ، ودلَّ على هذا التأويل ما في «صحيح مسلم» من حديث أبي الدرداء عن النبي ﷺ : «**إنَّ الله جزَّأ القرآن ثلاثة أجزاء ، فجعل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ جُزءاً من أجزاء القرآن**»[2] .

* * *

(1) «الفتح» (9/61) .

(2) «الأسنى» (ورقة 293 ب) .

القَادر ـ القَدير ـ المُقْتَدر
جَلَّ جلالُه وتقدَّست أسماؤُه

(٧٢ ـ ٧٤)

* المعنى اللغوي :

القَدْرُ والقُدْرة والمقْدار : القوةُ ، وقَدَرَ عليه يَقدِر ويقدُر ، وقَدِر قُدْرةً واقْتَدر وهو قادر وقدير ، والاسم من كل ذلك المَقْدَرةُ والمقدُرة والمقدِرة[1] .

والاقتدار على الشيء : القُدرة عليه .

ورجلٌ ذو قُدْرة ، أي ذو يسار .

وقَدَرْتُ الشيء أقْدُرُه وأقْدِره قَدْرًا ، من التقدير .

وفي الحديث : «إذا غُمَّ عليكم الهلال فاقْدروا له» أي : أتموا الثلاثين .

وقَدْرُ الشيء : مَبْلغه .

وقَدَرُ الله وقَدْرُه بمعنىً ، وهو في الأصل مصدر ، وقال الله تعالى : ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الحج: ٧٤] أي : ما عظموا الله حقَّ تعظيمه .

والقَدَرُ والقَدْرُ أيضًا : ما يُقدِّرُه الله عز وجل من القضاء .

وقُدِرَ على الإنسان رزقه قَدْرًا ، مثل : قُتِرَ[2] .

قال الأزْهَري : والتقدير على وجوه من المعاني :

(١) «اللسان» (٥/ ٣٥٤٦) مادة قدر .

(٢) «الصحاح» (٢/ ٧٨٦ ـ ٧٨٧) .

أحدها : التَّروية والتفكير في تسوية أمرٍ وتهيئته .

والثاني : تقديره بعلامات يُقطِّعُه عليها .

والثالث : أن تنوي أمرًا بِعَقْدِك تقول : قدَّرتُ أمر كذا وكذا ، أي: نويته وعقدت عليه[1] .

* الفرق بين هذه الأسماء :

قال الزجاجي : (القدير) أبلغ في الوصف بالقدرة من القادر ، لأن القادر اسم الفاعل من : قدر يقدر فهو قادر ، و(قدير) : فعيلٌ وفعيل من أبنية المبالغة ، وأكثر ما يجيء «فعيل» اسم الفاعل مما كان فعله على فعلٍ غير مُتعَدٍّ ، نحو : ظرف فهو ظريف ، وشرف فهو شريف يُراد بذلك المبالغة في الوصف بالظرف والشرف ، وكذلك جميع ما جاء على «فعيل» إنما هو للمبالغة في الوصف[2] .

وقال ابن الأثير : في أسماء الله تعالى : (القادر ، والمقتدر ، والقدير) فالقادر اسم الفاعل من قدر يقدر ، والقدير فعيلٌ منه وهو للمبالغة والمقتدر : مُفْتَعِل من اقْتَدَر وهو أبلغ[3] .

* ورود الأسماء في القرآن الكريم :

* ورد اسمه (القادر) اثنتي عشرة مرة ، خمسٌ منها بصيغة الجمع ، نورد منها : قوله تعالى : ﴿**قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ**﴾ [الأنعام: ٦٥] .

(١) «اللسان» (٥/٣٥٤٧) ، وانظر «المفردات» للراغب (ص٣٩٤ ـ ٣٩٦) .

(٢) «اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص٤٨) .

(٣) «النهاية» (٤/٢٢) .

وقوله : ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩٥] .

وقوله : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ﴾ [يس: ٨١] .

وقوله : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (٢١) إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴾ [المرسلات: ٢٠ - ٢٣] .

* وأما اسمه (القدير) فورد خمسًا وأربعين مرة منها :

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٠] .

وقوله : ﴿ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ١٤٨] .

وقوله : ﴿ إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ [النساء: ١٤٩] .

وقوله : ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة: ٤٠] .

وقوله : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنعام: ١٧] .

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الحج: ٦] .

وقوله : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [الحج: ٣٩] .

وقوله : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤] .

وقوله : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١].

* وأما (المقتدر) فقد ورد أربع مرات وهي :

قوله تعالى : ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥] .

وقوله : ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ [الزخرف: ٤١، ٤٢] .

وقوله : ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤٢].

وقوله : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥] .

*** معنى الأسماء في حق الله تعالى :**

*** أما (القادر) :**

فقال الزجاج : (القادر) : الله القادر على ما يشاءُ ، لا يُعجزُه شيء ولا يفوتُه مطلوب ، والقادر منَّا ـ وإن استحق هذا الوصف ـ فإن قدرتَه مستعارةٌ ، وهي عنده وديعة من الله تعالى ، ويجوز عليه العجزُ في حال والقدرةُ في أخرى .

والله تعالى هو القادر ، فلا يتطرَّقُ عليه العجزُ ، ولا يفوته شيء (١).

(١) «تفسير الأسماء» (ص٥٩) .

وقال الخَطَّابي : (القادر) : هو من القدرة على الشيء ، يُقال: قَدَرَ يقدرُ قُدْرةً فهو قادر وقدير ، كقوله تعالى : ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٧] ووَصَفَ الله نفسه بأنه قادرٌ على كل شيء أراده ، لا يَعترِضُه عجزٌ ولا فُتُور .

وقد يكون القادر بمعنى المُقدِّر للشيء ، يقال : قَدَّرتُ الشيء وقَدَرْتُه بمعنى واحد كقوله : ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٣] أي : نعم المُقَدِّرون ، وعلى هذا يُتأول قوله سبحانه : ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧] أي : لن نُقَدِّر عليه الخطيئة أو العقوبة إذ لا يجوز على نبي الله أن يظن عدم قدرة الله عز وجل في حال من الأحوال[1] .

وقال الحليمي : (القادر) قال الله عز وجل : ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٤٠] وقال : ﴿بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣] وهذا يدلُّ على معنى أنَّه لا يُعجزه شيء بل تَيَسر له ما يريد على ما يريد ، لأن أفعاله قَد ظهرت ، ولا يظهر الفعل اختياراً إلا من قادر غير عاجز ، كما لا يظهر إلا من حيٍّ عالم[2] .

وقال البيهقي : هو الذي له القدرة الشاملة ، والقدرة له صفة قائمة بذاته[3] .

* وأما (القدير) :

فقال ابن جرير عند قوله تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ

---

(١) «شأن الدعاء» (ص٨٦) .

(٢) «المنهاج» (١/ ١٩١) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات الابتداع والاختراع له ، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص٢١) .

(٣) «الاعتقاد» (ص٦٣).

وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠] : وإنما وَصَفَ الله نفسه ـ جلَّ ذكره ـ بالقَدْرَة على كل شيء في هذا الموضع ، لأنه حذَّر المنافقين بأسَه وسَطوته ، وأخبرهم أنه بهم مُحيط ، وعلى إذهاب أسماعهم وأبصارهم قدير ، ثم قال : فاتّقوني أيُّها المنافقون ، واحذروا خِداعي وخداع رسولي وأهل الإيمان بي ، لا أُحِل بكم نقمتي ، فإني على ذلك وعلى غيره من الأشياء قدير .

ومعنى (قدير) قادر ، كما معنى (عليم) : عالم ، على ما وصفتُ فيما تقدم من نظائره من زيادة معنى «فعيل» على فاعل في المدح والذَّم [1] .

وقال عند قوله تعالى : ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦] : ألم تعلم يا محمد أني قادر على تعويضه مما نسختُ من أحكامي وغيَّرتُه ، من فرائضي التي كنت افترضتها عليك ما أشاء ، مما هو خير لك ولعبادي المؤمنين معك وأنفع لك ولهم ، إما عاجلاً وإما آجلاً في الآخرة ، أو بأن أُبدِّل لك ولهم مكانه مثله في النَّفع لهم عاجلاً في الدنيا وآجلاً في الآخرة ، وشبيهه في الخفة عليك وعليهم . فاعلم يا محمد أني على ذلك وعلى كل شيءٍ قدير .

ومعنى قوله (قدير) في هذا الموضع : قويّ ، يقال منه : قد قَدَرْتُ على كذا وكذا ، إذا قويت عليه ، أقْدِرُ عليه ، وأقدُر عليه قدرةً وَقِدرانًا ومَقْدِرةً ، وبنو مُرة من غطفان تقول : قَدِرت عليه بكسر الدال .

فأما «التقدير» من قول القائل : قَدَّرْتُ الشيء ، فإنه يقال منه قَدَرْتُه

(١) «جامع البيان» (١/ ١٢٤) .

أقْدُرُهُ قَدْرًا وقَدَرًا [١].

وقال الحليمي : (القدير) وهو : التامُّ القدرة ، لا يُلابس قدرته عَجْزٌ بوجه[٢] .

وقال ابن القيم :

وهو القديرُ وليس يُعْجِزُهُ إذا ما رَامَ شيئًا قطُّ ذو سُلطان[٣]

وقال السعدي : (القدير) كامل القدرة ، بقدرته أوجد الموجودات ، وبقدرته دبَّرها ، وبقدرته سوَّاها وأحكمها ، وبقدرته يُحيي ويُميت ، ويبعث العباد للجزاء ، ويجازي المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، الذي إذا أراد شيئًا قال له : كن ، فيكون ، وبقدرته يُقلِّب القلوب ويصرفها على ما يشاء ويريد[٤] .

* وأما (المُقْتَدر) :

فقال ابن جرير في قوله تعالى: ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥] يقول عند ذي مِلْكٍ مقتدر على ما يشاء، وهو الله ذو القوة المتين تبارك وتعالى[٥] .

وقال الزَّجَّاج : «المقتدرُ» مبالغةٌ في الوصف بالقدرة ، والأصل في العربية أنَّ زيادة اللفظ زيادة المعنى ، فلما قلت : اقتدر ، أفادَت زيادةُ اللفظ زيادةَ المعنى [٦].

---

(١) المصدر السابق (١/ ٣٨٣) .

(٢) «المنهاج» (١/ ١٩٨) وذكره في الأسماء التي تتبع نفي التشبيه عن الله تعالى جده ، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص٤١) .

(٣) «النونية» (٢/ ٢١٨) .

(٤) «تيسير الكريم» (٥/ ٣٠١) .

(٥) «جامع البيان» (٢٧/ ٦٧) .

(٦) «تفسير الأسماء» (ص٥٩).

وقال الخطَّابي : (المقتدر) : هو التامُّ القدرة الذي لا يمتنعُ عليه شيء[1] ولا يَحتجزُ عنه بمَنَعةٍ وقوةٍ .

ووزنه : مُفْتَعِل ، من القدرة إلا أنَّ الاقتدار أبلغ وأعمُّ لأنه يقتضي الإطلاق ، والقدرة قد يدخلُها نوعٌ من التَّضمين بالمقدور عليه ، قال الله سبحانه : ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ أي : قادرٍ على ما يشاء[2].

وقال الحُليمي : (المقتدر) وهو المُظْهِرُ قدرته بفعلِ ما يقدر عليه ، وقد كان ذلك من الله تعالى فيما أمضاه ، وإنْ كان يَقْدِر على أشياء كثيرة لم يفعلها ، ولو شاء لفعلها ، فاستحقَّ بذلك أن يُسمى : مُقتدراً [3] .

*** ومن آثار الإيمان بهذه الأسماء :**

١- اتفق المسلمون وسائر أهل الملل على أن الله على كل شيء قدير[4].

لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، قال سبحانه : ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤] .

فلا يمتنع عليه شيء ـ جلَّ وعلا ـ ولا يفوته مطلوب ، بل له القدرة

(١) إلى هنا قاله البيهقي في «الاعتقاد» (ص٦٣) .

(٢) «شأن الدعاء» (ص٨٦) .

(٣) «المنهاج» (١/ ١٩٤) وذكره في الأسماء التي تتبع إثبات الابتداع والاختراع ، ونقله البيهقي (ص٢٨) .

(٤) حكى هذا الاتفاق شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٨/ ٧) وسيأتي ذكر اختلافهم في تفسير «الشيء» .

الشاملة الكاملة وهذا من صفات ذاته سبحانه ، ولم يزل سبحانه ذا قوة وقدرة ، ولم تزل قدرته موجودةً قائمة به مُوجبةً له حكم القادرين .

ومعنى قدرة الله تعالى : قدرته على الفعل ، والفعل نوعان : لازمٌ ومُتعدّ ، فالأفعال اللازمة هي تقوم بالفاعل ولا تتعدى إلى مفعول ، وقد ذُكرَ النوعان في قوله تعالى : ﴿هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش﴾ كما بينه شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله تعالى فقال : «فالاستواء والإتيان والمجيء والنزول ونحو ذلك أفعالٌ لازمة لا تتعدى إلى مفعول ، بل هي قائمةٌ بالفاعل ، والخلق والرزق ، والإماتة والإحياء ، والإعطاء والمنع ، والهدى والنصر والتنزيل ونحو ذلك ، تتعدى إلى مفعول» .

ثم بين اختلاف الناس في هذا فقال :

«والناس في هذين النوعين على ثلاثة أقوال :

فمنهم من لا يُثبت فعلاً قائمًا بالفاعل ، لا لازمًا ولا متعديًا ، أما اللازم فهو عنده مُنْتَفٍ ، وأما المتعدي : كالخلق فيقول : الخلق هو المخلوق ! أو معنى غير المخلوق ! وهذا قول الجهمية والمعتزلة ومن اتبعهم كالأشعري ومتبعيه ، وهذا أول قولي القاضي أبي يعلى وقول ابن عقيل .

والقول الثاني : إن الفعل المتعدي قائمٌ بنفسه دون اللازم فيقولون : الخلق قائم بنفسه ليس هو المخلوق، وهم على قولين: منهم من جعل ذلك الفعل حادثًا ، ومنهم من يجعله قديمًا فيقول : التخليق والتكوين أزلي!

والقول الثالث : إثباتُ الفعلين : اللازم والمتعدي كما دلَّ عليه القرآن، فنقول : إنه كما أخبر عن نفسه أنه خلق السموات والأرض في

ستة أيامٍ ثم استوى على العرش ، وهو قول السلف وأئمة السنة ، وهو قولُ من يقول : إنَّه تقوم به الصفات الاختيارية ـ كأصحاب أبي معاذ وزهير البابي وداود بن علي والكرامية وغيرهم من الطوائف ، وإن كانت الكرامية يقولون بأن النزول والإتيان أفعالٌ تقوم به ـ وهؤلاء يقولون : يقدر على أن يأتي بنفسه ويجيء وينزل ويستوي ونحو ذلك من الأفعال ، كما أخبر عن نفسه وهذا هو الكمال .

وقد صرَّح أئمة هذا القول بأنه يتحرك ، كما ذكر ذلك حرب الكرماني عن أهل السنة والجماعة ، وسمَّى منهم : أحمد بن حنبل وسعيد بن منصور وإسحاق بن إبراهيم وغيرهم ، وكذلك ذكره عثمان بن سعيد الدارمي عن أهل السنة ، وجعل نفي الحركة عن الله عز وجل من أقوال الجهمية التي أنكرها السلف ، وقال : كل حيٍّ متحرك ، وما لا يتحرك فليس بحي ، وقال بعضهم : إذا قال لك الجهمي : أنا كافرٌ برب يتحرك ، فقل : أنا مؤمن بربٍّ يفعل ما يشاء .

وهؤلاء يقولون : من جعل هذه الأفعال غير ممكنةٍ ولا مَقْدُورةٍ له فقد جعله دون الجماد ـ وإن كان لا يتحرك بنفسه ـ فهو يقبل الحركة في الجملة ، وهؤلاء يقولون : إنه تعالى لا يقبل ذلك بوجه ، ولا تمكنه الحركة ، والحركة والفعل صفةُ كمالٍ ، كالعلم والقدرة والإرادة ، فالذين ينفون تلك الصفات سلبوه صفات الكمال ، فكذلك هؤلاء الكُلاَّبِيَّة» .

ثم بيَّن أن الله تعالى لو لم يكن حيًا عليمًا سميعًا بصيرًا متكلمًا قادرًا للزم أن يكون ميتًا جاهلاً أصمًا أعمى أخرسًا عاجزًا ، وهذه نقائص يجب تنزيهه عنها ، فإنه سبحانه قد خلق من هو حي سميع بصير متكلم عالم قادر متحرك ، فهو أولى بأن يكون كذلك ، فإن كلَّ كمال في المخلوق

هو من كمال الخالق .

وقال: «وأيضًا فيقال لهم : رب العالمين إما أن يقبل الاتصاف بالحياة والعلم ونحو ذلك وإما أنْ لا يقبل ، فإن لم يقبل ذلك ولم يتصف به كان دون الأعمى الأصم الأبكم ، وإن قبلها ولم يتصف بها كان ما يتصف بها أكمل منه ، فجعلوه دون الإنسان والبهائم، وهكذا يقال لهم في أنواع الفعل القائم به : كالإتيان والمجيء والنزول وجنس الحركة ، إما أن يقبل ذلك وإما أن لا يقبله ، فإن لم يقبله ، كانت الأجسام التي تقبل الحركة ولم تتحرك أكمل منه ، وإن قَبِلَ ذلك ولم يفعله كان ما يتحرك أكمل منه، فإن الحركة كمالٌ للمتحرك ، ومعلوم أن من يمكنه أن يتحرك بنفسه أكمل ممن لا يمكنه التحرك ، وما يقبل الحركة أكمل ممن لا يقبلها.

والنفاةُ عمدتهم أنه لو قَبِل الحركة لم يَخْلُ منها ، ويلزم وجود حوادث لا تتناهى ! ثم ادَّعوا نفي ذلك! وفي نفيه نقائص لا تتناهى !

والمثبتون لذلك يقولون : هذا هو الكمال ، كما قال السلف : لم يزل الله متكلمًا إذا شاء ، كما قال ذلك ابن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهما ، وذكر البخاري عن نعيم بن حماد أنه قال : الحيُّ هو الفعَّال ، وما ليس بفعَّال فليس بحي(١) .

وقد عُرِف بطلان قول الجهمية وغيرهم بامتناع دوام الفعل والحوادث كما قد بسطَ في غير هذا الموضع .

والمقصود ههنا : أنَّ هؤلاء لا يجعلونه قادرًا على هذه الأفعال ، وهي أصل الفعل ، فلا يكون على كل شيء قدير - على قولهم - بل ولا على شيء ، وقد قال : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١] : قال ابن

---

(١) انظره في «خلق أفعال العباد» للبخاري مع اختلاف يسير (ص١١٧) بتحقيق الشيخ بدر البدر.

عباس ـ في رواية الوالبي عنه : هذه في الكفار ، فأما من آمن أنَّ الله على كل شيء قدير ـ فقد قدَّر الله حقَّ قدره[1] .

وذكروا في قوله : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ : ما عرفوه حق معرفته وما عظَّموه حق عظمته ، وما وصفوه حق وصفه، وهذه الكلمة ذكرها الله في ثلاثة مواضع : في الردِّ على المعطلة ، وعلى المشركين ، وعلى من أنكر إنزال شيء على البشر ، فقال في الأنعام : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١] وقال في الحج : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ـ إلى قوله تعالى ـ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [٧٣، ٧٤] وقال في الزمر : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [٦٧] .

وقد ثبت في الصحيحين من حديث ابن مسعود : «أن حَبْرًا من اليهود قال للنبي ﷺ : يا محمدُ ! إنَّ الله يومَ القيامة يجعلُ السموات على إصبع والأرض على إصبع ، والجبالَ والشجرَ على إصبع ، والماءَ والثَّرىٰ على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع ثم يَهُزُّهُنَّ ، ويقول : أنا الملكُ ، قال: فضحك رسول الله ﷺ تصديقًا لقول الحبر ، ثم قرأ : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ الآية .

وفي الصحيحين أيضًا عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «يَقْبِضُ الله الأرضَ يوم القيامة ، ويَطْوي السَّماء بيمينه ، ثم يقول : أنا

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٧/ ١٧٧) عن معاوية بن صالح بن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس به . ولم يذكر رواية الوالبي ، وهو علي بن ربيعة ثقة ، وعزاه السيوطي في الدُّر (٣/ ٣١٣) إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه .

الملكُ ، أين ملوكُ الأرض؟ ثم يقول : أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟» .

وكذلك في الصحيحين من حديث ابن عمر : «**يطوي الله السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول : أنا الملك . أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟**».

وفي لفظٍ لمسلم قال : «**يأخذُ الجبارُ تبارك وتعالى سَمَوَاته وأرضه بيديه جميعًا ، فجعل يقبضهما ويبسطهما ، ثم يقول : أنا الملك ، أنا الجبار وأنا الملكُ أين الجبارون؟! وأين المتكبرون؟!** ويميل رسول الله ﷺ عن يمينه وعن شماله حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه حتى إني لأقول : أساقطٌ هو برسول الله ﷺ؟» .

وفي السنن عن عوف بن مالك الأشجعي قال : «قمت مع رسول الله ﷺ ليلة فقام فقرأ سورة البقرة لا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل ، ولا يمر بآية عذاب إلا وقَفَ وتعوَّذ ، قال : ثم ركعَ بقدر قيامه يقول في ركوعه : «**سُبحانَ ذي الجَبَروت والملكوت والكبرياء والعظمة**» ثم يسجد بقدر قيامه ، ثم قال في سجوده : مثل ذلك ثم قام فقرأ : آل عمران : ثم قرأ سورة» رواه أبو داود والنسائي والترمذي في «الشمائل»[1] .

فقال في هذا الحديث : «**سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة**» وهذه الأربعةُ نُوزِعَ الربُّ فيها ، كما قال : «**أين الملوك؟! أين الجبارون ؟! أين المتكبرون؟!**» وقال عز وجل : «**العظمة إزاري ، والكِبْرياءُ ردائي ، فمن نَازَعَني واحدًا منها عذَّبتُه**»[2].

ونُفَاةُ الصفات ما قدروا الله حقَّ قدره ، فإنه عندهم لا يمسك شيئًا ،

---

(١) وسنده عندهم حسن ، وقد سبق تخريجه في الجزء الأول (ص١٤٩) .

(٢) أخرجه أبو داود (٤/ ٤٩٠) وابن ماجه (٢/ ٤١٧٤) وغيرهما عن أبي هريرة ، وسنده صحيح . وأخرجه مسلم (٤/ ٢٠٢٣) بنحوه عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة .

ولا يقبضه ولا يطويه ، بل كل ممتنع عليه ، ولا يقدر علىٰ شيء من ذلك ، وهم أيضًا في الحقيقة يقولون : ما أنزل الله علىٰ بشرٍ من شيء لوجهين :

أحدهما : إن الإنزال إنما يكون من علو ، والله تعالىٰ عندهم ليس في العلو فلم ينزل منه شيء ، وقد قال تعالىٰ : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ [الأنعام: ١١٤] ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ [الزمر: ١] إلىٰ غير ذلك ، وقولهم : إنَّه خَلَقه في مخلوق ونَزَل منه باطل ؛ لأنه قال : ﴿ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ ﴾ ولم يجئ هذا في غير القرآن ، والحديد ذكر أنه أنزله مطلقًا ، ولم يقل منه وهو مُنَزَّلٌ من الجبال ، والمطر أُنزل من السماء والمراد أنه أنزله من السحاب ، وهو المزن كما ذكر ذلك في قوله : ﴿ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ ﴾ [الواقعة: ٦٩] .

والثاني : أنه لو كان من مخلوق لكان صفة له وكلامًا له ، فإن الصفة إذا قامت بمحلٍ عاد حكمها علىٰ ذلك المحل ، ولأن الله لا يتصف بالمخلوقات ، ولو اتصف بذلك لاتصف بأنه مصوت إذا خلق الأصوات ومتحرك إذا خلق الحركات في غيره ، إلىٰ غير ذلك . إلىٰ أن قال : فقد تبين أن الجهمية ما قدروا الله حق قدره ، وأنهم داخلون في هذه الآية ، وأنهم لم يثبتوا قدرته لا علىٰ فعل ولا علىٰ الكلام بمشيئته ، ولا علىٰ نزوله ، وعلىٰ إنزاله منه شيئًا ، فهم من أبعد الناس عن التصديق بقدرة الله ، وأنه علىٰ كل شيء قدير ، وإذا لم يكن قديرًا لم يكن قويًا ، ويلزمهم أنه لم يخلق شيئًا ، فيلزمهم الدخول في قوله : ﴿ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤] .

فهم ينفون حقيقة قدرته في الأزل ، وحقيقة قولهم : إنه صار قادرًا

بعد أن لم يكن ، والقدرة التي يثبتونها لا حقيقة لها .

وهذا أصلٌ مهم ، من تصوَّره عرف حقيقة الأقوال الباطلة ، وما يلزمها من اللوازم ، وعرف الحق الذي دل عليه صحيح المنقول ، وصريح المعقول ، لا سيما في هذه الأصول التي هي أصول كل الأصول، والضالون فيها لما ضيعوا الأصول حرموا الوصول ، وقد تبين أنه كلما تحققت الحقائق وأعطي النظر والاستدلال حقه من التمام كان ما دلَّ عليه القرآن هو الحق ، وهو الموافق للمعقول الصريح الذي لم يشتبه بغيره مما يسمى معقولاً ، وهو مشتبه مختلط ، كما قال مجاهد في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾ [الأنعام: ١٥٩] قال : هم أهل البدع والشبهات ، فهم في أمور مبتدعة في الشرع ، مشتبهة في العقل» .

إلى أن قال : «والمقصود هنا التنبيه على تنازع الناس في مسألة «القُدرة» وفي الحقيقة أنه من لم يقل بقول السلف فإنه لا يثبت لله قدرةً ، ولا يثبته قادرًا ، فالجهميَّة ـ ومن تبعهم ـ والمعتزلة والقدرية والمجبرة والنافية حقيقة قولهم : إنه ليس قادرًا وليس له المُلك ، فإن الملكَ إما إن يكون هو القدرة أو المقدور أو كلاهما ، وعلى كل تقدير فلا بدَّ من القُدرة ، فمن لم يثبت له القدرة حقيقةً لم يُثبت له مُلْكًا ! كما لا يُثبتون له حمدًا!»[1] .

٢- في وجود المخلوقات التي لا تُحصى ، بتعدُّد أشكالها وبتنوُّع أصـنافها ، برهانٌ ساطع وآية ظاهرة على كمال قدرة الله تعالى ، وقد بسط الله سبحانه بيان ذلك في مواضع جمة من كتابه ، قال شيخ الإسلام في تتمة كلامه السابق : والمقصود إنه سبحانه عدلٌ لا يظلم ، وعدله

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٨/١٨ ـ ٣٠) مختصراً .

إحسانه إلىٰ خلقه ، فكل ما خلقه فهو إحسانٌ إلىٰ عباده ، ولهذا كان مستحقًا للحمد علىٰ كلِّ حال ، ولهذا لمَّا ذكر في سورة النجم أنواعًا من مقدوراته[1] ثم قال : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴾ فدلَّ علىٰ أنَّ هذه الأنعم مثل إهلاك الأمم المكذِّبة للرسل ، فإن في ذلك من الدلائل علىٰ قدرته وحكمته ، ونعمته علىٰ المؤمنين ونصره للرسل ، وتحقيق ما جاءوا به وأن السعادة في متابعتهم والشقاوة في مخالفتهم ما هو من أعظم النعم .

وكذلك ما ذكره في سورة الرحمن ، وكل مخلوق هو من آلائه من وجوه :

منها أنه يستدل به عليه وعلىٰ توحيده وقدرته وغير ذلك ، وأنه يحصل به الإيمان والعلم وذكر الرب ، وهذه النعمة أفضل ما أنعم الله به علىٰ عباده في الدنيا ، وكل مخلوقٍ يعين عليها ويدلُّ عليها ، هذا مع ما في المخلوقات من المنافع لعباده غير الاستدلال بها ، فإنه سبحانه يقول: ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ لمَّا يذكر ما يذكره من الآية ، وقال : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴾ والآلاء : هي النِّعم ، والنِّعم كلها من آياته الدالة علىٰ نفسه المقدسة ، ووحدانيته ونعوته ومعاني أسمائه ، فهي آلاء آياته ،

---

(١) وذلك في قوله تعالىٰ : ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ (٤٢) وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٤٥) مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ (٤٦) وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَىٰ (٤٧) وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ (٤٨) وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ (٤٩) وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَىٰ (٥٠) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ (٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ (٥٢) وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ (٥٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴾ [النجم: ٤٢ - ٥٥]، وفيها من ذكر قدرته وفعله وتصرفه في الخلق والإيجاد ، والبعث والمعاد ، وإهلاك الأمم والإبعاد ، لذكرىٰ لمن كان له قلبٌ أو ألقىٰ السمع وهو شهيد ، بأنه الله الواحد القادر علىٰ كل شيء .

وكل ما كان من آلائـه فهو مـن آياته ، وهذا ظاهر ، وكذلك كل ما كان من آياته فهو من آلائه ، فإنه يتضمَّنُ التعريف والهداية ، والدلالة على الرب تعالى ، وقدرته وحكمته ورحمته ودينه ، والهُدَى أفضل النعم.

وأيضًا : ففيها نِعَمٌ ومنافع لعباده غير الاستدلال ، كما في خَلْقِ الشمس والقمر والسحاب والمطر والحيوان والنبات ، فإنَّ هذه كلها من آياته ، وفيها نعمٌ عظيمةٌ على عباده غير الاستدلال ، فهي تُوجب الشكر لما فيها من النعم ، وتوجب التذكر لما فيها من الدلائل ، قال تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢] وقال : ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٨] ، فإن العبد يدعوه إلى عبادة الله داعي الشكر وداعي العلم ، فإنه يشهد نعم الله عليه وذلك داعٍ إلى شكرها ، وقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها ، والله تعالى هو المنعم المحسن الذي ما بالعباد من نعمة فمنه وحده .

وقد ذمَّ سبحانه من كفر بعد إيمانه كما قال : ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٦٣] الآية ، فهذه في كشف الضر ، وفي النعم قال: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢] أي : شكركم وشكر ما رزقكم الله ونصيبكم ، تجعلونه تكذيبًا وهو الاستسقاء بالأنواء» [(١)].

٣- اختلف الناس في تفسير ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠] مع تصديقهم بخبره سبحانه ، فقالت طائفة : إن هذا عامٌّ يدخل فيه الممتنع لذاته من الجمع بين الضدين ! قاله طائفة منهم ابن حزم .

وطائفة تقول : هذا عامٌّ مخصوص يخص منه الممتنع لذاته ، فإنه وإن كان شيئًا فإنه لا يدخل في المقدور ، كما ذكر ذلك ابن عطية وغيره!

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٣١ ـ ٣٢) .

وقد حكى القولين ابن تيمية رحمه الله وخَطَّأهما ثم قال : «والصواب وهو القول الثالث الذي عليه عامة النظار ، وهو : أن «الممتنع لذاته» ليس شيئًا ألبتة ، وإن كانوا متنازعين في المعدوم ، فإن الممتنع لذاته لا يمكن تحققه في الخارج ، ولا يتصوره الذهن ثابتًا في الخارج ، ولكن يقدر اجتماعهما في الذهن ، ثم يحكم على ذلك بأنه ممتنعٌ في الخارج ، إذ كان يمتنع تحققه في الأعيان ، وتصوره في الأذهان ، إلا على وجه التمثيل بأن يقال : قد تجتمع الحركة والسكون في الشيء ، فهل يمكن في الخارج أن يجتمع السواد والبياض في محل واحد ، كما تجتمع الحركة والسكون ، فيقال : هذا غير ممكن ، فيقدر اجتماع نظير الممكن ثم يحكم بامتناعه ، وأما نفس اجتماع البياض والسواد في محل واحد فلا يمكن ولا يعقل ، فليس بشيء لا في الأعيان ولا في الأذهان ، فلم يدخل في قوله ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١] » .

ثم قال : «المسألة الثانية : إن المعدوم ليس بشيءٍ في الخارج عند الجمهور ، وهو الصواب .

وقد يطلقون إن الشيء هو الموجود ، فيقال على هذا : فيلزم أن لا يكون قادرًا إلا على موجود ، وما لم يخلقه لا يكون قادراً عليه ، وهذا قول بعض أهل البدع ، قالوا : لا يكون قادراً إلا على ما أراده دون ما لم يرده ويُحكى هذا عن تلميذ النظام» .

إلى أن قال : «والتحقيق أن الشيء اسمٌ لما يوجد في الأعيان ولما يتصور في الأذهان ، فما قدَّره الله وعلم أنه سيكون هو شيء ، في التقدير والعلم والكتاب ، وإن لم يكن شيئًا في الخارج ، ومنه قوله

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] ولفظ الشيء في الآية يتناول هذا وهذا ، فهو علىٰ كل شيء ـ ما وجد وكل ما تصوره الذهن موجودًا ، إن تصور أن يكون موجودًا ـ قدير ، لا يستثنى من ذلك شيء ، ولا يزاد عليه شيء كما قال تعالىٰ : ﴿بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ [القيامة: ٤] . وقال : ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥] .

وقد ثبت في الصحيحين : أنها لما نزلت قال النبي ﷺ : «أعوذ بوجهك» فلما نزلت : ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ [الأنعام: ٦٥] الآية قال : «هاتان أهون» .

فهو قادرٌ علىٰ الأولتين وإن لم يفعلهما وقال : ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨] .

قال المفسرون : لقادرون علىٰ أن نذهبَ به حتىٰ تموتوا عطشًا ، وتهلك مواشيكم ، وتخرب أراضيكم ، ومعلوم أنه لم يذهب به ، وهذا كقوله : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ إلىٰ قوله : ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة : ٦٨ ـ ٨٢] وهذا يدل علىٰ أنه قادر علىٰ ما لا يفعله ، فإنه أخبر أنه لو شاء جعل الماء أُجاجًا وهو لم يفعله .

ومثل هذا : ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة: ١٣] ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٩٩] ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا﴾ [البقرة: ٢٥٣] فإنه أخبر في غير موضع أنه لو شاء لفعل أشياء وهو لم يفعلها ، فلو لم يكن قادرًا عليها لكان إذا شاءها لم يمكنه فعلها .

(المسألة الثالثة) : إنه علىٰ كل شيء قدير ، فيدخل في ذلك أفعال

العباد وغير أفعال العباد ، وأكثر المعتزلة يقولون : إنَّ أفعال العبد غير مقدورة .

(المسألة الرابعة) : إنه يدخل في ذلك أفعال نفسه ، وقد نطقت النصوص بهذا ، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس: ٨١] ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٤٠] ﴿بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ [القيامة: ٤] ونظائره كثيرة .

والقُدرة على الأعيان جاءت في مثل قوله : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ﴾ [ق: ١٦] ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ [البلد: ٥] وجاءت منصوصًا عليها في الكتاب والسنة ، أما الكتاب فقوله : ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ [الزخرف: ٤١] فبين أنه سبحانه يقدر عليهم أنفسهم ، وهذا نص في قدرته على الأعيان المفعولة، وقوله: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥] و ﴿لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢] ونحو ذلك ، وهو يدل بمفهومه على أنَّ الرب هو الجبار عليهم المسيطر ، وذلك يستلزم قدرته عليهم ، وقوله : ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧] ـ على قول الحسن وغيره من السلف ممن جعله من القدرة ـ دليل على أنَّ الله قادر عليه وعلى أمثاله .

وكذلك قول الموصي لأهله : «لئن قدر الله عليَّ ليُعَذبني عذابًا ما عذَّبه أحدًا من العالمين» . فلما حَرَّقوه أعاده الله تعالى وقال له : «**ما حملك على ما صنعت؟** قال : خشيتك يارب ! فغفر له»[1] وهو كان

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء (٦/ ٤٩٤) وفي الرقاق ، باب الخوف من الله (١١/ ٣١٢ ـ ٣١٣) والنسائي في الجنائز (٤/ ١١٣) عن ربعي بن حراش عن حذيفة به .

ورواه البخاري (٦/ ٥١٤ ـ ٥١٥) وفي التوحيد (١٣/ ٤٦٦) والنسائي (٤/ ١١٣) عن أبي ـ

مُخطئًا في قوله : «لئن قدر الله علي ليعذبني» كما يدلُّ عليه الحديث ، وأنَّ الله قَدرَ عليه لكن لخشيته وإيمانه غفر الله له هذا الجهل والخطأ الذي وقع منه .

وقد يستدل بقوله : ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ إلى قوله : ﴿فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٠، ٢٣] على قول من جعله من القدرة ، فإنه يتناول القدرة على المخلوقين وإنْ كان سبحانه قادرًا أيضًا على خلقه ، فالقدرة على خلقه قدرة عليه ، والقدرة عليه قدرة على خلقه ، وجاء أيضًا الحديث منصوصًا في مثل قول النبي ﷺ لأبي مسعود لما رآه يَضْرِبُ عبده «لله أقدرُ عليك منك على هذا»[1] . فهذا فيه بيان قدرة الرب على عين العبد ، وأنه أقْدرُ عليه منه على عبده ، وفيه إثبات قدرة العبد» .

ثم ذكر اختلاف الناس في قدرة الرب والعبد فقال :

وقد تَنَازع الناسُ في «قُدرة الربِّ والعبد» فقالت طائفة : كلا النوعين يتناول الفعل القائم بالفاعل ، ويتناول مقدوره وهذا أصحُّ الأقوال ، وبه نَطَقَ الكتاب والسنة ، وهو : أن كلَّ نوعٍ من القدرتين يتناول الفعل القائم ويتناول مقدوره وهذا أصحُّ الأقوال ، وبه نَطَقَ الكتاب والسنة ، وهو : أن كلَّ نوعٍ من القدرتين يتناول الفعل القائم بالقادر ومقدوره المباين له ، وقد تبيَّن بعض ما دل على ذلك في قدرة الرب .

وأما قدرة العبد : فَذِكْرُ قدرته على الأفعال القائمة به كثيرة ، وهذا متفقٌ عليه بين الناس الذين يثبتون للعبد قدرة ، مثل قوله : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ ما

= هريرة به .

ورواه البخاري (٦/ ٥١٤) ، (١٣/ ٤٦٦ ـ ٤٦٧) عن أبي سعيد الخدري به .

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان (٣/ ١٢٨٠ ـ ١٢٨١) وأحمد (٤/ ١٢٠) .

استطعتم﴾ [التغابن: ١٦] ﴿وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم﴾ [التوبة: ٤٢] الآية .

وقول النبي ﷺ : «صلِّ قائمًا ، فإنْ لم تستطع فقاعدًا ، فإن لم تستطع فعلى جنبك»[1] .

وأما المباين لمحلِّ القدرة ، فمثل قوله : ﴿وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها﴾ إلى قوله : ﴿وأخرى لم تقدروا عليها﴾ إلى ﴿قديرا﴾ [الفتح: ٢٠، ٢١] فدلَّ على أنهم قدروا على الأول ، وهذه يمكن أنْ يقدروا عليها وقتًا آخر ، وهذه قدرة على الأعيان وقوله : ﴿وغدوا على حرد قادرين﴾ إلى قوله: ﴿عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون﴾ [القلم: ٢٥ - ٣٢].

وأيضًا فالقرآن دلَّ على أنَّ المفعولات الخارجة مصنوعة لهم ، وما كان مصنوعًا لهم فهو مقدور بالضرورة والاتفاق ، والمنازع يقول : ليس شيء خارجًا عن محل قُدرتهم مصنوعًا لهم ، وهذا خلاف القرآن قال تعالى لنُوح : ﴿واصنع الفلك بأعيننا ووحينا﴾ [هود: ٣٧] وقال : ﴿ويصنع الفلك﴾ [هود: ٣٨] وقد أخبر أنَّ الفلك مخلوقة مع كونها مصنوعة لبني آدم وجعلها من آياته ، فقال: ﴿وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون﴾ [يس: ٤١] ﴿سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره﴾ [الحج: ٦٥][2] ﴿وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون﴾ [الزخرف: ١٢] وقال : ﴿قال أتعبدون ما تنحتون (٩٥) والله خلقكم وما تعملون﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦] .

---

(١) أخرجه البخاري في تقصير الصلاة (٢/٥٨٧) من حديث عمران بن حصين .

(٢) في مطبوعة «الفتاوى» : ﴿وسخر لكم ما في الأرض والفلك ..﴾ وهو خطأ ، فالآية أولها ﴿ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض ..﴾ .

فجعل الأصنام منحوتةً مَعْمُولة لهم ، وأخبر أنه خالقُهم ، وخالقُ معمولهم فإن «ما» ههنا : بمعنى الذي ، والمراد خلق ما تعملونه من الأصنام ، وإذا كان خالقًا للمعمول وفيه أثر الفعل ، دل على أنه خالقٌ لأفعال العباد . وأما قول من قال : إن «ما» مصدرية فضعيف جدًا .

وقيل بل الرب تعالى لا يقدر إلا على المخلوق المنفصل لا يقوم به فعل يقدر عليه ، والعبد لا يقدر إلا على ما يقوم بذاته ، لا يقدر على شيء منفصل عنه ، وهذا قول الأشعري ومن وافقه من أتباع الأئمة : كالقاضي أبي يعلى وابن عقيل وابن الزاغوني ، وغيرهم .

وقيل : إنَّ العبد يقدر على هذا وهذا ، والرب لا يقدر إلا على المنفصل وهو قول المعتزلة ، وقيل إن كليهما يقدر على ما يقوم به دون المنفصل ، وما علمت أحدًا قال : كلاهما يقدر على المنفصل دون المتصل [1].

* * *

(١) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٧ ـ ١٨) .

الأول
جَلَّ جلالُه وتقدَّست أسماؤُه
(٧٥)

* **المعنى اللغوي :**

الأولُ نقيضُ الآخِر ، وأصله : أوْأَلُ على أفعل مهموز الأوسط ، قُلبت الهمزة واواً وأُدْغِم ، يدلُّ على ذلك قولهم : هذا أوَّل منك .

والجمع الأوائل والأوالي ، أيضًا على القلب .

وقال قوم : ووَّل على فَوْعل ، فقُلبت الواو الأولى همزة[1] وإنما لم يجمع على أواول لاستثقالهم اجتماع الواوين بينهما ألف . وتقول : هذا أوَّلُ بيِّنُ الأوَّلِيَّة .

قال ذو الرُّمَّة :

وما فخرُ من ليست له أوَّلِيَّةٌ ... تُعَدُّ إذا عُدَّ القديمُ ولا ذِكْرُ

يعني : مفاخر آبائه[2] .

وقال الراغب : الأول هو الذي يترتب عليه غيرُهُ ، ويستعمل على أوجه :

---

(١) ردَّ هذا القول الزجاجي في «اشتقاق الأسماء» (ص٢٠٤) فقال : وزن «أول» : أفعل وفاؤه وعينه واوان ، والدليل على أنه أفعل ـ وليس بفوعل كما ذهب إليه بعض النحويين ـ اتصال «منْ» به ، ولا تتصل إلا بأفعل ، فيقال : أنا أول من فلان . اهـ وهناك رأي ثالث فقد قال الخليل : تأسيسه من همزةٍ وواوٍ ولام فيكون فعَّل ، حكاه الراغب «المفردات» (ص٣١) وقال : هو الأفصح .

(٢) «الصحاح» (١٨٣٨/٥ ـ ١٨٣٩) .

أحدها : المُتَقدِّم بالزمان ، كقولك : عبد الملك أولاً ثم منصور .

الثاني : المتقدم بالرِّياسة في الشيء وكونِ غيرِهِ مُحْتَذيًا به ، نحو : الأمير أولاً ثم الوزير .

الثالث : المتقدِّم بالوضع والنِّسبة ، كقولك للخارج من العراق : القادسيةُ أولاً ثم فَيْدُ ، وتقول للخارج من مكة : فيدُ أولاً ثم القادسية .

الرابع : المتقدم بالنظام الصِّناعي ، نحو أن يقال : الأساسُ أولاً ثم البناء[1] .

*** وروده في القرآن الكريم :**

ورد مرةً واحدة في قوله تعالى : ﴿**هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [الحديد: ٣] .

*** معنى الاسم في حق الله تعالى :**

قال الفرَّاء : قوله عز وجل ﴿**هُوَ الْأَوَّلُ**﴾ : يريد قبل كل شيء ، و(الآخر) : بعد كل شيء[2] .

وقال ابن جرير : هو (الأول) قبل كل شيء بغير حدٍّ ، و(الآخر) بعد كل شيء بغير نهاية ، وإنما قيل ذلك كذلك ، لأنه كان ولا شيء موجودًا سواه ، وهو كائنٌ بعد فناء الأشياء كلِّها ، كما قال جلَّ ثناؤه ﴿**كل شيء هالك إلا وجهه**﴾[3] .

وقال الزَّجَّاج : (الأول) هو موضوع التقدُّم والسَّبْق . ومعنى

---

(١) «المفردات» (ص٣١ ـ ٣٢) ، وفَيْدُ : بُليدةٌ في نصف طريق مكة من الكوفة «معجم البلدان» (٤/ ٢٨٢).

(٢) «معاني القرآن» (٣/ ١٣٢) .

(٣) «جامع البيان» (٢٧/ ١٢٤) .

وَصْفَنَا الله تعالىٰ بأنه أوَّلٌ : هو متقدمٌ للحوادث بأوقات لا نهاية لها ، فالأشياءُ كلُّها وُجدت بعده ، وقد سبقها كلَّها ، وكان رسول الله ﷺ يقول في دعائه : «**أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء**»[١].

وقال الخطَّابي : (الأول) هو السابق للأشياء كلِّها ، الكائن الذي لم يزل قبل وجود الخلق ، فاستحقَّ الأوليَّة إذْ كان موجودًا ولا شيء قبله ولا معه . ثم ذكر الحديث[٢] .

وقال الحُليمي : (الأول) : الذي لا قَبْلَ له ، والآخر هو الذي لا بَعد له ، [وهذا لأن] «قبل وبعد» نهايتان ، فقبل نهاية الموجود من قِبَل ابتدائه ، وبعد غايته من قِبل انتهائه ، فإذا لم يكن له ابتداء ولا انتهاء لم يكن للموجود قبل ولا بعد ، فكان هو الأول والآخر[٣] .

وقال البيهقي : (الأول) هو الذي لا ابتداء لوجوده[٤] .

وقال ابن القيم :

هو أول هو آخرٌ هو ظاهرٌ ... هو باطنٌ هي أربعٌ بِوَزَانِ
ما قَبْله شيءٌ كَذَا ما بَعْدَه ... شيءٌ تعالىٰ الله ذو السُّلْطانِ
ما فَوقَه شيءٌ كَذَا ما دُونَه ... شيءٌ وذا تَفْسيرُ ذي البُرهانِ
فانظر إلىٰ تَفْسيره بتدبرٍ ... وتَبَصرٍ وتَعقلٍ لمعان

(١) «تفسير الأسماء» (ص٥٩ ـ ٦٠) .

(٢) «شأن الدعاء» (ص٨٧) .

(٣) «المنهاج» (١/١٨٨) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات الباري جلَّ ثناؤه والاعتراف بوجوده ، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص١١).

(٤) «الاعتقاد» (ص٦٣) .

وانظر إلىٰ ما فيه مِن أنواعِ معـ ـرفةٍ لخالقِنا العظيمِ الشّأن[1]

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١- بادئ ذي بدء نقول إنّ خير ما يُفسر به هذا الاسم والأسماء الثلاثة التي تليه : هو تفسير الرسول ﷺ ـ أعلم الخلق بالله تعالىٰ ـ وذلك ما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ قال : كان رسول الله ﷺ يأمُرُنا إذا أخذنا مضجعنا أن نقول : «**اللهم ربَّ السَّموات وربَّ الأرض وربَّ العرش العظيم ، ربَّنا وربَّ كلِّ شيء ، فالقَ الحبِّ والنَّوىٰ ومُنزِّلَ التوراة والإنجيلِ والفرقان ، أعوذُ بك من شرِّ كلِّ شيء أنت آخذٌ بناصيته ، اللهم أنت الأولُ فليس قبلك شيءٌ، وأنتَ الآخرُ فليس بعدَكَ شيء ، وأنتَ الظَّاهرُ فليس فوقك شيء ، وأنت الباطنُ فليس دونك شيء ، اقْضِ عنا الدَّينَ واغْننا من الفقر**»[2] .

فالله تعالىٰ هو الأول الذي ليس قبله شيء من الموجودات، فهو المتقدِّم علىٰ كل شيء، ولم يكن معه شيء، كما جاء ذلك في حديث عمران بن حصين قال قال رسول الله ﷺ: «**كان الله ولم يكن شيءٌ غيرهُ، وكان عرشُهُ علىٰ الماء، وكَتَب في الذِّكر كلَّ شيء، وخلق السموات والأرض**»[3] .

قال الطحاوي في عقيدته : «قديمٌ بلا ابتداء، دائمٌ بلا انتهاء» .

---

(١) «النونية» : (٢/ ٢١٣) .

(٢) رواه مسلم في كتاب الذكر (٤/ ٢٠٨٤) .

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٤٣١) والبخاري في بدء الخلق (٦/ ٢٨٦) وفي التوحيد (٣/ ٤٠٣) وانظر «التعليق علىٰ كتاب العرش» رقم (١) .

وشرحه ابن أبي العز بقوله : فقول الشيخ : قديم[1] بلا ابتداء ، دائم بلا انتهاء هو معنى اسمه الأول والآخر، والعلم بثبوت هذين الوصفين مستقرٌّ في الفطر، فإن الموجودات لا بد أن تنتهي إلى واجب الوجود لذاته ، قطعًا للتسلسل ، فإنَّا نشاهد حدوث الحيوان والنبات والمعادن ، وحوادث الجو كالسحاب والمطر وغير ذلك ، وهذه الحوادث وغيرها ليست ممتنعة فإن الممتنع لا يوجد ، ولا واجبة الوجود بنفسها ، فإن واجبَ الوجود بنفسه لا يقبل العَدَم ، وهذه كانت معدومة ثم وجدت ، فعدمها ينفي وجوبها ، ووجودها ينفي امتناعها ، وما كان قابلاً للوجود والعدم لم يكن وجوده بنفسه كما قال تعالى : ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥] يقول سبحانه : أحَدثوا من غير مُحدِث أم هم أحدثوا أنفسهم؟! ومعلوم أن الشيء المحدث لا يُوجِد نفسه ، فالممكن الذي ليس له من نفسه وجود ولا عدم لا يكون موجوداً بنفسه ، بل إنْ حصل ما يوجده وإلا كان معدومًا ، وكل ما أمكن وجوده بدلاً عن عدمه وعدمه بدلاً عن وجوده ، فليس له من نفسه وجود ولا عدم لازم له[2] .

٢- جرى على ألسنة كثير من المتكلمين ـ وأهل السنة أحيانًا ـ تسمية الرب تعالى بـ (القديم) وليس من أسماء الله الحسنى والتزام تسميته بـ (الأول) هو الموافق للكتاب والسنة واللغة ، فإن القديم في لغة العرب التي نزل بها القرآن هو : المتقدم على غيره ، فيقال : هذا قديم ، للعتيق وهذا حديث ، للجديد ، ولم يستعملوا هذا الاسم إلا في المتقدم على غيره ، لا فيما لم يسبقه عدم ، كما قال تعالى : ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ

---

(١) سيأتي الكلام عن هذه التسمية .

(٢) «شرح العقيدة الطحاوية» (ص١١٣) .

الْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩] والعُرْجُون القديم : الذي يبقى إلى حين وجود العرجون الثاني ، فإذا وجد الجديد قيل للأول قديم وقال تعالى : ﴿ **وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾** [الاحقاف: ١١] أي متقدم في الزمان .

ولذا فقد أنكر كثير من السلف والخلف منهم ابن حزم تسمية الرب تعالى بذلك(١) .

والصواب أن يستعاض عن هذا الاسم بالتسمية الواردة وهي (الأول) واتباع ما جاءت به النصوص أولى من اتباع ألفاظ أهل الكلام .

أضف إلى ذلك أن التقدم في اللغة مطلق لا يختصُّ بالتقدم على الحوادث كلها ، فلا يكون من الأسماء الحسنى .

أما من أطلقه من أهل السنة فلعله أطلقه من باب الإخبار عنه تعالى ، وباب الإخبار عنه أوسع مما يدخل في باب الأسماء الحسنى والصفات كالشيء والموجود والقائم بنفسه ونحوها ، كما ذكر ذلك ابن القيم رحمه الله وغيره(٢) .

* * *

---

(١) انظر المصدر السابق (ص ١١٤ ـ ١١٥) .

(٢) انظر «بدائع الفوائد» (١/ ١٦١) و«مختصر العقيدة الطحاوية» (ص١٩) بتعليق الشيخ الألباني حفظه الله تعالى .

الآخِرُ
جَلَّ جلالُه وتقدَّست أسماؤُه
(٧٦)

* المعنىٰ اللغوي :

الآخِرُ خلاف الأول .

تقول : جاء آخرًا : أي أخيرًا ، وتقديره فاعل والأنثىٰ آخِرَة والجمع أواخر .

والآخَر بالفتح : أحد الشيئين ، وهو اسم علىٰ أفعل والأنثىٰ أُخرىٰ[١] .

* وروده في القرآن الكريم :

وردة مرةً واحدة في قوله عز وجل : ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد : ٣] .

* معنىٰ الاسم في حق الله تعالىٰ :

تقدم قول الفراء وابن جرير في الكلام علىٰ (الأول) .

وقال الزجاج : (الآخر) هو المتأخر عن الأشياء كلِّها ، ويبقىٰ بعدها[٢] .

وقال الخطَّابي : (الآخِرُ) : هو الباقي بعد فَنَاء الخلق وليس معنىٰ

---

(١) «الصحاح» (٢/٥٧٦) و«اللسان» (١/٣٨) مادة (أخر) .

(٢) «تفسير الأسماء» (ص ٦٠) .

الآخر ما له الانتهاء ، كما ليس معنى الأول ما له الابتداء ، فهو الأولُ والآخَر وليس لكونه أول ولا آخر [1].

وقال البيهقي : (الآخر) وهو الذي لا انتهاء لوجوده [2].

* * *

---

(١) «شأن الدعاء» (ص٨٨) .

(٢) «الاعتقاد» (ص٦٣) .

الظَّاهر
جَلَّ جلالُه وتقدَّست أسماؤُه
(٧٧)

* **المعنى اللغوي :**

الظَّهْر خِلاف البطن ، والظاهر خلاف الباطن ، ظَهَرَ يَظهر ظُهُورًا ، فهو ظاهرٌ وظَهيرٌ .

والظَّهير : المعين ومنه قوله تعالى : ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤] وبعيرٌ ظَهيرٌ بيِّن الظَّهارة : إذا كان شديدًا قويًا .

وَظَهَرْتُ البيتَ : عَلوتُهُ ، وظهرتُ على الرجل : غلبته ، وأظهرتُ بفلان : أعليتُ به .

والظَّهر من الأرض : ما غَلُظَ وارتفع ، والبطن ما لانَ منها وسهل ورقَّ واطمأن .

وظَهَر الشيء ظُهورًا : تبين ، وأظهرت الشيء بينتُهُ [(١)].

* **وروده في القرآن الكريم :**

ورد مرةً واحدة في قوله تعالى : ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣] .

* **معنى الاسم في حق الله تعالى :**

قال الفراء : (الظاهر) على كل شيء علمًا ، وكذلك (الباطن) على

(١) «الصحاح» (٢/ ٧٣٠ ـ ٧٣٢) و«اللسان» (٤/ ٢٧٦٤ - ٢٧٧٠) مادة (ظهر) .

كل شيء علمًا[1] .

وقال ابن جرير : وقوله ﴿والظاهر﴾ يقول : وهو الظاهر على كل شيء دونه ، وهو العالي فوق كل شيء فلا شيء أعلى منه[2] .

وقال الزجاج : (الظاهر) هو الذي ظَهَر للعقول بحُججه ، وبراهين وجوده ، وأدلة وحدانيته .

هذا إذا أخذتَه من الظهور .

وإن أخذته من قول العرب : ظَهَرَ فلانٌ فوق السطح إذا علا ومنه قول الشاعر :

وتلك شكَاةٌ ظاهرٌ عنك عَارُها .

فهو من العُلُوِّ ، والله تعالى عالٍ على كل شيء ، وليس المراد بالعلو ارتفاع المحلِّ ، لأن الله تعالى يُجل عن المحل والمكان!!

وإنما العُلُوُّ علوُّ الشأن ، وارتفاع السلطان[3] .

وقال الزجاجي : (البَاطن) اسم الفاعل من بطن ، وهو باطن إذا كان غير ظاهر ، و(الظاهر) : خلاف الباطن ، فالله ظاهر باطن ، هو باطنٌ لأنه غير مُشاهد كما تشاهد الأشياء المخلوقة ، عزَّ عن ذلك وعلا ، وهو ظاهر بالدلائل الدالة عليه وأفعاله المؤدية إلى العلم به ومعرفته ، فهو

---

(١) «معاني القرآن» (٣/ ١٣٢) .

(٢) «جامع البيان» (٢٧/ ١٢٤) واختاره النَّحَّاس في كتابه «إعراب القرآن» (٤/ ٣٥٠) .

(٣) «تفسير الأسماء» (ص٦٠) .

وقوله : «وليس المراد بالعلو ارتفاع المحل . . إلخ» كلامٌ مردود! فقد تقدم أنَّ الله تعالى له العلو المطلق من جميع الوجوه : علو الذات وعلو القدر والصفات وعلو القهر، انظر تفصيل ذلك في الكلام على أسمائه : (العلي ـ الأعلى ـ المتعال) في الجزء الأول (٣٢٢ وما بعدها) من كتابنا هذا .

ظاهر مدرك بالعقول والدلائل ، وباطن غير مشاهد كسائر الأشياء المشاهدة في الدنيا عز وجل عن ذلك وتعالى علواً كبيراً .

ويجوز في اللغة أن يكون (الباطن) : العالم بما بطن ، أي : خفي ، كقولك : بَطَن بفلانٍ ، أي خُصَّ به فَعَرف باطن أمره ، وهؤلاء بِطانة فلان ، أي خاصته .

ويجوز أيضًا أن يكون (الظاهر) : القوي ، كقولك : ظهر فلان بأمره فهو ظاهر عليه ، أي قويّ عليه ، وجَملٌ ظهير ، أي قوي شديد، قال الأصمعي : يقال : ظاهر فلانٌ فلانًا على فلان ، إذا مَالأهُ عليه ، ويقال: اتخذ معك بعيراً أو بعيرين ظَهِريين ، أي : عدةً ، والجمع ظهاريّ كما ترى(١) .

وقال الخطابي : هو (الظاهر) بحججه الباهرة ، وبراهينه النيِّرة ، وبشواهد أعلامه الدالة على ثبوت ربوبيته ، وصحة وحدانيته .

ويكون الظاهر فوق كل شيءٍ بقدرته .

ويكون الظُّهور بمعنى العلو .

ويكون بمعنى الغَلَبة(٢) .

وقال الحليمي : (الظاهر) ومعناه : البَادي بأفعاله ، وهو جلَّ ثناؤه بهذه الصفة ، فلا يمكن معها أن يُجحد وجوده وينكر ثبوته(٣) .

---

(١) «اشتقاق الأسماء» (ص١٣٧) .

(٢) «شأن الدعاء» (ص٨٨)، ونقله البيهقي في «الاعتقاد» (ص٦٣) وقال (ص٦٤) إنه من صفات الذات.

(٣) «المنهاج» (١/ ١٨٥) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات الباري جلَّ ثناؤه والاعتراف بوجوده ، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص١٣) .

* من آثار الإيمان بهذا الاسم :

١- إن الله تعالى هو الظاهر الذي ليس فوقه شيء ، فهو العلي الأعلى ، وهذا «غاية الكمال في العلو أن لا يكون فوق العالي شيء موجود ، والله موصوف بذلك» [(١)].

وجهة العلو هي أشرف الجهات كما هو مستقر في النفوس وقد قَرَّر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله علو الرب سبحانه بالأدلة العقلية وذلك من طرق فقال: «أحدها : أن يُقال : إذا ثبت بالعقل أنه مُبَاين للمخلوقات وثبت أن العالم كُري ، وأن العلو المطلق فوق الكرة ، لزم أن يكون في العلو بالضرورة .

وهذه مقدمات عقلية ليس فيها خطابيّ ، وذلك لأن العالم إذا كان مستديرًا فله جهتان حقيقيتان : العلو والسفل فقط ، وإذا كان مباينًا للعالم امتنع أن يكون في السفل داخلاً فيه . فوجب أن يكون في العلو مباينًا له. وقد تقدم أن النافي قال : «إن العالم كرة» واستدل على ذلك بالكسوف القمري إذا كان يتقدم في الناحية الشرقية على الغربية .

والقول بأن الفلك مستدير هو قول جماهير علماء المسلمين ، والنقل بذلك ثابت عن الصحابة والتابعين ، بل قد ذكر أبو الحسين بن المنادي ، وأبو محمد بن حزم ، وابن الجوزي ، وغيرهم : أنه ليس في ذلك خلاف بين الصحابة والتابعين وغيرهم من علماء المسلمين ، وقد نازع في ذلك طوائف من أهل الكلام والرأي ، من الجهمية والمعتزلة وغيرهم .

وقد قال الله تعالى : ﴿ **وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ﴾ [الأنبياء: ٣٣] ، وقال: ﴿ **لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ**

(١) قاله شيخ الإسلام في «درء التعارض» (٧/ ١١) .

وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٤٠]

وإذا كان الخصم قد استدل بذلك ، كان ذلك حجة عليه ، فإذا كان العالم كُرِيًّا ـ وقد ثبت بالضرورة أنه : إما مداخل له ، وإما مباين له وليس بمداخل له ـ وجب أن يكون مباينًا له ، وإذا كان مباينًا له ، وجب أن يكون فوقه ، إذ لا فوق إلا المحيط وما كان وراءه .

الطريق الثاني : أن يقال: علو الخالق على المخلوق وأنه فوق العالم. أمرٌ مستقر في فطر العباد ، معلومٌ لهم بالضرورة ، كما اتفق عليه جميع الأمم، إقرارًا بذلك وتصديقًا ، من غير أنْ يتواطأوا على ذلك ويتشاعروا ، وهم يُخبرون عن أنفسهم أنهم يجدون التصديق بذلك في فِطَرِهم .

الطريق الثالث : أن يُقال : هم عندما يضطرون إلى قصد الله وإرادته مثل قصده عند الدعاء والمسألة ، يضطرون إلى توجه قلوبهم إلى العلو ، فكما أنهم مضطرون إلى دعائه وسؤاله ، هم مضطرون إلى أن يوجِّهوا قلوبهم إلى العلو إليه، لا يجدون في قلوبهم توجهًا إلى جهة أخرى ، ولا استواء الجهات كلها عندها وخلو القلوبِ عن قصد جهة من الجهات ، بل يجدون قلوبهم مضطرة إلى أن تقصد جهة علوهم دون غيرها من الجهات .

وهذا الوجه يتضمن بيان اضطرارهم إلى قصده في العلو ، وتوجههم عند دعائه إلى العلو ، والأول يتضمن فطرتهم على الإقرار بأنه في العلو والتصديق بذلك ، فهذا فطرةٌ واضطرار إلى العلم والتصديق والإقرار ، وذاك اضطرار إلى القصد والإرادة والعمل المتضمن للعلم والتصديق والإقرار .

الطريق الرابع : أن يقال : قوله : «جهة فوق أشرف الجهات ، خطابي» ليس كذلك ، وذلك لأنه قد ثبت بصريح المعقول أن الأمرين المتقابلين إذا كان أحدهما صفة كمال والآخر صفة نقص ، فإن الله يوصف بالكمال منهما دون النقص ، فلما تقابل الموت والحياة وُصف بالحياة دون الموت ، ولما تقابل العلم والجهل وُصف بالعلم دون الجهل، ولما تقابل القدرة والعجز وصف بالقدرة دون العجز ، ولما تقابل الكلام والبكم وصف بالكلام دون البكم ، ولما تقابل السمع والبَصَر والصمم والعمى وصف بالسمع والبصر دون الصمم والعمى ، ولما تقابل الغنى والفقر وصف بالغنى دون الفقر ، ولما تقابل الوجود والعدم وصف بالوجود دون العدم ، ولما تقابل المباينة للعالم والمداخلة له وصف بالمباينة دون المداخلة ، وإذا كان مع المباينة لا يخلو إما أن يكون عاليًا على العالم أو مسامتًا له ، وجب أن يُوصف بالعلو دون المسامتة ، فضلاً عن السفول .

والمنازع يسلِّم أنه موصوف بعلو المكانة وعلو القهر ، وعلو المكانة معناه أنه أكمل من العالم ، وعلو القهر مضمونه أنه قادر على العالم ، فإذا كان مباينًا للعالم ، كان من تمام علوه أن يكون فوق العالم ، لا محاذيًا له ، ولا سافلاً عنه ، ولما كان العلو صفة كمال ، كان ذلك من لوازم ذاته ، فلا يكون مع وجود غيره إلا عاليًا عليه ، لا يكون قط غير عالٍ عليه .

كما ثبت في الصحيح ، الذي في صحيح مسلم وغيره ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه كان يقول في دعائه : «**أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء** ،

وأنت الباطن فليس دونك شيء» .

ثم بين رحمه الله تعالىٰ مع ثبوت نزوله إلى السماء الدنيا كما في الحديث الصحيح فهو (الظاهر) فلا يعلوه شيءٌ من مخلوقاته أبدًا ، فقال: «ولهذا كان مذهب السلف والأئمة أنه مع نزوله إلى سماء الدنيا لا يزال فوق العرش ، لا يكون تحت المخلوقات ، ولا تكون المخلوقات محيطة به قط بل هو العليّ الأعلىٰ : العليُّ في دنوه ، القريب في عُلُوِّه .

ولهذا ذكر غيرُ واحدٍ إجماع السلف على أن الله ليس في جوف السموات. ولكن طائفة من الناس قد يقولون : إنه في جوف السماء ، وإنه قد تحيط به المخلوقات وتكون أكبر منه!

وهؤلاء ضلاَّل جهّال ، مخالفون لصريح المعقول وصحيح المنقول ، كما أن النفاة الذين يقولون : ليس داخل العالم ولا خارجه جهّال ضلاّل، مخالفون لصريح المعقول وصحيح المنقول : فالحلولية والمعطِّلة متقابلان[1] .

الطريق الخامس : أن يُقال : إذا كان مباينًا للعالم : فإما أن يُقدَّر محيطًا به ، أو لا يُقدَّر محيطًا به ، سواء قُدِّر أنه محيط به دائمًا ، أو محيط به بعض الأوقات ، كما يقبض يوم القيامة الأرض ويطوي السموات ، فإن قُدِّر محيطًا به كان عاليًا عليه علو المحيط على المحاط به .

وقد تقدم قولهم : «إن الفلك كرِيٰ» فيلزم أن تكون الأفلاك محيطة بالأرض ، وهي فوقها باتفاق العلماء ، فما كان محيطًا بالجميع أولىٰ بالعلو والارتفاع ، سبحانه وتعالىٰ ، وإن لم يكن مماثلاً لشيء من

(١) وسيأتي لهذه المسألة زيادة بيان .

المخلوقات ، ولا مجانسًا للأفلاك ولا غيرها .

وإن لم يُقدَّر محيطًا به ، فإن كان العالم كريا ، وليس لبعض جهاته اختصاص بالعلو ، فإذا كان مباينًا له لزم أن يكون عاليًا ، كيفما كان الأمر.

وإن قُدِّر أن العالم ليس بكرى أو هو كرى ولكن بعض جهاته لها اختصاص بالعلو ، مثل أن نقول : إن الله وضع الأرض وبسطها للأنام ، فالجهة التي تَلِي رؤوس الناس هي جهة العلو من العالم دون الأخرى. فحينئذ إذا كان مباينًا ، وقُدِّر أنه غير محيط ، فلا بد من اختصاصه بجهة العلو أو غيرها .

ومن المعلوم أن جهة العلو أحق بالاختصاص ، لأن الجهة العالية أشرف بالذات من السافلة ولهذا اتفق العلماء على أن جهة السموات أشرف من جهة الأرض ، وجهة الرأس أشرف من جهة الرِّجل ، فوجب اختصاصه بخير النوعين وأفضلهما ، إذ اختصاصه بالناقص المرجُوح ممتنع»[1] .

٢- وردَّ بعد ذلك على شبهةٍ تُثَار في مثل هذا الموضع من أهل التعطيل فقال :

و«أما قـول النافي : « ولأن العالـم كرة ، فلا فوق إلا تحت بالنسبة.

فيقال له : هذا خطأ ، لما تقدم من أن المحيط باتفاق العقلاء عالٍ على المركز ، وأن العقلاء متفقون على أن الشمس والقمر والكواكب ،

---

(١) «درء التعارض» (٧/ ٣ ـ ٨) مختصرًا .

إذا كانت في السماء ، فلا تكون إلا فوق الأرض ، وكذلك السحاب والطير في الهواء .

وأيضًا فإن هذا التحت أمر خيالي وهمي لا حقيقة له ، وليس فيه نقص ، كالمعلَّق برجليه لا تكون السماء تحته إلا في الوهم الفاسد ، والخيال الباطل ، وكذلك النملة الماشية تحت السقف . فالشمس والقمر والنجوم السابحة في أفلاكها ، لا تكون بالليل تحتنا إلا في الوهم والخيال الفاسد [1].

٣- ولزيادة البيان في مسألة نزول الرب تبارك وتعالى وأن ذلك لا ينافي اسمه (الظاهر) لا أجد أحسن مما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية في ذلك ، إذ يقول : «والأحسن في هذا الباب (أي الأسماء والصفات) مراعاة ألفاظ النصوص فَيُثْبَتُ ما أثبت الله ورسوله باللفظ الذي أثبته ، ويُنفى ما نفاه الله ورسوله كما نفاه ، وهو أنْ يُثبت النُّزول ، والإتيان ، والمجيء ، وينفى المثل ، والسمي والكفؤ ، والند .

وبهذا يحتج البخاري وغيره على نفي المثل ، يقال : ينزل نزولاً ليس كمثله شيء ، نَزَلَ نزولاً لا يُماثل نزول المخلوقين - نزولاً يَختصُّ به ، كما أنه في ذلك وفي سائر ما وَصَفَ به نفسه ليس كمثله شيء في ذلك ، وهو مُنزهٌ أن يكون نزوله كنزول المخلوقين ، وحركتهم وانتقالهم ، وزوالهم مطلقًا - لا نزول الآدميين ولا غيرهم .

فالمخلوق إذا نَزَل من علو إلى سفل زال وصفه بالعُلو ، وتبدل إلى وصفه بالسُّفُول ، وصار غيرُه أعلى منه .

والربُّ تعالى لا يكون شيءٌ أعلى منه قط ، بل هو العَلي الأعلى ولا

---

(١) «درء التعارض» (٧/٣ - ٩) .

يزال هو العلي الأعلىٰ مع أنه يَقرب إلىٰ عباده ويدنو منهم ، وينزل إلىٰ حيث شاء ، ويأتي كما شاء . وهو في ذلك العلي الأعلىٰ ، الكبير المتعالي ، عليٌّ في دُنُوه قريبٌ في عُلوه .

فهذا وإنْ لم يتصف به غيره فلعجز المخلوق أن يجمع بين هذا وهذا، كما يعجز أن يكون هو الأول والآخر والظاهر والباطن .

ولهذا قيل لأبي سعيد الخراز : بم عرفتَ الله ؟ قال: «بالجمع بين النقيضين» . وأراد أنه يَجتمع له ما يتناقض في حقِّ الخلق .

كما اجتمعَ له أنه خالق كل شيء من أفعال العباد وغيرها من الأعيان والأفعال . مع ما فيها من الخبث ، وأنه عدلٌ حكيمٌ ، رحيمٌ، وأنه يُمكِّن من مكَّنه من عباده من المعاصي مع قدرته علىٰ منعهم ، وهو في ذلك حكيم عادل ، فإنه أعلم الأعلمين ، وأحكم الحاكمين ، وهو خير الفاتحين ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم .

فأن لا يحيطوا علمًا بما هو أعظم في ذلك أولىٰ وأحرىٰ ، وقد سألوا عن الروح فقيل لهم ﴿**الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ [الإسراء: ٨٥] ، وفي الصحيحين أن الخضر قال لموسىٰ لما نقر عصفور في البحر : ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كما نقص هذا العصفور من هذا البحر .

فالذي يُنفىٰ عنه وينزه عنه إما أنْ يكون مناقضًا لما عُلِمَ من صفاته الكاملة فهذا ينفي عنه جنسه ، كما قال :﴿**اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ**﴾ [البقرة:٢٥٥] ، وقال: ﴿**وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ**﴾ [الفرقان: ٥٨] . فجنس السِّنَة والنوم ، والموت ، ممتنعٌ عليه ، لا يجوز أن يقال في شيء من هذا «إنه يجوز عليه كما يليق بشأنه» ، لأن

هذا الجنس يوجب نقصًا في كماله .

وكذلك لا يجوز أن يُقال : هو يكون في السُّفْل ، لا في العُلو وهو سفول يليق بجلاله !! فإنه سبحانه العلي الأعلى لا يكون قط إلا عاليًا والسفول نقص هو منزهٌ عنه .

وقوله : «**وأنت الباطن فليس دونك شيء**» لا يقتضي السُّفُول إلا عند جاهلٍ لا يعلم حقيقة العُلو والسُّفُول ، فيظن أن السموات وما فيها قد تكون تحت الأرض إما بالليل وإما بالنهار . وهذا غلطٌ ، كمن يظن أن ما في السماء من المشرق يكون تحت ما فيها مما في المغرب ، فهذا أيضًا غلط . بل السماء لا تكون قط إلا عالية على الأرض وإنْ كان الفلك مستديرًا محيطًا بالأرض فهو العالي على الأرض علوًا حقيقيًا من كل جهة. وهذا مبسوط في مواضع [1].

* * *

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٤٢٣ ـ ٤٢٦) .

البَاطن
جَلَّ جلالُه وتقدَّست أسماؤُه
(٧٨)

* المعنى اللغوي :

البَطْن خلاف الظهر ، وهو مذكر وتأنيثه لغة .

وبطانة الثوب خلاف ظهارته .

والبُطَنان : جمع البَطن ، وهو الغامض من الأرض .

وبُطْنان الجنة : وسطها .

وبَطَنْتُ الوادي : دخلتُه ، وبطنت هذا الأمر : عرفت باطنه ، وبطنتُ بفلان : صرت من خواصه ، وبِطَانَة الرجل : وَلِيجَتُه ، وأبطنتُ الرجل : إذا جعلته من خواصك[1] .

* وروده في القرآن الكريم :

ورد مرةً واحدة في قوله تعالى : ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣] .

* معنى الاسم في حق الله تعالى :

تقدم في معنى اسمه (الظاهر) قول الفرَّاء والزَّجَّاجي .

وقال ابن جرير: و(الباطن) يقول: وهو الباطن لجميع الأشياء فلا شيء أقرب إلى شيء منه، كما قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[2] [ق:١٦].

---

(١) «الصحاح» (٥/٢٠٧٩) «اللسان» (١/٣٠٣ ـ ٣٠٥) مادة (بطن) .

(٢) «جامع البيان» (٢٧/ ١٢٤) وبنحوه قال النحاس: «إعراب القرآن» (٤/ ٣٥٠) وزاد: ويدل على هذا =

وقال الزجاج : (الباطن) هو العالمُ ببطانَة الشيء ، يقال : بَطَنْتُ فلانًا وخبرتُهُ : إذا عرفتَ باطنه وظاهره .

والله تعالىٰ عارفٌ ببواطنِ الأمور وظواهرها ، فهو ذو الظَّاهر وذو الباطن[1] .

وقال الخطابي : (الباطن) هو المحتَجِبُ عن أبصار الخلق ، وهو الذي لا يستولي عليه توهُّمُ الكيفية ، وقد يكون معنى الظُّهور والبُطُون احتجابُهُ عن أبصار الناظرين ، وتَجَلِّيه لبصائر المتَفكِّرين . ويكون معناه : العالم بما ظَهَر من الأمور ، والمُطَّلعُ على ما بَطَن من الغيوب[2] .

وقال الحُليمي : (الباطن) وهو الذي لا يُحس ، وإنما يُدرك بآثاره وأفعاله[3] .

*** آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١- الله تبارك وتعالى أعظم الغيب ، محتجبٌ عن الخلق ، لايراه أحد في الدنيا ، ولا تدركه الأبصار في الآخرة[4] ولا نحيط بشيءٍ من علمه إلا بما شاء لنا أن نعلمه عنه ، مما وصف به نفسه في كتابه ، أو ما

= أن بعده ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد: ٣] أي لا يخفى عليه شيء .

(١) «تفسير الأسماء» (ص٦١) .

(٢) «شأن الدعاء» (ص٨٨) ، ونقله البيهقي في «الاعتقاد» (ص٦٤) مع اختصار وقال إنه من صفات الذات .

(٣) «المنهاج» (١/١٩٦) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع نفي التشبيه عن الله تعالى جده ، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص٣٥) .

(٤) هناك فرق بين قولنا : لا تدركه الأبصار ، وبين قول المعتزلة وأشباههم بعدم رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة ، فإن الإدراك هو الإحاطة بالشيء ، فأنت ترى البحر لكن لا تدرك جميعه ببصرك وهو مخلوق ! فالخالق أعظم وأجل وأكبر .

وصفه به رسوله ﷺ .

وهو سبحانه مع ذلك ظاهر لخلقه بأفعاله وآياته المتلوة والعيانية ، فمن تأمل وتفكر في السموات والأرض وما فيها ، عَلِمَ علْم اليقين أنَّ له خالقًا مدبرًا ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١] .

ولقد أحسن من قال :

فيا عَجَبًا كيف يُعْصى الإلهُ ... أم كيف يَجحده الجَاحِدُ
وفي كل شيءٍ له آيةٌ ... تَـدُلُّ علـى أنَّـه وَاحِـدُ

وكذا الآيات المتلوة وهي كتابه عز وجل فإنها بنفسها تدل على الله تعالى ، لأنها ليست من جنس كلام البشر ، لأنـواع الإعجـاز التي فيهـا .

٢- الله تبارك وتعالى هو العليم ببواطن الأمور وظواهرها ، يستوي عنده هذا وهذا ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠] فيستوي عند الله تعالى من هو مختفٍ في قعر بيته في ظلام الليل ، ومن هو سائر في سَرْبه (طريقه) في بياض النهار وضيائه .

٣- فسَّر بعض السلف (الباطن) بأنه أقرب إلى كلِّ شيءٍ من كلِّ شيء، كما تقدم في كلام ابن جرير والنَّحَّاس ، وحكى شيخ الإسلام ابن تيمية ـ كما في فتاويه ـ عن مقاتل بن سليمان أنه فسره كذلك ، فقال ناقلاً عنه : «و(الباطن) أقرب من كلِّ شيء ، وإنما نعني بالقرب بعلمه وقدرته وهو فوق عرشه» .

فضعف هذا القول بكونه ليس مشهورًا عن مقاتل ، وأنه فسر الباطن بالقريب ، ثم فسَّر القُرب بالعلم والقدرة ولا حاجة إلى هذا .

ثم بيَّن أنه ليس معنى (الباطن) أنه القُرب ، ولا لفظ (الباطن) يدل عليه ، ولا لفظ القرب في الكتاب والسنة على جهة العموم كلفظ المعية ، فإنه إذا قال : هذا مع هذا فإنه يعني به المجامعة والمقارنة والمصاحبة ، ولا يدل على قرب إحدى الذاتين من الأخرى ولا اختلاطها بها ، فلهذا كان إذا قيل : هو معهم ، دلَّ على أن علمه وقدرته وسلطانه محيط بهم وهو مع ذلك فوق عرشه كما أخبر القرآن والسنة بهذا ، قال تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ** ﴾ [الحديد: ٤] فأخبر سبحانه أنه مع علوه على عرشه يعلم كل شيء ، فلا يمنعه علوه عن العلم بجميع الأشياء .

ولم يأت في لفظ «القرب» مثل ذلك ، أنه قال : هو فوق عرشه وهو قريب من كل شيء ، بل قال ﴿ **إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [الأعراف: ٥٦] وقال ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** ﴾ [البقرة: ١٨٦] وقال النبي ﷺ : «**إنكم لا تَدْعَون أصمَّ ولا غائبًا ، إنَّ الذي تدعونه سميعٌ قريب**» .

قال : ولا يقال في هذا : قريب بعلمه وقدرته ، فإنه عالم بكل شيء قادر على كل شيء ، وهم لم يشكوا في ذلك ، ولم يسألوا عنه ، وإنما سألوا عن قربه إلى من يدعوه ويناجيه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** ﴾ فأخبر أنه قريب مجيب .

وطائفة من أهل السنة تفسر «القُرب» في الآية والحديث بالعلم لكونه

هو المقصود ، فإنه إذا كان يعلم ويسمع دُعاءَ الداعي حصل مقصوده ، وهذا هو الذي اقتضى أن يقول من يقول : إنه قريب من كل شيء بمعنى العلم والقدرة ، فإن هذا قد قاله بعض السلف كما تقدم عن مقاتل بن حيان ، وكثير من الخلف ، لكن لم يقل أحد منهم إن نفس ذاته قريبة من كل شيء. وهذا المعنى يُقِرُّ به جميع المسلمين ، من يقول : إنه فوق العرش ، ومن يقول إنه ليس فوق العرش [1].

٤- وللإمام المحقق أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن القيم رحمه الله كلام دقيق نفيس جامع على هذه الأسماء الأربعة (الأول والآخر والظاهر والباطن) ذكر فيه تعلق حياة العباد بها نجاحًا وفلاحًا ، وكيفية تحقيق العبودية لها ، وذلك في كتابه «طريق الهجرتين وباب السعادتين».

قال رحمه الله : في «فصل في أن حقيقة الفقر تَوَجُّهُ العبد بجميع أحواله إلى الله» :

ولما كان موجب الدرجة الأولى من الفقر الرجوع إلى الآخرة ، فأوجب الاستغراق في هَمِّ الآخرة نَفْضَ اليدين من الدنيا ضبطًا أو طلبًا ، وإسكات اللسان عنها مدحًا أو ذمًا ، وكذلك كان موجب هذه الدرجة الثانية الرجوع إلى فضل الله سبحانه ، ومطالعة سبقه الأسباب والوسائط فبفضل الله ورحمته وجدت منه الأقوال الشريفة ، والمقامات العلية . وبفضله ورحمته وصلوا إلى رضاه ورحمته ، وقربه وكرامته وموالاته ، وكان سبحانه هو (الأول) في ذلك كله كما أنه الأول في كل شيء ، وكان هو (الآخر) في ذلك كما هو الآخر في كل شيء فمن عَبَدَهُ باسمه (الأول

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٤٩٨/٥ ـ ٥٠٠) باختصار ، وقد أطال في بيان هذه المسألة فانظرها في المصدر السابق (٤٧٨ ـ ٥٢٧) .

والآخر) حصلت له حقيقة هذا الفقر، فإن انضافَ إلى ذلك عبوديته باسمه (الظاهر والباطن) فهذا هو العارفُ الجامع لمتفرقات التعبد ظاهرًا وباطنًا .

فعبوديته باسمه (الأول) تقتضي التجرد من مطالعة الأسباب ، والوقوف أو الالتفات إليها ، وتجريد النظر إلى مجرد سبق فضله ورحمته وأنه هو المبتدئ بالإحسان من غير وسيلة من العبد، إذ لا وسيلة له في العدم قبل وجوده ، وأي وسيلة كانت هناك؟ وإنما هو عدمٌ محض ، وقد أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا ، فمنه سبحانه الإعداد ومنه الإمداد وفضله سابقٌ على الوسائل ، والوسائل من مجرد فضله وجُوده لم تكن بوسائل أخرى ، فمن نَزَّلَ اسمه (الأول) على هذا المعنى أوجب له فقرًا خاصًا وعبودية خاصة .

وعبوديته باسمه (الآخر) تقتضي أيضًا عدم رُكونه ووثوقه بالأسباب والوقوف معها ، فإنها تنعدم لا محالة وتنقضي الآخرية ، ويبقى الدائم الباقي بعدها ، فالتعلُّق بها تعلق بما يعدم وينقضي ، والتعلق بالآخر سبحانه تَعلقٌ بالحي الذي لا يموت ولا يزول ، فالمتعلق به حقيق أن لا يزول ولا ينقطع ، بخلاف التعلق بغيره مما له آخر يفنى به ، كذا نظر العارف إليه بسبق الأولية حيث كان قبل الأسباب كلها ، وكذلك نظره إليه ببقاء الآخرية حيث يبقى بعد الأسباب كلها ، فكان الله ولم يكن شيء غيره . وكل شيء هالك إلا وجهه .

فتأمل عبودية هذين الاسمين وما يُوجبانه من صحة الاضطرار إلى الله وحده ودوام الفقر إليه دون كل شيءٍ سواه ، وأن الأمر ابتدأ منه وإليه يرجع ، فهو أول كل شيء وآخره ، وكما أنه ربُّ كل شيء وفاعله وخالقه وبارئه ، فهو إلهه وغايته التي لا صلاح له ولا فلاح ولا كمال إلا

بأن يكون وحده غايته ونهايته ومقصوده ، فهو (الأول) الذي ابتدأت منه المخلوقات ، و(الآخر) الذي انتهت إليه عبودياتها وإراداتها ومحبتها ، فليس وراء الله شيء يقصد ويعبد ويتأله ، كما أنه ليس قبله شيء يَخلق ويَبرأ ، فكما كان واحدًا في إيجادك فاجعله واحدًا في تألهك إليه لتصح عبوديتك ، وكما ابتدأ وجودك وخلقك منه فاجعله نهاية حُبّك وإرادتك وتألهك إليه لتصح لك عبوديته باسمه (الأول والآخر) .

وأكثر الخلق تَعَبَّدوا له باسمه (الأول) وإنما الشأن في التعبد له باسمه (الآخر) فهذه عبودية الرسل وأتباعهم ، فهو رب العالمين وإله المرسلين سبحانه وبحمده .

وأما عبوديته باسمه (الظاهر) فكما فسَّره النبي ﷺ بقوله «**وأنتَ الظاهرُ فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء**» .

فإذا تحقق العبد عُلوه المطلق على كل شيء بذاته ، وأنه ليس فوقه شيء ألبتة ، وأنه قاهر فوق عباده يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**﴾ [فاطر: ١٠] صار لقلبه أممًا يقصده ، وربًا يعبده ، وإلهًا يتوجه إليه ، بخلاف من لا يدري أين ربه فإنه ضائعٌ مشتت القلب ، ليس لقلبه قِبْلةٌ يتوجَّه نحوها ولا معبود يتوجه إليه قصده ، وصاحب هذه الحال إذا سلك وتألَّه وتعبد طلب قلبه إلهًا يسكن إليه ويتوجه إليه ، وقد اعتقد أنه ليس فوق العرش شيء إلا العدم ، وأنه ليس فوق العالم إله يعبد ويصلي له ويسجد ، وأنه ليس على العرش من يصعد إليه الكلم الطيب ولا يرفع إليه العمل الصالح ، جالَ قلبه في الوجود جميعه فوقع في الاتحاد ولا بد! وتعلَّق قلبه بالوجود المطلق الساري في المعينات ، فاتخذ إلهه من دون إله الحق وظن أنه قد

وصل إلىٰ عين الحقيقة ! وإنما تأله وتعبد لمخلوق مثله ، ولخيال نَحتَه بفكره واتخذه إلهًا من دون الله سبحانه ، وإله الرسل وراء ذلك كله ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ③ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس: ٣، ٤] .

وقال : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ④ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ⑤ ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ⑥ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ⑦ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ⑧ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [السجدة: ٤ - ٩] .

فقد تعرَّف سبحانه إلىٰ عباده بكلامه مَعرفةً لا يجحدها إلا من أنكره سبحانه ، وإن زعم أنه مُقرٌّ به .

المقصود أن التعبد باسمه (الظاهر) يجمع القلب علىٰ المعبود ، ويجعل له ربًا يقصده وصمدًا يصمد إليه في حوائجه ، وملجأ يلجأ إليه ، فإذا استقر ذلك في قلبه وعرف ربه باسمه (الظاهر) استقامت له عبوديته وصار له معقل وموئل يلجأ إليه ويهرب إليه ويفرُّ كلَّ وقتٍ إليه .

وأما تعبده باسمه (الباطن) فأمر يضيق نطاق التعبير عن حقيقته ،

ويكلُّ اللسان عن وصفه ، وتصطلم[1] الإشارة إليه وتجفو العبارة عنه ، فإنه يستلزم معرفة بريئة من شوائب التَّعطيل ، مخلصة من فَرْثِ التشبيه ، منزهة عن رجس الحلول والاتحاد ، وعبارة مُؤدية للمعنىٰ كاشفة عنه ، وذوقًا صحيحًا سليمًا من أذواق أهل الانحراف ، فمن رزق هذا فهم معنىٰ اسمه (الباطن) ووضح له التعبد به .

وسبحان الله كم زلَّت في هذا المقام أقدام ، وضلَّت فيه أفهام ، وتكلم فيه الزنديق بلسان الصدّيق ، واشتبه فيه إخوان النصارىٰ بالحنفاء المخلصين ، لنبوّ الأفهام عنه ، وعزة تخلص الحق من الباطل فيه ، والتباس ما في الذهن بما في الخارج إلا علىٰ من رزقه الله بصيرة في الحق ، ونورًا يميز به بين الهدىٰ والضلال ، وفرقانًا يفرق بين الحق والباطل ، ورزق مع ذلك اطلاعًا علىٰ أسباب الخطأ وتفرق الطرق ومثار الغلط ، وكان له بصيرة في الحق والباطل ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

وباب هذه المعرفة والتعبد إحاطة الرب سبحانه بالعالم وعظمته ، وأن العوالم كلها في قبضته ، وأن السموات السبع والأرضين السبع في يده كخردلة في يد العبد ، قال تعالىٰ ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾ [الإسراء: ٦٠] وقال : ﴿ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴾ [البروج: ٢٠] ولهذا يقرن سبحانه بين هذين الاسمين الدالين علىٰ هذين المعنيين : اسم العلو الدال علىٰ أنه (الظاهر) وأنه لا شيء فوقه ، واسم العظمة الدال علىٰ الإحاطة، وأنه لا شيء دونه ، كما قال تعالىٰ :﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥ ، الشورىٰ: ٤] وقال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ [سبأ: ٢٣] وقال : ﴿ وَلِلَّهِ

(١) الصَّلْمُ : القطع ، واصْطَلَمه : استأصله «القاموس» .

الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥]
وهو تبارك وتعالىٰ كما أنه العالي علىٰ خلقه بذاته فليس فوقه شيء ، فهو (الباطن) بذاته فليس دونه شيء ، بل ظَهَرَ علىٰ كل شيء فكان فوقه ، وبَطَن فكان أقـرب إلىٰ كل شيء من نفسه ، فهذا أقرب لإحاطة العامة .

*** [قرب الله تعالىٰ خاص للداعين والسائلين والمؤمنين] :**

وأما «القُرْبُ» المذكور في القرآن والسنة فقربٌ خاص من عابديه وسائليه وداعيه ، وهو من ثمرة التعبد باسمه (الباطن) قال تعالىٰ : **﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾** [البقرة: ١٨٦] فهذا قربه من داعيه وقال تعالىٰ : **﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾** [الأعراف: ٥٦] فذكر الخبر وهو **(قريب)** عن لفظ «الرحمة» وهي مؤنثة إيذانًا بقربه تعالىٰ من المحسنين ، فكأنه قال : إن الله برحمته قريبٌ من المحسنين .

وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال : **«أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربه وهو ساجد»** و **«أقرب ما يكون الرَّبُّ من عبده في جوف الليل»** ، فهذا قرب خاص غير قرب الإحاطة وقرب البطون .

وفي الصحيح من حديث أبي موسىٰ أنهم كانوا مع النبي ﷺ في سفر فارتفعت أصواتهم بالتكبير فقال : **«أيُّها الناس ارْبَعُوا علىٰ أنفسكم فإنَّكم لا تدعون أصم ولا غائبًا ، إن الذي تدعونه سميعٌ قريب ، أقربُ إلىٰ أحدكم من عُنق راحلته»** ، فهذا قربه من داعيه وذاكره ، يعني فأي حاجةٍ بكم إلىٰ رفع الأصوات وهو لقربه يسمعها وإن خُفِضت ، كما يسمعها إذا رُفِعت ، فإنه سميعٌ قريبٌ .

وهذا القرب هو من لوازم المحبة ، فكلما كان الحبُّ أعظم كان

القُربُ أكثر ، وقد استولت محبة المحبوب على قلب محبه بحيث يفنى بها عن غيرها ، ويغلب محبوبه على قلبه حتى كأنه يراه ويشاهده ، فإن لم يكن عنده معرفة صحيحة بالله وما يجب له وما يستحيل عليه ، وإلا طَرَقَ باب الحلول إن لم يَلجْه ، وسببه ضعف تمييزه ، وقوة سلطان المحبة ، واستيلاء المحبوب على قلبه بحيث يغيب عن ملاحظة ما سواه. وفي مثل هذه الحال يقول : سبحاني !! أو : ما في الجبة إلا الله !! ونحو هذا من الشطحات التي نهايتها أن يغفر له ويعذر لسكره وعدم تمييزه في تلك الأحوال [1].

فالتعبد بهذا الاسم هو التعبد بخالص المحبة وصفو الوداد ، وأن يكون الإله أقرب إليه من كل شيء وأقرب إليه من نفسه ، مع كونه ظاهرًا ليس فوقه شيء ، ومن كثف ذهنه وغلظ طبعه عن فهم هذا ، فليضرب عنه صَفْحًا إلى ما هو أولى به ، فقد قيل :

إذا لم تَستطِع شيئًا فَدَعْه　　　　وجَاوِزْهُ إلى ما تَستطيع

فمن لم يكن له ذوق من قُرب المحبة ، ومعرفة بقرب المحبوب من مُحِبِّه غاية القرب وإن كان بينهما غاية المسافة ـ ولا سيما إذا كانت المحبة من الطرفين ،وهي محبة بريئة من العلل والشوائب والأعراض القادحة فيها ـ فإن المحبَّ كثيرًا ما يستولي محبوبه على قلبه وذكره ، ويفنى عن غيره ويرق قلبه وتتجرد نفسه ، فيشاهد محبوبه كالحاضر معه القريب إليه وبينهما من البعد ما بينهما ، وفي هذه الحال يكون في قلبه وجوده العلمي ، وفي لسانه وجوده اللفظي ، فيستولي هذا الشهود عليه ويغيب

(١) قد كان السلف رضي الله عنهم ورحمهم الله تعالى أشد الناس حبًا لله تعالى ، ولم تكن الكلمات الكفرية تجري على لسانهم ! نسأل الله العافية !

به ، فيظن أن في عينه وجوده الخارجي لغلبة حكم القلب والروح ، كما قيل :

خيالك في عيني وذكركَ في فمي ومثواكَ في قلبي فأين تغيب

هذا ويكون ذلك المحبوب بعينه بينه وبين عَدوّه وما بينهما من البُعد وإن قربت الأبدان وتلاصقت الديار . والمقصود أن المثال العلمي غير الحقيقة الخارجية وإن كان مطابقًا لها ، لكن المثال العلمي محله القلب ، والحقيقة الخارجية محلها الخارج ، فمعرفة الأسماء الأربعة وهي : الأول والآخر ، والظاهر ، والباطن ، وهي أركان العلم والمعرفة ، فحقيق بالعبد أن يبلغ في معرفتها إلى حيث ينتهي به قواه وفهمه .

*** [لكل شيء أولٌ وآخر وظاهر وباطن] :**

واعلم أنَّ لك أنت أولاً وآخرًا وظاهرًا وباطنًا ، بل كل شيء فله أولٌ وآخر وظاهر وباطن ، حتى الخطرة واللحظة والنفس وأدنى من ذلك وأكثر ، فأولية الله عز وجل سابقة على أولية كل ما سواه ، وآخريته ثابتة بعد آخرية كل ما سواه ، فأوليته سبقه لكل شيء ، وآخريته بقاؤه بعد كل شيء ، وظاهريته سبحانه فوقيته وعلوه على كل شيء ، ومعنى الظهور يقتضي العلو ، وظاهر الشيء هو ما علا منه وأحاط بباطنه ، وبطونه سبحانه إحاطته بكل شيء بحيث يكون أقرب إليه من نفسه ، وهذا قرب غير قرب المحب من حبيبه ، هذا لون وهذا لون .

*** [مَدارُ هذه الأسماء على الإحاطة ، وهي : زمانية ومكانية] :**

فمدار هذه الأسماء الأربعة على الإحاطة ، وهي إحاطتان : زمانية ومكانية ، فإحاطة أوليته وآخريته بالقَبْل والبَعد ، فكل سابق انتهى إلى أوليته وكل آخر انتهى إلى آخريته ، فأحاطت أوليته وآخريته بالأوائل

والأواخر ، وأحاطت ظاهريته وباطنيته بكل ظاهر وباطن ، فما من ظاهر إلا والله فوقه ، وما من باطن إلا والله دونه ، وما من أول إلا والله قبله ، وما من آخر إلا والله بعده : فالأول قِدَمه ، والآخر دوامه وبقاؤه ، والظاهر علوه وعظمته ، والباطن قربه ودنوه ، فسبق كل شيء بأوليته ، وبقي بعد كل شيء بآخريته ، وعلا على كل شيء بظهوره ، ودنا من كل شيء ببطونه ، فلا تُوارىٰ منه سَماءٌ سماءً ولا أرضٌ أرضًا ، ولا يَحجبُ عنه ظاهرٌ باطنًا بل الباطن له ظاهر ، والغيب عنده شهادة ، والبعيد منه قريب والسر عنده علانية .

فهذه الأسماء الأربعة تشتمل علىٰ أركان التوحيد ، فهو الأول في آخريته والآخر في أوليته ، والظاهر في بطونه والباطن في ظهوره ، لم يزل أولاً وآخرًا وظاهرًا وباطنًا .

*** [للتعبد بهذه الأسماء رتبتان] :**

والتعبد بهذه الأسماء رتبتان : الرتبة الأولىٰ أن تشهد الأولية منه تعالىٰ في كل شيء والآخرية بعد كل شيء والعلو والفوقية فوق كل شيء والقرب والدنو دون كل شيء فالمخلوق يحجبه مثله عما هو دونه فيصير الحاجب بينه وبين المحجوب ، والربّ جل جلاله ليس دونه شيء أقرب إلىٰ الخلق منه .

والمرتبة الثانية من التعبد : أن يعامل كل اسم بمقتضاه ، فيعامل سبقه تعالىٰ بأوليته لكل شيء وسبقه بفضله وإحسانه الأسباب كلها بما يقتضيه ذلك من إفراده وعدم الالتفات إلىٰ غيره والوثوق بسواه والتوكل علىٰ غيره ، فمن ذا الذي شفع لك في الأزل حيث لم تكن شيئًا مذكورًا حتىٰ سَمَّاك باسم الإسلام ، ووسمك بسِمَة الإيمان ، وجعلك من أهل

قبضة اليمين ، وأقطعك في ذلك الغيب عمالات المؤمنين ، فعصمك عن العبادة للعبيد ، وأعتقك من التزام الرق لمن له شكل ونديد ، ثم وَجَّه وجهة قلبك إليه سبحانه دون ما سواه ؟!

فاضرع إلى الذي عَصَمك من السجود للصنم ، وقضى لك بقَدَم الصدق في القِدمَ ، أنْ يتمَّ عليك نعمة هو ابتدأها وكانت أوليتها منه بلا سبب منك ، واسْمُ بهمتك عن ملاحظة الاختيار ، ولا تركنن إلى الرسوم والآثار ، ولا تقنع بالخسيس الدون ، وعليك بالمطالب العالية والمراتب السامية التي لا تنال إلا بطاعة الله ، فإن الله سبحانه قضى أن لا ينال ما عنده إلا بطاعته ، ومن كان لله كما يريد كان الله له فوق ما يريد، فمن أقبل إليه تلقاه من بعيد ومن تصرف بحوله وقوته ألان له الحديـــد ، ومـــن ترك لأجله أعطاه فوق المزيـد ، ومـــن أراد مراده الديني أراد ما يريد .

ثم اسم بسرك إلى المطلب الأعلى ، واقصر حُبَّك وتقربك على من سبق فضله وإحسانه إليك كل سبب منك ، بل هو الذي جاد عليك بالأسباب ، وهيأ لك وصرف عنك موانعها ، وأوصلك بها إلى غايتك المحمودة فتوكل عليه وحده ، وعامله وحده ، وآثر رضاه وحده ، واجعل حبه ومرضاته هو كعبة قلبك التي لا تزال طائفًا بها ، مستلمًا لأركانها ، واقفًا بملتزمها . فيا فوزك ويا سعادتك إنْ اطلع سبحانه على ذلك من قلبك ، ماذا يفيض عليك من ملابس نعمه وخلع أفضاله ، «اللهم لا مانعَ لما أعطيتَ : ولا مُعطي لما منعتَ ، لا يَنفعُ ذا الجدِّ منك الجدُّ ، سبحانك وبحمدك» .

وأصلح له غيبك فإنه عنده شهادة ، وزكِّ له باطنك فإنه عنده ظاهر .

* [احتواء هذه الأسماء الأربعة على جماع المعرفة بالله تعالىٰ والعبودية له] :

فانظر كيف كانت هذه الأسماء الأربعة جماع المعرفة بالله ، وجماع العبودية له فهنا وقفت شهادة العبد مع فضل خالقه ومنته فلا يرىٰ لغيره شيئًا إلا به وبحوله وقوته وغاب بفضل مولاه الحق عن جميع ما منه هو مما كان يستند إليه أو يتحلىٰ به أو يتخذه عقدة أو يراه ليوم فاقته أو يعتمد عليه في مهم من مهماته ، فكل ذلك من قُصور نظره وانعكاسه عن الحقائق والأصول إلىٰ الأسباب والفروع كما هو شأن الطبيعة والهوىٰ وموجب الظلم والجهل ، والإنسان ظلوم جهول .

فمن جلىٰ الله سبحانه صَدَأ بصيرته ، وكمل فطرته وأوقفه علىٰ مبادئ الأمور وغاياتها ومَنَاطها ومصادرها ومواردها ، أصبح كالمفلس حقًا من علومه وأعماله وأحواله وأذواقه يقول : أستغفر الله من علمي ومن عملي، أي من انتسابي إليهما وغيبتي بهما عن فضل من ذكرني بهما وابتدأني بإعطائهما من غير تقدم سبب مني يوجب ذلك ، فهو لا يشهدُ غير فضلِ مولاه وسبق مِنَّته ودوامه ، فيثيبه مولاه علىٰ هذه الشهادة العالية بحقيقة الفقر الأوسط بين الفقرين الأدنىٰ والأعلىٰ ثوابين :

أحدهما الخلاص من رؤية الأعمال حيث كان يراها ويتمدح بها ويستكثرها فيستغرق بمطالعة الفضل غائبًا عنها ذاهبًا عنها فانيًا عن رؤيتها .

الثواب الثاني : أن يقطعه عن شهود الأحوال ـ أي عن شهود نفسه فيها متكثرة بها ـ فإن الحال محله الصدر ، والصدر بيت القلب والنفس ، فإذا نزل العطاء في الصدر للقلب ثبتت النفس لتأخذ نصيبها من العطاء فتتمدح به وتدل به وتزهو وتستطيل وتقرر إنيتها لأنها جاهلةٌ ظالمة ، وهذا مقتضىٰ الجهل والظلم .

فإذا وصل إلى القلب نُورُ صفة المنة ، وشَهِدَ معنى اسمه (المنان) وتجلّى سبحانه على قلب عبده بهذا الاسم مع اسمه (الأول) ذهل القلب والنفس به ، وصار العبد فقيرًا إلى مولاه بمطالعة سبق فضله الأول ، فصار مقطوعًا عن شهود أمر أو حال ينسبه إلى نفسه بحيث يكون بشهادته لحاله مفصومًا مقطوعًا عن رؤية عزَّة مولاه وفاطره وملاحظة صفاته ، فصاحب شهود الأحوال منقطعٌ عن رؤيةِ منة خالقه وفضله ومشاهدة سبق الأولية للأسباب كلها ، وغائب بمشاهدة عزة نفسه عن عزة مولاه ، فينعكس هذا الأمر في حق هذا العبد الفقير وتشغله رؤية عزة مولاه ومنته ومشاهدة سبقه بالأولية عن حال يعتز بها العبد أو يشرف بها .

وكذلك الرجوع إلى السبق بمطالعة الفضل يُمَحِّصُ من أدناس مطالعات المقامات ، فالمقام ما كان راسخًا فيه ، والحال ما كان عارضًا لا يدوم ، فمطالعات المقامة وتشوفه بها وكونه يرى نفسه صاحب مقام قد حققه وكمله فاستحق أن ينسب إليه ويوصف به ، مثل أن يقال : زاهدٌ صابرٌ خائف راجٍ محب راض ، فكونه يرى نفسه مستحقًا بأن تضاف المقامات إليه وبأن يوصف بها - على وجه الاستحقاق لها ـ خروج عن الفقر إلى الغنى ، وتعبد لطور العبودية ، وجهل بحق الربوبية ، فالرجوع إلى السبق بمطالعة الفضل يستغرق همة العبد ويمحصه ويطهره من مثل هذه الأدناس ، فيصير مصفى بنور الله سبحانه عن رذائل هذه الأرجاس[1].

٥- والعلم بهذه الأسماء الأربعة ومعانيها له أثر عظيم في دفع الوسوسة ، وردِّ كيدها ، أشار إلى ذلك حَبْر الأمة ابن عباس رضي الله

(١) «طريق الهجرتين» (ص١٩ ـ ٢٧) .

عنهما ، فقد أخرج أبو داود عن أبي زُمَيْل قال : سألت ابن عباس فقلت: ما شيءٌ أجده في صدري ؟ قال: ما هو؟ : قلتُ : والله ما أتكلم به ، قال: فقال لي : أشيءٌ من شك ؟ قال: وضحك قال: ما نَجَا من ذلك أحد ، قال: حتى أنزل الله عز وجل : ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤] قال : فقال لي : إذا وجدتَ في نفسك شيئًا فقل : ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣] (١).

* * *

(١) «السنن» (٥/ ٥١١٠) قال : حدثنا عباس بن عبد العظيم حدثنا النضر بن محمد حدثنا عكرمة ـ يعني ابن عمار ـ حدثنا أبو زميل فذكره .

قال المنذري : أبو زميل هو سماك بن الوليد الحنفي وقد احتج به مسلم «مختصر السنن» (٨/ ١١).

قلت: وقد وثقه أحمد وابن معين والعجلي وقال أبو حاتم : صدوق لا بأس به ، وعكرمة ابن عمار صدوق يغلط والنضر بن محمد هو الجرشي ثقة وكذا ابن عباس العنبري .

فالإسناد حسن .

البَرُّ
جَلَّ جلالُه وتقدَّست أسماؤُه

(٧٩)

* المعنى اللغوي :

البِرُّ : الصدق والطاعة ، والبَرُّ : الصادق وفي التنزيل ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٧٧] .

والبِرُّ خلافُ العقوق ، والمَبَرَّةُ مثله .

تقول بَرِرْتُ والدي أَبَرُّهُ بِرًا فأنا بَرٌّ به وبارٌّ .

وجمع البَرِّ أبرارٌ ، وجمع البَارِّ البَرَرَةُ .

وفلانٌ يَبَرُّ خالقَه ويَتَبرَّرُهُ ، أي : يُطيعه ، وبَرَّ فلان في يمينه ، أي : صَدَقَ .

والبَرُّ : خلاف البحر ، وأَبَرَّ فلان إذا ركب البر .

وأَبَرَّ فلانٌ على أصحابه : أي علاهم وغلبهم ، والإِبْرار : الغلبة ، والمُبِرُّ : الغَالِب .

والبُرُّ : الحنطة [١].

وقال القرطبي : البِرُّ هو الاتساع في الإحسان والزيادة . . ومنه يقال: أَبَرَّ على صاحبه في كذا ، أي : زاد عليه : وسُمِّيت البريةُ بريَّةً لاتساعها[٢].

---

(١) «الصحاح» (٢/٥٨٨) و«اللسان» (١/٢٥٢ ـ ٢٥٥) مادة (برر) ، «تفسير الأسماء» للزجاج (ص٦١) «اشتقاق الأسماء» للزجاجي (ص١٩٩) .

(٢) «الكتاب الأسنى» (ورقة ٣٤٥ أ ـ ب) .

* وروده في القرآن الكريم :

ورد مرة واحدة في قوله تعالى : ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٨] .

* معنى الاسم في حق الله تعالى :

قال ابن جرير : ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ﴾ يعني : اللطيف بعباده [١].

وقال الزجاج بعد أن ذكر معنى (البر) لغة : والله تعالى بَرٌّ بخلقه في معنى : أنه يُحْسِن إليهم ، ويصلح أحوالهم [٢].

وقال الخطابي : (البَرُّ) هو العَطُوفُ على عباده ، المحسنُ إليهم ، عَمَّ ببره جميع خلقه ، فلم يَبْخلْ عليهم برزقه .

وهو البَرُّ بالمحْسنِ في مُضاعَفته الثواب له ، والبرُّ بالمسيء في الصَّفْحِ والتجاوُزِ عنه .

وفي صفات المخلوقين : رجلٌ بَرٌّ وبارٌّ إذا كان ذا خيرٍ ونفع ، ورجلٌ بَرٌّ بأبويه وهو ضِدُّ العاق [٣].

وقال الحليمي : (البَرُّ) ومعناه الرفيق بعباده ، يريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر ، ويعفو عن كثير من سيئاتهم ، ولا يُؤَاخذهم بجميع جناياتهم ، ويجزيهم بالحسنة عشر أمثالها ، ولا يجزيهم بالسيئة إلا مثلها، ويكتب لهم الهَمَّ بالحسنة ، ولا يكتب عليهم الهمَّ بالسيئة[٤] .

---

(١) «جامع البيان» (١٨/٢٧) ، ثم ساق بسنده عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس مثله .

(٢) «تفسير الأسماء» (ص٦١) .

(٣) «شأن الدعاء» (ص٩٠) وبنحوه مختصراً قال البيهقي في «الاعتقاد» (ص٦٤) ، وكذا الأصبهاني في «الحجة» (ق٢٣ب) بنحو الفقرة الأولى منه .

(٤) «المنهاج» (١/٢٠٤) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه ، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص٧١) .

وقال القرطبي بعد أن حكى معنى الاسم لغة : وهذا الوصف في الله تعالى من أوصاف فعله ، وهو مُضاف إلى عباده كلِّهم في الدنيا ، وإلى الخصوص في الأخرى ، وذلك أنَّه ما من شخصٍ في الدنيا إلا وسعه من الله تعالى وفَاضَ عليه إحسانه ، ولذلك عَمَّ في قوله : ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠] .

وأما في الأخرى فلا يختصُّ ببر الله تعالى إلا مَنْ أنعم عليه بجواره ، وأسكنه بَحْبُوحَة أنواره ، لا مَن أحلَّه في ناره [١].

وقال ابن القيم :

والبَرُّ في أوْصَافِهِ سُبحانه ... هو كَثْرةُ الخَيراتِ والإحْسَانِ
صَدَرَتْ عن البرِّ الذي هو وَصْفُهُ ... فالبر حينئذٍ نوعان
وَصْفٌ وفعلٌ فهو بَرٌّ مُحسنٌ ... مَولى الجَميل ودائم الإحسان[٢]

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١- الله تبارك وتعالى بَرٌّ رحيمٌ بعباده ، عطوفٌ عليهم ، محسنٌ إليهم، مُصْلحٌ لأحوالهم في الدنيا والدين .

أما في الدنيا فما أعطاهم وقسم لهم من الصحة والقوة والمال والجاه والأولاد والأنصار ، مما يخرج عن الحصر ، قال سبحانه ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤] فيدخل في ذلك كلُّ معروف وإحسان ، لأنها ترجع إلى البر .

ويشترك في ذلك المؤمن والكافر .

---

(١) «الكتاب الأسنى» (ورقة ٣٤٥ ب) .

(٢) «النونية» : (٢/ ٢٣٤) .

وأما في الدين فما منَّ به على المؤمنين من التوفيق للإيمان والطاعات، ثم إعطائهم الثواب الجزيل على ذلك في الدنيا والآخرة ، وهو الذي وفَّق وأعان أولاً ، وأثاب وأعطى آخراً .

فمنه الإيجاد ، ومنه الإعداد ، ومنه الإمداد ، فله الحمد في الأولى والمعاد .

٢- من برِّه سبحانه بعباده إمهاله للمسيء منهم ، وإعطاؤه الفرصة بعد الفرصة للتوبة ، مع قدرته على المعاجلة بالعقوبة .

قال سبحانه : ﴿ **وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلاً** ﴾ [الكهف: ٥٨] .

قال الإمام ابن القيم رحمه الله في شرحه لِلَطائف أسرار التوبة :

ومنها : أن يعرف بِرَّه سبحانه في سَتره عليه حال ارتكاب المعصية ، مع كمال رؤيته له ، ولو شاء لفضحه بين خلقه فحذروه ، وهذا من كمال بره ، ومن أسمائه (البَرُّ) وهذا البر من سيده كان به مع[1] كمال غناه عنه وكمال فقر العبد إليه ، فيشتغل بمطالعة هذه المنة ، ومشاهدة هذا البر والإحسان والكرم ، فيذهل عن ذكر الخطيئة ، فيبقى مع الله سبحانه ، وذلك أنفع له من الاشتغال بجنايته ، وشهود ذل معصيته ، فإن الاشتغال بالله والغفلة عما سواه : هو المطلب الأعلى ، والمقصد الأسنى .

ولا يوجد هذا نسيان الخطيئة مطلقًا بل في هذه الحال ، فإذا فقدها فليرجع إلى مطالعة الخطيئة ، وذكر الجناية ، ولكلٍّ وقتٍ ومقام عبودية تليق به .

ومنها : شُهودُ حلم الله سبحانه وتعالى في إمهالِ راكب الخطيئة ،

---

(١) في الأصل : كان عن به كمال غناه ! ولعل الصواب ما أثبتناه .

ولو شاء لعاجله بالعقوبة ، ولكنه (الحليم) الذي لا يَعْجَل ، فَيُحدث له ذلك معرفة ربه سبحانه باسمه (الحليم) ومشاهدة صفة «الحِلم» والتعبد بهذا الاسم ، والحكمة والمصلحة الحاصلة من ذلك بتوسط الذنب : أحب إلى الله ، وأصلح للعبد ، وأنفع من فَوتها ، ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع .

ومنها : معرفة العبد كَرَمَ ربِّه في قبول العذر منه إذا اعتذر إليه بنحو ما تقدم من الاعتذار ، لا بالقدر ! فإنه مخاصمة ومحاجة ، كما تقدم ، فيقبل عذره بكرمه وجوده ، فيوجب له ذلك اشتغالاً بذكره وشكره ، ومحبة أخرى لم تكن حاصلة له قبل ذلك ، فإن محبتك لمن شكرك على إحسانك وجازاك به ، ثم غفر لك إساءتك ولم يؤاخذك بها : أضعاف محبتك على شكر الإحسان وحده ، والواقع شاهدٌ بذلك ، فعبودية التوبة بعد الذنب لون ، وهذا لون آخر .

ومنها : أن يشهد فضله في مغفرته ، فإن المغفرة فضل من الله ، وإلا فلو أخذك بمحض حقه، كان عادلاً محمودًا ، وإنما عفوه بفضله لا باستحقاقك ، فيوجب لك ذلك أيضًا شكرًا له ومحبة ، وإنابة إليه ، وفرحًا وابتهاجًا به ، ومعرفة له باسمه (الغفار) ومشاهدة لهذه الصفة ، وتعبدًا بمقتضاها ، وذلك أكمل في العبودية ، والمحبة والمعرفة [1].

٣- الله تبارك وتعالى بارٌّ بأوليائه ، صادقٌ[2] فيما وعدهم به من الأجر والثواب﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ ﴾ [الأعراف: ٤٤] .

---

(١) «مدارج السالكين» (١/٢٠٦) .

(٢) قد سبق أن من معاني البر في اللغة : الصدق ، فيقال : برَّ في يمينه ، أي: صدق .

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

٤- الله جل شأنه بَرٌّ يُحبُّ البِرَّ ويأمر به، ويحب من يتخلَّقُ به من عباده الأبرار.

ومن أجمع الآيات التي ذكرت أعمال البرِّ قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وأثنى تعالى على ابني الخالة عيسى ويحيى عليهما الصلاة والسلام ببرهما أبويهما، فقال في وصف عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣٢]، وفي وصف يحيى عليه الصلاة والسلام: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم: ١٤].

وجعل رسول الله ﷺ كلَّ الأخلاقِ الفاضلة الحسنة من البِرِّ، فعن النَّواس بن سمعان قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم؟ فقال: «**البِرُّ حُسْنُ الخُلُقِ، والإثمُ ما حَاكَ في صَدْرِكَ وكَرِهْتَ أن يَطَّلع عليه النَّاسُ**»(١).

٥- لن ينال العبدُ برَّ الله تعالى به في الآخرة إلا باتباع ما يُفضي إلى

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٨٢)، ومسلم في البر والصلة (٤/ ١٩٨٠)، والترمذي (٤/ ٢٣٨٩)، والدارمي (٢/ ٣٢٢) من ثلاث طرق عن معاوية بن صالح عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه عن النواس به.
=

برِّه ومرضاته ورحمته ، قال تعالى : ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٢] .

وقد فُسِّر (البر) في هذه الآية بالجنة وثواب الله تعالى .

قال قتادة : لن تنالوا بر ربكم حتى تنفقوا مما يُعجبكم ومما تهوون من أموالكم (١).

وقال ابن جرير : لن تُدركوا أيها المؤمنون (البر) وهو البر من الله الذي يطلبونه منه بطاعتهم إياه ، وعبادتهم له ، ويرجونه منه ، وذلك تفضله عليهم بإدخالهم جنته وصَرْف عذابه عنهم ، ولذلك قال كثير من أهل التأويل : البر : الجنة ، لأنَّ برَّ الربِّ بعبده في الآخرة وإكرامه إياه بإدخاله الجنة (٢).

ومما يدخل في هذا المعنى قوله ﷺ : «إن الصِّدقَ يهدي إلى البرِّ ، وإن البرَّ يَهدي إلى الجنة ، وإن الرجلَ لَيصدُقُ حتى يُكتب صدِّيقًا ، وإنَّ الكَذِبَ يهدي إلى الفُجُور ، وإنَّ الفُجورَ يهدي إلى النار ، وإن الرجل يكذبُ حتى يكتب كذَّابًا»(٣) .

= وأخرجه الدارمي (٢/ ٣٢٢) قال أخبرنا أبو المغيرة ثنا صفوان هو ابن عمرو حدثني يحيى بن جابر القاضي عن النواس بنحوه . ويحيى بن جابر ثقة ، لكن حديثه عن النواس مرسل «التهذيب» .

(١) «تفسير ابن جرير» (٣/ ٢٤٦) بسند حسن عنه .

(٢) المصدر السابق .

وقيل البر: التقوى ، وقيل : الطاعة ، وقيل : الخير الذي يُستحق به الأجر . وقال القاضي أبو يعلى : لم يُرد نفي الأصل ، وإنما نفي وجود الكمال ، فكأنما قال: لن تنالوا البر الكامل «زاد المسير» لابن الجوزي (١/ ٤٢٠) .

(٣) أخرجه البخاري (١٠/ ٥٠٧) ومسلم في البر والصلة (٤/ ٢٠١٢ ـ ٢٠١٣) عن منصور عن =

قال الحافظ ابن حجر : البر أصله التوسع في فعل الخير ، وهو اسم جامعٌ للخيرات كلِّها ، ويطلق على العمل الخالص الدائم[1].

وقوله : «وإن البر يهدي إلى الجنة» : مصداقه في كتاب الله تعالى : ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ قاله ابن بطال[2] .

٦- «لا تظن أن قوله تعالى : ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤] مختصٌّ بيوم المعاد ، بل هؤلاء في نعيم في دورهم الثلاثة ، وهؤلاء في جحيم في دورهم الثلاثة .

وأي لذة وأي نعيم في الدنيا أطيب من برِّ القلب ، وسلامة الصدر ، ومعرفة الربِّ تبارك وتعالى ومحبته ، والعمل على موافقته ؟

وهل العيش في الحقيقة إلا عيش القلب السليم ؟ وقد أثنى الله سبحانه وتعالى على خليله عليه السلام بسلامة قلبه فقال: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٣، ٨٤] .

وقال حاكيًا عنه أنه قال : ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩] والقلبُ السليم هو الذي سَلِمَ من الشرك والغلِّ والحقد والحسد والشح والكبر ، وحب الدنيا والرياسة ، فسَلِمَ من كلِّ آفةٍ تُبعده من الله ، وسَلِمَ من كل شبهة تعارض خبره ، ومن كل شهوة تعارض أمره ، وسلم من كل إرادةٍ تُزاحم مراده ، وسلم من كل قاطع يقطع عن الله .

= أبي وائل عن عبد الله بن مسعود مرفوعًا به .

ورواه مسلم (٢٠١٣/٤) عن الأعمش عن أبي وائل عن ابن مسعود مرفوعًا به .

(١) «الفتح» (١٠/ ٥٠٨).

(٢) المصدر السابق .

فهذا القلب السليم في جنةٍ مُعجَّلة في الدنيا ، وفي جنة في البرزخ ، وفي جنة يوم المعاد»[1] .

* * *

(١) «الداء والدواء» (ص١٧٨ ـ ١٧٩) لابن القيم .

التَّـــوَّاب
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(٨٠)

* **المعنىٰ اللغوي :**

التَوبة : الرجوع من الذنب ، وكذلك التَوْبُ مثله .

وقال الأخفش : التَوْبُ جمع توبةٍ ، مثل عَزْمَةٍ وعزمٍ[١] وتاب إلىٰ الله توبة ومتابًا ، وقد تاب الله عليه : وفَّقه لها .

واسْتَتَابه : سأله أن يتوب [٢].

ورجلٌ توَّابٌ : تائبٌ إلىٰ الله : والله تَوَّاب : يتوب علىٰ عبده ، وقوله تعالىٰ : ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ [غافر: ٢] يجوز أن يكون عَنَىٰ به المصدر كالقَوْل، وأن يكون جَمع تَوْبة كَلوْزَةٍ ولَوْزٍ، وهو مذب المبرِّد [٣].

وقال الزجاج : يقال تابَ إلىٰ الشيء يتوب توبًا ، إذا رجع [٤].

وقال الزجَّاجي : التواب فعَّال من تاب يتوب .

وقال : وفَعَّال من أبنية المبالغة ، مثل : ضَرَّاب للكثير الضَرْب ، وقتَّال للكثير القتل[٥] .

---

(١) في المطبوع من «الصحاح» : عمة وعوم ، وما أثبتناه موافق لـ«اللسان» و«الكتاب الأسنىٰ» (ق٣٧٧أ) .

(٢) «الصحاح» (١/ ٩١ ـ ٩٢) .

(٣) «اللسان» مادة (توب) .

(٤) «تفسير أسماء الله» (ص٦١) .

(٥) «اشتقاق أسماء الله» (ص٦٢ ـ ٦٣) .

* وروده في القرآن الكريم :

ورد الاسم في القرآن إحدىٰ عشرةَ مرةً ، منها :

قوله تعالىٰ : ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧] .

وقوله : ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٠] .

وقوله : ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٤] .

وقوله : ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ١٠] .

وقوله : ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ٣] .

* معنىٰ الاسم في حق الله تعالىٰ :

قال قتادة: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ : إن الله هو الوهَّاب لعباده الإنابة إلىٰ طاعته ، الموفق من أحب توفيقه منهم لما يرضيه عنه [(١)].

وقال أبو عبيدة : ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ﴾ : أي يتوب علىٰ العباد ، والتواب من الناس الذي يتوب من الذنب[(٢)] .

وقال ابن جرير : ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ : إن الله جلَّ ثناؤه هو (التواب) علىٰ من تاب إليه من عباده المذنبين من ذنوبه ، التارك مجازاته بإنابته إلىٰ طاعته بعد معصيته بما سَلَف من ذنبه .

---

(١) «جامع البيان» (١١/ ٤١) بسند حسن عنه .

(٢) «مجاز القرآن» (١/ ٣٩) .

وقد ذكرنا أن معنى (التوبة) من العبد إلى ربه إنابته إلى طاعته ، وأوبته إلى ما يرضيه بتركه ما يُسخطه من الأمور التي كان عليها مقيمًا مما يكرهه ربُّه ، فكذلك توبة الله على عبده هو أن يرزقه ذلك ويؤوب من غضبه عليه إلى الرِّضا عنه ، ومن العقوبة إلى العَفْو والصفح عنه [(١)].

وقال الزجاج : قال الله تعالى : ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ [غافر :٣] أي : يقبلُ رجوعَ عبده إليه ، ومن هذا قيل : التوبة كأنه رجوعٌ إلى الطاعة ، وترك المعصية[(٢)] .

وبنحوه قال الزجاجي ، ثم قال : فجاء توَّاب على أبنية المبالغة لقبوله توبة عباده ، وتكرير الفعل منهم دفعة بعد دفعة ، وواحدًا بعد واحد على طول الزمان ، وقبوله عز وجل ممن يشاء أن يقبل منه ، فلذلك جاء على أبنية المبالغة .

فالعبد يتوب إلى الله عز وجل ويقلع عن ذنوبه ، والله يتوب عليه ، أي : يقبل توبته .

فالعبد تَائِب ، والله تَوَّاب[(٣)] .

وقال الخطَّابي: (التواب) : هو الذي يتوب على عبده ويقبل توبته كلما تكرَّرت التوبة تكرر القَبُول ، وهو حرفٌ يكون لازمًا ويكون مُتعديًا، يقال: تاب الله على العبد : بمعنى وفَّقه للتوبة فتاب العبد ، كقوله تعالى : ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة: ١١٨] .

---

(١) «جامع البيان» (١/ ١٩٥) .

(٢) «تفسير أسماء الله» (ص٦٢) .

(٣) «اشتقاق الأسماء» (ص٦٣) .

ومعنى التوبة : عَوْدُ العبد إلى الطاعة بعد المعصية[1].

وقال الحُليمي : (التواب) وهو المعيدُ إلى عبده فضل رحمته إذا هو رجع إلى طاعته ، ونَدِمَ على معصيته ، ولا يحبط بما قدم من خير ، ولا يمنعه ما وعد المطيعين من الإحسان [2].

وقال البيهقي : هو الذي يتوب على من يشاء من عبيده[3].

وفي «المقصد الأسنى» : (التواب) هو الذي يرجع إلى تيسير أسباب التوبة لعباده مرة بعد أخرى ، بما يُظهر لهم من آياته ، ويُسوقُ إليهم من تنبيهاته ، ويُطلعهم عليه من تخويفاته وتحذيراته ، حتى إذا اطلعوا ـ بتعريفه ـ على غوائل الذنوب ، استشعروا الخوف بتخويفه فرجعوا إلى التوبة ، فرجع إليهم فضل الله تعالى بالقبول [4].

وقال ابن القيم :

وكذلك التَّوَّابُ من أوْصَافِهِ ... والتَّوابُ في أوْصافه نوعانِ

إذْنٌ بتوبةِ عَبْدِهِ وقَبُولها ... بعد المَتَابِ بِمنَّةِ المنَّانِ[5]

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١- الله تبارك وتعالى هو (التواب) الذي لم يَزَلْ يتوب على التائبين ، ويغفر ذنوب المنيبين ، فكل من تاب إلى الله توبة نصوحًا تاب الله

---

(١) «شأن الدعاء» (ص٩٠) .

(٢) «المنهاج» (١/ ٢٠٦) وذكره في الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه ، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص٧٨) .

(٣) «الاعتقاد» (ص٦٤) .

(٤) (ص٨٨) ونحوه في «روح المعاني» للألوسي (١/ ٢٣٧) .

(٥) «النونية» (٢/ ٢٣١) .

عليه وقَبِلَه .

فهو التائب على التائبين أولاً بتوفيقهم للتوبة ، والإقبال بقلوبهم إليه.

وهو التائب على التائبين بعد توبتهم قَبُولاً لها وعفواً عن خطاياهم[1].

فهو سبحانه يوفِّق عباده للتوبة ، ويقبلها منهم ويُثيبهم عليها ، فسبحان التواب الرحيم ، الجواد الكريم .

قال الأقليشي : سمَّى الله سبحانه نفسه توابًا لأنه خالق التوبة في قلوب عباده ، ومُيسِّر أسبابها لهم ، والراجع بهم من الطريق التي يكره إلى الطريق التي يرضى .

وسمَّى نفسه أيضًا (توابًا) لقبوله توبة من يرجع إليه .

ومن القسم الأول قوله تعالى : ﴿ **ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا** ﴾ [التوبة: ١١٨].

ومن القسم الثاني قوله تعالى : ﴿ **فَمَن تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ** ﴾ [المائدة: ٣٩] .

فبهذين[2] القسمين سمَّى نفسه توابًا .

ولقد جهل المعتزلي الحقيقة فأنكر القسم الأول ، وهو خَلْقُ التوبة في قلب العبد ، وهذا مَطْموسُ القلب عن طريق القصد .

ولمَّا كانت المعاصي متكررة من عباده ، جاء بصيغة المبالغة ، ليقابل الخطايا الكبيرة بالتوبة الواسعة[3] .

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٥/ ٣٠٠) .

(٢) في الأصل : فبهذا ، وهو خطأ .

(٣) «الكتاب الأسنى» (ورقة ٣٧٧ ب) .

وقال ابن الحصَّار : قال الله العظيم : ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ [التوبة: ١١٧] فقال في الآية الأولى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ تَصريحٌ بتوبته على الإطلاق على من واقع الذنب ، أو كانت منه مخالفة وعصيان .

فتوبة الله على العبد قد يرادُ بها تجديد التوبة وتواليها عليه ، كما قال سبحانه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦] معناه جَدِّدوا الإيمان واستديموه واثْبُتوا عليه ، وعليه يُحمل قوله تعالى :﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] .

ووَصْفُه نفسه بأنه (التواب) مبالغة ؛ لكثرة من يتوب عليه ، ولتكريره ذلك في الشخص الواحد حتى يقضي عمره ، وإذًا تقرَّر أنَّ وصفه سبحانه بـ (التواب) : خَلْقُه التوبة للعبد وقبولها منه ، كما قال : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [الشورى: ٢٥] أي يقبل توبتهم ، كما قيل له عز وجل: تواب [١].

٢- الله تعالى هو المتفرد بقبول توبة التائبين من عباده ، لا يشركه في ذلك أحد من خلقه ، ولا يغفر الذنوب والخطايا إلا هو .

قال القرطبي بعد أن نقل كلام الأقليشي وابن الحصار : وإذا ثبت هذا فاعلم أنه ليس لأحدٍ قُدْرةٌ على خَلْق التوبة في قلب أحد ، لأنه سبحانه هو المنفردُ بخلق الأعمال وحده[٢] خلافًا للمعتزلة ومن قال بقولهم .

(١) المصدر السابق (ورقة ٣٧٧ب ـ ٣٧٨أ) .

(٢) وهذا لا يعني أن الإنسان ليست له مشيئة ، فإن الله تعالى يقول : ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] فالإنسان فاعلٌ لفعله حقيقة ، وله قدرة =

وكذلك ليس لأحدٍ أن يقبل توبة من أسْرَفَ على نفسه ولا أن يعفو عنه .

قال ابن الحصار : «وقد كَفَرت اليهود والنصارى بهذا الأصل العظيم في الدين ، اتخذوا أحْبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله عز وجل ، وجعلوا لمن أذنبَ أن يأتي الحَبْر أو الراهب فيعطيه شيئًا ، ويحطُّ عنه الذنب !! ﴿افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠] (١).

وهو ما يسمى بـ «صُكوك الغفران» !! وهي من ضلالاتهم الكثيرة التي أضلوا بها الناس وأكلوا بها أموالهم بالباطل دُهورًا طويلة كما قال سبحانه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤] .

فليس لأحد من خلق الله تعالى ـ مَلَكًا كان أو رسولاً ـ سلطانٌ في محو الذنب أو ستره ، أو تلقِّي الاعتراف بالذنب ، سوى الرب التواب سبحانه وتعالى ، إلا الشفاعة وهي من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى من عباده .

وفي تقرير هذا يقول سبحانه : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥] .

= واختيار ، وقدرته مؤثرة في مقدورها كما تؤثر القوى والطبائع والأسباب ، ودلَّ على ذلك الشرع والعقل . انظر «مجموع الفتاوى» (١٣٩/٣٠) .

(١) «الكتاب الأسنى» (٣٧٨ ب ـ ٣٧٩أ) .

ونحو هذا ما قاله ابن القيم في «المدارج» (١٧٩/١) : «ولما كانت «التوبة» هي رجوع العبد إلى الله ، ومفارقته لصراط المغضوب عليهم والضالين ، وذلك لا يحصل إلا بهداية الله إلى الصراط المستقيم ، ولا تحصل هدايته إلا بإعانته وتوحيده فقد انتظمتها سورة الفاتحة أحسن انتظام ..» .

وفي الدعاء الذي عَلَّمه النبي ﷺ لأبي بكر : «**اللهم إني ظلمتُ نفسي ظُلمًا كبيرًا ـ أو كثيرًا ـ ولا يغفر الذنوبَ إلا أنتَ ، فاغْفر لي مغفرةً من عندكِ وارحمني ، إنَّك أنتَ الغفورُ الرحيم**»[1].

وفي الآية الكريمة وهذا الدعاء إقرار الوحدانية له في التوبة ، إذْ معناهما أنه : لا يفعل هذا إلا أنت فافعله لي .

٣- جاء اسمه (التواب) مقترنًا بـ (الرحيم) و(الحكيم) .

قال قتادة : ﴿**وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾ [التوبة: ١٠٤] : إنَّ الله هو الوهاب لعباده الإنابة إلى طاعته الموفق من أحبَّ توفيقه منهم لما يُرضيه عنه (الرحيم) بهم أن يُعاقبهم بعد التوبة ، أو يَخذل من أراد منهم التوبة والإنابة ، ولا يتوب عليه[2] .

وقال ابن جرير بعد أن ذكر معنى (التواب) الذي تقدم : وأما قوله (الرحيم) فإنه يعني : أنه المتفضل عليه مع التوبة بالرحمة ورحمته إياه إقالة عثرته ، وصفحه عن عقوبة جرمه[3] .

وقال شهاب الدين الألوسي : وجَمَعَ بين وَصْفي كونه توابًا وكونه

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٢/ ٣١٧) وفي الدعوات (١١/ ١٣١) ومسلم في الذكر والدعاء (٤/ ٢٠٧٨) من طرق عن الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن عبد الله بن عمرو عن أبي بكر أنه قال لرسول الله ﷺ علمني دعاءً أدعو به في صلاتي قال : «**قل اللهم إني ظلمت ..**» .

وأخرجه البخاري في التوحيد (١٣/ ٣٧٢) ومسلم (٤/ ٢٠٧٨) عن ابن وهب أخبرني عمرو بن الحارث عن يزيد بن أبي حبيب به . وجاءت هذه العبارة أيضًا في دعاء الاستفتاح : «**وجهت وجهي..**» ودعاء سيد الاستغفار .

(٢) «جامع البيان» (١١/ ٤١) .

(٣) المصدر السابق (١/ ١٩٥) .

رحيمًا ، إشارةً إلىٰ مزيد الفضل ، وقدَّم (التواب) لظهور مناسبته لما قبله .

وقيل : في ذكر (الرحيم) بعده إشارةٌ إلىٰ أن قَبُول التوبة ليس علىٰ سبيل الوجوب ـ كما زعمت المعتزلة ـ بل علىٰ سبيل التَّرحم والتَّفضل ، وأنه الذي سبقت رحمته غضبه ، فيرحم عبده في عينِ غَضَبه ، كما جعل هُبُوط آدم سبب ارتفاعه ، وبعده سبب قُربه ، فسبحَانه من توابٍ ما أكرمه ومن رحيمٍ ما أعظمه[1] .

فيتحصَّل من ذلك :

أ ـ أن الله تعالىٰ رحيم بعباده فلا يعاقبهم بعد التوبة .

ب ـ أنه تعالىٰ لا يخذل ولا يردُّ من جاء منهم تائبًا ، ولو بلغت ذنوبه عَنَانَ السماء ومِلءَ الأرض .

ج ـ أنه تعالىٰ يرحم عبده ويقبل توبته في عين غضبه ، لأنَّ رحمته تعالىٰ تسبق غضبه[2] .

د ـ أن قبوله لتوبة عباده تفضلٌ منه عليهم ، وهو مقتضىٰ رحمته تعالىٰ بهم .

*** أما عن اقتران (التواب) بـ (الحكيم) :**

فيقول ابن جرير في قوله تعالىٰ : ﴿**وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ**﴾ [النور: ١٠]: يقول تعالىٰ ذكره: لولا فضلُ الله عليكم أيها الناس ورحمته بكم، وأنَّه عوَّادٌ علىٰ خلقه بلطفه وطَوْله، (حكيمٌ) في

---

(١) «روح المعاني» (٢٣٨/١) .

(٢) انظر الجزء الأول من هذا الكتاب (ص٨٩) في آثار الإيمان بـ (الرحمن الرحيم) .

تدبيره إياهم وسياسته لهم ، لعاجلكم بالعقوبة على معاصيكم ، وفَضَحَ أهل الذنوب منكم بذنوبهم ، ولكنه ستَرَ عليكم ذنوبكم وتركَ فضيحتكم بها عاجلاً ، رحمةً منه بكم وتفضلاً عليكم .

فاشكروا نِعَمَهُ ، وانتهوا عن التَّقدم عما عنه نهاكم عن مَعَاصيه وتَرَكَ الجواب في ذلك اكتفاء بمعرفة السامع المراد منه[1] .

وقال البغوي في الآية نفسها : جواب لولا محذوف ، يعني : لعاجلكم بالعقوبة ، ولكنه ستَرَ عليكم ورفعَ عنكم الحدَّ باللِّعان، وأن الله توابٌ يعود على من يرجع عن المعاصي بالرحمة ، حكيم فيما فرض من الحدود[2] .

وقال الألوسي : جواب «لولا» محذوف لتهويله ، حتى كأنه لا توجد عبارة تحيط ببيانه ، وهذا الحذف شائع في كلامهم ، فكأنه قيل : لولا تفضله تعالى عليكم ورحمته سبحانه وأنه تعالى مبالغ في قبول التوبة (حكيم) في جميع أفعاله وأحكامه التي من جملتها ما شرع لكم من حكم اللعان ، لكان مما لا يُحيط به نطاق البيان ، ومن جملته أنه تعالى لو لم يشرع لهم ذلك ، لوجب على الزوج حَدُّ القذف ، مع أن الظاهر صِدْقُهُ، لأنه أعرف بحال زوجته ، وأنه لا يفتري عليها لاشتراكهما في الفضاحة ، وبعد ما شرع لهم لو جعل شهاداته موجبة لحد الزنا عليها لفات النظر إليها ، ولو جعل شهاداتها موجبة لحدِّ القذف عليه لفات النظر له ، ولا ريب في خروج الكلِّ عن

(١) «جامع البيان» (١٨/٦٨) .

(٢) «معالم التنزيل» (٥/٥٦) بهامش تفسير الخازن ، وبنحوه مختصراً قال الخازن في تفسير (الصفحة نفسها) .

سنن الحكمة والفضل والرحمة ، فجعل شهادات كل منهما مع الجزم بكذب أحدهما حتمًا دارئــة لما توجـه إليه من الغائلة الدنيوية ، وقد ابتلي الكاذب منهما في تَضَاعيف شهاداته من العذاب بما هو أتم مما دَرَأَتْه عنها وأطم .

وفي ذلك من أحكام الحكم البالغة وآثار التفضل والرحمة ما لا يخفى، أما على الصادق فظاهر ، وأما على الكاذب فهو إمهاله والستر عليه في الدنيا ، ودرء الحدِّ عنه وتعريضه للتوبة حسبما يُنبئ عنه التعرض لعنوان توابيته تعالى .

فسبحانه ما أعظم شأنه ، وأوسع رحمته ، وأدق حكمته ، قاله شيخ الإسلام[1] .

فيتحصَّل مما سبق :

أ ـ أن الله عز وجل لا يُعَاجل أهل المعاصي بالعقوبة ، بل يُمهلهم الفُرصة للتوبة والرجوع ، وهذا من حكمته .

ب ـ أنه تعالى لا يفضح أهل الذنوب ابتداء ، ليكون ذلك عَوْنًا لهم على توبتهم .

ج ـ أنه شرع من الحدود والكفارات ما يُكفِّر به عن عباده الذنوب والسيئات ، وعذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة .

٤- لا يصح تسمية الله تعالى بـ «التائب» لأنَّه لم يرد في الكتاب والسنة تسمية الله تعالى بذلك ، وإن كان ذلك جائزًا لغة .

قال الزجاجي : فإن قال قائل : أفيجوز أن يقال : الله عز وجل

---

(١) «روح المعاني» (١٨/ ١١١) باختصار يسير .

«تائب» على عباده ، أي يقبل توبتهم ، كما قيل له عز وجل (تواب)؟.

قيل له : ليس لنا أن نُطْلق على الله عز وجل من الصفات إلا ما أطلقه جماعة المسلمين ، وجاء في الكتاب وإن كان في اللغة محتملاً .

وقد قال الله عز وجل : ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١١٧] وقال في موضع آخر ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [الشورى: ٢٥] فقد جاء الفعل منه على فعل يفعل .

وما نطق منه بفعل يفعل ، فاسم الفاعل منه قياسًا فاعل ، كقولك : ضرب زيد يضرب فهو ضارب ، وذهب يذهب فهو ذاهب ، فكذلك يقال قياسًا : تاب زيد يتوب فهو تائب .

فإن كانت الأمة تُطلق ذلك على الله عز وجل فقياسه في اللغة مستقيم، وإن لم تُطلق ذلك على الله عز وجل فلا يجوز الإقدام عليه وإن كان في اللغة جائزًا .

على أنه إنما قيل لله عز وجل (تواب) لمبالغة الفعل ، وكثرة قبوله توبة عباده ، ولكثرة من يتوب إليه وتردد هذا الفعل وتكراره وقبوله منهم ليدل على هذا المعنى ، فلا يجاوز هذا .

وقد جاء في صفاته عز وجل ما لا ينطق باسم الفعل ، كقوله : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١] وقوله : ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] ولم يقلْ : متُبارك ! كما قيل : تعالىٰ فهو متعال ، والوزن والتقدير في العربية واحد .

وقد جاء في صفاته عز وجل ما نطق باسم الفاعل، كقولك : الله المؤمن المهيمن، ولا تقول : آمن الله ولا هيمن، وإنما نسعى في صفاته

عز وجل إلىٰ ما أطلقته الأمة وجاء في التنزيل ونُمسك عما سوىٰ ذلك[1].

وهذا كلام سليم ، وقد سبق تقريره في مقدمة هذا الكتاب المبارك بتفصيل .

أما ما جاء في «مفردات» الراغب : فالعبد تائب إلىٰ الله ، والله تائب علىٰ عبده[2] .

فهو من باب الإخبار ، لا من باب التسمية .

٥- التوبة هي تَرْكُ الذنب علىٰ أجملِ الوجوه ، وهو أبلغ وُجُوه الاعتذار ، فإن الاعتذار علىٰ ثلاثة أوجه :

إما أن يقول المُعْتَذر لم أفعل .

أو يقول فعلتُ لأجل كذا .

أو فعلتُ وأسأتُ وقد أقلعت ، ولا رابع لذلك . وهذا الأخير هو «التوبة» .

والتوبة في الشرع : تركُ الذنب لقُبحه ، والنَّدم علىٰ ما فَرَط منه ، والعزيمة علىٰ ترك المعاودةِ ، وتداركُ ما أمكنه أن يُتدارَكَ من الأعمال بالإعادة .

فمتىٰ اجتمعت هذه الأربع فقد كَمُلَ شرائط التوبة[3] .

٦- التوبة واجبة علىٰ كل عبد ، لا يصح أن ينفك منها في حالٍ من الأحوال ، وأفضل الناس هم أحسنهم قيامًا بها وبحقها ، فإذا تخلىٰ عنها العبد صار ظالمًا لنفسه .

---

(١) «اشتقاق الأسماء» (ص ٦٣ ـ ٦٤) ، وانظر القرطبي (١/٣٢٦) .

(٢) (ص٧٦) ، وكذا ما سيأتي من كلام السعدي .

(٣) «مفردات الراغب الأصفهاني» (ص٧٦) .

قال ابن القيم رحمه الله : ومنزل «التوبة» أول المنازل ، وأوسطها ، وآخرها ، فلا يفارقه العبد السالك ، ولا يزال فيه إلى الممات ، وإنْ ارتحل به ، واستصحبه معه ونزل به ، فالتوبة هي بداية العبد ونهايته ، وحاجته إليها في النهاية ضرورية ، كما أن حاجته إليها في البداية كذلك ، وقد قال الله تعالى : ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١] وهذه الآية في سورة مدنية ، خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه ، بعد إيمانهم وصبرهم ، وهجرتهم وجهادهم ، ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه ، وأتى بأداة «لعلَّ» المشعرة بالترجي ، إيذانًا بأنكم إذا تُبْتُمْ كنتم على رجاء الفـلاح ، فلا يرجـو الفـلاح إلا التائـبون ، جعلنا الله منهم .

قال تعالى : ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١] قسم العباد إلى تائب وظـالم وما ثَمَّ قِسم ثالث ألبتة ، وأوقع اسم «الظالم» على من لم يَتُبْ ، ولا أظلم منه ، لجهله بربه وبحقه ، وبعيب نفسه وآفات أعماله . وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال : «**يا أيها الناس ، توبوا إلى الله ، فوالله إني لأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**» وكان أصحابه يَعُدُّونَ له في المجلس الواحد قبل أن يقوم : «رب اغفر لي وتب عَلَيَّ إنك أنت التواب الغفور ، مائة مرة» وما صلى صلاة قط بعد إذ أنزلت عليه ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ إلى آخرها ، إلا قال فيها : «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لي**» وصح عنه ﷺ أنه قال: «**لن يُنجي أحداً منكم عمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يَتَغمدَني الله برحمةٍ منه وفَضل**» .

فصلوات الله وسلامه على أعلم الخلق بالله وحقوقه ، وعظمته وما

يستحقه جلاله من العبودية ، وأعرفهم بالعبودية وحقوقها وأقومهم بها[1].

٧- فالتوبة لا يستغني عنها أحد حتى الأنبياء صلوات الله عليهم ، لأنها ليست نقصًا ، بل هي من الكمال الذي يحبه الله ويرضاه ويأمر به .

وقد سُئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن معنى قوله تعالى : ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١١٧] والتوبة إنما تكون عن شيء يصدر من العبد ، والنبي ﷺ معصوم من الكبائر والصغائر ؟

فأجاب شيخ الإسلام ابن تيمية : الحمد لله ، الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصومون من الإقرار على الذنوب ، كبارها وصغارها ، وهم بما أخبر الله به عنهم من التوبة يرفع درجاتهم ، ويعظم حسناتهم ، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ، وليست التوبة نقصًا ، بل هي من أفضل الكمالات ، وهي واجبة على جميع الخلق كما قال تعالى : ﴿وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴿٧٢﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب: ٧٢ ، ٧٣] فغاية كل مؤمن هي التوبة ، ثم التوبة تتنوع كما يقال : حسنات الأبرار سيئات المقربين .

والله تعالى قد أخبر عن عامة الأنبياء بالتوبة والاستغفار : عن آدم ، ونوح ، وإبراهيم ، وموسى وغيرهم . فقال آدم : ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] وقال نوح : ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٧٨ - ١٧٩) .

﴿الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧] وقال الخليل : ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١] وقال هو وإسماعيل : ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨] وقال موسى : ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥، ١٥٦] وقال تعالى : ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] .

وقد ذكر الله سبحانه توبة داود وسليمان وغيرهما من الأنبياء ، والله تعالى : ﴿يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] وفي أواخر ما أنزل الله على نبيه : ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه كان يقول في افتتاح الصلاة : **«اللهم باعِدْ بيني وبين خَطاياي كما بَاعَدت بين المشرق والمغرب ، اللهم نَقِّني من الخطايا كما يُنَقَّى الثوبُ الأبيضُ من الدنَس ، اللهم اغسلني من خطاياي بالثلج والبرد والماء البارد»** .

وفي الصحيح أنه كان يقول في دعاء الاستفتاح : **«اللهم أنت الملكُ لا إله إلا أنت أنتَ ربي وأنا عبدكَ ظلمتُ نفسي ، واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعًا إنَّه لا يغفر الذنوب إلا أنت»** .

وفي الصحيح أيضًا عن النبي ﷺ أنه كان يقول: **«اللهم اغفر لي ذنبي كلَّه ، دقَّهُ وجلَّه ، علانيته وسرَّه ، أوله وآخره»** .

وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه كان يقول : **«اللهم اغفر لي خَطيئتي**

وجَهلي وإسرافي في أمري ، وما أنتَ أعلم به مني ، اللهم اغفر لي هزلي وجدي ، وخطئي وعمدي ، وكل ذلك عندي ، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أسرفت ، وما أنت أعلم به مني أنت المُقَدِّم ، وأنت المؤخِّر ، لا إله إلا أنتَ». ومثل هذا كثير في الكتاب والسنة .

وقد قال الله تعالى : ﴿**وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**﴾ [محمد: ١٩] فتوبة المؤمنين واستغفارهم هو من أعظم حسناتهم ، وأكبر طاعتهم ، وأجل عباداتهم التي ينالون بها أجل الثواب ، ويندفع بها عنهم ما يدفعه من العقاب .

فإذا قال القائل : أي حاجةٍ بالأنبياء إلى العبادات والطاعات ؟ كان جاهلاً ، لأنهم إنما نالوا ما نالوه بعبادتهم وطاعتهم ، فكيف يقال : إنهم لا يحتاجون إليها ؟! فهي أفضل عبادتهم وطاعتهم .

وإذا قال القائل : فالتوبة لا تكون إلا عن ذنب ، والاستغفار كذلك قيل له : الذنب الذي يَضُرُّ صاحبه هو ما لم يحصل منه توبة ، فأما ما حصل منه توبة فقد يكون صاحبه بعد التوبة أفضل منه قبل الخطيئة ، كما قال بعض السلف : كان داود بعد التوبة أحسن منه حالاً قبل الخطيئة ، ولو كانت التوبة من الكفر والكبائر : فإن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار هم خيار الخليقة بعد الأنبياء ، وإنما صاروا كذلك بتوبتهم مما كانوا عليه من الكفر والذنوب ، ولم يكن ما تقدم قبل التَّوبة نقصًا ولا عيبًا ، بل لما تابوا من ذلك وعملوا الصالحات كانوا أعظم إيمانًا ، وأقوى عبادة وطاعة ممن جاء بعدهم فلم يَعرف الجاهلية كما عرفوها .

ولهذا قال عمر بن الخطاب : إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة ،

إذا نشأ في الإسلام من[1] لم يعرف الجاهلية . وقد قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠] .

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ : **«أن الله يُحاسبُ عَبده يوم القيامة ، فيعرض عليه صغَار الذنوب ويخبأ عنه كبارها فيقول : فعلَت يوم كذا كذا وكذا ؟ فيقول : نعم يارب ! وهو مُشْفقٌ من كبارها أنْ تظهر ، فيقول : إني قد غَفَرْتُها لك ، وأبدلتك مكان كل سيئة حسنة ، فهنالك يقول : ربِّ إنَّ لي سيئات ما أراها بعد»** .

فالعبد المؤمن إذا تاب وبدَّل الله سيئاته حسنات انقلب ما كان يضره من السيئات بسبب توبته حسنات ينفعه الله بها، فلم تبق الذنوب بعد التوبة مضرة له ، بل كانت توبته منها من أنفع الأمور له ، والاعتبار بكمال النهاية لا بنقص البداية ، فمن نسي القرآن ثم حفظه خيرًا من حفظه الأول لم يضره النسيان، ومن مرض ثم صح وقوي لم يضره المرض العارض .

والله تعالى يبتلي عبده المؤمن بما يتوب منه ، ليحصل له بذلك من تكميل العبودية والتضرع ، والخشوع لله والإنابة إليه ، وكمال الحذر في المستقبل والاجتهاد في العبادة ما لم يحصل بدون التوبة ، كم ذاقَ الجوع والعطش ، والمرض والفقر والخوف ، ثم ذاق الشبَع والرِّي والعافية والغنى والأمن ، فإنه يحصل له من المحبة لذلك وحلاوته ولذته ،

---

(١) في الأصل : مع ، وهو خطأ .

والرغبة فيه وشكر نعمة الله عليه ، والحذر أنْ يقع فيما حصل أولاً ما لم يحصل بدون ذلك ، وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع .

وينبغي أن يعرف أنَّ التوبة لا بدَّ منها لكل مؤمن ، ولا يكمل أحد ويحصل له كمال القُرب من الله ، ويزول عنه كل ما يكره إلا بها .

* [كمال توبة النبي ﷺ] :

ومحمد ﷺ أكملُ الخلق وأكرمهم على الله ، وهو المقدم على جميع الخلق في أنواع الطاعات ، فهو أفضل المحبين لله وأفضل المتوكلين على الله ، وأفضل العابدين له ، وأفضل العارفين به وأفضل التائبين إليه ، وتوبته أكمل من توبة غيره ، ولهذا غَفَرَ الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

وبهذه المغفرة نالَ الشَّفاعة يوم القيامة ، كما ثبت في الصحيح : «**إن الناس يوم القيامة يطلبون الشفاعة من آدم ، فيقول : إني نُهيت عن الأكل من الشجرة فأكلتُ منها ، نفسي نفسي نفسي ، ويطلبونها من نوح فيقول: إني دَعَوتُ على أهل الأرض دعوةً لم أُومر بها ، نفسي نفسي نفسي ، ويطلبونها من الخليل ، ثم من موسى ، ثم من المسيح فيقول : اذهبوا إلى محمد عبدٌ غفر الله له ما تقدَّم منْ ذَنْبه وما تأخَّر . قال: فيأتوني فأنطلق ، فإذا رأيت ربي خررت له ساجداً ، فأحمد ربي بمحامدَ يفتحها علي لا أحسنها الآن ، فيقول : أي محمد ! ارفع رأسك ، وقُل تُسمع ، وسَلْ تُعْطَ واشفع تشفع ، فأقول : أي رب أمتي ! فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة**» .

فالمسيح ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ دلَّهم على محمد ﷺ ، وأخبر بكمال عبوديته لله ، وكمال مغفرة الله له ، إذ ليس بين المخلوقين والخالق نسب إلا محض العبودية والافتقار من العبد ، ومحض الجود

والإحسان من الرب عز وجل .

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**لن يَدْخل أحدٌ منكم الجنةَ بعمله**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله ؟ قال: «**ولا أنا ، إلا أن يَتَغمَّدني الله برحمة منه وفَضل**» .

وثبت عنه في الصحيح أنه كان يقول: «**يا أيها الناس توبوا إلى ربكم فو الذي نفسي بيده إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**».

وثبت عنه في الصحيح أنه قال : «**إنَّه ليُغَان على قلبي ، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مَرَّة**» فهو ﷺ لكمال عبوديته لله ، وكمال محبته له ، وافتقاره إليه ، وكمال توبته واستغفاره : صار أفضل الخلق عند الله فإنَّ الخير كلَّه من الله ، وليس للمخلوق من نفسه شيء، بل هو فقير من كل وجه ، والله غنيٌ عنه من كل وجه ، محسنٌ إليه من كل وجه ، فكلما ازداد العبد تواضعًا وعبودية ازداد إلى الله قربًا ورفعة ، ومن ذلك توبته واستغفاره.

وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**كلُّ بني آدم خَطَّاء ، وخيرُ الخطَّائين التَّوابون**» رواه ابن ماجه والترمذي[1] .

٨- للإمام المحقق ابن القيم رحمه الله كلمات رائعات ، في وصف الإنسان وحاله مع ربه جل شأنه ، في احتجاجه عليه بقَدَرِه ، ونسيانه لذكره وشكره ، ثم وَصْف الرب سبحانه وسعة رحمته ، وتواصل بره وإحسانه بعباده ، وقبوله لتوبتهم وفرحه تعالى بها . . كل ذلك في هذه الخطرات إذ يقول عن هذا الإنسان الظلوم الجهول :

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٥١ ـ ٥٧) .

ياويله ظهيرًا للشيطان على ربه ، خصمًا لله مع نفسه ، جبري المعاصي ، قدَرِيّ الطاعات[1] عاجز الرأي مِضْياعٌ لفرصته ، قاعدٌ عن مصالحه ، معاتب لأقدار ربه ، يحتجُّ على ربه بما لا يقبله من عبده وامرأته وأمته ، إذا احتجوا به عليه في التهاون في بعض أمره ، فلو أمرَ أحدهم بأمر ففرَّط فيه ، أو نهاه عن شيء فارتكبه ، وقال: القدر ساقني إلى ذلك . لما قَبِلَ منه هذه الحجة ، ولبادَرَ إلى عقوبته .

فإنْ كان القدر حجة لك أيها الظالم الجاهل في ترك حقِّ ربك ، فهلا كان حجة لعبدك وأمتك في ترك بعض حقك ؟ بل إذا أساء إليك مسيء ، وجنى عليك جان ، واحتج بالقدر : لاشتدّ غضبك عليه ، وتضاعف جُرمه عندك ، ورأيت حجته داحضةً ، ثم تحتج على ربك به ، وتراه عذرًا لنفسك ؟! فمن أولى بالظلم والجهل ممن هذه حاله؟

هذا مع تواتر إحسان الله إليك على مَدَى الأنفاس : أزاح عِللك ، ومكَّنك من التزود إلى جَنَّته ، وبعث إليك الدليل ، وأعطاك مؤنة السفر، وما تتزود به ، وما تحارب به قُطّاع الطريق عليك : فأعطاك السمع والبصر والفؤاد ، وعرَّفك الخير والشر ، والنافع والضار ، وأرسل إليك رسوله ، وأنزل إليك كتابه ، ويسَّرَه للذكر والفهم والعمل ، وأعانك بمدد من جنده الكرام ، يثبتونك ويحرسونك ، ويحاربون عدوك ويطردونه عنك ، ويريدون منك أن لا تميل إليه ولا تصالحه ، وهم يكفونك مؤنته، وأنتَ تأبى إلا مظاهرته عليهم ، وموالاته دونهم ، بل تُظاهره وتواليه دون وَلِيِّك الحق الذي هو أولى بك ! قال الله تعالى : ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا**

---

(١) أي إذا فعل المعاصي ، احتج بأنه مجبور عليها ! وإن فعل الطاعات ، نسبها لنفسه وقدرته؟!

لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾ [الكهف: ٥٠] طردَ إبليسَ عن سمائه ، وأخرجه من جنته ، وأبعده من قربه، إذ لم يَسْجد لك ، وأنت في صُلب أبيك آدم ، لكرامتك عليه ، فعاداه وأبعده ، ثم واليت عدوه ، ومِلْت إليه وصالحته ، وتتظلم مع ذلك وتشتكي الطرد والإبعاد ! وتقول :

عودوني الوصال والوَصْلُ عَذْب ورموني بالصَّدِّ والصَّدُّ صعب

نعم ، وكيف لا يَطْرَدُ من هذه معاملته ؟ وكيف لا يبعد عنه من كان هذا وصفه ؟ وكيف يجعل من خاصته وأهل قُربه مَنْ حاله معه هكذا ؟ قد أفسد ما بينه وبين الله وكدّره !!

أمره الله بشكره ، لا لحاجته إليه ، ولكن لينال به المزيد من فضله ، فجعل كُفْرَ نعَمِهِ ، والاستعانة بها على مساخطه : من أكبر أسباب صرفها عنه .

وأمره بذكره ليذكره بإحسانه ، فجعل نسيانه سببًا لنسيان الله له ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر: ١٩] ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة: ٦٧] أمره بسؤاله ليعطيه ، فلم يسأله ، بل أعطاه أجلّ العطايا بلا سؤال ، فلم يقبل ، يشكو مَنْ يرحمه إلى من لا يرحمه ! ويتظلم ممن لا يظلمه ، ويَدَعُ من يُعاديه ويظلمه ! إن أنعم عليه بالصحة والعافية والمال والجاه استعان بنعمه على معاصيه ! وإن سَلَب ذلك ظَلّ متسخطًا على ربه وهو شاكيه ! لا يصلح له على عافية ، ولا على ابتلاء ! العافية تُلقيه إلى مساخطه ، والبلاء يدفعه إلى كفرانه وجحود نعمته ، وشكايته إلى خلقه !

دعاه إلى بابه فما وقف عليه ولا طَرَقه ، ثم فتحه له فما عَرَّج عليه

ولا ولَجَه ! أرسل إليه رسوله يدعوه إلىٰ دار كرامته ، فعصىٰ الرسول ، وقال : لا أبيع ناجزًا بغائب ، ونَقْدًا بنَسيئة ، ولا أترك ما أراه لشيء سمعت به! ويقول :

خُذْ ما رأيتَ ودَعْ شيئًا سمعتَ به   في طَلْعة الشمس ما يُغْنيك عن زُحَل

فإن وافق حَظُّه طاعة الرسول أطاعه لنيل حظه ، لا لرضىٰ مرسِله ، لم يزل يتمقت إليه بمعاصيه ، حتىٰ أعرضَ عنه ، وأغلق الباب في وجهه.

ومع هذا فلم يُؤيسه من رحمته ، بل قال : متىٰ جئتني قبلتك ، أتيتني ليلاً قبلتك ، وإن أتيتني نهارًا قبلتك ، وإن تقربت مني شبراً تقربت منك ذراعًا ، وإن تقربت مني ذراعًا تقربت منك باعًا ، وإنْ مشيت إليَّ هرولتُ إليك . ولو لَقيتني بقُراب الأرض خطايا ، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا ، أتيتك بقُرابها مغفرة ، ولو بلغتْ ذنوبُك عنان السماء ، ثم استغفرتني غفرتُ لك . ومَنْ أعظم مني جودًا وكرمًا ؟

عبادي يبارزونني بالعظائم ، وأنا أكلُؤهم على فُرُشهم ، إني والجن والإنس في نبإٍ عظيم : أخلقُ ويُعبد غيري ، وأرزُق ويُشْكرُ سواي ، خيري إلىٰ العباد نازل ، وشرهم إليَّ صاعد ، أتحبَّبُ إليهم بنعمي ، وأنا الغني عنهم ، ويتبغضون إليَّ بالمعاصي ، وهم أفقر شيء إليَّ !!

من أقبل إليَّ تلقيته من بعيد ، ومن أعرضَ عني ناديته من قريب ، ومن تركَ لأجلي أعطيته فوق المزيد ، ومن أراد رضاي أردتُ ما يريد ، ومن تصرف بحولي وقوتي ألنتُ له الحديد .

أهلُ ذكري أهل مجالستي ، وأهل شكري أهل زيادتي ، وأهل طاعتي أهل كرامتي ، وأهل معصيتي لا أُقنِّطهم من رحمتي ، إن تابوا إليّ فأنا

حبيبهم ، فإني أحب التوابين وأحب المتطهرين ، وإن لم يتوبوا إليَّ فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب ، لأطهرهم من المعايب .

من آثرني على سواي آثرته على سواه . الحسنة عندي بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة . والسيئة عندي بواحدة . فإن ندم عليها واستغفرني غفرتها له .

أشكر اليسير من العمل ، وأغفر الكثير من الزلل ، رحمتي سبقت غضبي ، وحلمي سبق مؤاخذتي ، وعفوي سبق عقوبتي ، أنا أرحم بعبدي من الوالدة بولدها «**لله أشدُّ فرحًا بتوبة عبده من رَجلٍ أضلَّ راحلته بأرضٍ مَهْلَكة دَوِّيَة عليها طعامه وشرابه . طلبها حتى إذا أيس من حُصُولِها، نام في أصل شجرة ينتظر الموت . فاستيقظَ فإذا هي على رأسه، قد تعلَّق خِطامها بالشجرة ، فالله أفرحُ بتوبة عبده من هذا براحلته**» .

وهذه فرحة إحسان وبر ولطف ، لا فرحةَ محتاج إلى توبة عبده ، منتفع بها ، وكذلك موالاته لعبده إحسانًا إليه ، ومحبة له وبرًا به ، لا يتكثَّر به من قلة ، ولا يتعزَّز به من ذِلَّة، ولا ينتصر به من غَلَبة، ولا يعدُّهُ لنائبة ، ولا يستعين به في أمر ﴿ **وَقُلِ الْحَمْدُ للَّه الَّذي لَمْ يَتَّخذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا** ﴾ [الإسراء: ١١١] فنفى أن يكونَ له وليّ من الذل، والله وليّ الذين آمنوا، وهم أولياؤه.

فهذا شأن الرب وشأن العبد . وهم يقيمون أعذار أنفسهم . ويحملون ذنوبهم على أقداره[1] .

* * *

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٩٢ ـ ١٩٥) .

العَفُوُّ
جَلَّ جلالُه وتقدَّست أسماؤُه
(٨١)

* المعنىٰ اللغوي :

العفو فعول من قولك : عفا يعفو عفواً فهو عفو .

ويقال : عفوتُ عن الشيء ، أعفو عنه ، إذا تركته ، وعفا عن ذنبه إذا ترك العقوبة عليه .

والعَفُوُّ علىٰ فَعُولٍ : الكثير العفو .

وعفا المنزل يعفو : دَرَسَ وانمحىٰ .

وعفا الشَّعر والنبت وغيرهما : كثر ومنه قوله تعالىٰ :﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ [الأعراف: ٩٥] أي كثروا .

وعَفْو المال : ما يفضُل عن النفقة .

ويقال : أعْفِني من الخروج معك ، أي : دعني منه .

وعافاه الله وأعفاه بمعنىٰ، والاسم العافية، وهي دفاع الله عن العبد[1].

* وروده في القرآن الكريم :

ورد الاسم خمس مرات ، وهي :

قوله تعالىٰ : ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٤٣] .

---

(١) «تفسير الأسماء» للزجاج (ص٦٢) و«اشتقاق الأسماء» للزجاجي (ص١٣٤ ـ ١٣٥) و«المفردات» للراغب (ص٣٣٩ ـ ٣٤٠) و«الصحاح» للجوهري (٦/ ٢٤٣١ ـ ٢٤٣٣) و«اللسان» مادة (عفا).

وقولـه : ﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٩] .

وقوله : ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩] .

وقولـه : ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٠] .

وقوله : ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [المجادلة: ٢] .

* معنىٰ الاسم في حق الله تعالىٰ :

قال ابن جرير : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا﴾ [النساء: ٤٣] : إن الله لم يزل عفواً عن ذنوب عباده ، وتركه العقوبة علىٰ كثير منها ما لم يشركوا به (١).

وقال الزجاج بعد أن ذكر المعنىٰ اللغوي : والله تعالىٰ عفوٌّ عن الذنوب ، تاركٌ العقوبة عليها (٢).

وقال أبو جعفر النحاس : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا﴾ أي يقبل العفو ، وهو السهل (٣) .

وقال الخطَّابي : (العفُوُّ) وزنه فَعُولٌ من العَفْوِ ، وهو بناءُ المبالغة ، والعَفْوُ : الصَّفْحُ عن الذنوب ، وتركُ مُجازاة المسيء .

وقيل : إنَّ العفوَ مأخوذٌ من عَفَتِ الريح الأثر ، إذا دَرَسَتْه .

---

(١) «جامع البيان» (٥/ ٧٤) وانظر (٥/ ١٤٨) (٦/ ٤) .

(٢) «تفسير الأسماء» (ص٦٢) .

(٣) «إعراب القرآن» (١/ ٤٥٩) .

فكَأَنَّ(١) العافي عن الذنب يَمحوه بصَفْحِه عنه(٢).

وقال الحليمي : (العفو) ومعناه: الواضعُ عن عباده تَبِعَات خطاياهم وآثارهم ، فلا يستوفيها منهم ، وذلك إذا تابوا واستغفروا ، أو تركوا لوجهه أعظم مما فعلوا ، فيكفر(٣) عنهم ما فعلوا بما تركوا ، أو بشفاعة من يشفع لهم ، أو يجعل ذلك كرامة لذي حرمة لهم به ، وجزاء له بعمله(٤) .

وقال السعدي : (العَفُوُّ الغَفور الغَفَّار) : الذي لم يَزَلْ ولا يزال بالعفو معروفًا ، وبالغُفران والصَّفح عن عباده مَوصوفًا ، كلُّ أحدٍ مضطرٌ إلىٰ عفوه ومغفرته ، كما هو مضطر إلىٰ رحمته وكرمه ، وقد وعد بالمغفرة والعفو لمن أتىٰ بأسبابها ، قال تعالىٰ : ﴿**وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ**﴾ [طه: ٨٢](٥) .

وقال ابن القيم في «النونية» :

وهو العَفُوُّ فَعَفْوه وَسِعَ الوَرَىٰ ... لولاه غَارَ الأرض بالسُّكان(٦)

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١- أنَّ الله سبحانه هو (العَفو) الذي له العفو الشامل ، الذي وسع ما

---

(٤) في المطبوعة من «شأن الدعاء» : فكان ، وهو خطأ .

(٢) «شأن الدعاء» (ص٩٠ ـ ٩١) .

(٣) في «الأسماء» للبيهقي : ليكفر .

(٤) «المنهاج» (٢٠١/١) وذكره في الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه ، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص٥٥) وسقط من آخره : له بعمله .

(٥) «تيسير الكريم الرحمن» (٣٠٠/٥) .

(٦) «النونية» (٢٢٧/٢) أي : ولولا كمال عفوه وسعة حلمه ، لغارَتْ الأرض بأهلها ، لكثرة ما يُرتكب من المعاصي علىٰ ظهرها ـ انظر «شرح النونية» لمحمد خليل هراس (٨١/٢) .

يصدر عن عباده من الذنوب ، ولاسيما إذا أتوا بما يوجب العفو عنهم من الاستغفار والتوبة والإيمان والأعمال الصالحة ، فهو سبحانه يَقْبَل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات .

وهو عَفُوٌّ يحب العفو ويحب من عباده أن يسعوا في تحصيل الأسباب التي ينالون بها عفوه من السعي في مرضاته ، والإحسان إلى خلقه .

ومن كمال عفوه : أنَّه مهما أسْرف العبد على نفسه ، ثم تاب إليه ورجع غفَرَ له جميع جُرمه ، كما قال تعالى : ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾ [الزمر: ٥٣] .

ولولا كمال عفوه ، وسعة حلمه سبحانه ما ترك على ظهر الأرض من دابة تدبُّ ، ولا نفس تَطْرُف ﴿ **وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ** ﴾ [النحل: ٦١] (١).

٢- أنَّه تعالى : (عَفُوٌّ غفور) مع قدرته على خلقه ، وقهره لهم ، وقد نبَّه خَلْقه إلى ذلك بقوله : ﴿ **إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا** ﴾ [النساء: ١٤٩] .

أي إن تقولوا للناس حُسنًا أو تُخفوا ذلك ، أو تصفحوا لمن أساء

---

(١) وليس أدلُّ على كمال عفوه سبحانه من قول الرسول ﷺ : «ليس أحَدٌ - أو ليس شيء - أصبرَ على أذىً سَمِعَهُ من الله ، إنهم لَيَدْعُون له ولدًا ، وإنه ليعافيهم ويرزقهم» .
أخرجه البخاري في الأدب (١٠/٥١١) وفي التوحيد (١٣/ ٣٦٠) ومسلم في المنافقين (٤/ ٢١٦٠) من طرق عن الأعمش عن سعيد بن جبير عن أبي عبد الرحمن السُّلمي عن أبي موسى رضي الله عنه .

إليكم وتعفوا عنه ، فإن الله تعالىٰ لم يزل يعفو عنكم ويصفح ، مع قدرته علىٰ عقابكم والانتقام منكم .

أي فاعفوا أنتم أيضًا عن الناس كما أن الله يعفو عنكم ويغفر لكم .

وقد حثَّ الله تعالىٰ عباده علىٰ العفو والصفح وقبول الأعذار من رعاياهم وأصدقائهم وأرحامهم مرة بعد مرة .

فمن ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ **وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [النور: ٢٢] .

وقد نزلت في الصديق رضي الله عنه حين حلف ألا يُنفق علىٰ مِسْطَح وهو من ذوي رحمه ، بعد أن خاض مع الخائضين في حديث الإفك ، ونزل القرآن ببراءة الصِّدِّيقة رضي الله عنها .

وقال تعالىٰ : ﴿ **وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ** ﴾ [البقرة: ٢٣٧] .

وقال : ﴿ **وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ** ﴾ [الشورى: ٤٠] .

وقال سبحانه مخاطبًا نبيه ﷺ : ﴿ **فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ** ﴾ [آل عمران: ١٥٩] .

وحثَّه علىٰ قبول العفو فقال : ﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** ﴾ [الأعراف: ١٩٩] .

ومدح بذلك عباده المؤمنين فقال : ﴿ **وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٣٤]

وقال ﷺ : «**ما نَقَصتْ صدقةٌ من مالٍ ، وما زادَ الله عبداً بِعَفْوٍ إلا عزًا ، وما تواضع أحدٌ لله إلا رفَعه الله**» [1].

قال النووي : «**وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا**» : فيه وجهان : أحدهما : أنه على ظاهره ، وأن من عُرِفَ بالعفو والصفح ساد وعظم في القلوب، وزادَ عِزُّه وإكرامه .

والثاني : إن المراد أجره في الآخرة وعزُّه هناك[2] .

٣- تكرر سؤال النبي ﷺ ربه تعالى العفو والعافية في أحاديث كثيرة فمن ذلك :

إن عبد الله بن عمر أمر رجلاً إذا أَخَذَ مضجعه قال : «**اللهم خَلَقْتَ نفسي وأنتَ توفَّاها ، لك مَمَاتها ومحياها ، إنْ أحييتها فاحفظها ، وإنْ أمتَّها فاغفر لها ، اللهم إني أسألُك العافية**» فقال له رجل : أسمعت هذا من عمر ؟ فقال : من خيرٍ من عمر ، من رسول الله ﷺ[3] .

وعنه أيضًا : لم يكن رسول الله ﷺ يَدَعُ هؤلاء الدعوات حين يُصبح وحين يمسي : «**اللهم اسْتُر عَوْراتي وآمن رَوْعَاتي ، اللهم احْفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي ، وأعوذُ بعَظَمَتكَ أن أُغْتالَ من تحتي**» قال وكيع يعني : الخسف[4] .

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٣٥ ، ٣٨٦) ومسلم في البر والصلة (٤/ ٢٠٠١) من طرق عن العلاء ابن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه به .
وله شاهد من حديث أبي كبشة الأنماري ، أخرجه أحمد (٤/ ٢٣١) .

(٢) شرح النووي على مسلم (١٦/ ١٤١) .

(٣) أخرجه مسلم في الذكر (٤/ ٢٠٨٣) .

(٤) إسناده صحيح ، أخرجه أحمد (٢/ ٢٥) وأبو داود (٥/ ٥٠٧٤) والنسائي (٨/ ٢٨٢) مختصرًا وفي «عمل اليوم والليلة» (٥٦٦) تامًا وابن ماجه (٣٨٧١) من طرق عن عبادة بن=

وكان يستعيذ بعفو الله تعالى من عقوبته وعذابه ، كما جاء ذلك في دعائه في صلاة الليل : **«اللهم أعوذُ برضاكَ من سَخَطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذُ بك منك لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيتَ على نفسك»**[1] .

وسأله رجل فقال : يا رسول الله ، كيف أقولُ حين أسألُ ربي؟ قال: **«قل : اللهـم اغْفر لي وارْحَمني وعَافني وارزقني - ويجمع أصابعه إلا الإبهام - فإنَّ هؤلاَء تجمعُ لك دنياكَ وآخرَتك»**[2] .

٤- الفرق بين العفو والمغفرة :

قال في المقصد : (العَفُوُّ) هو الذي يَمحو السيئات ، ويتجاوز عن المعاصي ، وهو قريبٌ من (الغفور) ولكنه أبلغ منه ، فإن الغُفران يُنْبئُ عن السِّتر ، والعَفْو يُنبئ عن المَحْو ، والمحو أبلغ من الستر[3] .

= مسلم الفزاري حدثني جبير بن أبي سليمان بن جبير بن مطعم قال سمعت ابن عمر فذكره. وهذا إسناد صحيح ، رجاله ثقات .

تنبيه : وقع في المسند عمارة بدل عبادة وهو خطأ مخالف لجميع الأصول .

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٥٨ ، ٢٠١) ومسلم في الصلاة (١/ ٣٥٢) عن محمد بن يحيى بن حبان عن الأعرج عن أبي هريرة عن عائشة قالت : فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدي على بطن قدمه وهو في المسجد وهما منصوبتان وهو يقول : **«اللهم..»** .

وقد سقط اسم أبي هريرة في الموضع الأول عند أحمد. والحديث أخرجه أصحاب السنن.

(٢) أخرجه مسلم في الذكر (٤/ ٢٠٧٣) من حديث أبي مالك الأشجعي عن أبيه .

وفي رواية : كان الرجل إذا أسلم علَّمه النبيّ ﷺ الصلاة ثم أمره أن يدعو بهؤلاء الكلمات: **«اللهم اغفر لي وارحمني واهدني وعافني وارزقني»** .

(٣) «المقصد الأسنى» (ص٨٩) .

وقال القرطبي : وقال بعض العلماء : والفرق بين العَفْو والغفران ، أن الغفران : سِتْرٌ لا يقع معه عقابٌ ، والعَفْو إنما يكون بعد وجود عذاب وعتاب[1] .

وفيه نظر ! فإن العفو فيه معنى ترك العقوبة والصفح كما مرَّ آنفًا ، فالفارق الأول أقرب .

وفي «المفردات» للراغب : وقولهم في الدعاء : «أسالك العفو والعافية» أي تركَ العقوبة والسلامة [2].

وقال الخليل بن أحمد : كل من استحق عقوبةً فتركته ولم تعاقبه عليها فقد عَفَوْتَ عنه عفواً .

حكاه الزجاجي ثم قال : والعفو متعلق بالمفعول ، لا يكون إلا عن مذنبٍ موجودٍ مستحق للعقوبة ، ويجوز أن يكون على مذهب أهل اللغة العفو عن الذنب : إذْهَابُهُ وإبطاله ، كما يقال : عَفَت الريح المنزل ، أي: مَحَتْ معالمه ودرست آثاره .

فالعافي عن الذنب كأنه مُبْطل له مذهب ، فإذا عفا عن الذنب فقد أبطله وذهب به فيكون اشتقاقه من هذا [3].

* * *

---

(١) «الكتاب الأسنى» (ورقة ٢٨٦ ب) .

(٢) «المفردات» (ص ٣٤٠) .

(٣) «اشتقاق أسماء الله» (ص١٣٤) .

الرَّؤُوف
جَلَّ جلالُه وتقدَّست أسماؤُه
(٨٢)

* المعنى اللغوي :

الرأْفَةُ : أشدُّ الرحمة ، قال أبو زيد رَؤُفْتُ بالرجل أرْؤُفُ به رأْفَةً ورآفةً ، ورأفْت به أرأف ، ورئِفتُ به رأفًا ، قال : كل من كلام العرب ، فهو رؤوفٌ على فَعُولٍ[1] .

وقال ابن الأعرابي : الرأفة الرحمة[2] .

وقال الزَّجَّاج : يقال إنَّ الرأفةَ والرحمة واحدٌ ، وقد فرَّقوا بينهما أيضًا ، وذلك أن الرأفةَ هي المنزلةُ الثانية ، يقال : فلانٌ رحيم ، فإذا اشتدَّت رحمته ، فهو رَؤُوفٌ[3] .

وقال أبو عبيدة : (رؤوف) : فعول من الرحمة ، وهي أشد الرحمة.

قال الكميت :

وهم الأرأفون بالنَّاسِ في الرأ فةِ والأحْلَمــون في الأحلامِ[4]

---

(١) «الصحاح» (١٣٦٢/٤) .

(٢) «اللسان» مادة (رأف) .

(٣) «تفسير الأسماء» (ص٦٢) انظر «اشتقاق الأسماء» للزجاجي (ص٨٦) .

(٤) «مجاز القرآن» (٥٩/١) وقال ابن جرير عن (الرأفة) : إنها رقة الرحمة ، «جامع البيان» (١٨٧/٢) .

* وروده في القرآن الكريم :

ورد الاسم في عشر آيات من كتاب الله تعالىٰ ، منها :

قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقوله تعالىٰ : ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقوله : ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٧] .

وقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥] .

وقوله : ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٩] .

* معنىٰ الاسم في حق الله تعالىٰ :

قال أبو عبيدة : (رؤوف) فعول من الرأفة وهي أرقُّ الرحمة ، قال كعب بن مالك الأنصاري :

نُطيع نَبينا ونُطيع ربًا ... هو الرحمنُ كان بنا رؤُوفًا[1]

قال ابن جرير : ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ : إنَّ الله بجميع عباده ذو رأفةٍ ، والرأفة أعلىٰ معاني الرحمة ، وهي عامة لجميع الخلق في الدنيا ولبعضهم في الآخرة[2] .

وقال الخطابي : (الرَّؤوف) هو الرحيم العَاطِف برأفته علىٰ عباده .

وقال بعضهم : الرأفةُ أبلغُ الرحمة وأرَقُّها .

---

(١) «مجاز القرآن» (١/ ٢٧٠) .

(٢) «جامع البيان» (٢/ ١٢) .

ويقال: إن الرَّأفة أخصُّ ، والرحمة أعمُّ ، وقد تكون الرحمة في الكراهة للمصلحة ، ولا تكادُ الرأفة تكون في الكراهة ، فهذا موضعُ الفرق بينهما [(١)].

وقال الحليمي : (الرؤوف) ومعناه المتساهل على عباده[(٢)] لأنَّه لم يُحملْهم ما لا يُطيقون ، بل حَمَّلَهم أقل مما يُطيقون[(٣)] بدرجات كثيرة .

ومع ذلك غلَّظَ فرائضه في حال شدَّة القوة ، وخَفَّفَها في حال الضعف ونقصان القوة ، وأخَذَ المُقِيم بما لم يأخذ به المسافر ، والصحيح بما لم يأخذ به المريض .

وهذا كله رأفة ورحمة[(٤)] .

وقال في «المقصد» : (الرؤوف) ذو الرأفة ، والرأفة شدَّة الرحمة ، فهو بمعنى الرحيم مع المبالغة[(٥)] .

*** الفرق بين الرأفة والرحمة :**

تقدم في هذا كلام أبي عبيدة وابن جرير والزجاج والخطابي أنهم ذكروا فروقًا بينهما .

وجاء في «الأسنى» للقرطبي : إنَّ الرأفة[(٦)] نعمة مُلِذَّةٌ من جميع

---

(١) «شأن الدعاء» (ص٩١) ، ومن قوله : «**الرأفة أبلغ** .. إلى قوله : **والرحمة أعم**» نقله الأصبهاني في «الحجة» (ق٢٦ ب) .

(٢) في «الأسماء» للبيهقي : المساهل عباده .

(٣) قوله «بل حملهم أقل مما يطيقون» ساقطة من مطبوعة «المنهاج» واستدركناها من «الأسماء» .

(٤) «المنهاج» (١/ ٢٠١) وذكره في الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه ، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص٥٧) .

(٥) «المقصد» (ص٨٩) ، وبمثله قال القرطبي في «الأسنى» (ورقة ٢٨٩أ) .

(٦) في الأصل : الرحمة ، ولا يتناسب مع السياق .

الوجوه والرحمة قد تكون مُؤلمةً في الحال ، ويكون في عقباها لذَّة .

ولذلك قال : ﴿وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النور: ٢] ولم يقل : رحمة ، فإنَّ ضَرْبَ العُصاة على عصيانهم رحمةٌ لهم لا رأفة ، فإنَّ صفةَ الرأفة إذا انْسَدَلَت على مخلوق لم يلحقه مكروه .

فلذلك تقول لمن أصابه بلاءٌ في الدنيا ، وفي ضمنه خير في الأخرى: إن الله قد رَحِمه بهذا البلاء .

وتقول لمن أصابه عافية في الدنيا ، في ضمنها خير في الأخرى واتصلت له العافية أولاً وآخراً ، وظاهراً وباطناً : إنَّ الله قد رأف به .

قال الأُقْليشي : فتأمل هذه التفرقة بين الرأفة والرحمة ، ولذلك جاءا معًا ، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وعلى هذا الرأفة أعمُّ من الرحمة ، فمتى أراد الله بعبدٍ رحمةً أنعم عليه بها ، إلا أنها قد تكون عقيب بلاءٍ ، وقد لا تكون ، والرأفة بخلاف ذلك[1] .

فيتحصل في التفريق بين الرأفة والرحمة :

أ ـ إن الرأفة أشدُّ الرحمة وأبلغها .

ب ـ إن الرأفة أعم من الرحمة ، إذ الرحمة قد تكون بشيء مكروه ، أو عقيب بلاء ، والرأفة خير من كلِّ وجه .

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١- وَصْفُ الله تعالى بالرأفة وهي أشدُّ الرحمة ، ومن مظاهر تلك الرأفة :

أ ـ أنه لا يضيع لعباده طاعة أطاعوه بها فلا يثيبهم عليها : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣] وقد نزلت

(١) «الكتاب الأسنى» (ورقة ٢٨٩ أ) .

لبيان أنَّ من صلّىٰ إلىٰ «بيت المقدس» قبل تحويل القبلة صلاته تلك لم يضع أجرها وثوابها ، وكذا صلاة من مات قبل تحويل القبلة .

ب ـ أنه حذَّرنا نفسه سبحانه وتعالىٰ ، وخوفنا من عقوبته وعذابه ، ونهانا عن معصيته ، قبل أن يلقاه العبد يوم القيامة ، ليستعد للقائه ، ويتجنب سخطه وغضبه ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠] .

ومن أجل ذلك أرسل رسله وأنزل كتبه التي تبين شرعه ، لينقذ الناس من ظلمات الشرك والجاهلية إلىٰ نور التوحيد والهداية ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٩] .

فمن رحمته ورأفته فَعَلَ ذلك .

جـ ـ أنه يقبل توبات التائبين ، ولا يردُّ عن بابه العاصين المنيبين ، مهما كَثُرت سيئاتهم ، وتعاظمت خَطِيئاتهم ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧] .

د ـ تسخيره لما في السموات وما في الأرض لمصلحة الإنسان ومنفعته ، وخلقه الأنعام ليركب علىٰ ظهرها فتحمله المسافات الشاسعة ، هو ومتاعه وزاده ، ولولا ذلك لأصابه الجهد العظيم والمشقة البالغة ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٧] .

وتأمَّل هذه الآيات التي تلتها وما فيها من مظاهر رأفة (الرؤوف الرحيم) .

قال جل شأنه ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٨ - ١٨].

٢- سمّى الله تعالى رسوله ﷺ بهذا الاسم في قوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

ومعنى ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي يشق عليه الأمر الذي يشق عليكم ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ فيحبُّ لكم الخير ويسعى جهده في إيصاله إليكم ويحرص على هدايتكم إلى الإيمان، ويكره لكم الشرَّ ويسعى جهده في تنفيركم عنه ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي شديد الرأفة والرحمة بهم، أرحم بهم من والديهم، ولهذا كان حقه مقدمًا على سائر حقوق الخلق، وواجب على الأمة الإيمان به وتعظيمه وتوقيره وتعزيره.

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٣/ ١٥٠).

وكان من رأفته بأمته أنه : ما خُيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا ، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه ، وما انتقم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله عز وجل(١) .

وكان يدخل في الصلاة وهو يريد أن يُطوِّل فيها فيسمع بكاء الصبي فيتجوَّز في صلاته كراهية أن يشقَّ على أمه(٢) .

❋ ❋ ❋

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٦/٥٦٦) وفي الأدب (١٠/٥٢٤) وفي الحدود (١٢/٨٦) وفي المحاربين (١٢/١٧٦) ومسلم في الفضائل (٤/١٨١٣ ـ ١٨١٤) عن عائشة رضي الله عنها .

(٢) البخاري كتاب الأذان (٢/٢٠١ ـ ٢٠٢ ـ ٣٤٩) ومسلم في الصلاة (١/٣٤٢ ـ ٣٤٣) .

ذو الجَلال والإكرَام
جَلَّ جلالُه وتقدَّست أسماؤُه

(٨٣ ـ ٨٤)

*** المعنى اللغوي :**

جلَّ الشيء يَجِلُّ جَلالاً وجلالةً ، وهو جَلٌّ وجليلٌ وجلالٌ : عَظُمَ ، وأجلَّه : عَظَّمه ، يقال : جلَّ فلانٌ في عيني ، أي : عَظُمَ وأجْلَلْتُهُ : رأيتُه جليلاً نبيلاً ، وأجْللتُه في المرتبة ، وأجللتُه أي : عظَّمته .

وجلَّ فلانٌ يَجِلُّ جلالة ، أي : عَظُم قَدْرُهُ فهو جليل .

وقول لبيد :

غيرَ أنْ لا تكْذِبَنْها في التُّقى واجْزِها بالبرِّ لله الأجَلْ

يعني الأعظم .

والجَلَلُ : الأمر العظيم ، والأمر الهيِّن أيضًا ، وهو من الأضداد[(١)].

وأما (ذو الإكرام) فقد شرحنا معنى (الكريم والإكرام) فيما مضى[(٢)].

*** وروده في القرآن الكريم :**

ورد الاسم مرتين : في قوله تبارك تعالى :﴿ **كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ** ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

وفي قوله تعالى في السورة نفسها : ﴿ **تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ**

---

(١) «الصحاح» (٤/١٦٥٨ ـ ١٦٥٩) و«اللسان» (١/ ٦٦٢ ـ ٦٦٣) مادة (جلل) و«اشتقاق الأسماء» للزجاجي (ص٢٠١ ـ ٢٠٣) .

(٢) انظر : (ص٣٧٥ ـ ٣٧٧) من الجزء الأول.

﴿وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨].

* معنى الاسم في حق الله تعالى:

قال الفرَّاء ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ﴾ هذه والتي في آخرها[1] ذي ـ كلتاها في قراءة عبد الله: ذي ـ تحفظان في الإعراب لأنهما من صفة ربك تبارك وتعالى.

وهي في قراءتنا ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ﴾ «ذو» تكون من صفة وجه ربنا تبارك وتعالى[2].

وقال ابن جرير: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ﴾ يقول تعالى ذكره: تبارك ذكر ربِّك يا محمد ﴿ذِي الْجَلَالِ﴾ يعني: ذي العظمة ﴿وَالإِكْرَامِ﴾ يعني ومن له الإكرام من جميع خلقه[3].

وقال الزجاج: ذو الجلال: أنه المستحقُّ لأن يُجَلَّ ويُكرمَ[4].

وقال الزجاجي: الجلال العظمة، فالله عز وجل ذو الجلال والعظمة والكبرياء[5].

وقال الخطَّابي: «ذو الجلال والإكرام»: الجلال مصدر الجليل، يقال: جليل بيِّنُ الجلالة والجلال، والإكرام: مصدر أكرمَ يُكرم إكرامًا والمعنى: أنَّ الله جلَّ وعزَّ مستحقٌّ أنْ يُجلَّ ويُكرم فلا يجحد، ولا يُكفر

---

(١) يعني آخر سورة الرحمن.

(٢) «معاني القرآن» (٣/١١٦) وبنحوه قال ابن جرير في تفسيره (٢٧/٧٨).

(٣) «جامع البيان» (٢٧/٩٥) ثم نقل بسنده عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: قوله ﴿ذِي الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ﴾ يقول: ذو العَظَمَة والكبرياء.

(٤) «تفسير الأسماء» (ص٦٢).

(٥) «اشتقاق الأسماء» (ص٢٠١).

به ، وقد يحتمل أن يكون المعنى أنه يكرمُ أهل ولايته ، ويرفع درجاتهم بالتوفيق لطاعته في الدنيا ، ويُجلُّهم بأن يتقبَّل أعمالهم ويرفعَ في الجنان درجاتهم .

وقد يحتمل أنْ يكون أحدُ الأمرين ـ وهو الجلال ـ مضافًا إلى الله سبحانه بمعنى الصِّفة له، والآخر مُضافًا إلى العبد بمعنى الفعل منه، كقوله سبحانه ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٦] فانصرفَ أحدُ الأمرين وهو المغفرة إلى الله سبحانه ، والآخرُ إلى العباد وهو التقوى ، والله أعلـم [١].

وقال الحُلَيمي : (ذو الجلال والإكرام) : ومعناه المستحق لأن يُهاب لسلطانه ، ويُثْنى عليه بما يليق بعلو شأنه .

وهذا قد يدخل في باب الإثبات على معنى : إن للخلق ربًا يستحق عليهم الإجلال والإكرام .

ويدخل في باب التوحيد على معنى أن هذا الحق ليس إلا لمستحق واحد[٢] .

وقال في «المقصد» : (ذو الجلال والإكرام) : هو الذي لا جلال ولا

---

(١) «شأن الدعاء» (ص٩١ ـ ٩٢) ، ونحوه في «الاعتقاد» للبيهقي (ص٦٥) وقال : على المعنى الأول يكون من صفات الذات ، وعلى المعنى الثاني يكون من صفات الفعل ، وأما الآية ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ﴾ فقال ابن جرير في تفسيره (١٠٨/٢٩) : أهل أنْ يتقي عباده عقابه على معصيتهم إياه ، فيجتنبوا معاصيه ويسارعوا إلى طاعته ﴿وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ يقول : هو أهل أن يغفر ذنوبهم إذا هم فعلوا ذلك ، ولا يعاقبهم عليها مع توبتهم منها .

ثم نقل بسند صحيح عن قتادة أنه قال : أهل أن تتقى محارمه ﴿وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ أهل أن يغفر الذنوب.

(٢) «المنهاج» (١/ ٢١٠) وذكره بعد الأسماء التي وردت في السنة، فقال: فصل: ولله جلَّ ثناؤه أسماء سوى ما ذكرنا تدخل في أبواب مختلفة ، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص٩٢) .

كمال إلا وهو له، ولا كرامة ولا مكرمة إلا وهي صادرة منه.

فالجلال له في ذاته، والكرامة فائضةٌ منه على خَلْقه، وفنون إكرامه خلقه لا تكاد تنحصر وتتناهى ، وعليه دلَّ قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ** ﴾ [الإسراء: ٧٠] ا هـ[1] .

وقال القرطبي : فمعنى جلاله استحقاقه لوصف العظمة ونعت الرفعة، والمتعالي عزًا وتكبرًا وتنزهًا عن نعوت الموجودات . فجلاله إذًا صفةٌ استَحقها لذاته[2] .

وقال السعدي : (ذو الجلال والإكرام) : أي ذو العظمة والكبرياء ، وذو الرحمة والجود والإحسان العام والخاص ، المكرمة لأوليائه وأصفيائه الذين يُجلُّونه ويُعظمونه ويحبونه[3] .

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١- أن الله تعالى هو المستحق وحده لأنْ يُجل ويُنزه ويعظم لذاته ، لكمال ذاته وصفاته وأسمائه ، وليس في الوجود من هو بمثل هذه الصفة غيره جلَّ جلاله وتقدست أسماؤه .

فجلاله صفة استحقها لذاته .

قال الأصمعي : ولا يقال (الجلال) إلا لله عز وجل .

وقال أبو حاتم السِّجِستاني : قد يقال (جَلالٌ) في غير الله ، أنشد لهدبة بن خشرم :

فلا ذا جَلالٍ هِبْنَه لجلالهِ ... ولا ذا ضياعٍ هنَّ يتركن للفقرِ[4]

(١) (ص٩٠) .

(٢) «الكتاب الأسنى» (ورقة ٢٧٥ أ ـ ٢٧٥ ب) .

(٣) «تيسير الكريم» (٥/ ٣٠٢) .

(٤) «اشتقاق الأسماء» للزجاجي (ص٢٠١) .

٢- أن الله تعالى يكرم أولياءه ، والإكرامُ قريب من الإنعام ولكنه أخصُّ ، فكل إكرام إنعام ، وليس كل إنعام إكرامًا .

قال القرطبي : وأما (الإكرام) - وهو مصدر أكرم فهو مكرمٌ - ففيه معنى الإنعام ، إلا أنه أخصُّ من لفظة الإنعام ، لأنَّ الإنعام قد ينعم تفضلاً على من ليس بكريمٍ ولا مُكرمٍ عنده ، كإنعامه على العاصي والمخالف ، فهذا الإنعام لا يُسمى إكرامًا ، فإذا أسدى المُنْعم نعمته إلى من يعزُّ عنده وله حُبٌّ لديه ومودة ، قيل : أكْرمه ، ومنه ما سُمي به [ما] على الأولياء من النِعم: كرامات الأولياء ، لقدرهم عنده ومنزلتهم لديه ، فهو سبحانه يُنعم على من يُكرم ومن لا يكرم ولا يُكرم إلا من عليه في الآخرة يُنْعم ، قال الله تعالى : ﴿فَأَمَّا الإنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ [الفجر: ١٥، ١٦] يعني أنه إذا مَنَحه نعيمًا في الدنيا يقول ذلك دليل على كرامتي ، وإذا قَدَر عليه رزقه يقول ذلك دليل على إهانتي ! وليس الأمر كذلك ! فليس نعيم الدنيا دليلاً [(١)] على نعيم الآخرة ، ولا هوان الدنيا دليلاً على هوان الآخرة ، وإكرامه للعبد يكون مُعجلاً في الدنيا ومُؤجلاً في الآخرة ، ويكون عمومًا في الخليقة ، وخصوصًا لأهل الحقيقة[(٢)] قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠] أ هـ[(٣)] .

= وسئل الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله عن لفظ «جلالة الملك . .» قال : لا يظهر لي أن فيها بأسًا ، لأن له جلالة تناسبه» فتاوى الشيخ (٢٠٦/١) وانظر: «معجم المناهي اللفظية» للشيخ الفاضل بكر أبو زيد (ص١٣٣ ، ٣٠٨) .

(١) في الأصل : دليلٌ ، وهو خطأ ، فإنها خبر ليس .

(٢) قوله : أهل الحقيقة ، من اصطلاحات المتصوفة ؟!

(٣) «الكتاب الأسنى» (ورقة ٢٧٥ ب) .

٣- حَثَّ النبي ﷺ أمته على الدعاء بهذين الاسمين فقال : «**ألظُّوا بيَاذا الجَلال والإِكرام**»(١) .

ومعنى ألظُّوا : أي الزَمُوا هذه الدعوة وأكثروا منها ، ودُوموا على قولكم ذلك في دُعَائكم وسؤالكم لربكم جلَّ شأنه .

ولما سمع رجلاً يدعو في المسجد يقول : اللَّهم إني أسألُكَ بأنَّ لك الحمد لا إله إلا أنتَ الحنَّانُ المنَّانُ ، بديعُ السموات والأرض ، يا ذا الجلالِ والإكرام ، يا حيُّ يا قيُّوم ، قال ﷺ : «**دعَا الله باسمه الأعظم الذي إذا دُعي به أجَاب ، وإذا سُئل به أعطى**»(٢) .

٤- وكان ﷺ إذا انصرَف من صلاته استغفر ثلاثًا وقال: «**اللهم أنتَ السَّلامُ ومنك السَّلامُ ، تباركت يا ذا الجلالِ والإكرام**»(٣) .

* * *

(١) حديث صحيح ، أخرجه أحمد (٤/١٧٧) والبخاري في «التاريخ» (٣/ ٢٨٠) والحاكم (١/ ٤٩٨ - ٤٩٩) عن ابن المبارك أخبرني يحيى بن حسان عن ربيعة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول فذكره .

قال الحاكم : صحيح الإسناد ووافقه الذهبي ، وهو كما قالا .

يحيى بن حسان هو البكري الفلسطيني ، قال ابن المبارك : كان شيخًا كبيرًا حسن الفهم من أهل بيت المقدس ، وقال أبو حاتم: لا بأس به ، وقال النسائي : ثقة . وله شاهد من حديث أنس؛ أخرجه الترمذي (٣٥٢٤) عن يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك مرفوعًا به: وقال : حديث غريب .

قلت : وفيه الرقاشي ، ضعيف .

وشاهد آخر من حديث أبي هريرة : أخرجه الحاكم (١/ ٤٩٩) ، وفيه رشدين بن سعد ، ضعيف مع صلاحه .

(٢) سبق تخريجه في الجزء الأول (ص٦٤) .

(٣) أخرجه مسلم في المساجد (١/ ٤١٤) عن ثوبان رضي الله عنه .

وأخرجه أيضًا عن عائشة قالت : كان النبي ﷺ إذا سَلَّم لم يقعد إلا مقدارَ ما يقول : «**اللهم أنت السَّلام ومنك السلام ، تباركت يا ذا الجلال والإكرام**» .

الغَنِيُّ
جَلَّ جلالُه وتقدَّست أسماؤُه

(٨٥)

*** المعنى اللغوي :**

الغَنِيُّ في كلام العرب الذي ليس بمحتاج إلى غيره .

وغَنِيَ به عنه غُنْيَةً: أي استغنى .

وغَنِيَ بالمكان أي : أقام .

وغني : أي عاش .

ويقال : ما يُغني عنك هذا ، أي ما يُجزئ عنك وما ينفعك ، والغَنَاء: النفع .

والغِنَى (مقصور) : اليسار ، وتقول منه :غَنِيَ فهو غَنِيٌّ ، وتَغَنَّى الرجل أي استغنى وأغناه الله .

وتَغَانَوا : أي استغنى بعضهم عن بعض[1] .

*** وروده في القرآن الكريم :**

ورد الاسم في ثمان عشرة آية من كتاب الله تعالى ، منها : قول الله تعالى : ﴿ **قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ** ﴾ [البقرة: ٢٦٣] .

وقوله تعالى : ﴿ **وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ** ﴾ [الأنعام: ١٣٣] .

وقوله : ﴿ **قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي**

---

(١) «اشتقاق الأسماء» (ص١١٧) «الصحاح» (٦/ ٢٤٤٩) و«اللسان» مادة (غنا) .

﴿الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٨].

وقوله: ﴿إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

وقوله: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

وقوله: ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦].

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

وقوله: ﴿فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦].

*** معنى الاسم في حق الله تعالى:**

قال ابن جرير: ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ والله غني عما يتصدقون به، حليم حين لا يَعجل بالعقوبة على من يَمنُّ بصدقته منكم ويؤذي فيها من يتصدَّق بها عليه(١).

وقال في قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧]: واعلموا أيها الناس أن الله عز وجل غني عن صدقاتكم وعن غيرها، وإنما أمركم بها وفرضها في أموالكم رحمة منه لكم ليُغْني بها عائلكم، ويُقوي بها ضعيفكم، ويجزل لكم عليها في الآخرة مثوبتكم، لا من حاجة به فيها إليكم(٢).

---

(١) «جامع البيان» (٣/٤٣) وساق بسنده عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: الغني الذي كمل في غناه، والحليم الذي كمل في حلمه. وفي سنده عبد الله بن صالح كاتب الليث وفيه ضعف.

(٢) «جامع البيان» (٣/٥٨).

وقال الزجاج : وهو (الغني) والمستغني عن الخلق بقدرته وعزِّ سلطانه والخلق فقراء إلىٰ تطوُّلِه وإحسانه ، كما قال تعالىٰ : ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [محمد: ٣٨][1] .

وقال الزَّجَّاجي : الغَني في كلام العرب : الذي ليس بمحتاج إلىٰ غيره ، وكذلك الله ليس بمحتاج إلىٰ أحد جلَّ وتعالىٰ عن ذلك علواً كبيراً كما قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦] .

وكل الخلق إليه ـ جلَّ اسمه ـ مُحتاج ، كما قال : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] .

فالله عز وجل ليس بمحتاج إلىٰ أحدٍ فيما خَلَق ويخلق ، ودبَّر ويدبر ويعطي ويرزق ويقضي ويمضي ، لا رادَّ لأمره وهو علىٰ ما يشاء قدير[2] .

وقال الخطَّابي : (الغني) هو الذي استغنىٰ عن الخلق وعن نُصْرتهم وتأييدهم لمُلْكه ، فليست به حاجةٌ إليهم ، وهم إليه فقراء محتاجون كما وصف نفسه تعالىٰ فقال عزَّ من قائل : ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [محمد: ٣٨][3] .

وقال الحُليمي : (الغَنيُّ) ومعناه الكامل بما له وعنده، فلا يحتاج معه إلىٰ غيره ، وربنا جلَّ ثناؤه بهذه الصِّفَة ، لأنَّ الحاجة نقصٌ ، والمحتاج عاجز عما يحتاج إليه إلىٰ أن يبلغه ويدركه، وللمحتاج إليه فضل بوجود[4] ما ليس عند المحتاج .

---

(١) «تفسير الأسماء» (ص٦٣) .

(٢) «اشتقاق الأسماء» (ص١١٧) .

(٣) «شأن الدعاء» (ص٩٢ ـ ٩٣) .

(٤) في «المنهاج» : فوجد ، وما أثبتناه من «الأسماء» للبيهقي هو أصوب .

فالنَّقصُ مَنفيٌّ عن القديم بكلِّ حال ، والعجز غير جائز عليه ، ولا يمكن أن يكون لأحدٍ عليه فَضلٌ [1] إذ كلُّ شيءٍ سواه خَلْقٌ له وبدع أبدعه، ولا يملك من أمره شيئًا ، وإنما يكون كما يريده الله عز وجل ويدبره ، فلا يتوهم أن يكون له مع هذا اتساع لفضله عليه[2] .

وقال البيهقي : هو الذي استغنىٰ عن الخلق ، وقيل : المتمكن من تنفيذ إرادته في مراداته ، وهذه صفةٌ يستحقها بذاته[3] .

وقال في «المقصد» : (الغني) هو الذي لا تعلُّقَ له بغيره لا في ذاته ولا في صفات ذاته ، بل يكون مُنزهًا عن العلاقة مع الأغْيار .

فمن تتعلق ذاتُه أو صفاتُ ذاتِه بأمرٍ خارجٍ من ذاته يتوقف عليه وجودُه أو كماله فهو فقير محتاج إلىٰ الكسب .

ولا يتصور ذلك إلا لله تعالىٰ :

قال : والغَنيُّ الحقيقي هو الذي لا حَاجة له إلىٰ أحدٍ أصلاً ، والذي يحتاج ومعه ما يحتاج إليه فهو غَنيٌّ بالمجاز ، وهو غايةُ ما يدخل في الإمكان في حق غير الله تعالىٰ ، فأما فَقْدُ الحاجة فلا ، ولكن إذا لم يبق له حاجةٌ إلا إلىٰ الله تعالىٰ سُمِّي غنيًا ، ولو لم يبق له أصل الحاجة لما صح قوله تعالىٰ : ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ ولولا أنه لا يتصور أنْ يستغني عن كلِّ شيءٍ سوىٰ الله لما صح لله تعالىٰ وَصْفُ المُغني[4] .

---

(١) في «المنهاج» : ولا يمكن لأحد أن يكون عليه فضل ، وما أثبتناه من الأسماء ، وسيأتي بعض الاختلافات اليسيرة التي أعرضت عنها .

(٢) «المنهاج» (١/١٩٦) وذكره في الأسماء التي تتبع نفي التشبيه عن الله تعالىٰ جده ، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص٣٦ ـ ٣٧) .

(٣) «الاعتقاد» (ص ٦٥).

(٤) «المقصد» (ص٩١ ـ ٩٢) .

وقال ابن القيم :

وهو الغَنيُّ بذاتِهِ فَغِنَاهُ ذَا   تيٌّ له كالجُودِ والإِحْسَانِ[1]

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١- إن الله تعالى شأنه هو الغني بذاته ، الذي له الغِنَى التام المطلق من جميع الوجوه والاعتبارات ، لكماله وكمال صفاته ، فلا يتطرّق إليها نقصٌ بوجه من الوجوه .

ولا يمكن أنْ يكون إلا غنيًا ، لأنَّ غناه من لوازمِ ذاته ، كما لا يكون إلا خالقًا قادرًا رازقًا مُحسنًا ، فلا يحتاج إلى أحدٍ بوجه من الوجوه ، فهو الغني بيده خزائن السموات والأرض ، وخزائن الدنيا والآخرة ، المُغني جميع خلقه غِنًى عامًا ، والمغني لخواصٍ خلقه بما أفاض على قلوبهم من المعارف الربانية ، والحقائق الإيمانية [2].

فالرب سبحانه غني لذاته ، والعبد فقير لذاته محتاج إلى ربه ، لا غنىً له عنه ولو طرفة عين .

وقد ابتدأ الإمام المحقق ابن القيم رحمه الله كتابه «طريق الهجرتين وباب السعادتين» بالكلام على هذا الأمر وتقريره وبيانه بأحسن عبارة ، إذْ يقول : «فصل: في أنَّ الله هو الغني المطلق والخلق فقراء محتاجون إليه» ثم قال : قال الله سبحانه : ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾ [فاطر: ١٥] بيَّن سبحانه في هذه الآية أن فقر العباد إليه أمر ذاتي لهم لا ينفك عنهم ، كما أن كونه غنيًا حميدًا ذاتي له ، فغناه وحمده ثابتٌ له لذاته لا لأمرٍ أوجبه ، وفقر من سواه إليه ثابت لذاته لا لأمر

---

(١) «النونية» (٢/٢١٨) .

(٢) انظر «تيسير الكريم الرحمن» (٥/٣٠٤) .

أوجبه ، فلا يُعلّل هذا الفقر بحدوث ولا إمكان ، بل هو ذاتي للفقير ، فحاجة العبد إلى ربه لذاته لا لعلةٍ أوجبت تلك الحاجة ، كما أن غنى الرب سبحانه لذاته لا لأمر أوجب غناه ، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

والفَقْرُ وَصْفُ ذاتٍ لازمٍ أبدًا   كما الغِنى أبدًا وَصْفٌ له ذاتي

فالخلق فقيرٌ محتاج إلى ربه بالذات لا بعلة ، وكل ما يُذكر ويُقرر من أسباب الفقر والحاجة فهي أدلة على الفقر والحاجة لا عِلَلٌ لذلك ، إذ ما بالذاتَ لا يُعلل ، فالفقير بذاته محتاج إلى الغني بذاته ، فما يُذكر من إمكان وحُدوث واحتياج فهي أدلة على الفقر لا أسباب له .

ولهذا كان الصواب في مسألة «علة احتياج العالم إلى الرب سبحانه» غير القولين اللذين يذكرهما الفلاسفة والمتكلمون ، فإنَّ الفلاسفة قالوا : علة الحاجة الإمكان ، والمتكلمون قالوا : علة الحاجة الحدوث ، والصواب أن الإمكان والحدوث متلازمان ، وكلاهما دليل الحاجة والافتقار ، وفقر العالم إلى الله سبحانه أمر ذاتي لا يعلل ، فهو فقير بذاته إلى ربه الغني بذاته ، ثم يُستدل بإمكانه وحدوثه وغير ذلك من الأدلة على هذا الفقر .

والمقصود أنه سبحانه أخبر عن حقيقة العباد وذواتهم بأنها فقيرة إليه سبحانه ، كما أخبر عن ذاته المقدسة وحقيقته أنه (غني حميد) فالفقر المطلق من كلِّ وجهٍ ثابتٌ لذواتهم وحقائقهم من حيث هي ، والغنى المطلق من كل وجه ثابتٌ لذاته تعالى وحقيقته من حيث هي ، فيستحيل أن يكون العبد إلا فقيرًا ، ويستحيل أن يكون الربُّ سبحانه إلا غنيًا ، كما أنه يستحيل أن يكون العبد إلا عبدًا والرب إلا ربًا .

[فقر العباد إلى ربهم فقران] :

إذا عُرف هذا فالفقر فقران : فقر اضطراري ، وهو فقر عام لا خروجَ لبر ولا فاجر عنه ، وهذا الفقر لا يَقتضي مدحًا ولا ذمًا ولا ثوابًا ولا عقابًا ، بل هو بمنزلة كون المخلوق مخلوقًا ومصنوعًا .

والفقر الثاني : فقر اختياري هو نتيجة علمين شريفين : أحدهما : معرفة العبد بربه ، والثاني : معرفته بنفسه ، فمتى حصلت له هاتان المعرفتان أنتجتا فقرًا هو عين غناه وعنوان فلاحه وسعادته ، وتفاوت الناس في هذا الفقر بحسب تفاوتهم في هاتين المعرفتين ، فمن عَرَفَ ربه بالغنى المطلق عرف نفسه بالفقر المطلق ، ومن عرف ربه بالقُدرة التامة عرف نفسه بالعجز التام ، ومن عرف ربه بالعز التام عرف نفسه بالمسكنة التامة ، ومن عرف ربه بالعلم التام والحكمة عرف نفسه بالجهل .

فالله سبحانه أخرج العبد من بطن أمه لا يعلم شيئًا ولا يقدر على شيء ، ولا يملك شيئًا ولا يقدر على عطاء ولا منع ولا ضر ولا نفع ولا شيء ألبتة ، فكان فقره في تلك الحال إلى ما به كماله أمرًا مشهودًا محسوسًا لكل أحد ، ومعلوم أن هذا له من لوازم ذاته ، وما بالذات دائم بدوامها ، وهو لم ينتقل من هذه الرتبة إلى رتبة الربوبية والغنى ، بل لم يزل عبدًا فقيرًا بذاته إلى بارئه وفاطره .

فلما أسبغ عليه نعمته ، وأفاض عليه رحمته ، وساق إليه أسباب كمال وجوده ظاهرًا وباطنًا ، وخلع عليه ملابس إنعامه ، وجعل له السمع والبصر والفؤاد ، وعَلَّمه وأقدره وصرَّفه وحركه ومكَّنه من استخدام بني جنسه ، وسخَّر له الخيل والإبل ، وسلطه على دواب الماء ، واستنزال الطير من الهواء ، وقهر الوحش العادية ، وحفر الأنهار ، وغرس

الأشجار ، وشق الأرض ، وتعلية البناء والتَّحَيُّلِ على مصالحه ، والتحرز والتحفظ لما يؤذيه ، ظنَّ المسكين أن له نصيبًا من الملك ! وادعى لنفسه مُلْكًا مع الله سبحانه ! ورأى نفسه بغير تلك العين الأولى ، ونسي ما كان فيه من حالة الإعدام والفقر والحاجة ! حتى كأنه لم يكن هو ذلك الفقير المحتاج ، بل كأن ذلك شخصًا آخر غيره .

كما روى الإمام أحمد في مسنده من حديث بسر[1] بن جحاش القرشي أن رسول الله ﷺ بصق يومًا في كفه فوضع عليها إصبعه ثم قال: **«قال الله تعالى : يا ابن آدمَ أنَّى تُعجزني وقد خلقتكُ من مِثْلِ هذه حتى إذا سَوَّيْتُكَ وعدلْتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد ، فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التَّراقي قُلت : أتصدَّق ، وأنَّى أوَانُ الصدقة»**[2].

ومن ها هنا خَذَلَ من خذل ووفَّق من وفق ، فحجب المخذول عن حقيقته ونسي نفسه ، فنسي فقره وحاجته وضرورته إلى ربه ، فطغى وعَتَا فحقَّت عليه الشقوة ، قال تعالى : **﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ⑥ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾** [العلق: ٦ ، ٧] **﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ⑤ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ⑥ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ⑦ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ⑧ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ⑨**

---

(١) في المطبوعة : بشر ، وهو خطأ .

(٢) حسن ، «المسند» (٤/ ٢١٠) وأخرجه من أربعة طرق عن حريز عن عبد الرحمن بن ميسرة عن جبير بن نفير عن بسر بن جحاش القرشي به .

عبد الرحمن بن ميسرة هو الحضرمي أبو سلمة الحمصي قال ابن المديني : مجهول لم يرو عنه غير حريز ، وقال أبو داود : شيوخ حريز كلهم ثقات ، ،قال العجلي شامي تابعي ثقة وذكره ابن حبان في ثقاته .

وأخرجه ابن ماجه (٢/ ٢٧٠٧) وقال البوصيري في «الزوائد» : إسناده صحيح .

والوئيد : صوت شدة الوطء على الأرض ، والتراقي عظام بين ثغرة النحر والعاتق .

﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ - ١٠] فأكمل الخلق أكملهم عبودية وأعظمهم شهودًا لفقره وضرورته وحاجته إلى ربه وعدم استغنائه عنه طرفة عين ، ولهذا كان من دعائه ﷺ : «**أصلح لي شأني كله ، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين ، ولا إلى أحد من خلقك**»[(١)] .

وكان يدعو «**يا مقلِّبَ القُلوب ثبِّت قلبي على دينك**»[(٢)] ، يَعلَم ﷺ أن قلبه بيد الرحمن عزَّ وجل لا يملك منه شيئًا ، وأن الله سبحانه يصرفه كما يشاء ، كيف وهو يتلو قوله تعالى : ﴿**وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا**﴾ [الإسراء: ٧٤] فضرورته ﷺ إلى ربه وفاقته إليه بحسب معرفته به ، وحسب قربه منه ومنزلته عنده .

وهذا أمر إنما بدا منه لمن بعده ما يرشح من ظاهر الوعاء ، ولهذا كان أقربَ الخلق إلى الله وسيلة ، وأعظمهم عنده جاهًا وأرفعهم عنده منزلة ، لتكميله مقام العبودية والفقر إلى ربه ، وكان يقول لهم : «**أيُّها**

---

(١) حسن ، أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٧٠١) وأبو داود (٥٠٩٠) والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٦٥١) وابن حبان (٢٣٧٠) «موارد» وابن السني (٣٤٤) عن أبي بكرة مرفوعًا: «**دعوات المكروب اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين ، وأصلح لي شأني كله لا إله إلا أنت**» . وأخرجه أحمد (٥/ ٤٢) مطولاً .

وفيه جعفر بن ميمون ، ضعفه ابن معين في رواية وقال في أخرى : صالح الحديث ، وقال أبو حاتم : صالح ، وقال الحافظ : صدوق يخطئ .

(٢) حديث صحيح، أخرجه ابن أبي شيبة في «الإيمان» (٥٥)، وفي «المصنف» (١٠/ ٢٠٩) وابن أبي عاصم في السنة (٢٢٥)، وأحمد (٣/ ١١٢ ، ٢٥٧)، والترمذي (٤/ ٢١٤٠)، والآجري في «الشريعة» (ص٣١٧)، والحاكم (١/ ٥٢٦) عن الأعمش عن أبي سفيان عن أنس مرفوعًا به.

وإسناده حسن ، وله شواهد من حديث عائشة وأم سلمة والنواس بن سمعان خرجتها مع الكلام عليها في كتابنا «إبطال التأويلات» في الجزء الثاني منه .

الناس ، ما أحِبُّ أن ترفعوني فوق منزلتي إنَّما أنا عبد»[1] .

وكان يقول : «**لا تُطْرُوني كما أَطْرَت النصارىٰ المسيحَ بنَ مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله**»[2] ، وذكره الله سبحانه بسمة العبودية في أشرف مقاماته، مقام الإسراء ومقام الدعوة ومقام التحدي فقال : ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً**﴾ [الإسراء: ١]﴿**وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا**﴾ [الجن: ١٩] ﴿**وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا**﴾ [البقرة: ٢٣] ، وفي حديث الشفاعة : «**إنَّ المسيح يقول لهم اذهبوا إلىٰ محمد عبد غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر**» ، فنال ذلك المقام بكمال عبوديتِّه وبكمال مغفرة الله له .

فتأمل قوله تعالىٰ في الآية: ﴿**أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ**﴾ [فاطر: ١٥] باسم الله دون اسم الربوبية ليؤذن بنوعي الفقر ، فإنه كما تقدم نوعان : فقر إلىٰ ربويته وهو فقر المخلوقات بأسرها ، وفقر إلىٰ ألوهيته وهو فقر أنبيائه ورسله وعباده الصالحين ، وهذا هو الفقر النافع، والذي يشير إليه القوم ويتكلمون عليه ويشيرون إليه هو الفقر الخاص لا العام ، وقد اختلفت عباراتهم عنه ووصفهم له كلٌّ أخبر عنه بقدر ذوقه وقدرته علىٰ التعبير[3] .

---

(١) أخرجه الطبراني (٣/١٢٨/ح٢٨٨٩)، والحاكم (٣/١٧٩) عن علي بن الحسين عن أبيه قال: أحبونا بحب الإسلام فإن رسول الله ﷺ قال: «**لا ترفعوني فوق حقي فإن الله تعالىٰ اتخذني عبداً قبل أن يتخذني رسولاً**» قال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي ، وقال الهيثمي في «المجمع» (٩/٢١) وإسناده حسن .

(٢) أخرجه الحميدي (٢٧) وعنه البخاري (٦/٤٧٨) عن سفيان سمعت الزهري يقول أخبرني عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس سمع عمر يقول على المنبر فذكره .
وأخرجه البخاري (١٢/١٤٤) عن عبد العزيز بن عبد الله حدثني إبراهيم بن سعد عن صالح عن الزهري به مطولا .

(٣) «طريق الهجرتين» (ص ٨-١١) وقد أطنب بعد ذلك في بيان الفقر وحقيقته ودرجاته =

٢- الله تبارك وتعالى غني عن عباده ، ومع ذلك فهو محسنٌ إليهم ، رحيم بهم ، وهذا من كمال غناه وكرمه ورحمته .

أما العباد فإنهم يحسنون إلى بعضهم البعض لتعلق مصالحهم بذلك إما عاجلاً وإما آجلاً .

يقول ابن القيم رحمه الله في هذا ، مبينًا الفرق بين إحسان الخالق وإحسان المخلوق: إن الله سبحانه غنيٌّ كريم ، عزيز رحيم ، فهو محسن إلى عبده مع غناه عنه، يُريد به الخير، ويكشف عنه الضر، لا لجلب منفعة إليه من العبد ، ولا لدفع مضرة ، بل رحمة منه وإحسانًا ، فهو سبحانه لم يخلق خلقه ليتكثَّر بهم من قِلَّة ، ولا ليعتزَّ بهم من ذِلَّة ، ولا ليرزقوه ولا لينفعوه ، ولا ليدفعوا عنه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨] وقال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١] فهو سبحانه لا يُوالي من يواليه من الذل كما يوالي المخلوق المخلوق، وإنما يُوالي أولياءه إحسانًا ورحمة ومحبة لهم.

وأما العباد فإنهم كما قال تعالى : ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [محمد: ٣٨] فهم لفقرهم وحاجتهم إنما يُحسن بعضهم إلى بعض لحاجته إلى ذلك وانتفاعه به عاجلاً أو آجلاً ، ولولا تصور ذلك النفع لما أحسن إليه ، فهو في الحقيقة إنما أرادَ الإحسان إلى نفسه ، وجعل إحسانه إلى غيره وسيلةً وطريقًا إلى وصول نفع ذلك الإحسان إليه ، فإنه إما أن يحسن إليه لتوقع جزائه في العاجل ، فهو محتاج إلى ذلك الجزاء ، أو معاوضة بإحسانه ،

= والغنى بالله تعالى ودرجاته ، فراجعه إن شئت .

أو لتوقع حمده وشكره ، وهو أيضًا إنما يحسن إليه ليحصل منه ما هو محتاج إليه من الثناء والمدح ، فهو محسن إلى نفسه بإحسانه إلى الغير .

وإما أن يريد الجزاء من الله تعالى في الآخرة ، فهو أيضًا محسن إلى نفسه بذلك ، وإنما أخَّر جزاءه إلى يوم فقره وفاقته ، فهو غير ملوم في هذا القصد ، فإنه فقير محتاج ، وفقره وحاجته أمر لازم له من لوازم ذاته، فكماله أنْ يحرص على ما ينفعه ولا يعجز عنه ، وقال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٧] . وقال : ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٢] .

وقال تعالى ، فيما رواه عنه رسوله ﷺ : «**يا عبَادي إنَّكم لنْ تَبلُغُوا نَفعي فتنفعوني ، ولنْ تَبْلُغوا ضَرِّي فتَضروني ، يا عبادي ، إنما هي أعمالكم أُحصيها لكم ، ثم أوفِّيكم إيّاها ، فَمنْ وَجدَ خيرًا فليحمد الله ، ومَنْ وَجدَ غيرَ ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسه**» [1].

فالمخلوق لا يقصد منفعتك بالقصد الأول ، بل إنما يقصد انتفاعه بك ، والرب تعالى إنما يريد نفعك لا انتفاعه بك[2] وذلك منفعة محضة لك خالصة من المضرة ، بخلاف إرادة المخلوق نفعك ، فإنه قد يكون فيه مضرة عليك ، ولو بتحمل منَّته .

فتدبر هذا فإن مُلاحظته تمنعك أن ترجو المخلوق أو تعامله دون الله عز وجل ، أو تطلب منه نفعًا ، أو دفعًا أو تعلق قلبك به ، فإنما يريد انتفاعه بك لا محض نفعك ، وهذا حال الخلق كلهم بعضهم مع بعض ، وهو حال الولد مع والده ، والزوج مع زوجه ، والمملوك مع سيده ،

---

(١) رواه مسلم في البر والصلة والآداب (٤/ ١٩٩٤ ـ ١٩٩٥) من حديث أبي ذر رضي الله عنه وقد ساقه ابن القيم هنا مختصراً .

(٢) في الأصل : به ، وهو خطأ.

والشريك مع شريكه ، فالسعيد من عاملهم لله تعالى لا لهم ، وأحسن إليهم لله تعالى ، وخاف الله تعالى فيهم ، ولم يخفهم مع الله تعالى ، ورجا الله تعالى بالإحسان إليهم ولم يرجهم مع الله ، وأحبهم لحب الله ، ولم يحبهم مع الله تعالى ، كما قال أولياء الله عز وجل : ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩] .

الوجه التاسع : أن العبد المخلوق لا يعلم مصلحتك حتى يُعرِّفه الله تعالى إياها ، ولا يقدر على تحصيلها لك ، حتى يقدره الله تعالى عليها ، ولا يريد ذلك حتى يخلق الله فيه إرادة ومشيئة ، فعاد الأمر كله لمن ابتدأ منه ، وهو الذي بيده الخير كله ، وإليه يرجع الأمر كله ، فتعلُّق القلب بغيره رجاء وخوفًا وتوكلاً وعبودية : ضررٌ محض ، لا منفعة فيه ، وما يحصل بذلك من المنفعة فهو سبحانه وحده الذي قَدَّرها ويسَّرها وأوصلها إليك .

الوجه العاشر : أن غالب الخلق إنما يريدون قضاء حاجاتهم منك ، وإنْ أضرَّ ذلك بدينك ودنياك ، فهم إنما غرضهم قضاء حوائجهم ولو بمضرتك ، والرب تبارك وتعالى إنما يريدك لك ، ويريد الإحسان إليك لك لا لمنفعته ، ويريد دفع الضرر عنك ، فكيف تعلُّق أملك ورجاءك وخوفك بغيره ؟ وجماع هذا أن تعلم «**أن الخلق كلَّهم لو اجْتَمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يَنْفَعُوكَ إلا بشيء قد كَتَبه الله لك ، ولو اجتمعوا كلهم على أن يضـــرُّوك بشيء لم يضرُّوكَ إلا بشيء قد كتبه الله تعالى عليك**»(١) .

(١) حديث صحيح : أخرجه أحمد (١/٢٩٣) والترمذي (٢٥١٦) وأبو يعلى في مسنده (٢٥٥٦) وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٤٢٥) .

عن حنش الصنعاني عن ابن عباس قال : كنت خلف رسول الله ﷺ يومًا فقال : «**يا غلام إني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك** ..» قال الترمذي : حسن صحيح .

قلت : وإسناده حسن ، وله طرق أخرى يكون بها صحيحًا لغيره .

قال الله تعالى : ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١] (١).

* * *

(١) «إغاثة اللهفان» (١/ ٤١ ـ ٤٢) وهو خاتمة الباب السادس : في أنه لا سعادة للقلب ولا لذة ولا نعيم ولا صلاح ، إلا بأن يكون الله هو إلهه وفاطره وحده ، وهو معبوده وغاية مطلوبه ، وأحب إليه من كل ما سواه .

النُّــــورُ
جَلَّ جلالُه وتقدَّست أسماؤُه
(٨٦)

*** المعنى اللغوي :**

النُور : الضِيَاءُ ، والجمع أنوارٌ .

وأنارَ الشيء واستَنَار بمعنًى ، أي : أضاءَ .

والتَّنْوير : الإِنارة ، والتنوير : الإسْفَار .

والنَّوْرُ: نور النبات وزهره .

والنُّور أيضًا : النُفَّرُ من الظباء ، ونسوةٌ نُورٌ ، أي: نُفَّرٌ من الرِّيبة [1].

*** وروده في القرآن الكريم:**

ورد مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [النور: ٣٥].

*** معنى الاسم في حق الله تعالى :**

قال ابن جرير: «يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [النور: ٣٥] : هادي من في السموات والأرض ، فهم بنوره إلى الحق يهتدون ، وبهداه من حيرة الضلالة يعتصمون» .

ثم نقل أقوال المفسرين في الآية ، فمنهم من قال إن معناها : الله

---

(١) «الصحاح» (٢/٨٣٨ ـ ٨٣٩) و«اللسان» (٦/٤٥٧١ ـ ٤٥٧٥) مادة (نور) و«اشتقاق الأسماء» (ص١٨٤ ـ ١٨٥) .

مدبر السموات والأرض ، ومنهم من قال : ضياء السموات والأرض[1].

ثم قال بعد ذلك : وإنما اخترنا القول الذي اخترناه في ذلك ، لأنه عقيب قوله : ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [النور: ٣٤] فكان ذلك بأن يكون خبرًا عن موقع يقع تنزيله من خلقه ، ومِنْ مَدْحِ ما ابتدأ بذكر مَدْحِهِ أولى وأشبه ، ما لم يأت ما يدل على انقضاء الخبر عنه من غيره .

فإذا كان ذلك كذلك فتأويل الكلام : ولقد أنزلنا إليكم أيها الناس آياتٍ مُبيناتِ الحقَّ من الباطل ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم وموعظةً للمتقين ، فهديناكم بها وبيَّنا لكم معالم دينكم بها ، لأني هادي أهلَ السموات وأهل الأرض .

وتَرَكَ وصل الكلام باللام وابتدأ الخبر عن هداية خلقه ابتداءً ، وفيه المعنى الذي ذكرتُ استغناءً بدلالة الكلام عليه من ذكره ، ثم ابتدأ في الخبر عن مَثَلِ هدايته خلقه بالآيات المبينات التي أنزلها إليهم فقال : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ .. ﴾ [النور: ٣٥] [2].

وقال الزجاج : اختلفوا في قول الله تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ فقال بعضهم : الله ذو نور السموات والأرض ، يريد : أنه خالق هذا النور الذي في الكواكب كلِّها ، لا أنه ضياءٌ لها وأنوار لأجسامها ! بل أنوارٌ تنفصل من أنوار الله تعالى .

ويقال : إن حول العرش أنوارٌ لو انفصلت منها شرارة على الأرض

---

(١) الأول رواه عن ابن عباس ، وفي سنده الحسين بن داود (سنيد) عن حجاج ، وقد ضعف الحسين لكونه كان يلقن شيخه حجاج بن محمد ، والثاني رواه عن أبي بن كعب وفي سنده: أبو جعفر الرازي وهو سيء الحفظ .

(٢) «جامع البيان» (١٨/ ١٠٥) .

لاحترقت الأرض ومن عليها!

وقال بعضهم : بل معنى قوله : ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي : أنه بما بيَّن وأوضح بحججه وبراهينِ وحدانيته نَوَّر السموات والأرض .

فتقدير الكلام على هذا : معرفة الله : ﴿نُورُ السَّمَوَاتِ﴾ أو أدلته : نورُها ، أو براهينه ، لا يجوز غيرُ هذا !! [1].

وقال تلميذه الزَّجَّاجي : ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي : يهتدي بنوره من في السموات ومن في الأرض ، أي : بآياته وأعلامه الدالَّة عليه، والبراهين الواضحة النيرة ، يهتدي أهل السموات والأرض إلى توحيده ، والإقرار بربوبيته ، وتنزيهه من الأنداد والأمثال عز وجل [2].

وقال الخطَّابي : (النور) هو الذي بنوره يُبْصِرُ ذو العَمَاية ، وبهدايته يَرْشُدُ ذو الغَوَاية ، وعلى مثل هذا يتأوَّل قوله جل وعز : ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي : منه نور السموات والأرض .

ولا يجوز أن يُتَوهَّم أن الله تعالى نورٌ من الأنوار ، وأن يعتقد ذلك فيه سبحانه !! فإن النور تُضَادُّه الظُلْمة ، وتُعاقبه فتزيلُه ، وتعالى الله أن يكون له ضدٌّ أو ندٌّ![3] .

وقد يحتملُ أن يكون معناه: ذو النور، إلا أنَّه لا يصحُّ أن يكون النور صفة ذاتٍ له ! كما يصح ذلك من اسم السلام إذا قلنا إنه : ذو السلام .

وإنما يكون ذلك صفة فعلٍ على معنى إضافة الفعل إليه ، إذْ هو خالقُ النور ومُوجده[4] .

---

(١) «تفسير الأسماء» (ص٦٤) .

(٢) «اشتقاق الأسماء» (ص١٨٢) .

(٣) سيأتي الرد على هذا الكلام .

(٤) «شأن الدعاء» (ص٩٥) .

وقال الحليمي : وهو الهادي لا يَعلم العباد إلا ما عَلَّمهم ، ولا يُدْركون إلا ما سَهَّل[1] لهم إدراكه ، فالحواس والعقل فطرته وخلقه وعطيته[2].

وقال البيهقي : (النور) هو الهادي ، وقيل المنوِّر ، وهو من صفات فعله ، وقيل : هو الحق ، وقيل : هو الذي لا يخفى على أوليائه بالدليل وتصح رؤيته بالأبصار .

وهذه صفة يستحقها الباري تعالى بذاته[3] .

وقال في «المقصد» : (النور) هو الظاهر الذي به كل ظهور ، فإن الظاهر في نفسه المظهر لغيره يسمى نوراً [4] .

وقال ابن العربي مُلخصًا الأقوال في بيان معنى الاسم : وقد اختلف الناس بعد معرفتهم بالنور في وصف الخالق سبحانه بأنه (نور) على ستة أقوال :

الأول : معناه : هادي ، قاله ابن عباس .

الثاني : معناه : مُنَوِّر ، قاله ابن مسعود ، وروي أن في مُصحفه «منور السموات والأرض» .

الثالث : أنه مُزَيِّن ، وهو يرجع إلى معنى منور ، قاله أبي بن كعب .

الرابع : أنه ظاهر .

الخامس : أنه ذو النور .

---

(١) في «الأسماء» للبيهقي : «ما يسَّر».

(٢) «المنهاج» (١/٢٠٧) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه ، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص٨١) .

(٣) «الاعتقاد» (ص٦٦) .

(٤) (ص٩٣) .

السادس : أنه نُورٌ لا كالأنوار، قاله الشيخ أبو الحسن الأشعري .

قال : وقالت المعتزلة : لا يقال : إنه نور إلا بالإضافة . قال: والصحيح عندنا أنه نورٌ لا كالأنوار لأنَّه الحقيقة والعدول عن الحقيقة إلى نور هادي ، أو مُنور ، أو ما أشبه ذلك ، مَجازٌ من غير دليل لا يَصحُّ ! ولأنَّ الأثر يعضده ، ويصح أن يكون على هذه صفة ذاتٍ ، ويصح أن يكون صفة فعلٍ على معنى أنه ظاهر ، إذ روح النور : البيان والظهور[1].

وقال السعدي : (النور): نور السموات والأرض ، الذي نوَّر قلوب العارفين بمعرفته والإيمان به ، ونَوَّر أفئدتهم بهدايته ، وهو الذي أنارَ السموات والأرض بالأنوار التي وضعها ، وحجابه النُّور لوكشفه لأحرقت سُبُحَات وجهه ما انتهى إليه بصرهُ من خلقه[2].

وقال ابن القيم :

والنُّور من أسمائه أيضًا ومن ... أوصَافه سبحانَ ذي البرهانِ
قال ابنُ مسعود كلامًا قد حكَا ... ه الدَّارمي عنه بلا نُكْرانِ[3]
ما عِندَه ليلٌ يكونُ ولا نَها ... رٌ قلتُ تحتَ الفلكِ يُوجَدُ ذَان
نُورُ السَّموات العُلى من نُورهِ ... والأرض كيف النَّجْمُ والقَمَران
مِن نُورِ وَجْه الرَّبِّ جلَّ جلاله ... وكذا حكَاه الحافظُ الطَّبراني
فبه استَنَار العَرْشُ والكُرسي مع ... سَبْع الطِّباقِ وسائر الأكْوانِ
وكتابه نورٌ كـذلك شَـرْعُهُ ... نُورٌ كذا المبعُوثُ بالفُرْقَان

---

(١) «الكتاب الأسنى» (ورقة٣٩٦أ) وكلامه الأخير نفيس ، وسيأتي تقريره .

(٢) «تيسير الكريم» (٥/٣٠٣) .

(٣) يأتي تخريجه والكلام عليه .

وكذلك الإيمانُ في قلب الفتى نُورٌ على نورٍ مع القُرآن
وحجابه نُورٌ فلو كَشَفَ الحجَا بَ لأحْرَقَ السُّبُحَاتُ للأكْوان
وإذا أتى للفَصْل يُشْرِقُ نُورُه في الأرض يومَ قيامةِ الأبدان
وكذاك دار الربِّ جنات العُلى نُورٌ تَلألأ ليس ذا بُطلان
والنور ذو نوعين مخلوقٌ وَوصْـ ـفٌ ما هما والله مُتَّحدان
وكذلك المخلوق ذو نوعين محـ ـسوس ومعقول هما شيئان
احْذَر تَزِل فتحتَ رجلك هُوَّة كم قد هَوَىٰ فيها على الأزمان
من عَابدٍ بالجَهل زَلَّتْ رِجْلُه فهي إلى قَعر الحَضِيض الدَّاني
لاحتْ له أنوارُ آثارِ العبا دة ظنها الأنوار للرَّحْمن
فأتى بكلِّ مُصيبةٍ وبَلية ما شئتَ مِنْ شَطَحٍ ومن هَذَيان[(١)]
وكــذا الحُلُــوليُّ هــو خَدْنه من ها هنا حقًّا هما أخَوَان
ويُقابل الرجلين ذو التعطيل والحُجُب الكثيفة ما هما سيان
ذا في كَثَافة طَبْعه وظلامه وبظلمة التَّعطيل هذا الثاني
والنُّور مَحجوبٌ فلا هذا ولا هذا له من ظلمة يريان[(٢)]

---

(١) قال في «مدارج السالكين» ـ كما في «شرح النونية» ـ : ولا سبيل لأحدٍ قط في الدنيا إلى مشاهدة (الحق) وإنما وصوله إلى شواهد الحق ، ومن زعم غير هذا فلغلبة الوهم عليه ، وحسن ظنه بترهات القوم وخيالاتهم . قال: ولا ريب أن القلوب تشاهد أنواراً بحسب استعدادها ، تقوى تارة وتضعف تارة ، ولكن تلك أنوار الأعمال والإيمان والمعارف ، وصفاء البواطن والأسرار ، لا أنها نور الذات المقدسة! فإن الجبل لم يثبت لليسير من ذلك النور حتى تدكْدك ، وخرَّ الكليم صعقًا مع عدم تجليه له ، فما الظن بغيره؟!.

(٢) «النونية» (٢/ ٢٣٧ ـ ٢٣٩) .

* من آثار الإيمان بهذا الاسم :

١- أن (النُّور) صفةٌ من صفات ربنا سبحانه وتعالىٰ ، ومنه اشتق اسم (النُّور) الذي هو أحد الأسماء الحسنىٰ [(١)].

وقد أضاف الله تعالىٰ النور إلىٰ نفسه إضافة الصفة إلىٰ موصوفها في قوله تعالىٰ : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ [الزمر: ٦٩] .

وكذا في قوله : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ . . ﴾ [النور: ٣٥].

فإن الضمير عائد إلىٰ الله علىٰ الصحيح من أقوال المفسرين[(٢)] .

وقد قرَّر شيخ الإسلام ابن تيمية وصف الله تعالىٰ بالنور ، ثم شرع يُبينِّ أن ما ذكره المفسـرون من أنَّ معنىٰ ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [النور: ٣٥] : هادي أهلَ السموات والأرض ، لايمنع من كونه في نفسه نُورًا ، يقول رحمه الله :

ثم نقول : هذا القول الذي قاله بعض المفسرين في قوله : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أي : هادي أهلَ السموات والأرض ، لا يضرنا ، ولا يخالف ما قلناه ، فإنهم قالوه في تفسير الآية التي ذُكر النور فيها مضافًا ، لم يذكروه في تفسير نور مطلق ، كما ادعيتَ أنتَ من ورود الحديث به ، فأين هذا من هذا ؟!! .

ثم قول من قال من السلف : هادي أهل السموات والأرض لا يمنع أنْ يكون في نفسه نورًا : فإن من عادة السلف في تفسيرهم أنْ يذكروا بعض «صفات المفَسَّر» من الأسماء ، أو بعض أنواعه ، ولا ينافي ذلك

---

(١) انظر: «اجتماع الجيوش الإسلامية» لابن القيم (ص٧) ط دار المعرفة ، و(ص٤٥) تحقيق عواد المعتق .

(٢) وسيأتي كلام ابن القيم عليها .

ثبوت بقية الصفات للمسمى ، بل قد يكونان متلازمين ، ولا دخول لبقية الأنواع فيه .

وهذا قد قررناه غير مرة في القواعد المتقدمة ، ومن تدبره علم أنَّ أكثر أقوال السلف في التفسير مُتفقةٌ غير مختلفة ، مثال ذلك قول بعضهم في ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] : إنه الإسلام ، وقول آخر : إنه القرآن، وقول آخر: إنه السُّنة والجماعة، وقول آخر : إنه طريقُ العبودية، فهذه كلها صفات له مُتلازمة ، لا متباينة ، وتسميته بهذه الأسماء بمنزلة تسمية القرآن والرسول بأسمائه : بل بمنزلة أسماء الله الحسنى .

فقول من قال : ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ هادي أهل السموات والأرض كلام صحيح ، فإنَّ من معاني كونه نور السموات والأرض أنْ يكون هاديًا لهم ، أما إنهم نفوا ما سوى ذلك فهذا غير معلوم ، وأما إنهم أرادوا ذلك فقد ثبت عن ابن مسعود أنه قال: «إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار ، نور السموات من نور وجهه»[1] .

---

(١) أخرجه الدارمي في «النقض على بشر المريسي» (ص١٦٧) عن حماد بن سلمة عن الزبير أبي عبد السلام عن أيوب بن عبد الله الفهري عن ابن مسعود وفيه : «وإنه ليس من نور مخلوق إلا وله منزل ومنظر ! فكيف النور الأعظم خالق الأنوار».

وفيه أبو عبد السلام الزبير ، ذكره ابن أبي حاتم (٣/ ٥٨٤) ولم يحك فيه شيئًا ، وكذا ابن معين وذكره ابن حبان في «الثقات». «تعجيل المنفعة» (ص١٣٥) .

وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٩/ ١٧٩/ ح٨٨٨٦) مطولاً عن أبي عبد السلام عن عبد الله أو عبيد الله بن مكرز عن ابن مسعود .

قال الهيثمي (١/ ٨٥) : وفيه أبو عبد السلام قال أبو حاتم: مجهول ، وقد ذكره ابن حبان في «الثقات» ، وعبد الله بن مكرز أو عبيد الله على الشك لم أر من ذكره .

كذا وقع عندهما : عبد الله بن مكرز! وصوابه : أيوب بن عبد الله بن مكرز ، فإنه الذي يروي عنه أبو عبد السلام ، كما في «التعجيل» .

وقد تقدم عن النبي ﷺ من ذكر نور وجهه ، وفي رواية (النور) ما فيه كفاية[1] فهذا بيان معنى غير الهداية .

وقد أخبر الله في كتابه أنَّ الأرض تُشرق بنور ربها ، فإذا كانت تشرق من نوره كيف لا يكون هو نُوراً ؟ ولا يجوز أنْ يكون هذا النور المضاف إليه إضافة خلق وملك واصطفاء ـ كقوله: ﴿نَاقَةُ اللَّهِ﴾ ونحو ذلك ـ لوجوه :

أحدها : أنَّ النور لم يُضَفْ قطُّ إلى الله إذا كان صفةً لأعيان قائمة ، فلا يقال في المصابيح التي في الدنيا : إنها نُور الله ، ولا في الشمس والقمر ، وإنما يقال كما قال عبدالله بن مسعود: «إنَّ ربكم ليس عنده ليل ولا نهار نور السموات من نور وجهه» وفي الدعاء المأثور عن النبي ﷺ: **«أعوذُ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصَلُح عليه أمر الدنيا والآخرة»** [2].

الثاني : أن الأنوار المخلوقة كالشمس والقمر تشرق لها الأرض في

---

(١) سيأتي ذكر الحديث .

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» ـ كما في «المجمع» (٦/ ٣٥) ـ وفي الدعاء (١٠٣٦) وابن عدي في «الكامل» (٦/ ٢١٢٤) عن وهب بن جرير بن حازم ثنا أبي عن محمد بن إسحاق عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن جعفر قال : لما توفي أبو طالب خرج النبي ﷺ إلى الطائف ماشيًا على قدميه فدعاهم إلى الإسلام فلم يجيبوه ، فانصرف فأتى ظِلَّ شجرة فصلى ركعتين ثم قال : **«اللهم إليك أشكو ضَعفَ قوتي وقلةَ حيلتي وهوَاني على الناس ، أرحم الراحمين أنت أرحم الراحمين ، إلى من تكلني إلى عدو يتجهمني ، أو إلى قريب ملكته أمري ، إن لم تكن غضبان علي فلا أبالي غير أن عافيتك أوسع لي ، أعوذُ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن تنزل بي غضبك ، أو تحل علي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك»** لفظ الطبراني .

قال الهيثمي : رواه الطبراني وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة ، وبقية رجاله ثقات .

الدنيا ، وليس من نور إلا وهو خلق من خلق الله ، وكذلك من قال : مُنوِّر السموات والأرض لا ينافي أنه نور، وكل مُنور نور، فهما متلازمان.

ثم إن الله تعالى ضرب مثل نوره الذي في قلوب المؤمنين بالنُّور الذي في المصباح ، وهو في نفسه نور ، وهو مُنَوِّرٌ لغيره ، فإذا كان نوره في القلوب هو نور ، وهو منور ، فهو في نفسه أحقُّ بذلك ، وقد علم أن كل ما هو نور فهو منور .

وأما قولُ من قال : معناهُ منور السموات بالكواكب : فهذا إنْ أراد به قائله أنَّ ذلك من معنى كونه نور السموات [فهو مُحق] ، وإنْ أراد به ليس لكونه نور السموات والأرض معنى إلا هذا فهو مبطل ، لأن الله أخبر أنه نور السموات والأرض ، والكواكب لا يحصل نورها في جميع السموات والأرض .

وأيضًا فإنه قال : ﴿**مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ**﴾ [النور: ٣٥] : فضرب المثل لنوره الموجود في قلوب المؤمنين ، فعلم أنَّ النور الموجود في قلوب المؤمنين ـ نور الإيمان والعلم ـ مراد من الآية ، لم يضربها على النور الحسي الذي يكون للكواكب ، وهذا هو الجواب عما رواه عن ابن عباس في رواية أخرى ، وأبي العالية والحسن ، بعد المطالبة بصحة النقل، والظن ضعفه عن ابن عباس لأنهم جعلوا ذلك من معاني النور ، أما أنهم يقولون قوله : ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ [النور: ٣٥] ليس معناه إلا التنوير بالشمس ، والقمر والنجوم ! فهذا باطلٌ قطعًا .

وقد قال ﷺ : «**أنتَ نُورُ السَّموات والأرض ومن فيهن**» ومعلوم أنَّ العميان لا حظ لهم في ذلك ، ومن يكون بينه وبين ذلك حجابٌ لا حظ له في ذلك ، والموتى لا نصيب لهم من ذلك ، وأهل الجنة لا نصيب

لهم من ذلك ، فإن الجنة ليس فيها شمس ولا قمر ، كيف وقد روى أنَّ أهل الجنة يعلمون الليل والنهار بأنوار تظهر من العرش ، مثل ظهور الشمس لأهل الدنيا فتلك الأنوار خارجة عن الشمس والقمر[1] .

٢- تقدم قول الخطابي : «ولا يجوز أن يُتوهم أن الله تعالى نورٌ من الأنوار ، وأن يعتقد ذلك فيه سبحانه ، فإن النور تُضاده الظُّلمة ، وتعاقبه فتزيله ، وتعالى الله أن يكون له ضدٌّ أو نِدٌّ!» .

وقد ردَّ على هذه الشبهة ، وبيَّن أنها ناتجة من سوء الفهم : شيخ الإسلام رحمه الله بقوله :

وأما قول المعترض: النور ضد الظلمة وجلَّ الحق أن يكون له ضد!.

فيقال له: لم تفهم معنى الضد المنفي عن الله، فإن «الضِّدَّ» يُراد به ما يمنع ثبوت الآخر، كما يقال في الأعراض المتضادة مثل السواد والبياض.

ويقول الناس : الضدان لا يجتمعان ، ويمتنع اجتماع الضدين ، وهذا التضاد عند كثير من الناس لا يكون إلا في «الأعراض» وأما «الأعيان» فلا تضاد فيها ، فيمتنع عند هذا أن يقال : لله ضد ، أو ليس له ضد ، ومنهم من يقول يتصور التضاد فيها ، والله تعالى ليس له ضد يمنع ثبوته ووجوده بلا ريب ، بل هو القاهر الغالب الذي لا يغلب .

وقد يراد «بالضد» المعارض لأمره وحكمه ، وإن لم يكن مانعًا من وجود ذاته ، كما قال النبي ﷺ: **«مَنْ حَالَتْ شَفَاعَتُهُ دُون حَدٍّ مِنْ حُدودِ الله فقد ضَادَّ الله في أمره»** رواه أبو داود[2] وتسمية المخالف لأمره

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٦/ ٣٩٠ ـ ٣٩٣) باختصار .

(٢) إسناده صحيح : «السنن» (٤/ ٣٥٩٧) وأخرجه أحمد (٢/ ٧٠) والحاكم (٢/ ٢٧) والبيهقي (٦/ ٨٢)، (٨/ ٣٣٢) من طرق عن زهير حدثنا عمارة بن غزية عن يحيى بن راشد قال: =

وحكمه ضدًا كتسميته عدوًا .

وبهذا الاعتبار فالمعادون المضادون لله كثيرون ، فأما على التفسير الأول فلا ريب أنه ليس في نفس الأمر مُضادٌ لله ، لكن التضاد يقع في نفس الكفار فإن الباطل ضد الحق ، والكذب ضد الصدق ، فمن اعتقد في الله ما هو منزه عنه كان هذا ضدًا للإيمان الصحيح به .

وأما قوله : النور ضد الظلمة ـ وجلَّ الحق أن يكون له ضد ـ فيقال له: والحي ضد الميت ، والعليم ضد الجاهل ، والسميع والبصير والذي يتكلم ، ضد الأصم الأعمى الأبكم ، وهكذا سائر ما سمى الله به من الأسماء لها أضداد ، وهو منزهٌ عن أن يُسمى بأضدادها ، فجلَّ الله أنْ

= جلسنا لعبد الله بن عمر فخرج إلينا فجلس فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**من حالَتْ شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضادَّ الله ، ومن خاصم في باطل وهو يعلمه لم يَزلْ في سخط الله حتى يَنْزِع عنه ، ومن قال في مؤمن ما ليس فيه أسكنه الله رَدْغَة الخبال حتى يخرج مما قال**».

ورجاله ثقات ، وأخرجه أبو داود (٤/ ٣٥٩٨) وعنه البيهقي (٦/ ٨٢) وفيه : مطر الورَّاق: ضعيف ، والمثنى بن يزيد: مجهول ، وأخرجه البيهقي (٨/ ٣٣٢) من وجه آخر عن مطر وفيه : سعيد بن بشير. وأخرجه أحمد (٢/ ٨٢) عن أيوب بن سليمان عن ابن عمر بنحوه وفيه اختلاف ، وأيوب فيه جهالة. «التعجيل» (ص٤٧) .

وهو حسن لغيره ، وقد أطال الكلام عليه الشيخ أحمد شاكر رحمه الله (٥٥٤٤) وفيه فوائد.

وأخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢/ ٢١٠/ ح١٣٠٨٤) والحاكم (٤/ ٣٨٣) عن عبد الله بن جعفر عن مسلم بن أبي مريم عن عبد الله بن عامر بن ربيعة عن ابن عمر مرفوعًا الجملة الأولى منه فقط .

قال الهيثمي (٦/ ٢٥٩) : رواه الطبراني وفيه عبد الله بن جعفر المديني وهو متروك وللحديث شاهد من حديث أبي هريرة وآخر من حديث أبي الدرداء ، انظر: «مجمع الزوائد» (٦/ ٢٥٩) .

يكون ميتًا ، أو عاجزًا أو فقيرًا ونحو ذلك .

وأما وجود مخلوق له موصوف بضد صفته : مثل وجود الميت والجاهل ، والفقير والظالم ، فهذا كثير ، بل غالب أسمائه لها أضداد موجودة في الموجودين .

ولا يقال لأولئك إنهم أضداد الله ، ولكن يقال إنهم موصوفون بضد صفات الله ، فإن التضاد بين الصفات إنما يكون في المحل الواحد لا في محلين ، فمن كان موصوفًا بالموت ضادته الحياة ، ومن كان موصوفًا بالحياة ضاده الموت ، والله سبحانه يمتنع أن يكون ظُلْمةً أو موصوفًا بالظُّلمة، كما يمتنع أنْ يكون ميتًا أو موصوفًا بالموت .

فهذا المعترض أخَذَ لفظ «الضد بالاشتراك» ولم يميز بين الضد الذي يضاد ثبوته ثبوت الحق وصفاته وأفعاله ، وبين أنْ يكون في مخلوقاته ما هو موصوف بضد صفاته ، وبين ما يضاده في أمره ونهيه ، فالضد الأول هو الممتنع ، وأما الآخران فوجودهما كثير ، لكن لا يقال إنه ضد لله ، فإن المتصف بضد صفاته لم يضاده .

والذين قالوا : «النور ضد الظلمة» قالوا يمتنع اجتماعهما في عين واحدة ، لم يقولوا : إنه يمتنع أنْ يكون شيءٌ موصوفًا بأنه نور وشيء آخر موصوفًا بأنه ظلمة ، فليتدبر العاقل هذا التعطيل والتخليط .

[اعتراض المعترض أن يكون الرب تعالىٰ نوراً]:

وأما قوله : لو كان نورًا لم يجز إضافته إلىٰ نفسه في قوله ﴿**مَثَلُ نُورِهِ**﴾ فالكلام عليه من طريقين :

أحدهما: أن نقول : النص في كتاب الله وسنة رسوله قد سمىٰ الله نور السموات والأرض ، وقد أخبر النص أنَّ الله نورٌ ، وأخبر أيضًا أنه يحتجب بالنور ، فهذه ثلاثة أنوار في النص وقد تقدم ذكر الأول .

وأما الثاني: فهو في قوله : ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩] وفي قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ وفيما رواه مسلم في صحيحه عن عبدالله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : «إنَّ اللهَ خَلَقَ خَلْقَه في ظُلْمة ، وألقى عليهم مِنْ نُوره ، فَمَنْ أصَابَه مِنْ ذلك النُّورِ اهْتَدَىٰ ومَنْ أَخْطَأه ضَـلّ»(١).

---

(١) حديث صحيح ، وقوله : (رواه مسلم) وهم منه رحمه الله ! إنما الحديث رواه أحمد (٢/١٧٦) والحاكم (١/ ٣٠) عن معاوية بن عمرو ثنا أبو إسحاق الفزاري ثنا الأوزاعي حدثني ربيعة ابن يزيد عن عبد الله بن الديلمي قال : دخلت على عبد الله بن عمرو وهو في حائط له بالطائف يقال له الوهط وهو محاضر فتى من قريش يزن بشرب الخمر ،فقلت : بلغني عنك حديث إن من شرب شربة خمر لم يقبل الله له توبة أربعين صباحًا ، وإن الشقي من شقي في بطن أمه . . الحديث وفيه قال: وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله خلق خلقه في ظلمة..» وعند الحاكم : ربيعة بن يزيد مقرونًا بيحيى بن أبي عمرو .

ورجاله ثقات ، عبد الله بن الديلمي هو ابن فيروز تابعي ثقة .

وأخرجه ابن حبان (١٨١٢ ـ زوائد) والآجري في «الشريعة» (ص١٧٥) من طريقين عن الأوزاعي به .

وأخرجه ابن حبان (١٨١٣) عن ابن وهب حدثني معاوية بن صالح عن ربيعة بن يزيد . . فذكر بإسناده نحوه.

وأخرجه أحمد (٢/١٩٧) عن محمد بن مهاجر أخبرني عروة بن رُوَيم عن ابن الديلمي به، ومحمد بن مهاجر: هو الشامي ثقة ، وعروة: تابعي ثقة .

وأخرجه الترمذي (٥/٢٦٤٢) والآجري في «الشريعة» (ص١٧٥) عن إسماعيل بن عياش عن يحيى بن أبي عمرو السيباني عن عبد الله الديلمي قال : سمعت ابن عمرو يقول فذكره وزاد : فلذلك أقول : «جَفَّ القلم على علم الله عز وجل» .

قال الترمذي : حديث حسن .

وهو كما قال ، إسماعيل بن عياش صدوق في روايته عن أهل بلده ، وهذه منها ، فإن يحيى بن أبي عمرو السيباني – وهو بالسين المهملة قال في الخلاصة : سيبان بطن من حمير، ووقع في الترمذي والآجري الشيباني وهو خطأ – حمصي ثقة .

ولم يتفرد به إسماعيل، بل تابعه عليه أيوب بن سويد ، وهو صدوق يخطئ: أخرجه البزار (٢١٤٥ ـ زوائد). وقال الهيثمي (٧/ ١٨٥): رواه أحمد والبزار والطبراني ورجاله رجال الصحيح .

ومنه قوله ﷺ في دعاء الطائف : «**أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي سخطك ، أو يحلَّ عليّ غضبك**» رواه الطبراني وغيره . ومنه قول ابن مسعود : إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار ، نور السموات من نور وجهه .

ومنه قوله : ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات فقال : «**إنَّ الله لا ينام ولا ينبغي له أنْ يَنَام ، يخفضُ القسْطَ يُرفع إليه عملُ الليل قبلَ عملِ النهار ، وعملُ النَّهارِ قبل عملِ الليـلِ ، حجَابُه النور ـ أو النار ـ لو كشفه لأحْرقَتْ سبُحَاتُ وجْهه ما أدْرَكه بَصَرُه مِنْ خَلْقه**»[1] فهذا الحديث فيه ذِكْر حجابه .

فإنَّ تردد الراوي في لفظ «النار والنور» لا يمنع ذلك ، فإن مثل هذه النار الصافية التي كلم بها موسى يقال لها نار و نور ، كما سمى الله نار المصباح نورًا ، بخلاف النار المظلمة كنار جهنم فتلك لا تسمى نوراً .

فالأقسام ثلاثة : «إشراق بلا إحراق» وهو النور المحض كالقمر . و«إحراق بلا إشراق» وهي النار المظلمة ، و«ما هو نار و نور» كالشمس، ونار المصابيح التي في الدنيا توصف بالأمرين ، وإذا كان كذلك صح أنْ يكون نور السموات والأرض ، وأنْ يضاف إليه النور ، وليس المضاف هو عين المضاف إليه.

الطريق الثاني : أن يُقال : هذا يرد عليكم ، لا يختص بمن يسميه

---

(١) «صحيح مسلم» (١/١٦١ ـ ١٦٢) وأخرجه أحمد (٤/٤٠٥) وابن ماجه (١/ ٧٠) وابن خزيمة في «التوحيد» (١٩، ٧٥) والآجري في «الشريعة» (ص٣٠٤) كلهم عن الأعمش عن عمرو ابن مرة عن أبي عبيدة عن أبي موسى رضي الله عنه .

وعند مسلم الروايتان معًا : «حجابه النور» و «حجابه النار» .

بما سمى به نفسه وبينه ، فأنت إذا قلت : «هاد» أو «منور» أو غير ذلك، فالمسمى «نورًا» هو الرب نفسه ، ليس هو النور المضاف إليه ، فإذا قلت: «هو الهادي فنوره الهدى» جعلت أحد النورين عينًا قائمةً ، والآخر صفة ، فهكذا يقول من يُسميه نورًا ، وإذا كان السؤال يرد على القولين والقائلين، كان تخصيص أحدهما بأنه مخالف لقوله ظلمًا ولددًا في المحاجَّة ، أو جهلاً وضلالاً عن الحق[1] .

وقال : وأما قوله : «لو كان نورًا حقيقة ـ كما تقوله المشبهة ـ لوجب أنْ يكون الضياء ليلاً ونهارًا على الدوام» : فنحن نقول بموجب ما ذكره من هذا القول . فإن المشبهة يقولون : إنه نور كالشمس ، والله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فإنه ليس كشيء من الأنوار ، كما أنَّ ذاته ليست كشيء من الذوات ، لكن ما ذكره حجة عليه ، فإنه يمكن أن يكون نورًا يحجبه عن خلقه ، كما قال في الحديث : «**حجابه النور ـ أو النار ـ لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بَصَرُهُ من خلقه**» .

لكن هنا غلط في النقل ، وهو إضافة هذا القول إلى المشبهة ، فإن هذا من أقوال الجهمية المعطلة أيضًا كالمريسي ، فإنه كان يقول : إنه نور، وهو كبير الجهمية ، وإن كان قصده بالمشبهة من أثبت أن الله نورٌ حقيقة ، فالمثبتة للصفات كلهم عنده مشبهة ، وهذه «لغة الجهمية المحضة» يسمون كل من أثبتَ الصفات مشبهًا .

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٦/ ٣٨٤ ـ ٣٨٨) .

فالنص قد ورد بتسميته : نورًا ، وبأن له نورًا مُضافًا إليه ، وبأنه نور السموات والأرض ، وبأن حجابه النور ، فهذه أربعة أنواع :

فالأول : يقال عليه سبحانه بالإطلاق ، والثاني : يضاف إليه ، كما يضاف إليه حياته =

فقد قدمنا أن ابن كُلاَّب والأشعري وغيرهما ذكرا أنَّ نفي كونه نوراً في نفسه هو قول الجهمية والمعتزلة ، وأنهما أثبتا أنه نور ، وقررا ذلك هما وأكابر أصحابهما ، فكيف بأهل الحديث وأئمة السنة ! وأولُ هؤلاء المؤمنين بالله وبأسمائه ، وصفاته : رسولُ الله ﷺ ، وقد أجاب النبي ﷺ عن هذا السؤال الذي عارض به المعترض ، فقال ﷺ : «**حجابُه النُّور لو كَشَفَه لأحرقت سُبُحَات وجهه ما أدركه بصره من خلقه**».

فأخبر أنه حَجَبَ عن المخلوقات بحجابه النور أنْ تدركها سُبُحات وجهه ، وإن لو كشف ذلك الحجاب لأحرقت سُبُحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه ، فهذا الحجاب عن إحراق السبحات يُبين ما يرد في هذا المقام .

وأما ما ذكره عن ابن عباس في روايته الأخرى[1] فمعناه بعض الأنوار الحسية ، وما ذكره من كلام العارفين[2] فهو بعض معاني هدايته لعباده ، وإنما ذلك تنويع بعض الأنواع بحسب حاجة المخاطبين ، كما ذكرناه من عادة السلف أنْ يفسروها بذكر بعض الأنواع ، يقع على سبيل التمثيل لحاجة المخاطبين ، لا على سبيل الحصر والتحديد .

فقد تبيَّن أنَّ جميع ما ذكر من الأقوال يرجع إلى معنيين من معاني

= وسمعه وبصره وعزته وقدرته وعلمه كقوله تعالى : ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩] وقوله ﷺ : «**إن الله خلق خلقه في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره...**» والثالث : إضافة نوره إلى السموات والأرض كقوله :﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] ، والرابع: كقوله : «**حجابه النور**» . انظر كلام ابن القيم في «الصواعق المرسلة» كما في «شرح النونية» (٢/ ٢٤٠ ـ ٢٤١).

(١) وهو ما ذكره في (٦/ ٣٧٥) من الفتاوى عنه قال : منور السموات والأرض : شمسها وقمرها ونجومها .

(٢) وهو أن معنى النور : هو الذي نور قلوب الصادقين بتوحيده . انظر المصدر السابق .

كونه نور السموات والأرض ، وليس في ذلك دلالة على أنه في نفسه ليس بنور[1] .

٣- القول في تفسير قول الله تعالى ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ . . ﴾ الآية :

لعل من أحسن من تعرض لتفسيرها هو الإمام ابن القيم رحمه الله ، وقبل أن نذكر كلامه نسوق الآية بتمامها يقول الله تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور : ٣٥] .

قال بعد أن ذكر الخلاف في تفسير : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ بنحو ما سبق ذكره عن شيخ الإسلام، قال: وقد اختُلف في تفسير الضمير في (نوره) فقيل : هو النبي ﷺ أي : مثل نور محمد ﷺ ، وقيل تفسيره: المؤمن أي : مثل نور المؤمن ، والصحيح أنه يعود على الله عز وجل ، والمعنى : مثل نور الله سبحانه وتعالى في قلب عبده ، وأعظم عباده نصيبًا من هذا النور رسوله ﷺ ، فهذا مع تضمنه عود الضمير إلى المذكور وهو وجه الكلام يتضمن التقادير الثلاثة ، وهو أتم معنى ولفظًا.

وهذا النور يضاف إلى الله تعالى إذ هو مُعطيه لعبده وواهبه إياه ، ويضاف إلى العبد إذ هو محله وقابله ، فيضاف إلى الفاعل والقابل ، ولهذا النور فاعل وقابل ومحل وحامل ومادة وقد تضمنت الآية ذكر هذه الأمور كلها على وجه التفصيل .

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٦/ ٣٩٥ ـ ٣٩٦) .

فالفاعل : هو الله تعالى مُفيض الأنوار الهادي لنوره من يشاء ، والقابل : العبد المؤمن ، والمحل قلبه ، والحامل : همته وعزيمته وإرادته، والمادة: قوله وعمله ، وهذا التشبيه العجيب الذي تضمنته الآية فيه من الأسرار والمعاني وإظهار تمام نعمته على عبده المؤمن بما أناله من نوره ما تقر به عيون أهله وتبتهج به قلوبهم .

وفي هذا التشبيه لأهل المعاني طريقتان : أحدهما : طريقة التشبيه المركب وهي أقرب مأخذًا وأسلم من التكلف ، وهي أن تشبه الجملة برمتها بنور المؤمن من غير تعرض لتفصيل كل جزء من أجزاء المشبه ومقابلته بجزء من المشبه به وعلى هذا عامة أمثال القرآن الكريم .

فتأمل صفة المشكاة ، وهو كوة لا تنفذ لتكون أجمع للضوء قد وضع فيها مصباح وذلك المصباح داخل زجاجة تشبه الكوكب الدري في صفائها وحسنها ، ومادته من أصفى الأدهان وأتمها وقودًا مِنْ زيت شجرة في وسط القراح[1] ، لا شرقية ولا غربية[2] بحيث تصيبها الشمس في أحد طرفي النهار بل هي في وسط القراح محمية بأطرافه تصيبها الشمس أعدل إصابة والآفات إلى الأطراف دونها فمن شدة إضاءة زيتها وصفائه وحسنه يكاد يضيء من غير أن تمسه نار ، فهذا المجموع المركب هو مثل نور الله تعالى الذي وضعه في قلب عبده المؤمن وخصه به .

والطريقة الثانية : طريقة التشبيه المفصل فقيل : المشكاة صدر المؤمن والزجاجة قلبه ، وشبه قلبه بالزجاجة لرقتها وصفائها وصلابتها ،

---

(١) «القراح من الأرض» : البارز الظاهر الذي لا شجر فيه .

(٢) أي: تقع في مكان لا يسترها من الشمس شيء ، بل تصيبها الشمس طوال النهار ، وهذا أجود لزيتها .

وكذلك قلب المؤمن فإنه قد جمع الأوصاف الثلاثة فهو يرحم ويحسن ويتحنن ويشفق على الخلق برقته .

وبصفائه تتجلى فيه صور الحقائق والعلوم على ما هي عليه ويباعد الكدر والدرن والوسخ بحسب ما فيه من الصفاء ، وبصلابته يشتد في أمر الله تعالى ، ويتصلب في ذات الله تعالى ويغلظ على أعداء الله تعالى ويقوم بالحق لله تعالى ، وقد جعل الله تعالى القلوب كالآنية ، كما قال بعض السلف : القلوب آنية الله في أرضه وأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفاها(١).

والمصباح هو نور الإيمان في قلبه والشجرة المباركة هي شجرة الوحي المتضمنة للهدى ودين الحق ، وهي مادة المصباح التي يتقد منها، والنور على النور : نور الفطرة الصحيحة والإدراك الصحيح ، ونور

---

(١) ورد هذا الأثر موقوفًا ومرفوعًا ، أما الموقوف فقد أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٣٨٤) عن خالد بن معدان قال: «إن لله تبارك وتعالى في الأرض آنيةٌ، وأحبُّ آنية الله إليه ما رقَّ منها وصفا ، وآنية الله في الأرض : قلوب عباده الصالحين» . ورجاله ثقات .

وأما المرفوع : فقد أخرجه عبد الله في زوائده على الزهد (ص١٥٣) عن القاسم بن محمد حدثنا ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أبي أمامة مرفوعًا : الحديث السابق بلفظه .

وفيه محمد بن القاسم: وهو الأسدي ، وثقه ابن معين وقال أبو حاتم : ليس بالقوي لا يعجبني حديثه ، وقال الذهبي في «الكاشف» : ضعفوه .

فالصحيح إذًا الطريق الموقوفة السابقة .

لكن للحديث شاهد أخرجه الطبراني ـ كما في «الصحيحة» (١٦٩١) ـ عن بقية بن الوليد حدثني محمد بن زياد عن أبي عنبة الخولاني مرفوعًا : **«إنَّ لله آنية من أهل الأرض ، وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين ، وأحبها إليه ألينها وأرقها»** .

قال العراقي في «تخريج الإحياء» : رواه الطبراني وإسناده جيد . وقوى سنده الألباني حفظه الله .

الوحي والكتاب ، فينضاف أحد النورين إلىٰ الآخر فيزداد العبد نوراً علىٰ نور ولهذا يكاد ينطق بالحق والحكمة قبل أن يسمع ما فيه من الأثر ثم يبلغه الأثر بمثل ما وقع في قلبه ونطق به فيتفق عنده شاهد العقل والشرع والفطرة والوحي فيريه عقله وفطرته وذوقه أن الذي جاء به الرسول ﷺ هو الحق لا يتعارض عنده العقل والنقل ألبتة بل يتصادقان ويتوافقان فهذا علامة النور علىٰ النور عكس من تلاطمت في قلبه أمواج الشُّبه الباطلة والخيالات الفاسدة من الظنون الجهليات التي يسميها أهلها القواطع العقليات فهي في صدره كما قال الله تعالىٰ : ﴿**أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ**﴾ [النور : ٤٠].

فانظر كيف تضمنت هذه الآيات طوائف بني آدم كلهم أتم انتظام ، واشتملت عليهم أكمل اشتمال .

[أقسام الناس بالنسبة للوحي : أولاً : أهل الهدىٰ والبصائر] :

فإن الناس قسمان : أهل الهدىٰ والبصائر ، الذين عرفوا أن الحق فيما جاء به الرسول ﷺ عن الله وأن كل ما عارضه فشبهات يشتبه علىٰ من قَلَّ نصيبه من العقل والسمع أمرها فيظنها شيئًا له حاصل يُنتفع به وهي : ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ**﴾ [النور : ٣٩ ـ ٤٠] .

وهؤلاء هم أهل الهدىٰ ودين الحق أصحاب العلم النافع والعمل

الصالح ، الذين صدّقوا الرسول ﷺ في أخباره ولم يعارضوها بالشبهات، وأطاعوه في أوامره ولم يضيعوها بالشهوات ، فلا هم في عملهم من أهل الخوض الخراصين ، الذين هم في غَمْرةٍ ساهون ، ولا هم في عملهم من المستمتعين بخلاقهم الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون .

أضاء لهم نورُ الوحي المبين فرأوا في نوره أهل الظلمات في ظلمات آرائهم يعمهون ، وفي ضلالتهم يتهوكون ، وفي ريبهم يترددون ، مغترين بظاهر السراب ، مُمْحلين مُجدبين مما بعث الله تعالىٰ به رسوله ﷺ من الحكمة وفصل الخِطاب ، إن عندهم إلا نُخالة الأفكار وزبالة الأذهان التي قد رضوا بها واطمأنوا إليها ، وقدّموها علىٰ السنة والقرآن ، إن في صدورهم إلا كِبْرٌ ما هم ببالغيه أوجبه لهم اتباع الهوىٰ ونخوة الشيطان وهم لأجله يجادلون في آيات الله بغير سلطان .

فصل : القسم الثاني : أهل الجهل والظلم الذين جمعوا بين الجهل بما جاء به والظلم باتباع أهوائهم الذين قال الله تعالىٰ فيهم : ﴿**إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ**﴾ [النجم: ٢٣].

وهؤلاء قسمان : أحدهما الذين يحسبون أنهم علىٰ علم وهدى وهم أهل الجهل والضلال ، فهؤلاء أهل الجهل المركب الذين يجهلون الحق ويعادونه ، ويعادون أهله ، وينصرون الباطل ويوالون أهله ، وهم يحسبون أنهم علىٰ شيء ألا إنهم هم الكاذبون .

فهم لاعتقادهم الشيء علىٰ خلاف ما هو عليه بمنزلة رائي السراب الذي يحسبه الظمآن ماء حتىٰ إذا جاءه لم يجده شيئًا ، وهكذا هؤلاء أعمالهم وعلومهم بمنزلة السراب الذي يَخون صاحبه أحوج ما هو إليه

ولم يقتصر على مجرد الخيبة والحرمان ، كما هو حال من أمَّ السراب ، فلم يجده ماءً بل انضاف إلى ذلك أنه وَجَدَ عنده أحكم الحاكمين وأعدل العادلين سبحانه و تعالى ، فَحَسَبَ له ما عنده من العلم والعمل فوفَّاه إياه بمثاقيل الذر ، وقَدِمَ إلى ما عمل من عمل يرجو نفعه فجعله هباءً منثورًا إذ لم يكن خالصًا لوجهه ، ولا على سنة رسوله ﷺ ، وصارت تلك الشبهات الباطلة التي كان يظنها علومًا نافعة كذلك هباء منثورًا ، فصارت أعماله وعلومه حسرات عليه .

والسراب ما يرى في الفلاة المنبسطة من ضوء الشمس وقت الظهيرة يسرب على وجه الأرض كأنه ماء يجري، والقِيعة والقاع هو المنبسط من الأرض الذي لا جبل فيه ولا فيه واد ، فشبَّه علوم من لم يأخذ علومه من الوحي وأعماله بسراب يراه المسافر في شدة الحر فيؤُمه فيخيب ظنه ويجده نارًا تلظى ، فهكذا علوم أهل الباطل وأعمالهم إذا حشر الناس واشتد بهم العطش بدت لهم كالسَّراب فيحسبونه ماء فإذا أتوه وجدوا الله عنده فأخذتهم زبانية العذاب فعتلوهم إلى نار الجحيم فسقوا ماء حميمًا فقطع أمعاءهم ، وذلك الماء الذي سقوه هو تلك العلوم التي لا تنفع والأعمال التي كانت لغير الله صيَّرها الله تعالى حميمًا سقاهم إياه ، كما أن طعامهم من ضريع لا يُسمن ولا يغني من جوع وهو تلك العلوم والأعمالُ الباطلة التي كانت في الدنيا كذلك لا تُسمن ولا تُغني من جوع وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف : ١٠٣ ـ ١٠٤] .

وهم الذين عنى بقوله : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً

﴿مَّنثُوراً﴾ [الفرقان: ٢٣] وهم الذين عنى بقوله تعالىٰ ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

والقسم الثاني من هذا الصنف : أصحاب الظلمات وهم المنغمسون في الجهل ، بحيث قد أحاط بهم من كل وجه ، فهم بمنزلة الأنعام بل هم أضلُّ سبيلاً ، فهؤلاء أعمالهم التي عملوها على غير بصيرة بل بمجرد التقليد واتباع الآباء من غير نور من الله تعالىٰ ، كظلمات جمع ظُلمة ، وهي ظُلْمةُ الجهل ، وظُلمة الكفر ، وظلمة الظلم واتباع الهوىٰ ، وظلمة الشَّك والريب ، وظلمة الإعراض عن الحق الذي بعث الله تعالىٰ به رسله صلوات الله وسلامه عليهم ، والنور الذي أنزله معهم ليخرجوا به الناس من الظلمات إلى النور .

فإن المعرض عن ما بعث الله تعالىٰ به محمداً ﷺ من الهدىٰ ودين الحق يتقلب في خمس ظلمات : قوله ظلمة ، وعمله ظلمة ، ومدخله ظلمة ، ومخرجه ظلمة ، ومصيره إلى الظلمة ، وقلبه مظلم ، ووجهه مظلم ، وكلامه مظلم ، وحاله مظلم ، وإذا قابلت بصيرته الخفاشية[1] ما بعث الله به محمداً ﷺ من النور جَدَّ في الهرب منه وكاد نوره يخطف بصره ، فهرب إلى ظلمات الآراء التي هي به أنسب وأولىٰ كما قيل :

خَفَافِيشُ أعْشَاها النَّهارُ بضَوئه ... ووَافَقَها قِطَعٌ مِنَ الليلِ مُظْلِم

فإذا جاء إلى زبالة الأفكار ونُخالة الأذهان جال ومال ، وأبدىٰ وأعاد وقعقع وفرقع ، فإذا طلع نور الوحي وشمس الرسالة انحجر في جحرة الحشرات ، وقوله في ﴿بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ اللجي العميق منسوب إلى لجة البحر وهو معظمه .

(١) نسبة إلى الخَفَش وهو: صِغَر العين وضعف البصر خِلقة، أو فساد في الجفون.

وقوله تعالى: ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾ تصوير لحال هذا المُعْرِض عن وَحيه، فشبَّه تلاطم أمواج الشُّبَه والباطل في صدره بتلاطم أمواج ذلك البحر، وأنها أمواج بعضها فوق بعض، والضمير الأول في قوله ﴿يَغْشَاهُ﴾ راجع إلى البحر، والضمير الثاني في قوله: ﴿مِّن فَوْقِهِ﴾ عائد إلى الموج، ثم إن تلك الأمواج مغشاة بسحاب فههنا ظلمات ظلمة البحر اللجي، وظلمة الموج الذي فوقه، وظلمة السحاب الذي فوق ذلك كله، إذا أخرج من في هذا البحر يده لم يكد يراها.

والمقصود أن قوله: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ إما أن يدل على أنه لا يقارب رؤيتها لشدة الظلمة، وهو الأظهر فإذا كان لا يقارب رؤيتها فكيف يراها، قال ذو الرمة:

إذا غير النائي المحبين لم يكَدْ   رسيس الهوى من حُبِّ ميَّة يبرح

أي: لم يقارب البراح وهو الزوال فكيف يزول.

فشبه سبحانه أعمالهم أولاً في فوات نفعها وحصول ضررها عليهم بسراب خداع يخدع رائيه من بعيد فإذا جاءه وجد عنده عكس ما أمله ورجاه، وشبهها ثانيًا في ظلمتها وسوادها لكونها باطلة خالية عن نور الإيمان بظلمات متراكمة في لجج البحر المتلاطم الأمواج الذي قد غشيه السحاب من فوقه.

فياله تشبيهًا ما أبدعه وأشد مطابقته بحال أهل البدع والضلال وحال من عَبَدَ الله سبحانه وتعالى على خلاف ما بعث به رسوله ﷺ وأنزل به كتابه، وهذا التشبيه هو تشبيه لأعمالهم الباطلة بالمطابقة والتصريح، ولعلومهم وعقائدهم الفاسدة باللزوم، وكل واحد من السراب والظلمات مثل لمجموع علومهم وأعمالهم، فهي سراب لا حاصل لها وظلمات لا

نور فيها ، وهذا عكس مثل أعمال المؤمن وعلومه التي تلقاها من مشكاة النبوة فإنها مثل الغَيث الذي به حياة البلاد والعباد ومثل النور الذي به انتفاع أهل الدنيا والآخرة[1].

٤- سمَّى الله تعالى رسولـه ﷺ نورًا في قوله تعالى : ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥].

وسمَّى كتابه نورًا في قوله تعالى : ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] .

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء : ١٧٤] وغيرها.

وسمى شرائعه وأحكامه كذلك، كما في قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤] وقوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٦] وقوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى﴾ [الأنعام: ٩١].

وسمى الهداية والإيمان نورًا، كما في قوله: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

٥- كان من دعاء النبيﷺ في صلاته وسجوده: «**اللهم اجعل في قلبي نُورًا ، وفي سمعي نورًا ، وفي بصري نُورًا، وعن يميني نُورًا ، وعن**

(١) «اجتماع الجيوش الإسلامية» (ص٧ ـ ١٢) ، ط دار المعرفة، وقد سقناه على طوله مع اختصار يسير لما فيه من الفوائد الجمة كما لا يخفى على من قرأه.

شمالي نُورًا ، وأمامي نُورًا ، وخَلفي نُورًا ، وفوقي نُورًا ، وتحتي نُورًا ، واجعل لي نورًا - أو قال: واجعلني نورًا -» وفي رواية : «واجعل لي في نفسي نورًا ، وأعْظِم لي نُورًا»[1].

* * *

(١) أخرجه البخاري في (الدعوات) (١١٦/١١) ومسلم في (صلاة المسافرين) (٥٢٦/١، ٥٢٩ ـ ٥٣٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

قال الكرماني: التنوين فيها للتعظيم، أي: نورًا عظيمًا .

الهادي
جَلَّ جلالُه وتقدَّست أسماؤُه

(٨٧)

*** المعنى اللغوي :**

الهُدَىٰ : الرَّشَاد والدلالةُ ، يؤنَّث ويذكر .

يقال : هَدَاه الله للدين هُدَىٰ ، وقوله تعالى : ﴿أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ [السجدة: ٢٦] قال أبو عمرو بن العلاء : أو لم يُبَيِّن لهم .

وهديته الطريق والبيت هِدَايةً أي: عَرَّفته .

وهَدَىٰ واهْتَدَىٰ بمعنى ، وقوله تعالى : ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧] قال الفراء : يريد لا يهتدي [١].

والهُدىٰ : إخراج شيءٍ إلىٰ شيء .

والهُدَىٰ : الطاعة والورع .

والهدىٰ أيضًا : النهار[٢] .

قال الزجاجي : والهادي : الدليل ، ويقال هديت الطريق ، وهديته للطريق ، وهديته إلى الطريق بثلاث لغات [٣].

---

(١) «الصحاح» (٦/٢٥٣٣) .

(٢) «اللسان» (٦/٤٦٣٩ ـ ٤٦٤٠) مادة (هدىٰ) .

(٣) «اشتقاق الأسماء» (ص١٨٧) .

* وروده في القرآن الكريم :

ورد الاسم في آيتين من الكتاب وهما :

قــول الله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤] .

وقوله تعالىٰ : ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان : ٣١] .

* معنى الاسم في حق الله تعالىٰ :

قال ابن جرير : ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وإن الله لمُرشد الذين آمنوا بالله ورسوله إلىٰ الحقِّ القاصد ، والحق الواضح[1] .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا﴾ يقول تعالىٰ ذكره لنبيه : وكفاك يا محمد بربك هاديًا يهديك إلىٰ الحق ، ويُبَصِّرُكَ الرشد[2] .

وقال الزجاج : (الهَادي) هو الذي هَدَىٰ خلقه إلىٰ معرفته وربُوبيته ، وهو الذي هدىٰ عباده إلىٰ صراطه المستقيم ، كما قال تعالىٰ : ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس : ٢٥] [3] .

وقال الزجاجي تلميذه : الله عز وجل «الهادي» يهدي عباده إليه ، ويَدُلُّهم عليه ، وعلىٰ سبيل الخير والأعمال المقربة منه عز وجل[4] .

وقال الخطابي : (الهادي) هو الذي مَنَّ بُهَداهُ علىٰ من أراد من عباده فخصَّهُ بهدايته ، وأكرمه بنورِ توحيده كقوله تعالىٰ : ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس : ٢٥] .

وهو الذي هَدَىٰ سائر الخلق من الحيوان إلىٰ مصالحها ، وألْهمها

---

(١) «جامع البيان» (١٧/ ١٣٤) .

(٢) المصدر السابق (١٩/ ٨) .

(٣) «تفسير الأسماء» (ص٦٤) .

(٤) «اشتقاق الأسماء» (ص١٨٧) .

كيف تطلب الرزق ، وكيف تتقي المضارَّ والمهالكَ كقوله تعالىٰ: ﴿الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه : ٥٠] [(١)].

وقال الحُليمي : (الهادي) وهو الدَّالُ على سبيلِ النجاة والمُبَيِّن لها لئلا يزيغ العبد ويضل فيقع فيما يُرديه ويُهلكه[(٢)] .

وقال البيهقي : هو الذي بهدايته اهتدىٰ أهل ولايته ، وبهدايته اهتدىٰ الحيوان لما يُصلحه ، واتقىٰ ما يضره[(٣)] .

وقال السَّعدي : (الهادي) : أي : الذي يَهدي ويُرشد عباده إلىٰ جميع المنافعِ وإلىٰ دفع المضار ، ويُعلمهم ما لا يعلمون ، ويهديهم لهدايةِ التوفيق والتَّسديد ، ويُلهمهم التقوىٰ ، ويجعل قلوبهم مُنيبةً ، إليه مُنقادة لأمره[(٤)] .

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١- أن الله تعالىٰ هو الهادي لعباده ، المبيِّن لهم طريق الحق والإيمان، بما أرسل من الرسل ، وما أنزل من الكتب التي فيها كلامه ، وما نَصَبَ من الدلائل في السموات والأرض .

أما الرسل صلوات الله عليهم ، فإنهم حُجَجُ الله تعالىٰ علىٰ خلقه ، اجتهدوا في العمل علىٰ هداية الناس ليلاً ونهارًا ، سرًا وجهارًا ، بألطف العبارات ، وأفصح الكلمات ، وأبلغ العظات ، قال تعالىٰ : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا

---

(١) «شأن الدعاء» (ص٩٥ ـ ٩٦) .

(٢) «المنهاج» (١/٢٠٧) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه ، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص٨٢) ، ووقع عنده : (سبيل النجاة) ، أما «المنهاج» : (سبل)، والأول أصوب لإفراده طريق النجاة فإنها واحدة وسبل الضلالة متعددة .

(٣) «الاعتقاد» (ص٦٦) .

(٤) «تيسير الكريم الرحمن» (٥/٣٠٥) .

﴿مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم : ٤] .

وكان ذلك في كل أمة كما قال تعالى : ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد : ٧] .

وقال سبحانه عن خاتم المرسلين ﷺ : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩] .

وقال : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى : ٥٢] .

ولا يمكن أن يكون المسلم مُهتديًا إلا باتباع هذا الرسول الكريم ، كما قال تعالى : ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور : ٥٤] واتباع هديه أحد شرطي قبول العمل الصالح ، وهما : المتابعة والإخلاص .

وأما الكتب المنزلة فقد جعلها الله تعالى هدايةً للناس ونورًا ، وفرقانًا تُفرِّق بين الحق والباطل والخير والشر ، قال سبحانه : ﴿إنا أنزلنا التورة فيها هدى ونور﴾ [المائدة : ٤٤] .

وقال عن عيسى عليه السلام : ﴿وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٦] .

وقال مخاطبًا رسول الله ﷺ : ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (٣) مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران : ٣ ـ ٤] .

وقال : ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء : ٩] .

فهذه الكتب هي الدلائل السمعية الهادية التي أنزلها الله سبحانه لهداية خلقه إلى الصراط المستقيم ، الموصل إلى جنة النعيم .

وأما الدلائل الكونية ، فهي ما خلقه الله تعالى في السموات والأرض من آيات بينات شاهدات على وحدانية خالقها وربوبيته ، تقود المتفكر فيها للإيمان ، وتهديه للإسلام لرب العالمين : ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية : ٣ - ٦] .

٢- الله جل شأنه يهدي من يشاء ويُضلُّ من يشاء ، ذكر ذلك عن نفسه في مواضع كثيرة من كتابه منها قوله : ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الاعراف : ١٧٨] .

وقوله : ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف : ١٧] .

وقوله : ﴿مَن يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩].

قال الطحاوي رحمه الله تعالى : «يَهدي من يشاءُ ويَعْصِم ويُعافي فضلاً ، ويُضلُّ من يشاء ويخذل ويبتلي عدلاً ، وكلهم يتقلَّبون في مشيئته بين فضله وعدله» .

وفيه ردٌّ على المعتزلة القائلين بوجوب فعل الأصلح للعبد على الله تعالى ، وقالوا معنى الهدى من الله : بيان طريق الصواب ! والإضلال : تسمية العبد ضالاً ، وحُكمه تعالى على العبد بالضلال عند خلق العبد

الضلالَ في نفسه !

وهذا مبنيٌّ على أصلهم الفاسد وهو : أنَّ أفعال العباد مخلوقة لهم ! لا أن الله تعالى خالق العباد وأفعالهم ، كما هو قول أهل السنة .

ولو كان معنى الهدى من الله : بيان طريق الصواب ، لما نفاه تعالى عن رسوله ﷺ في قوله : ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص : ٥٦] لأنه ﷺ قد بين دعوته لمن أحب وأبغض .

ومما يَنقض قولهم : قوله تعالى : ﴿وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة : ١٣] وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١] وقوله : ﴿مَن يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام :٣٩] ، وقوله : ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ﴾ [الأنعام : ١٢٥] . فهذه الآيات جاءت مُقَيَّدَةً بمشيئة الله تعالى فلا يصح تفسيرها بالبيان ، إذ هو لكلِّ الخلق(١).

فمن هداه الله تعالى للإيمان فبفضله وله الحمد ، كما في قوله سبحانه عن أهل الجنة : ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾] [الأعراف : ٤٣] ، وقوله : ﴿وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات : ٥٧] .

ومن أضلَّه فبعدله، قال سبحانه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦].

---

(١) وانظر: «شرح العقيدة الطحاوية» (ص١٥٥ ـ ١٥٦) ط المكتب الإسلامي .

فالهداية إذن هدايتان : هداية إرشاد وبيان : وهي التي يملكها الرسل وأتباعهم والتي ذكرها الله تعالى بقوله : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧]. وهداية توفيق: وهي التي بيد الله تعالى شانه .

وقال : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ [الزخرف : ٧٦] .

وقال : ﴿ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم ﴾ [التوبة : ١٢٧] .

وقال : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾[الصف : ٥] .

وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزمر : ٣] .

وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر : ٢٨] .

وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ ﴿ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿ الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ في آيات كثيرة .

٣- والهداية أكبر نعمــة يُنْعِم به (الهادي) سبحانه على عبده ، إذْ كل نعمةٍ دونها زائلة ومضمحِلَّة ، وبقدر هدايته تكون سعادته في الدنيا ، وطيب عيشه وراحة باله ، وكذا فوزه ودرجته في الآخرة .

والأنبياء صلوات الله عليهم ـ وهم أكمل الناس إيمانًا وهداية ـ كانوا يسألون الله تعالى أن يهديهم ، فهذا موسى عليه السلام يقول : ﴿ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ [القصص : ٢٢].

وكذا يوسف عليه السلام قال : ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [يوسف : ١٠١] .

وسليمان عليه السلام قال: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ [النمل : ١٩] .

وكان خاتم النبيين ﷺ يسأل ربه تعالى الهداية في دعواته وصلاته ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت : كان ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته: «اللهمَّ ربَّ جبرائيلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ ، فاطرَ السموات

والأرض ، عالمَ الغيب والشهادة ، أنتَ تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهْدِني لما اخْتُلِفَ فيه من الحقِّ بإذنك أنتَ تهدي من تشاءُ إلىٰ صراطٍ مستقيم»[1].

وكان يقول : «اللهم إني أسألك الهُدىٰ والتُّقىٰ والعَفَافَ والغنىٰ»[2].

وقال لعلي رضي الله عنه : «قُل : اللهم اهْدِني وسَدِّدْني ، واذْكُر بالهُدىٰ هدايَتَكَ الطريق ، والسَّداد سدادَ السهم»[3].

وأمرت هذه الأمة بأن تسأل الله تعالىٰ الهداية في كلِّ ركعة من صلاتها في قوله سبحانه: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة : ٦ ـ ٧][4].

---

(١) أخرجه مسلم في (صلاة المسافرين) (١/ ٥٣٤) .

(٢) أخرجه مسلم في (الذكر) (٤/ ٢٠٨٧) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

(٣) أخرجه مسلم في (الذكر) (٤/ ٢٠٩٠) .

ومعنىٰ «اذْكر بالهدىٰ . .» أي: تذكر ذلك في حال دعائك بهذين اللفظين ، لأن هادي الطريق لا يزيغ عنه ، ومُسدد السهم يحرص علىٰ تقويمه ، ولا يستقيم رميه حتىٰ يُقومه ، وكذا الداعي ينبغي أن يحرص علىٰ تسديد عمله وتقويمه ولزومه السنة ، وقيل : ليتذكر بهذا لفظ السداد والهدىٰ ، لئلا ينساه (نووي) .

(٤) قال العلامة المحقق ابن القيم رحمه الله : «ولما كان سؤال الله الهداية إلىٰ الصراط المستقيم أجلَّ المطالب ، ونيله أشرفَ المواهب : علَّم الله عباده كيفية سؤاله ، وأمرهم أن يقدموا بين يديه حمدَه والثناء عليه وتمجيده ، ثم ذكر عبوديتهم وتوحيدهم ، فهاتان وسيلتان إلىٰ مطلوبهم : توسلٌ إليه بأسمائه وصفاته ، وتوسلٌ إليه بعبوديته ، وهاتان الوسيلتان لا يكاد يُرَدُّ معهما الدعاء ، ويؤيدهما الوسيلتان المذكورتان في حديثي الاسم الأعظم اللذين رواهما ابن حبان في صحيحه والإمام أحمد والترمذي :

أحدهما : حديث عبد الله بن بُريدة عن أبيه قال : سمع النبي ﷺ رجلاً يدعو ويقول : اللهم إني أسالك بأني أشهد أنك الله الذي لا إله إلا أنت، الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كُفُوًا أحد، فقال: «والذي نفسي بيده ، لقد سأل الله باسمه =

وعلَّم الحسن بن علي رضي الله عنهما أن يقول في قُنوت الوتر «**اللهم اهدني فيمن هَدَيت وعَافِني فيمنْ عافيت ..**»[٢].

اللهم إنك أعطيتنا الإسلام من غير أن نَسألك فلا تحرمنا الجنة ونحن

= **الأعظم ، الذي إذا دُعي به أجاب ، وإذا سُئل به أعطى**» فهذا توسل إلى الله بتوحيده ، وشهادة الداعي له بالوحدانية ، وثبوت صفاته المدلول عليها باسم (الصمد) وبنفي التمثيل والتشبيه عنه بقوله ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤] وهذه ترجمة عقيدة أهل السنة، والتوسل بالإيمان بذلك والشهادة به هو الاسم الأعظم .

والثاني : حديث أنس «إن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يدعو : اللهم إني أسالك بأنَّ لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان ، بديع السموات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا حي يا قيوم ، فقال : «**لقد سأل الله باسمه الأعظم**» فهذا توسل إليه بأسمائه وصفاته.

وقد جمعت الفاتحة الوسيلتين ، وهما التوسل بالحمد والثناء عليه وتمجيده ، والتوسل إليه بعبوديته وتوحيده ، ثم جاء سؤال أهم المطالب ، وأنجح الرغائب وهو «الهداية» بعد الوسيلتين ، فالداعي به حقيقٌ بالإجابة» ا هـ مختصراً من «مدارج السالكين» (١/ ٢٣ ـ ٢٤).

(٢) حديث صحيح : أخرجه أحمد (١/ ١٩٩ ، ٢٠٠) وأبو داود (١٤٢٥) والترمذي(٤٦٤) والنسائي (٣/ ٢٤٨) وابن ماجة (١١٧٨) والدارمي (١/ ٣٧٣ ـ ٣٧٤) وابن الجارود (ص١٤٢) والحاكم (٣/ ١٧٢) والبيهقي(٢/ ٢٠٩) من طرق عن بريد بن أبي مريم عن أبي الحوراء السَّعدي عن الحسن بن علي قال علمَّني رسول الله ﷺ كلمات أقولهن في الوتر - وفي رواية : في قنوت الوتر ـ فذكره.

قال الترمذي : هذا حديث حسن، لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث أبي الحوراء السعدي، واسمه : ربيعة بن شيبان .

قلت : وهو تابعي ثقة ، ووقع اسمه في بعض المصادر : أبو الجوزاء ، وهو تصحيف . وبريد بن أبي مريم ثقة أيضًا .

وقول الترمذي : «لا نعرفه إلا من هذا الوجه» هو بحسب ما وقف عليه ، وإلا فقد جاء من وجه آخر ، فقد أخرجه النسائي (٣/ ٢٤٨) عن عبدالله بن علي عن الحسن مرفوعًا به.

وعبد الله بن علي: هو ابن الحسين بن علي بن أبي طالب لم يدرك الحسن . انظر: «التهذيب» (٥/ ٣٢٥).

نسألك يا هادي يا كريم يا أرحم الراحمين .

٤- الله سبحانه وتعالىٰ هاد أيضًا من حيث إنه هدىٰ جميعَ الأحياء إلىٰ جلب مصالحها ودفع مضارها ، كما قال سبحانه : ﴿ **قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ** ﴾ [طه : ٥٠] ، وقال : ﴿ **وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ** ﴾ [الأعلىٰ : ٣] .

فقد هدىٰ كلَّ مخلوق إلىٰ ما لا بدَّ منه في قضاء حاجاته ، فهدىٰ الطفلَ إلىٰ الْتقام الثدي عند انفصاله ، والفرخَ إلىٰ التقاط الحبِّ وقت خروجه ، والنَّحلَ إلىٰ بناء بيته علىٰ شكل التَّسديس ، لكونه أوفق الأشكال لبدنه ، وأحواها وأبعدها عن أن يتخللها فُرَج ضائعة وشرح ذلك مما يطول» [1] .

* * *

(١) «المقصد الأسنىٰ» (ص٩٣) .

البَديع
جَلَّ جلالُه وتقدَّست أسماؤُه
(٨٨)

* **المعنى اللغوي :**

البَدِيع : المبتدِع ، والبَديع : المبتَدع أيضًا .

أَبْدَعتُ الشيءَ : اخترعته لا على مثالٍ .

وبَدَعَ الشيءَ يَبْدَعُه بَدْعًا وابتدعه : أنشأه وبَدأه ، وبَدَعَ الرَّكِيَّةَ : استنبطها وأحْدثها .

وأبْدعَ الشاعرُ : جاء بالبدِيع .

وشيءٌ بدْعٌ بالكسر ، أي : مُبتَدعٌ ، وفلان بِدْعٌ في هذا الأمر ، أي : بَدِيعٌ ، وقوم أبداع عن الأخفش ، ومنه قوله تعالى : ﴿**قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ**﴾ [الأحقاف : ٩] ، أي : ما كنت أولَ من أرسل .

والبِدْعة : الحَدَثُ في الدين بعد الإكمال .

وأبْدَعَتِ الراحلة، أي: كَلَّت، وقد أُبْدِعَ بالرجل، أي: كَلَّت راحلته.

والبديع أيضًا : الزِّقُّ الجديد والسقاء الجديد [(١)].

وقال الزجاج : يقال : أبدعتُ الشيء إبداعًا ، إذا جئت به فردًا لم يشاركك فيه غيرك ، وهذا بَديعٌ من فعل فُلان ، أي : مما يتفردُ به [(٢)].

---

(١) «الصحاح» (٣/١١٨٣ ـ ١١٨٤) ، «اللسان» (١/٢٢٩ ـ ٢٣٠) مادة (بدع) .

(٢) «تفسير الأسماء» (ص٦٤) .

وقال الزجاجي : (البديع) : المبتدعُ الأشياء ابتداءً من غير أصلٍ ولا أوَّل والبَدِيء في المعنى مثل البديع ، ثم قد يستعمل البديع والبديء في معنى العجيب ، كما قال عبيد :

إن يكُ حُوِّلَ منها أهلُها فلا بديءٌ ولا عجيب [(١)].

*** وروده في القرآن الكريم :**

جاء في آيتين من الكتاب :

قول الله تعالى : ﴿**بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ [البقرة : ١١٧] .

وقوله : ﴿**بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [الأنعام : ١٠١] .

*** معنى الاسم في حق الله تعالى :**

قال أبو عبيدة : (بديعُ) : مبتدع ، وهو البادئ الذي بدأها[(٢)] .

وقال ابن جرير : يعني جلَّ ثناؤه بقوله : ﴿**بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾: مبدعها ، وإنما هو «مُفْعِل» صرّف إلى «فَعيلة» ، كما صرف المُؤْلم إلى أليم ، والمُسْمع إلى سميع [(٣)].

ومعنى المُبدع المُنْشئ والمُحْدث ما لم يَسبقه إلى إنشاء مثله وإحْداثه أحَد ، ولذلك سُمِّي المبتدع في الدين مُبتدعًا لإحداثه فيه ما لم يسبقه إليه غيره ، وكذلك كل مُحْدِثٍ فعلاً أو قولاً لم يتقدمه فيه مُتقدم فإنَّ العرب

---

(١) «اشتقاق الأسماء» (ص٧٣) .

(٢) «مجاز القرآن» (١/ ٥٢) .

(٣) كان الأصمعي ينكر فعيلاً بمعنى مفعل ، وقال ابن بري : قد جاء كثيرًا نحو مسخن وسخين ومقعد وقعيد وموصى ووصي. . ، وهو الصواب . انظر «روح المعاني» (١/ ٣٦٧) .

تسميه مبتدعًا ، ومن ذلك قول الأعشى بن ثعلبة في مدح هوذة بن علي الحنفي :

يرعى إلى قَوْلِ سَادَاتِ الرجال إذا   أبدَوا له الحَزْمَ أو ما شاءَه ابتدعا

أي يحدث ما شاء ، ومنه قول رؤبة بن العجاج :

فأيها الغاشي القذاف الأتْيَعا[1]   إنْ كُنت لله التَّقِيَّ الأطْوعا

فليس وجه الحق أنْ تبدَّعا

يعني أن تُحدث في الدين ما لم يكن فيه .

فمعنى الكلام : سبحان الله أنَّى يكون له ولد وهو مالك ما في السموات والأرض ، تشهد له جميعًا بدلالتها عليه بالوحدانية ، وتُقرُّ له بالطاعة ، وهو بارئها وخالقها ومُوجدها من غير أصلٍ ولا مثال احتذاها عليه .

وهذا إعلامٌ من الله جلَّ ثناؤه عبادَه أن مما يشهد له بذلك «المسيح» الذي أضافوا إلى الله جلَّ ثناؤه بُنوَّته ، وإخبار منه لهم أنَّ الذي ابتدع السموات والأرض من غير أصل وعلى غير مثال هو الذي ابتدع المسيح من غير والد بقدرته» اهـ [2].

وقال الزجاج : ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أراد به : أنه المُنْفردُ بخلق السموات والأرض ، وهو «فعيل» بمعنى «مَفعِل»[3] .

وقال الخطابي : (البَديع) هو الذي خَلَقَ الخَلْقَ ، وفَطَره مُبْدِعًا له

---

(١) «الأتيع» : المتتابع في الحُمْق «القاموس» .

(٢) «جامع البيان» (١/ ٤٠٤) ، ونقله ابن كثير (١/ ١٦١) وعقبه بقوله : «وهذا من ابن جرير رحمه الله كلامٌ جيد وعبارة صحيحة» .

(٣) «تفسير الأسماء» (ص٦٤) .

مخترعًا ، لا على مثالٍ سَبَقَ [1].

وقال الحليمي : (البدَيع) : ومعناه المبتدع ، وهو يحدث ما لم يكن مثله قط ، قال الله عز وجل : ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي : مُبْدعهما، والمبدع من له إبداع ، فلما ثبت وجود الإبداع من الله تعالى لعامة الجواهر والأعراض ، استحق أن يسمى بَديعًا ومبدعًا [2].

وقال ابن منظور : (البديع) من أسماء الله تعالى ، لإبداعه الأشياء وإحداثه إياها ، وهو «البديع الأول» قبل كلِّ شيء ، ويجوز أن يكون بمعنى : مُبْدِع ، أو يكونَ من بَدَعَ الخلقَ أي بَدَأه ، والله تعالى كما قال سبحانه : ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي : خالقها ومبدعها ، فهو سبحانه الخالق المخترع لا عن مثالٍ سابق [3].

قال السعدي :﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: خالقهما ومبدعهما في غاية ما يكون من الحُسْنِ ، والخَلْق البديع ، والنظام العجيب المحكم[4].

فيتحصل من هذه الأقوال أن معناه:

١- أنه الذي لا مِثْلَ له ولا شبيه ، يقال هذا شيء بديع ، إذا كان عديم المثل ، فيكون على هذا من صفات الذات .

٢- أنه بمعنى المبدع الذي فطر الخلق ابتداء لا على مثال سبق ،

---

(١) «شأن الدعاء» (ص٩٦) وذكر وزنه نحو قول ابن جرير والزجاج .

(٢) «المنهاج» (١/ ١٩٢) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات الابتداع والاختراع له ، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص٢٣ ـ ٢٤) .

(٣) «اللسان» (١/ ٢٣٠) .

(٤) «تيسير الكريم» (٥/ ٣٠٣) .

فيكون من صفات الفعل.

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١- أنَّ الله عز وجل هو : (البديع) الذي لا عَهْدَ بمثله ، فإن لم يكن بمثله عَهدٌ لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ، ولا في كلِّ أمرٍ راجع إليه فهو البديع المُطْلق ، أزلاً وأبدًا (١).

٢- أنه سبحانه الذي أوجد الأشياء بصورة مخترعة على غير مثال سبق ، فهو سبحانه المُبْدِع للسموات والأرض والمخترع لهما ، والمُوجد لجميع ما فيهما .

وإذا كان كذلك ، فكيف يصح أن يُنسب إليه شيء منهما على أنه ولد له !! تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا ، بل كلٌّ من فيهما فمن إيجاده وإبداعه وهو خاضع له وعابد ، قال سبحانه ﴿ **وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (١١٦) بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾ [البقرة : ١١٦ ـ ١١٧] .

وقال سبحانه: ﴿ **إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا** ﴾ [مريم : ٩٣ ـ ٩٥].

وإذا ثبت أن كل ما في السموات والأرض من إيجاده وإبداعه ، ثبت أنه داخل في عباده وملكه ، فيستحيل أن يكون ولدًا له .

وأمر آخر : «أن هذا الذي أُضيف إليه بأنَّه ولده إما أن يكون قديمًا أزليًا أو مُحْدَثًا ، فإن كان أزليًا لم يكن حكمنا بجعل أحدهما ولدًا والآخر

---

(١) انظر «المقصد الأسنى» (ص ٩٣ ـ ٩٤) .

والدًا أولى من العكس ، فيكون ذلك الحكم حكمًا مجردًا من غير دليل ، وإنْ كان الولد حادثًا كان مخلوقًا لذلك القديم وعبدًا له فلا يكون ولدًا .

الثالث : أن الولد لابد وأن يكون من جنس الوالد ، فلو فرضنا له ولدًا ، لكان مشاركًا له من بعض الوجوه ، وممتازًا عنه من وجه آخر .

الرابع : أن الولد إنما يتخذ للحاجة إليه في الكبر ورجاء الانتفاع بمعونته حال عجز الأب عن أمور نفسه ، فعلى هذا فإن اتخاذه إنما يصح على من يصح عليه الفقر والعجز والحاجة .

فإن كان كل ذلك محالاً ، كان اتخاذ الولد عليه سبحانه وتعالى محالاً »[1] .

وقوله : ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ فمعناه أنه إذا أراد إيجاد أمرٍ وإحداثه فإنما يأمره أن يكون موجودًا فيكون موجودًا .

٣- الفرق بين الإبداع والخلق :

قالوا : إن الإبداع هو إيجاد الشيء بصورة مخترعة على غير مثال سبق .

وأما الخلق فمعناه التقدير ، وهو يقتضي شيئًا موجودًا يقع فيه التقدير[2].

٤- عن أنس رضي الله عنه أنه قال: كنت جالسًا مع النبي ﷺ في المسجد ورجل يُصلي فقال : اللهم إني أسالك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت الحنَّان المنَّان بديع السموات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا

---

(١) «التفسير الكبير» (٤/ ٢٣ ـ ٢٤) باختصار .

(٢) انظر : «تفسير المنار» (١/ ٤٣٨) .

حي يا قيوم ، فقال النبي ﷺ : **«دَعَا الله باسمهِ الأعْظم الذي إذا دُعي به أجابَ ، وإذا سُئِلَ به أعطى»** [1].

* * *

(١) حديث صحيح: انظر تخريجه في الجزء الأول (ص٦٤).

الوارث

جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٨٩)

* المعنى اللغوي :

وَرِثْتُ الشيءَ أرِثُهُ وِرْثًا ووِراثةً وإرْثًا (الألف منقلبة من الواو) ، وَرِثَةً (الهاء عوض من الواو) .

وتقول أوْرَثَه الشيءَ أبوه ، وهم وَرَثَة فلان .

ووَرَّثَهُ توريثًا ، أي : أدخله في ماله على ورثته .

وتوارثوه كابرًا عن كابر .

والميراث أصله : مِوْرَاثٌ ، انقلبت الواو ياء لكسرة ما قبلها ، والتُّراث أصل التاء فيه واو [١].

وقال الزَّجاج : (الوارث) كل باقٍ بعدَ ذاهبٍ فهو وارث [٢].

وقال الزجاجي : (الوارث) اسم الفاعل من ورث يرث فهو وارث[٣].

* وروده في القرآن الكريم :

ورد ثلاث مرات كلها بصيغة الجمع وهي :

---

(١) « الصحاح » (١/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦) « اللسان » (٦/ ٤٨٠٨ ـ ٤٨٠٩) مادة (ورث)

(٢) « تفسير الأسماء » (ص ٦٥).

(٣) اشتقاق الأسماء (ص١٧٣).

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴾ [الحجر: ٢٣]

وقوله : ﴿ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٩]

وقوله : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ [القصص: ٥٨].

وورد مرةً واحدة بصيغة الفعل :

وقوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [مريم: ٤٠]

* معنى الاسم في حق الله تعالى :

قال ابن جرير : ﴿ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴾ يقول : ونحن نرث الأرض ومن عليها ، بأن نميت جميعهم فلا يبقى حيٌّ سوانا إذا جاء ذلك الأجل [(١)].

وقال في آية القصص : ﴿ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ يقول : ولم يكن لما خَرَّبنا من مساكنهم منهم وارث ، وعادت كما كانت قبل سكناهم فيها لا مالك لها إلا الله الذي له ميراث السموات والأرض [(٢)].

وقال الزجاجي : الله عز وجل وارث الخلق أجمعين ، لأنه الباقي بعدهم وهم الفانون ، كما قال عز وجل : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [مريم: ٤٠] [(٣)].

وقال الخَطَّابي : (الوارث) هو الباقي بعد فناء الخلق ، والمُستَردُّ أملاكَهم وموارثَهم بعد موتهم ، ولم يزلِ الله باقيًا مالكًا لأصول الأشياء كلها ، يُورِّثُها من يشاء ويستخلف فيها من أحب . قال : وأخبرني أبو عمر عن أبي العباس قال : قال أبو عمرو بن العلاء : أولُ شعرٍ قيل في

(١) « جامع البيان » (١٤/١٦).

(٢) المصدر السابق (٢٠/٦١).

(٣) « اشتقاق الأسماء » (ص١٧٣).

الجاهلية في الزُّهد قول يزيد بن خَذَّاق :

هَوِّنْ عليك ولا تُولَعْ بإشفاقِ فإنما مَالُنا للوارثِ الباقي

في أبيات أنشدناها [(١)].

وقال الحُليمي : (الوارث) ومعناه الباقي بعد ذهاب غيره .

وربُّنا جلَّ ثناؤه بهذه الصفة ، لأنَّه يبقى بعد ذهاب المُلاَّك الذين أمْتَعَهم في هذه الدنيا بما آتاهم ، لأنَّ وجودهم ووجود الأملاَك كان به ، ووجوده ليس بغيره [(٢)].

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١ ـ الله جلَّ شأنه هو الباقي بعد فناء خلقه ، الحي الذي لا يموت ، الدائم الذي لا ينقطع ، وإليه مرجع كل شيء ومصيره .

فإذا مات جميع الخلائق ، وزال عنهم ملكهم ، كان الله تعالى هو الباقي الحق المالك لكل المملوكات وحده ، وهو القائل إذ ذاك ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ وهو المجيب لنفسه ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

فكثير من الناس يظنون أن لهم ملكًا حقيقيًا ، فينكشف لهم ذلك اليوم حقيقة الحال « وهذا النداء عبارة عن حقيقة ما ينكشف لهم في ذلك الوقت .

فأما أرباب البصائر فإنهم أبدًا مشاهدون لمعنى هذا النداء ، سامعون له من غير صوتٍ ولا حرف ، يوقنون بأنَّ المُلك لله الواحدِ القهار ، في

---

(١) «شأن الدعاء» (ص٩٦ ـ٩٧).

(٢) «المنهاج» (١/١٨٩) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات الباريء جلَّ ثناؤه والاعتراف بوجوده ، ونقله البيهقي في « الأسماء » (ص ١٣).

كلَّ يومٍ وفي كل ساعةٍ وفي كل لحظة ، وكذلك كان أزلاً وأبدًا »[1].

٢ ـ بيَّن الله تعالى لعباده أنه هو الوارث لما أهلك من القرى الظالمة التي كانت تعيش في أمن ودعة وخفض العيش ، حتى أصابهم الأشَرُ والبطر ، فلم يقوموا بحقِّ النعمة ، ولم يشكروا ربهم الذي وهبهم ، قال سبحانه : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ [القصص: ٥٨]

وقوله: ﴿لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ أي إلا زمانًا قليلاً ، إذ لا يسكنها إلا المارة يومًا أو بعض يومٍ ، وبقيت شاهدة على مَصرع أهلها وفنائهم ، وعبرة لمن كان له قلب .

﴿ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ أي: منهم؛ إذ لم يخلفهم أحد يتصرَّف تصرفهم في ديارهم وسائر ذات أيديهم، بل كان الله وحده الوارث لديارهم وأموالهم ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠].

٣ ـ حَثَّ الله تعالى عباده المؤمنين على النفقة في سبيله ، وذكَّرهم أنهم مُسْتَخلفون فيما عندهم من الأموال ، مخولون التصرف فيها بما شرع سبحانه ، لا يملكون حقيقة ، فقال سبحانه : ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الحديد: ٧] ثم بيَّن لهم أنهم إن لم ينفقوا في حياتهم في سبيل الله فإنها صائرة إلى الله تعالى إذا ماتوا ، لأن له ميراث السموات والأرض فقال عزَّ من قائل : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الحديد: ١٠]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يقولُ العبدُ:

---

(١) المقصد الأسنى (ص٩٥).

مَالي مَالي ، إنما له منْ ماله ثلاثٌ : ما أكلَ فأفْنَى ، أو لَبِسَ فأبْلَى ، أو أعْطَى فاقْتَنَى ، وما سِوى ذلكَ فهو ذَاهبٌ وتاركُهُ للناس » (١).

٤ ـ دعا زكريا عليه الصلاة والسلام ربه أن يهبه ولدًا يكون من بعده نبيًّا ، وكان قد بلغ من الكبر عتيًا وكانت امرأته عاقرًا ، وقد حكى الله ذلك في كتابه بقوله : ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩، ٩٠].

أي : ارزقني وارثًا من آل يعقوب يرثني.

وقوله : ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ دعاءٌ وثناء مناسب للمسألة (٢).

* * *

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد (٤/ ٢٢٧٣) .

واخرجه من حديث قتادة بن مُطَرِّف عن أبيه قال : أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ : ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١] قال : « يقول ابن آدم : مالي مالي . . » بنحوه.

(٢) وقيل : أراد بذلك ردَّ الأمر إليه سبحانه كأنه قال : إن لم ترزقني ولدًا يرثني فأنت خير وارث فحسبي أنت .

واعترض بأنه لا يناسب مقام الدعاء ، إذ من آداب الدعاء أن يدعو بجدٍّ واجتهاد وتصميم منه ، ففي الصحيحين عن رسول الله ﷺ : « إذا دعا أحدكم فلا يقل : اللهم اغفر إن شئت ، ارحمني إن شئت ، ارزقني إن شئت ، ليعزم في مسألته فإن الله تعالى يفعل ما يشاء لا مكره له » اهـ من « روح المعاني » (١٧/ ٨٧).

المُحيطُ
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(٩٠)

*** المعنى اللغوي :**

حَاطَهُ يَحُوطه حَوْطًا وحِيطةً وحِياطةً : حَفِظه وتعهده ، واحتاط الرجل : أخذ في أموره بالأجْزم .

ومع فلان حِيطةٌ لك ـ ولا تقل عليك ـ أي : تحنُّنٌ وتعطف .

والحائِط : الجدار لأنه يَحُوطُ ما فيه ، والحُوَاطة : خطيرة تتُخذ للطعام .

وكلُّ من أحرز شيئًا كلَّه وبلغ علمه أقصاه ، فقد أحاط به ، يقال : هذا الأمر ما أحطتُ به علمًا.

وقوله تعالى : ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ أي : عَلِمتُه من جميع جهاته . وأُحيط بفلان : إذا دنا هلاكه فهو مُحاطٌ به ، قال عز وجل : ﴿وأحيط بثمره ﴾ أي أصابه ما أهلكه وأفسده [١].

وقال الزجاجي : المحيط في اللغة اسم الفاعل ، من قولهم : أحاط فلان بالشيء فهو محيط به إذا استولى عليه ، وضم جميع أقطاره ونواحيه، حتى لا يمكن التخلص منه ولا فوته [٢].

---

(١) « الصحاح » (٣/١١٢١) و « اللسان » (٢/١٠٥٢) مادة (حوط).

(٢) « اشتقاق أسماء الله » (ص٤٦).

* **وروده في القرآن الكريم :**

ورد الاسم ثمانية مرات ، منها :

قوله تبارك وتعالى : ﴿ **وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ** ﴾ [البقرة: ١٩].

وقوله : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ** ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وقوله : ﴿ **وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا** ﴾ [النساء: ١٢٦].

وقوله : ﴿ **أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ** ﴾ [فصلت: ٥٤].

وقوله : ﴿ **وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ** ﴾ [البروج: ٢٠].

* **معنى الاسم في حق الله تعالى :**

قال ابن جرير : ﴿ **وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ** ﴾ : بمعنى جامعهم فَمُحِلٌّ بهم عقوبته (١).

وقال في قوله : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ** ﴾ : يقول جلَّ ثناؤه : إن الله بما يعمل هؤلاء الكفار في عباده وبلاده من الفساد والصدِّ عن سبيله ، والعداوة لأهل دينه وغير ذلك من معاصي الله محيطٌ بجميعه حافظٌ له ، لا يَعزبُ عنه شيءٌ حتى يوفيهم جزاءهم على ذلك كله ، ويذيقهم عقوبته عليه (٢).

وقال في قوله : ﴿ **أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ** ﴾ : يقول تعالى ذكره: ألا إن الله بكلِّ شيءٍ مما خلق محيطٌ علمًا بجميعه وقدرته عليه ، لا يَعزب عنه علم شيء منه أراده فيفوته ، ولكنه المُقتدر عليه العالم بمكانه (١).

---

(١) « جامع البيان » (١/ ١٢٢).

(٢) المصدر السابق (٤/ ٤٥).

(٣) المصدر السابق (٢٥ / ٥).

وقال الزجاجي : . . . فالله عز وجل محيطٌ بالأشياء كلِّها لأنها تحت قدرته ، لا يمكن شيئًا منها الخروج عن إرادته فيه ، ولا يمتنع عليه منها شيء . وقد قال الله تعالى عز وجل: ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢] أي : علم كل شيءٍ على حقيقته ، بجميع صفاته فلم يخرج شيء منها عن علمه .

وقد قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ قال المفسرون: تأويله: مُهلك الكافرين ، حقيقته أنهم لا يُعْجزونه ولا يفوتونه فهو مُحيطٌ بهم.

ثم قال : وحقيقة الإحاطة بالشيء : ضَمُّ أقطاره ونواحيه وتصييره وسطًا ، كإحاطة البيت بمن فيه ، والأوعية بما يدور عليه ، ثم اتسع فيه . . [(١)].

وقال الخطابي : (المحيطُ) هو الذي أحاطت قدرته بجميع خلقه،وهو الذي أحاطَ بكل شيءٍ علمًا ، وأحصى كلَّ شيءٍ عددًا [(٢)].

وقال الحليمي : ومنها (المحيط) ومعناه : الذي لا يُقْدَر على الفرار منه ، وهذه الصفة ليست حقًا إلا لله جل ثناؤه ، وهي راجعةٌ إلى كمالِ العلم والقُدرة ، وانتفاء الغفلة والعجز عنه [(٣)].

وقال السعدي: (المحيط) بكلِّ شيءٍ علمًا وقُدرةً ورحمة وقهرًا [(٤)].

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١ ـ إنَّ الله تعالى محيط بعباده ، لا يقدرون على فوته أو الفرار منه،

---

(١) « اشتقاق أسماء الله » (ص ٤٦ ـ ٤٧)

(٢) « شأن الدعاء » (ص١٠٢)

(٣) « المنهاج » (١/١٩٧ ـ ١٩٨) وذكره في الأسماء التي تتبع نفي التشبيه عن الله تعالى جده، ونقله البيهقي في « الأسماء » (ص ٤٠).

(٤) « تيسير الكريم » (٥/٣٠٢).

بل « لا مَلْجأً منه إلا إليه » كما قال ﷺ في دعاء الوتر وغيره . وكل شيء تخاف منه تَفرُّ منه إلا الله تعالى ، فإنك تفرُّ إليه ، قال سبحانه : ﴿ ففرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الذاريات: ٥٠] .

وذلك لتمام وكمال قدرته سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾ [الإسراء: ٦٠].

وقال سبحانه : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ ﴾ [الرحمن: ٣٣].

« أي لا تستطيعون هربًا من أمر الله وقدره بل هو (مُحيطٌ) بكم لا تقدرون على التخلص من حكمه ولا النفوذ عن حكمه فيكم أينما ذهبتم أُحيط بكم ، وهذا في مقام الحشر ، الملائكة مُحْدِقةٌ بالخلائق سبع صفوف من كل جانب فلا يقدر أحدٌ على الذهاب (إلا بسلطانٍ) أي إلا بأمر الله ﴿ يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ۝١٠ كَلاَّ لا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ [القيامة: ١٠ - ١٢].

وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [يونس: ٢٧] (١).

وقال سبحانه : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر: ٦٧].

وقال ﷺ : « يَقبضُ الله الأرض ويَطوي السَّماواتِ بيمينه ، ثم يقول :

(١) « تفسير ابن كثير » (٤/ ٢٧٤) وانظر اسمه (القدير).

أنا الملكُ ، أين مُلوكُ الأرضِ ؟ » [1].

٢ ـ إنه سبحانه لا يغيب عنه علم شيء صغيرًا كان أو كبيرًا ، ظاهرًا كان أو باطنًا ، فإنه كما وصف نفسه ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ [فصلت: ٥٤] [2].

* * *

(١) أخرجه البخاري (٨/٥٥١) وفي التوحيد (١٣/٣٦٧ ، ٣٩٣) ومسلم في صفات المنافقين (٤/٢١٤٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) انظر اسمه (العليم).

القَريب
جلَّ جلاله وتقَدَّست أسماؤه
(٩١)

* المعنى اللغوي :

القُرْبُ نَقيضُ البُعد .

قَرُبَ الشيء بالضم ، يَقْرُبُ قُرْبًا وقُربانًا وقِربانًا أي : دنا ، فهو قريب ، الواحد والاثنان والجميع في ذلك سواء.

والقُربان : ما قُرِّبَ إلى الله عز وجل وتَقَرَّبتَ به [1].

* وروده في القرآن الكريم :

ورد الاسم ثلاث مرات في الكتاب وهي :

قوله جلَّ ثناؤه : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقوله : ﴿ فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [هود: ٦١].

وقوله : ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ [سبأ: ٥٠].

---

(١) « الصحاح » (١/١٩٨ ـ ١٩٩) و « اللسان » (٥/٣٥٦٦) مادة (قرب) . وانظر: «اشتقاق الأسماء » للزجاجي (ص١٤٦ ـ ١٤٨).

* معنى الاسم في حق الله تعالى :

قال ابن جرير في قوله : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي﴾ [البقرة : ١٨٦] : يعني تعالى ذكره بذلك : وإذا سألك يا محمد عبادي عني أين أنا ؟ فإني قريبٌ منهم أسمع دعاءهم وأُجيب دعوة الداعي منهم [١].

وقال في قوله : ﴿ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [هود : ٦١] : يقول : إن ربي قريبٌ ممن أخلص له العبادة ، ورَغِبَ إليه في التوبة مجيبٌ له إذا دعاه [٢].

وفي قوله :﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ [سبأ : ٥٠] : قال : إن ربي سميعٌ لما أقول لكم حافظ له وهو المجازي لي علي صدقي في ذلك ، وذلك مني غير بعيد فيتعذر عليه سماع ما أقول لكم وما تقولون وما يقوله غيرنا، ولكنه قريب من كل متكلم ،يسمع كلَّ ما ينطق به ، أقربُ إليه من حبل الوريد[٣].

وقال الزجاجي :(القريب) في اللغة على أوجه : القريب الذي ليس ببعيد ، فالله عز وجل قريبٌ ليس ببعيد كما قال عز وجل : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] أي : أنا قريبُ الإجابة ، وهو مثل قوله عز وجل : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] ، وكما قال عز وجل :﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧].

---

(١) « جامع البيان » (٢/ ٩٢).

(٢) المصدر السابق (١٢/ ٣٨).

(٣) المصدر السابق (٢٢/ ٧٢).

وكما قال عز وجل : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [ق: ١٦] .

وكما قال : ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤] .

والله عز وجل محيطٌ بالأشياء كلِّها عِلمًا لا يعزُبُ عنه منها شيء ، وكل هذا يراد به ـ والله أعلم ـ إحاطة علمه بِكل شيء ، وكون كل شيء تحت قدرته وسلطانه وحكمه وتصرفه ، ولا يراد بذلك قرب المكان والحلول في بعضه دون بعض جلَّ الله وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً [(١)] .

وقال الخطابي : (القريب) معناه : أنه قريبٌ بعلمه من خلقه ، قريب ممن يدعُوه بالإجابة كقوله تعالى : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة : ١٨٦] [(٢)] .

وقال ابن القيم :

وهو القَريبُ وقُربُهُ المختصُّ بالـ ... دَّاعي وعَابِدِه على الإيمان [(٣)]

وقال السعدي : (القَريبُ المجيب) أي : هو تعالى القريب من كلِّ أحد ، وقربه تعالى نوعان :

قُربٌ عامٌّ من كلِّ أحد بعلمه وخبرته ومراقبته ومشاهدته وإحاطته .

وقربٌ خاص من عابديه وسائليه ومحبيه ، وهو قرب لا تُدرك له حقيقة ، وإنما تعلم آثاره من لطفه بعبده وعنايته به وتوفيقه وتسديده ، ومن آثاره الإِجابة للداعين ، والإِنابة للعابدين .

---

(١) « اشتقاق أسماء الله » (ص١٤٦ ـ ١٤٧) وانظر تفصيل القول فيما ذكره في آخر كلامه في آثار الإيمان بهذا الاسم.

(٢) « شأن الدعاء » (ص ١٠٢ ـ ١٠٣)

(٣) « النونية » (٢/٢٢٩).

فهو (المجيبُ) إجابةً عامة للداعين مهما كانوا وأينما كانوا وعلى أي حال كانوا ، كما وعدهم بهذا الوعد المطلق ، وهو (المجيب) إجابة خاصة للمستجيبين له المنقادين لشرعه ، وهو (المجيب) أيضًا للمضطرين ومن انقطع رجاؤهم من المخلوقين ، وقَوِيَ تعلّقهم به طمعًا ورجاءً وخوفًا [1].

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١ ـ وَصَفَ الله تعالى نفسه في كتابه وفي سنة رسوله ﷺ أنه (قَرِيبٌ) من الداعي والمُتقرِّبُ إليه بأنواع الطاعة والإحسان ، كما في قوله تعالى : **﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾**[البقرة: ١٨٦].

وثبت في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري أنهم كانوا مع النبي ﷺ في سفر فكانوا يرفعون أصواتهم بالتكبير فقال : « **أيها الناس ! ارْبَعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تَدْعون أصَمَّ ولا غائبًا ، إنما تَدعون سَميعًا قريبًا ، إن الذي تَدْعونه أقربُ إلى أحدِكم مِنْ عُنُقِ راحلته** » [2].

وفي الصحيحين أيضًا عن النبي ﷺ قال : « **يقول الله تعالى : مَنْ تقرَّب إلي شبرًا تقرَّبْتُ إليه ذِراعًا ، ومن تقرب إليَّ ذراعًا تقربتُ إليه بَاعًا ، ومنْ أتاني يمشي أتيته هَرولة** » .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : وقُربه من العباد بتقربهم إليه مما يُقرُّ به جميع من يقول : إنه فوق العرش ، سواء قالوا مع ذلك : إنه تقوم به الأفعال الاختيارية أو لم يقولوا.

---

(١) « تيسير الكريم » (٥/ ٤٠٣).

(٢) سبق تخريجه في الجزء الأول .

وأما من يُنكر ذلك :

فمنهم من يفسر قُرب العباد بكونهم يُقاربونه ويشابهونه من بعض الوجوه فيكونون قريبين منه ! وهذا تفسير أبي حامد والمتفلسفة ، فإنهم يقولون : الفلسفة هي التشبه بالإله على قدر الطاقة !

ومنهم من يفسر قربهم بطاعتهم ، ويفسر قربه بإثابته ! وهذا تفسير جمهور الجهمية ، فإنهم ليس عندهم قرب ولا تقريب أصلاً .

ومما يدخل في معاني القرب ـ وليس في الطوائف من ينكره ـ قرب المعروف والمعبود إلى قلوب العارفين العابدين ، فإن كل من أحبَّ شيئًا فإنه لا بد أنْ يعرفه ويقرب من قلبه ، والذي يبغضه يبعد من قلبه ، لكن هذا ليس المراد به أنَّ ذاته نفسها تحلُّ في قلوب العارفين العابدين ! وإنما في القلوب معرفته وعبادته ومحبته ، والإيمان به ، ولكن العلم يطابق المعلوم.

وهذا الإيمان الذي في القلوب هو « المثل الأعلى » الذي له في السموات والأرض ، وهو معنى قوله تعالى ﴿ **وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ** ﴾ [الزخرف: ٨٤] وقوله : ﴿ **وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ** ﴾ [الأنعام: ٣].

وقد غلط في هذه الآية طائفة من الصوفية والفلاسفة وغيرهم : فجعلوه حلول الذات واتحادها بالعابد والعارف ! ! من جنس قول النصارى في المسيح وهو قول باطل كما قد بسط في موضعه .

والذين يثبتون تقريبه العباد إلى ذاته هو القول المعروف للسلف والأئمة،وهو قول الأشعري وغيره من الكلابية ، فإنهم يثبتون قُرب العباد إلى ذاته وكذلك يثبتون استواءه على العرش بذاته، ونحو ذلك، ويقولون:

الاستواء فِعلٌ فَعَلَه في العرش فصار مستويًا على العرش ، وهذا أيضًا قول ابن عقيل ، وابن الزاغوني ، وطوائف من أصحاب أحمد وغيرهم .

وأما دُنُوه نفسه وتقربه من بعض عباده ، فهذا يثبته مَنْ يُثبت قيام الأفعال الاختيارية بنفسه ، ومجيئه يوم القيامة ، ونزوله ، واستواءه على العرش ، وهذا مذهب أئمة السلف وأئمة الإِسلام المشهورين وأهل الحديث ، والنقل عنهم بذلك متواتر.

وأول من أنكر هذا في الإِسلام « الجهمية » ومن وافقهم من المعتزلة، وكانوا ينكرون الصفات والعلو على العرش ، ثم جاء ابن كُلاَّب فخالفهم في ذلك وأثبت الصفات والعلو على العرش ، لكن وافقهم على أنه لا تقوم به الأمور الاختيارية ، ولهذا أحْدَثَ قوله في القرآن : إنه قديم لم يتكلم به بقدرته ، ولا يُعرف هذا القول عن أحد من السلف ، بل المتواتر عنهم أنَّ القرآن كلام الله غير مخلوق ، وأن الله يتكلم بمشيئته وقدرته ، كما ذكرتُ ألفاظهم في كتب كثيرة في مواضع غير هذا .

فالذين يُثبتون أنَّه كلَّم موسى بمشيئته وقدرته كلامًا قائمًا به ، هم الذين يقولون إنه يدنو ويقرب من عباده بنفسه ، وأما من قال : القرآن مخلوق أو قديم فأصل هؤلاء أنه لا يمكن أن يَقْرُبَ من شيء ولا يدنو إليه ، فمن قال منهم : بهذا مع هذا ، كان من تناقضه ، فإنه لم يفهم أصل القائلين بأنه قديم.

وأهل الكلام قد يعرفون من حقائق أصولهم ولوازمها ما لا يعرفه من وافقهم على أصل المقالة ، ولم يعرف حقيقتها ولوازمها ، فلذا يوجد كثير من الناس يتناقض كلامه في هذا الباب ، فإن نصوص الكتاب والسنة وآثار السلف متظاهرة بالإِثبات ، وليس على النفي دليل واحد : لا من

كتاب ولا من سنة ولا من أثر ، وإنما أصله قول الجهمية ، فلما جاء ابن كُلاب فرق ، ووافقه كثير من الناس على ذلك ، فصار كثير من الناس يقرُّ بما جاء عن السلف وما دل عليه الكتاب والسنة ، وبما يقوله النفاة مما يناقض ذلك ! ولا يهتدي للتناقض﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣] (١).

٢ ـ وَصْفُ الله تبارك وتعالى نفسه بالقرب من داعيه وعابده والساجد له وقربه منهم في جوف الليل وفي عشية عرفة ونحو ذلك مما جاءت به النصوص الصحيحة الصريحة ، لا يتنافى مع علوه على عرشه وفوقيته على عباده ـ وهو أيضًا مما ثبت بالأدلة المستفيضة ـ وذلك أن الله تعالى ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، ولا يجوز أن تُقاس ذاته على ذوات خلقه ، أو فعله على أفعالهم .

وفي توضيح هذه المسألة يقول شيخ الإسلام : « وأما القُرب فهو كقوله : ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦] وقوله : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق : ١٦] و ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥] .

وقد افترق الناس في هذا المقام « أربع فرق » :

« فالجهمية النفاة » الذين يقولون : ليس داخل العالم ، ولا خارج العالم ، ولا فوق ، ولا تحت ، لا يقولون بعلوه ولا بفوقيته . بل الجميع عندهم مُتأول أو مفوض .

وجميع أهل البدع قد يتمسكون بنصوص : كالخوارج ، والشيعة ،

---

(١) « مجموع الفتاوى » (٥/ ٤٦٥ ـ ٤٦٧).

والقدرية ، والرافضة ، والمرجئة ، وغيرهم ، إلا الجهمية فإنهم ليس معهم عن الأنبياء كلمة واحدة توافق ما يقولونه من النفي ، ولهذا قال ابن المبارك ويوسف بن أسباط : إنَّ الجهمية خارجون عن الثلاث والسبعين فرقة ، وهذا أحد الوجهين لأصحاب أحمد ذكرهما أبو عبد الله بن حامد وغيره.

« وقسم ثان » يقولون : إنه بذاته في كلِّ مكان ، كما يقوله النَّجَّارية، وكثير من الجهمية ـ عبادهم ، وصوفيتهم ، وعوامهم ـ يقولون: إنَّه عينُ وجود المخلوقات ، كما يقوله « أهلُ الوحدة » القائلون بأن الوجود واحد ومن يكون قوله مركبًا من الحلول والاتحاد ، وهم يحتجون بنصوص « المعية والقرب » ، ويتأولون نصوص « العلو ، والاستواء » وكل نصٍّ يحتجون به حجة عليهم ، فإن المعية أكثرها خاصة بأنبيائه وأوليائه ، وعندهم أنه في كل مكان !

وفي النصوص ما يُبيِّنُ نقيض قولهم ، فإنه قال : ﴿**سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [الحشر: ١] فكل من في السموات والأرض يسبح والمسبِّح غير المسبَّح ، ثم قال : ﴿**لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ**﴾ [الحديد: ٢] فبين أنَّ الملك له ، ثم قال : ﴿**هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [الحديد: ٣] .

وفي الصحيح : « **أنتَ الأولُ فليس قَبلك شيء وأنتَ الآخر فليس بعدك شيء ، وأنتَ الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء** » فإذا كان هو الأول كان هناك ما يكون بعده ، وإذا كان آخرًا كان هناك ما الرب بعده ، وإذا كان ظاهرًا ليس فوقه شيء كان هناك ما الرب ظاهر عليه ، وإذا كان باطنًا ليس دونه شيء كان هناك أشياء نفي عنها أنْ

تكون دونه .

ولهذا قال « ابن عربي » : من أسمائه الحسنى (العلي) على من يكونُ عليًا ؟! وما ثم إلا هو ! وعلى ماذا يكون عليًا !! وما يكون إلا هو، فعلوُّه لنفسه ، وهو من حيث الوجود ، عين الموجودات ، فالمسمى محدثات هي العلية لذاتها ، وليست إلا هو . ثم قال : قال الخراز : « وهو وجه من وجوه الحق ولسان من ألسنته ينطق عن نفسه بأن الله يعرف بجمعه بين الأضداد : فهو عين ما ظهر ، وهو عين ما بطن في حال ظهوره وما ثم من تراه غيره ، وما ثم من بطن عنه سواه ، فهو ظاهر لنفسه ، وهو باطن عن نفسه » وهو المسمى « أبو سعيد الخراز».

و « المعية » لا تدل على المُمازجة والمخالطة ، وكذلك لفظ القرب، فإن عند الحلولية أنه في حبل الوريد ! كما هو عندهم في سائر الأعيان ! وكل هذا كُفْرٌ وجهل بالقرآن .

« والقسم الثالث » من يقول : هو فوق العرش ، وهو في كل مكان ويقول : أنا أقر بهذه النصوص ، وهذه لا أصرف واحدًا منها عن ظاهره. وهذا قول طوائف ذكرهم الأشعري في « المقالات الإِسلامية » وهو موجود في كلام طائفة من السالمية والصُّوفية .

وهذا الصنف الثالث وإن كان أقربَ إلى التمسك بالنصوص وأبعد عن مخالفتها من الصنفين الأولين .

فإن الأول لم يتبع شيئًا من النصوص ، بل خالفها كلها .

والثاني ترك النصوص الكثيرة المحكمة المبينة وتعلق بنصوص قليلة اشتبهت عليه معانيها .

وأما هذا الصنف فيقول : أنا اتبعت النصوص كلها ، لكنه غالط أيضًا .

فكل من قال : إن الله بذاته في كل مكان فهو مخالف للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة وأئمتها ، مع مخالفته لما فطر الله عليه عباده ، ولصريح المعقول وللأدلة الكثيرة ، وهؤلاء يقولون أقوالاً متناقضة ، يقولون : إنه فوق العرش . ويقولون : نصيب العرش منه كنصيب قلب العارف ، كما يذكر مثل ذلك أبو طالب وغيره ، ومعلوم أن قلب العارف نصيبه منه المعرفة والإِيمان وما يتبع ذلك ، فإن قالوا : إن العرش كذلك نقضوا قولهم : إنَّه نفسه فوق العرش . وإن قالوا بحلوله بذاته في قلوب العارفين كان هذا قولاً بالحلول الخالص !

وقد وقع في ذلك طائفة من « الصوفية » حتى صاحب « منازل السائرين » في توحيده المذكور في آخر المنازل في مثل هذا الحلول ، ولهذا كان أئمة القوم يحذرون من مثل هذا . سُئِل « الجنيد » عن التوحيد فقال : هو إفراد الحدوث عن القدم . فبيَّن أنه لا بد للموحد من التمييز بين القديم الخالق والمحدث المخلوق فلا يختلط أحدهما بالآخر ، وهؤلاء يقولون في أهل المعرفة ما قالته النصارى في المسيح والشيعة في أئمتها ، وكثير من الحلولية والإِباحية يُنكر على الجنيد وأمثاله من شيوخ أهل المعرفة المتبعين للكتاب والسنة ما قالوه من نفي الحلول ! وما قالوه في إثبات الأمر والنهي ، ويرى أنهم لم يكملوا معرفة الحقيقة كما كملها هو وأمثاله من الحلولية والإِباحية !

وأما « القسم الرابع » فهم سلف الأمة وأئمتها : أئمة العلم والدين من شيوخ العِلْم والعبادة ، فإنهم أثبتوا وآمنوا بجميع ما جاء به الكتاب

والسنة كله من غير تحريف للكلم ، أثْبتوا أنَّ الله تعالى فوق سمواته ، وأنه على عرشه بائنٌ من خلقه وهم منه بائنون ، وهو أيضًا مع العباد عمومًا بعلمه ، ومع أنبيائه وأوليائه بالنصر والتأييد والكفاية ، وهو أيضًا قريبٌ مجيب ، ففي آية النجوى دلالة على أنه عالم بهم.

وكان النبي ﷺ يقول : « **اللهم أنتَ الصَّاحِبُ في السَّفَرِ والخَلِيفةُ في الأهل** » ، فهو سبحانه مع المسافر في سفره ومع أهله في وطنه ، ولا يلزم من هذا أن تكون ذاته مختلطة بذواتهم ! كما قال: ﴿ **مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ** ﴾ [الفتح: ٢٩] : أي : (معه) على الإيمان ، لا أنَّ ذاتهم في ذاته بل هم مُصاحبون له . وقوله : ﴿ **فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [النساء: ١٤٦] يدل على موافقتهم في الإيمان وموالاتهم ، فالله تعالى عالمٌ بعباده وهو معهم أينما كانوا ، وعلمه بهم من لوازم المعية ، كما قالت المرأة : زوجي طويلُ النِّجاد ، عظيم الرماد ، قريبُ البيت من النَّاد : فهذا كله حقيقة ، ومقصودها : أن تُعرف لوازم ذلك وهو : طول القامة والكرم بكثرة الطعام وقرب البيت من موضع الأضياف .

ثم قال : « وأما لفظُ (القرب) فقد ذكره تارة بصيغة المفرد ، وتارة بصيغة الجمع ،فالأول إنما جاء في إجابة الداعي : ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** ﴾ [البقرة: ١٨٦] وكذلك في الحديث : « **ارْبَعوا على أنفسكم ، فإنَّكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا ، إنما تدعون سميعًا قريبًا ، إنَّ الذي تدعون أقربُ إلى أحدكم من عنق راحلته**» ، وجاء بصيغة الجمع في قوله ﴿ **وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ** ﴾ [ق : ١٦] وهذا مثل قوله: ﴿ **نَتْلُوا عَلَيْكَ** ﴾ [القصص: ٣]، ﴿ **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ** ﴾ [يوسف: ٣]، ﴿ **فَإِذَا قَرَأْنَاهُ** ﴾ [القيامة: ١٨] و ﴿ **إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ** ﴾ [القيامة: ١٧] و ﴿ **عَلَيْنَا**

بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٩] . فالقرآن هنا حين يسمعه من جبريل ، والبيان هنا بيانه لمن يبلغه القرآن .

ومذهب سلف الأمة وأئمتها وخلفها : أنَّ النبي ﷺ سمع القرآن من جبريل ، وجبريل سمعه من الله عز وجل.

وأما قوله :﴿ نَتْلُوا﴾ و ﴿ نَقُصُّ ﴾ و ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾ فهذه الصيغة في كلام العرب للواحد العظيم الذي له أعْوانٌ يُطيعونه ، فإذا فعل أعوانه فعلاً بأمره قال : نحن فعلنا . كما يقول الملك : نحن فتحنا هذا البلد وهزمنا هذا الجيش ، ونحو ذلك ؛ لأنه إنما يفعل بأعوانه ، والله تعالى رب الملائكة ، وهم لا يسبقـونه بالقول وهم بأمره يعملون ، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وهو مع هذا خالقهم وخالق أفعالهم وقدرتهم وهو غنيٌّ عنهم ، وليس هو كالملك الذي يفعل أعوانه بقدرة وحركة يستغنون بها عنه ، فكان قوله لما فعله بملائكته : نحن فعلنا ، أحق وأولى من قول بعض الملوك ».

ثم ذكر أنَّ هذا من المتشابه الذي يعلم الراسخون في العلم تفسيره فقال : « فالراسخون في العلم يعلمون أن قوله :

(نحن) أنَّ الله فعل ذلك بملائكته ، وإنْ كانوا لا يعرفون عدد الملائكة ولا أسماءهم ولا صفاتهم وحقائق ذواتهم ، ليس الراسخون كالجهال الذين لا يعرفون (إنَّا) و (نحن) ، بل يقولون : ألفاظًا لا يعرفون معانيها ، أو يجوزون أنْ تكون الآلهة ثلاثة متعددة ! أو واحدًا لا أعوان له !

ومن هذا قول الله تعالى : ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ﴾ [الزمر: ٤٢] فإنه سبحانه يتوفاها برسله كما قال :﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١] ، ﴿يَتَوَفَّاكُم

﴿مَلَكُ الْمَوْتِ﴾ [السجدة: ١١] فإنه يتوفاها برسله الذين مُقدمهم ملك الموت.

وقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٨] هو قراءة جبريل له عليه والله قرأه بواسطة جبريل كما قال: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١] فهو مُكلِّمٌ لمحمدٍ بلسان جبريل وإرساله إليه، وهذا ثابتٌ للمؤمنين كما قال تعالى: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ [التوبة: ٩٤] وإنباء الله لهم إنما كان بواسطة محمد إليهم.

وكذلك قوله: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦]، ﴿وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾ [البقرة: ٢٣١] فهو أنزل على المؤمنين بواسطة محمد.

وكذلك ذوات الملائكة تقرب من ذات المحتضر، وقوله﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق ١٦] فإنه سبحانه هو وملائكته يعلمون ما توسوس به نفس العبد كما ثبت في الصحيحين: «**إذا هَمَّ العَبْدُ بحَسَنة فلم يعملها قالَ اللهُ لملائكته: اكتبوها له حَسَنة، فإنْ عَمِلَها قال: اكْتُبُوها له عشر حسناتٍ، وإذا هم بسيئة ...**» إلى آخر الحديث، فالملائكة يعلمون ما يهم به من حسنة وسيئة، و« الهمُّ » إنما يكون في النفس قبل العمل، وأبلغ من ذلك أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وهو يوسوس له بما يهواه فيعلم ما تهواه نفسه.

فقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] هو قربُ ذَوَات الملائكة وقرب علم الله منه، وهو رَبُّ الملائكة والروح، وهم لا يعلمون شيئًا إلا بأمره، فذاتهم أقربُ إلى قلب العبد من حبل الوريد،

فيجوز أنْ يكون بعضهم أقرب إليه من بعض ، ولهذا قال في تمام الآية : **﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾** [ق: ١٧، ١٨].

وهذا كقوله : **﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾** [الزخرف: ٨٠] ، فقوله (إذ) ظرف ، فأخبر أنهم **﴿أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾** [ق: ١٦] حين يتلقى المُتلقيان ، ما يقول : **﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ﴾** قعيد **﴿وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾** [ق: ١٧] ثم قال **﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾** [ق : ١٨] : أي شاهد لا يغيب.

فهذا كلُّه خبرٌ عن الملائكة ، فقوله : **﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾** [البقرة: ١٨٦] ، و « **هو أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته** » ، فهذا إنما جاء في الدُّعاء لم يذكر أنه (قريبٌ) من العباد في كل حال ! وإنما ذكر ذلك في بعض الأحوال ، وقد قال في الحديث : « **أقْرَبُ ما يكون العبدُ من رَبِّه وهو ساجد** ».

وقال تعالى : **﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾** [العلق: ١٩] ، والمراد القربُ من الدَّاعي في سجوده، كما قال : « **وأما السُّجود فأكثروا من الدُّعاء فقَمِنٌ أنْ يُستجاب لكم** » ، فأمر بالاجتهاد في الدعاء في السجود مع قُرب العبد من ربِّه وهو ساجد . وقد أَمَرَ المصلي أنْ يقول في سجوده : « **سبحان ربي الأعلى** » رواه أهل السنن.

وعلَّل ذلك بقوله : « وذلك أنَّ السجود غاية الخضوع والذل من العبد، وغاية تَسْفيله ، وتواضعه : بأشرف شيءٍ فيه لله ـ وهو وجهه ـ بأنْ يضعه على التراب ، فناسب في غاية سُفُوله أنْ يصفَ ربَّه بأنه (الأعلى)

والأعلى أبلغ من (العلي) فإن العبد ليس له من نفسه شيء ، هو باعتبار نفسه عدم محض ، وليس له من الكبرياء والعظمة نصيب .

وكذلك في « العلو في الأرض » ليس للعبد فيه حق ، فإنه سبحانه ذَمَّ من يريد العلو في الأرض : كفرعون ، وإبليس ، وأما المؤمن فيحصل له العلو بالإيمان ، لا بإرادته له ، كما قال تعالى : ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩] » .

[كلما كمَّل العبد مراتب العبودية كان أقرب إلى الله تعالى] :

فلما كان السجود غايةَ سُفُول العبد وخضوعه، سبَّحَ اسم ربه الأعلى فهو سبحانه الأعلى ، والعبد الأسفل ، كما أنه الربُّ ، والعبدَ العبدُ ، وهو الغني ، والعبد الفقير ، وليس بين الربِّ والعبد إلا محض العبودية، فكلما كَمَّلَها قَرُبَ العبد إليه ، لأنه سبحانه بَرٌّ ، جوادٌ محسن ، يُعطي العبد ما يناسبه ، فكلما عَظُمَ فقره إليه كان أغنى ، وكلما عَظُم ذلُّه له كان أعز، فإنَّ النفس ـ لما فيها من أهوائها المتنوعة وتسويل الشيطان لها ـ تبعد عن الله حتى تصير ملعونة بعيدة من الرحمة . « واللعنة » هي : البُعد ، ومن أعظم ذنوبها إرادة العلو في الأرض ، والسجود فيه غاية سفولها ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠] .

وفي الصحيح : « **لا يَدْخُل الجنة مَنْ كان في قلبه مثقالُ ذَرة من كبر** » وقال لإبليس : ﴿ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ [الأعراف: ١٣] ، وقال : ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ [التوبة: ٤٠] ، فهذا وصف لها ثابت . لكن من أراد أنْ يعلي غيرها جوهد ، وقال : « **منْ قاتل لتكونَ كلمة الله هي العُليا فهو في سبيل الله** » .

« وكلمة الله » : هي خبره وأمره ، فيكون أمره مطاعًا مقدمًا على أمر غيره ، وخبره مُصدَّقٌ على خبر غيره ، وقال : ﴿ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال: ٣٩] « والدين » : هو العبادة والطاعة والذل ، ونحو ذلك ، يقال: دنته فدان : أي : ذَلَّلته فذل ».

[شرح حديث « من تقرب إلي شبرًا ... »] :

ثم قال : وقوله « **ومن تقرب إلي شبرًا تقربت إليه ذراعًا ، ومن تقرب إلي ذراعًا تقرَّبت إليه باعًا ، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة** » ، فقربُ الشيء من الشيء مستلزم لقرب الآخر منه ، لكن قد يكون قربُ الثاني هو اللازم من قرب الأول ، ويكون منه أيضًا قُرْبٌ بنفسه ، فالأول : كمن تقرَّب إلى مكة أو حائط الكعبة، فكلما قَرُبَ منه قَرُبَ الآخر منه من غير أن يكون منه فعل ، والثاني : كقرب الإنسان إلى من يتقرب هو إليه كما تقدم في هذا الأثر الإلهي ، فتقرب العبد إلى الله وتقريبه له نَطَقَت به نصوص متعددة، مثل قوله : ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ** ﴾ [الإسراء: ٥٧] ﴿ **فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ** ﴾ [الواقعة: ٨٨] ، ﴿ **عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ** ﴾ [المطففين: ٢٨] ، ﴿ **وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ** ﴾ [النساء: ١٧٢] ، ﴿ **وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ** ﴾ [آل عمران: ٤٥] ، « **وما تقرَّبَ إلي عبدي بمثل أداء ما افترضته عليه** » الحديث . وفي الحديث : « **أقربُ ما يكون العبدُ من ربِّه في جَوفِ الليل الآخر** ».

وقد بسطنا الكلام على هذه الأحاديث ومقالات الناس في هذا المعنى في « جواب الأسئلة المصرية على الفتيا الحموية » فهذا قُرب الربِّ نفسه إلى عبده ، وهو مثل نزوله إلى السماء الدنيا . وفي الحديث الصحيح : « **إن الله يَدْنُو عَشية عرفة** » الحديث ، فهذا القرب كلُّه خاص ، وليس في

الكتاب والسنة قط قربُ ذاته من جميع المخلوقات في كل حال ، فعلم بذلك بُطلان قول الحلولية ، فإنهم عَمَدوا إلى الخاص المقيد فجعلوه عامًا مطلقًا ، كما جعل إخوانهم « الإتحاديَّة » ذلك في مثل قوله : «**كنتُ سمعه** » ، وفي قوله : « **فيأتيهم في صورة غير صورته** » ، وأنَّ الله قال على لسان نبيه : « **سَمِع الله لمن حمده** ».

وكل هذه النصوص حجة عليهم ، فإذا فُصِّلَ تبين ذلك ، فالداعي والساجد يوجه روحه إلى الله ،والروح لها عروج يناسبها ، فتقرب من الله تعالى بلا ريب بحسب تخلصها من الشوائب ، فيكون الله عز وجل منها قريبًا قربًا يلزم من قربها ، ويكون منه قرب آخر كقربه عشية عرفة ، وفي جوف الليل ، وإلى من تقرب منه شبرًا تقرب منه ذراعًا.

وظاهر قوله : ﴿**فَإِنِّي قَرِيبٌ**﴾ [البقرة: ١٨٦] يدل على أنَّ القربَ نَعته ، ليس هو مجرد ما يلزم من قرب الداعي والساجد . ودنوه عشية عرفه هو لما يفعله الحاج ليلتئذ من الدعاء ، والذكر ، والتوبة ، وإلا فلو قُدِّرَ أنَّ أحدًا لم يقف بعرفة لم يحصل منه سبحانه ذلك الدنو إليهم ، فإنه يباهي الملائكة بأهل عرفة ، فإذا قُدِّر أنه ليس هناك أحد لم يحصل ، فدلَّ ذلك على تقربهم إليه بسبب قربه منهم كما دل عليه الحديث الآخر.

والناسُ في آخر الليل يكون في قلوبهم من التوجُّه والتقرب والرِّقة ما لا يوجد في غير ذلك الوقت ، وهذا مناسب لنزوله إلى السماء الدنيا ، وقوله : « **هل من داع ؟ هل من سائل ؟ هل من تائب ؟** ».

ثم إنَّ هذا النزول هل هو كدنوه عشية عرفة مُعلَّق بأفعال ؟ فإن في بلاد الكفر ليس فيهم من يقوم الليل فلا يحصل لهم هذا النزول ، كما أنَّ دُنوه عشية عرفة لا يحصل لغير الحجاج في سائر البلاد ، إذ ليس لها

وقوف مشروع ، ولا مباهاة الملائكة ، وكما أن تَفْتيح أبواب الجنة ، وتغليق أبواب النار ، و تصفيد الشياطين إذا دخل شهر رمضان - إنما هو للمسلمين الذين يصومونه لا الكفار الذين لا يرون له حرمة .

وكذلك اطلاعه على يوم بدر وقوله لهم : « **اعملوا ما شئتم** » كان مختصًا بأولئك أم هو عام ؟ فيه كلام ليس هذا موضعه .

والكلام في هذا « القُرب » من جنس الكلام في نزوله كل ليلة ودُنوه عشية عرفة ، وتكليمه لموسى من الشجرة ، وقوله ﴿ **أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا** ﴾ [النمل: ٨] وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع . . . » [(١)].

* * *

(١) « مجموع الفتاوى » (٥/٢٢٧ - ٢٤٢) باختصار.

الفاطر
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(٩٢)

* المعنى اللغوي :

فَطَرَ الشيءَ يَفْطُرُه فَطْرًا فانفطر ، وفَطَّره : شَقَّه ، وتفطَّر الشيء تشقَّقَ، والفَطْر : الشّقُّ ، وجمعه فُطُور ، وفي التنزيل : ﴿ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ [الملك: ٣] ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴾ [الانفطار: ١] .

وتفطَّرت الأرضُ بالنبات : إذا تصدَّعت ، والفُطْرُ : ما تفطَّر من النبات ، وفَطَرَ نابُ الجمل : أي : انشق فخرج.

وفَطَرَ الله الخلق يفْطُرهم : خلقهم وبدأهم ، والفَطْر والفطْرة : الابتداء والاختراع ، وفي التنزيل العزيز : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [فاطر: ١] (١).

* وروده في القرآن الكريم :

ورد الاسم في القرآن ست مرات ، وهي :

قول الله تعالى ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ ﴾ [الانعام: ١٤]

وقوله : ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا

(١) « الصحاح » (٢/ ٧٨١ ـ ٧٨٢) و« اللسان » (٥/ ٣٤٣٢ ـ ٣٤٣٥) مادة (فطر) ، و «تفسير ابن جرير » (٧/ ١٠٢).

وَالآخِرَةِ﴾ [يوسف: ١٠١] .

وقوله : ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

وقوله : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُوْلِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١] .

وقوله : ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الزمر: ٤٦] .

وقوله : ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[الشورى: ١١].

*** معنى الاسم في حق الله تعالى :**

قال قتادة : ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ :خالق السموات والأرض(١). وكذا قال أبو عبيدة (٢).

وقال ابن جرير : ويعني بقوله : ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ : مُبْتدعها ومُبتدئها وخالقها (٣).

وقال الخطابي : « الفاطر » : هو فَطَرَ الخلق ، أي : ابتدأ خَلْقهم كقوله تعالى : ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٥١] .

ومن هذا قولهم : فَطَرَ نابُ البعير ، وهو أولُ ما يَطْلُعُ .

---

(١) أخرجه عنه ابن جرير (٧/١٠٢) بسند صحيح.

(٢) « مجاز القرآن » (١/١٨٧) .

(٣) « جامع البيان » (٧/١٠١) وانظر : (١٣/٤٧) ، (٢٢/٧٦)، (٢٤/٨) ، (٢٥/٨) فقد ذكر نحوه.

وأخبرني الحسن بن عبد الرحيم قال : حدثنا عبد الله بن زيدان قال : قال أبو رَوْقٍ عن ابن عباس : « لم أكن أعلم معنى ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ حتى اختصم أعرابيان في بئرٍ فقال أحدُهما : أنا فَطَرتُها ، يريد : أنا الذي استَحدثتُ حَفْرها » [1].

وقال الحليمي : (الفاطر) ومعناه : فَاتِقُ المرتتق من السماء والأرض ، قال الله عز وجل : ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠] فقد يكون المعنى : كانت السماء دخانًا فَسوَّاها وأغْطَشَ ليلها وأخرجَ ضُحاها ، وكانت الأرض غير مَدْحُوَّة فَدَحَاها ، وأخرج منها ماءها ومرعاها ، ومن قال هذا قال : ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ومعناه : ألم يعلموا .

وقد يكون المعنى ما روي في بعض الآثار : فَتَقْنَا السماء بالمطر ، والأرض بالنبات .

ثم ذكر أثر ابن عباس السابق ، ثم قال : والاعتراف بالإبداع يقتضي هذا المعنى ويأتي عليه [2].

---

(١) « شأن الدعاء » (ص ١٠٣) ، والأثر الذي ذكره فيه عبد الله بن زيدان لم أعرفه ، إذ لم أجد من يسمى عبد الله بن زيدان إلا ابن بُريد البجلي الكوفي المترجم في « سير أعلام النبلاء » (١٤/ ٤٣٦) وهو متاخر توفي سنة (٣١٣ هـ).

والأثر أخرجه أيضًا ابن جرير (٧/ ١٠١) والبيهقي في « الشعب » (١٦٨٢) وفي سنده إبراهيم بن مهاجر البجلي وابن وكيع وهو سفيان وفيهما ضعف . وعزاه السيوطي في «الدر المنثور » (٣/ ٢٥٥) إلى أبي عبيد في فضائله وابن الأنباري في الوقف والابتداء

(٢) « المنهاج » (١/ ١٩٤) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات الابتداع والاختراع له ، ونقله البيهقي في الأسماء (ص ٢٧) ، ونقل الأصبهاني في « الحجة » (ق ٢٦ ب) قول الحليمي مختصراً ثم قول الخطابي .

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١ ـ أن المبتدئ لخلق السموات والأرض هو الله لا إله إلا هو وحده لا شريك له ، ولا خالق سواه ، وأنه تعالى الذي فَتَقَ السماء بالمطر والأرض بالنبات .

وأنه تعالى هو المبتدئ أيضًا لخلق جميع المخلوقات وقد كانت عَدَمًا قال سبحانه : ﴿ **أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا** ﴾[مريم: ٦٧].

وإذا كان هو المبتدئ للخلق فكيف يُعبد غيره ويُعظَّم سواه ؟! وقد نبَّه الله تعالى عباده إلى ذلك في مواضع من كتابه منها : قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ** ﴾ ثم قال بعد هذا ﴿ **أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤) ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** ﴾ [الأعراف: ٥٤ـ ٥٥].

٢ ـ وقد كان النبي ﷺ يُعَظِّمُ ربَّه بهذا الاسم ويدعوه ، كما قال أبو سلمة بن عبد الرحمن :سألت عائشة أم المؤمنين: بأي شيءٍ كان نبي الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل ؟ قالت : كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: « **اللهم ربَّ جِبرائيلَ وميكائيلَ وإسرافيل ، فاطرَ السمواتِ والأرضِ ، عالمَ الغيبِ والشَّهَادَةَ أنتَ تحكمُ بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهْدِني لِما اخْتُلِف فيه من الحقِّ بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى طراطٍ مستقيم** »[1].

---

(١) رواه مسلم في كتاب الصلاة (١/ ٥٣٤).

وكذا في دعاء التَّوجُّه الطويل : فعن علي بن أبي طالب عن رسول الله ﷺ إنه كان إذا قام إلى الصلاة قال : « **وجَّهتُ وجْهِيَ للذي فَطَرَ السموات والأرضَ حَنيفًا وما أنا من المشركين ، إنَّ صلاتي ونُسكي ومَحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنَا من المسلمين اللهم أنتَ الملك** ... »[1].

فقوله : « **وجهت وجهي** » أي : قصدت بعبادتي الذي فطر السموات والأرض.

* * *

---

(١) « المصدر السابق ».

النَّاصرُ ـ النَّصير
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(٩٣)

* المعنى اللغوي :

نَصَرَهُ يَنْصُرُه نَصْرًا إذا أعَانه على عَدُوِّه ، والاسم النُّصْرة.

والنَّصِيرُ : النَّاصر ، والجمع : الأنصار ، مثل شريف وأشراف .

واستَنْصَرَهُ على عدوه ، أي : سأله أن يَنْصُرَه عليه.

وتَنَاصروا : نَصَرَ بعضُهم بعضًا ، والتَّنَاصر : التعاون على النَّصر.

وانْتَصَرَ منه : انتقم [(١)].

وقال الراغب : النَّصْرُ والنُّصْرةُ : العَوْن [(٢)].

* وروده في القرآن الكريم :

ورد اسمه (النَّاصر) مرة واحدة بصيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿**بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ**﴾ [آل عمران: ١٥٠].

أما اسمه (النَّصير) فقد ورد أربع مرات ، هي :

قوله تعالى : ﴿**وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ**﴾ [الأنفال: ٤٠]

---

(١) « الصحاح » (٢/٨٢٩) و « اللسان » (٦/٤٤٣٩ ـ ٤٤٤١) مادة (نصر).

(٢) « المفردات » (ص ٤٩٥).

وقوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيراً﴾ [النساء: ٤٥].

وقوله تعالى : ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

وقوله تعالى : ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيراً﴾ [الفرقان: ٣١].

*** معنى الاسم في حق الله تعالى :**

قال ابن جرير : ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ وليكم وناصركم على أعدائه الذين كفروا ﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ لا مَنْ فررتم إليه من اليهود وأهل الكفر بالله !! فبالله الذي هو ناصركُم ومولاكُم فاعْتصموا ، وإياه فاستنصروا دون غيره ممن يبغيكم الغوائل ويرصدكم بالمكاره [١].

وقال في قوله :﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيراً﴾ : وحَسبكم بالله ناصرًا لكم على أعدائكم وأعداء دينكم ، وعلى من بَغَاكم الغَوائل ، وبَغَى دينكم العِوج [٢].

وقال :﴿ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ : وهو النَّاصر [٣].

وقال :﴿وَنَصِيراً﴾ يقول : ناصرًا لك على أعدائك ، يقول : فلا يَهولَنَّك أعداؤك من المشركين ، فإني ناصِرُك عليهم فاصْبر لأمري ، وامضِ لتبليغ رسالتي إليهم [٤].

(١) «جامع البيان» (٣/ ٨٠ ـ ٨١)

(٢) المصدر السابق (٥/٧٥).

(٣) المصدر السابق (٩/١٦٣).

(٤) المصدر السابق (١٩/٨).

وقال الحليمي : (الناصر) هو الميُسِّرُ للغلبة .

و (النصير) : وهو الموثوقُ منه بأنْ لا يُسْلِم وليَّه ولا يخذله [1].

وقال القرطبي : وله معان منها : العَوْن ، يقال : نصره الله على عدوه ينصره نصراً فهو ناصر ونصير للمبالغة ، والاسم النُّصرة ، والنصير الناصر [2].

وقال الأصبهاني : « النصير والناصر » بمعنى ، ومعناه : يَنصرُ المؤمنين على أعدائهم ، ويُثبِّتُ أقدامهم عند لقاء عدوهم ، ويُلقي الرُّعب في قلوب عدوهم [3].

وقال ابن كثير : ﴿ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ : يعني نِعم الوَلي ونِعم النَّاصر من الأعداء [4].

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١ ـ إن الله تعالى هو (النَّصير) الذي ينصر رسله وأنبياءه وأتباعهم من المؤمنين ، وأنه تعالى مصدر النصر الحقيقي ، فالمنصور : مَنْ نَصَره، والمخذول المهزوم : مَنْ خَذَله.

قال القرطبي : فيجب على كلِّ مكلف أنْ يعتقد أن النصر على الإطلاق إنما هو لله تعالى ، كما قال :﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ﴾ [آل عمران : ١٦٠] وأن الخذلان منه [1].

---

(١) « المنهاج » (١/ ٢٠٥) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه ، ونقله البيهقي في « الأسماء » (ص ٧٠).

(٢) « الكتاب الأسنى » (ورقة ٣٣٨ ب).

(٣) « الحجة » (ورقة ٢٤ ب).

(٤) « تفسير القرآن » (٣/ ٢٣٧).

(١) فهل يعي هذا المسلمون!!فيتركون الالتجاء إلى الشرق والغرب ـ طلبًا للنصر والقوة =

ولا يجوز أن يقال منها : خاذل ، لأنه لم يرد به إذن .

والنصر يستدعي ناصرًا ومَنْصُورًا ومنصورًا عليه ، فتأييد الله أولياءه المؤمنين بالملائكة نصرٌ لهم على أعدائهم ، كما نَصَرَ نبيه عليه السلام وصحبه يوم بدر بالملائكة، فيكون المَلَكُ على هذا منصورًا على أعداء المؤمنين ، وأعداءُ المؤمنين أعداءٌ لله ولملائكته ، وقد يكون نصر الله للمَلَكِ عونه على عبادته وطاعته ، إذ ليس له عدو في مقابلته لأنه نورٌ كله فلا ظُلْمة تجاذبُه !

فهذه النصرة لا تستدعي منصورًا عليه ، والإنسان يُجَاذبه عدوه إبليس والهوى ، فإذا نَصَره الله نصرًا باطنًا فعلى هؤلاء ينصره ، وإذا نصره نصرًا ظاهرًا فينصره على أعدائه الكافرين ، وجميع الظالمين ، فإن أصاب الظَّفَر بالعدو الظاهر فهو المنصور ، وإنْ ثبت على دين الله وصبر فكان للكافر الظفر ؛ فالمؤمن أيضًا منصور ، لأن صبره على قتال عدوه وثبات نفسه في دفع الهوى ـ الذي من طبعه الخِذلان ـ هو النصر ، إلا أنَّ هذا نصرٌ باطن ، وثواب عليه قائم ، وقد حصل له النصر من الله على عدوه إبليس الذي يَرومُ خِذلان الإنسان [1].

٢ ـ فهذه نصرة الله لعباده ، أما نصرة العبد لربه فهي عبادته والقيام بحقوقه ورعاية عهوده واجتناب نهيه ، قال تعالى : ﴿**إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾ [محمد: ٧].

قال القرطبي : فإن قيل كيف قال تعالى : ﴿ **إِن تَنصُرُوا اللَّهَ**

= والعزة ـ ويلجأون إلى المولى النصير سبحانه وتعالى ، ويصطلحون معه بدلاً من الاصطلاح مع أعدائه ؟ !!

(١) « الكتاب الأسنى » (ورقة ٣٤٠ أ ، ب)

يَنصُرْكُمْ﴾ والنصر هو العون ، والله سبحانه لا يجوز عونه قولاً ولا يتصور فعلاً ؟

فالجواب : من أوجه :

أحدها : إن تنصروا دين الله بالجهاد عنه ينصركم .

الثاني : إن تنصروا أولياء الله بالدعاء .

الثالث : إن تنصروا نبي الله وأضافَ النصر إلى الله تشريفًا للنبي ﷺ وأوليائه وللدين ، كما قال تعالى : ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] فأضاف القرض إليه تسليةً للفقير .

وجاء فعل « النصر » في مواضع كثيرة ـ صفات الأفعال ـ مضافًا [(١)] إلى من خصَّهُ الله بالنُّصرةِ وهم : الملائكة والمؤمنون لا غير ، فإنَّ حقيقة النَّصر المعونة بطريق التَّولي والمحبة، والمعونة على الشر لا تُسمى نصرًا ، ولذلك لا يقال في الكافر إذا ظَفَرَ بالمؤمن أنه منصورٌ عليه ، بل يقال هو مُسَلَّطٌ عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٩٠].

وقوله عليه السلام إذْ ذكر أئمةَ الجور في آخر الزمان « **وينصرون على ذلك** » ،أراد أنهم ينصرون على الكافرين ، ويكون نصر الله تعالى لدينه راجعًا له ، وإبقاء لكلمته ، كما قال عليه السلام : « **إن الله يؤيدُ هذا الدِّين بالرَّجُلِ الفَاجر** » [(٢)].

---

(١) في الأصل : «مضافٌ» وهو خطأ.

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ١٧٩) ، (٧/ ٤٧١) ، (١١/ ٤٩٨ ـ ٤٩٩) ومسلم في الإيمان (١/ ١٠٥ ـ ١٠٦) عن الزهري عن ابن المسيب عن أبي هريرة قال : شهدنا مع رسول الله ﷺ حنينًا فقال لرجلٍ ممن يُدْعى بالإسلام : « **هذا من أهل النار** ...» الحديث .

ولو وردت لفظة « النَّصر » للكافر ، لكان معناه التسليط والعون البشري ، وإنما حقيقة النصر ما ذكرناه أولاً ،وقد يحمل قوله عليه السلام في أئمة الجور أنهم ينصرون، أي: يعطون الدنيا ويملأ لهم فيها، يقال : نَصره ينصره إذا أعطاه، ومن كلام بعضِ العرب : انصروني نصركم الله ، أي : أعطوني أعطاكم الله (١).

وقال الأصبهاني : فينبغي لكلٍّ أحدٍ إذا رأى معروفًا أن يأمرَ به ، وإذا رأى منكرًا أن ينهى عنه ، ويعتقد أنَّ الله ينصره ، قال تعالى : ﴿ **إن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ** ﴾ [محمد : ٧] وكلٌّ من يريد بقوله وعمله رضى الله ينصره الله ويُعينه ، فينبغي إذا رأى منكرًا أن يُغيره بيده إن قَوِيَ ، وإلا بلسانه إن ضَعُفَ ، فإن عجز عن الأمرين أنكر بقلبه وذلك أضعفُ الإيمان (٢).

والله تعالى قادرٌ على نصرة دينه فإنه نصر عبده وأعزَّ جنده وهَزَم الأحزابَ وحده ،فإنه القوي القادر على كل شيء،ولكنه ابتلى عباده بذلك ليَظهر من ينصر دينه وشرعه ممن يتولى عن نصرته،قال سبحانه: ﴿ **ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ** ﴾ [محمد: ٤].

وقال : ﴿ **إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ** ﴾ [التوبة: ٤٠].

٣ ـ أوضح الله تعالى لعباده أنه لا ناصرَ لهم دونه ، ولا معين لهم سواه وذلك في آيات كثيرة ، لتتوجه قلوبُهم له ، وأكفُّهم بالضَّراعةِ إليه.

قال سبحانه: ﴿ **وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ** ﴾ [البقرة: ١٠٧]، وقد تكررت في القرآن تأكيدًا لهذا المعنى.

(١) « الكتاب الأسنى » (ورقة ٣٣٩ ب ـ ٣٤٠ أ)

(٢) « الحجة » (ورقة ٢٤ ب).

وقال سبحانه : ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ ﴾ [الملك: ٢٠].

وقال : ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران: ١٢٦]. وأيقن بذلك عباده المؤمنون ، فقال نوح عليه السلام لقومه حين عابوا عليه اتباع الفقراء والضعفاء لدعوته ، وأمروه بطردهم: ﴿ وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ [هود: ٣٠] .

وقال صالح عليه السلام: ﴿ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ﴾ [هود: ٦٣].

وقال الرجل المؤمن من قوم فرعون مُذكرًا قومه بعاقبة كفرهم وإعراضهم عن الإيمان بالله ورسوله ﴿ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا ﴾ [غافر: ٢٩] .

وقال تعالى عن قوم نوح عليه السلام : ﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴾ [نوح: ٢٥] .

ولما خسف الله تعالى بقارون المختال الكفور قال : ﴿ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ [القصص: ٨١] .

وكذا لما أحاط الله عز وجل بمال الرجل الذي كفر بربه وبالبعث وأهلك بستانه ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٤٢] ثم قال تعالى : ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾ [الكهف: ٤٣] .

٤ ـ كان ﷺ إذا غزَا قال : « **اللهم أنتَ عَضُدِي ونَصيري ، بكَ أحُولُ ، وبك أصُولُ ، وبك أُقَاتل** »[1].

---

(١) حديث صحيح: أخرجه أحمد (٣/ ١٨٤) وأبو داود (٣/ ٢٦٢٣) والترمذي (٥/ ٣٥٨٤) =

قال الترمذي : قوله « عضدي » : يعني عوني .

وقال الخطابي : قوله « أحُول » معناه أحتال ، قال ابن الأنباري : «الحَوْل» معناه في كلام العرب : الحيلة ، يقال : ما للرجل حول وما له محالة ، قال : ومنه قولك : لا حول ولا قوة إلا بالله ، أي: لا حيلة في دفع سوء ، ولا قوة في دَرْكِ خيرٍ إلا بالله .

وفيه وجه آخر : وهو أن يكون معناه المنع والدفع ، من قولك : حَالَ بين الشيئين ، إذا منع أحدهما عن الآخر ، يقول : لا أمنع ، ولا أدفع إلا بك [1].

٥ ـ وكان يقول في دعائه: « **لا إله إلا الله وحده ، أعزَّ جُنْدَه ، ونَصَرَ عَبده ، وغَلَبَ الأحزابَ وحدهُ ، فلا شيء بعده** » [2].

ولما ثَقُلَتْ على أصحاب رسول الله ﷺ شروط « الحُديبية » قال عمر بن الخطاب : فأتيت نبي الله ﷺ فقلت : ألستَ نبي الله ﷺ ؟ قال: بلى ، قلت : ألسنا على الحقِّ وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى ، قلت : فلم نُعْطي الدَّنِيَّة في ديننا إذًا ؟! قال: « **إني رسول الله ولست أعْصيه ، وهو نَاصِري** ...» [3].

= والنسائي في « عمل اليوم والليلة » (٦٠٤) وابن حبان (١٦٦١ ـ موارد).

عن المثنى بن سعيد عن قتادة عن أنس قال :« **كان** ...» الحديث

قال الترمذي : حسن غريب .

قلت : ورجاله ثقات ، المثنى بن سعيد هو الضبعي أبو سعيد البصري ، قال أحمد وابن معين وأبو زرعة وأبو حاتم وأبو داود والعجلي : ثقة .

(١) « معالم السنن » (٢/ ٢٦٧).

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٤/ ٢٠٨٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٣٣٠) والبخاري في الشروط (٥/ ٣٣٢ ـ ٣٣٣).

المستعان

جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٩٤)

* المعنى اللغوي :

العَوْنُ : الظهيرُ على الأمر ، الواحد والاثنان والجمع والمؤنث فيه سواء ، وقد حكى في تكسيره : أعوان .

وتقول : أعنْتُه إعانةً ، واستَعَنْتُهُ واستعنتُ به فأعانني [١].

والتعاون : التظاهر قال تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ [المائدة: ٢] .

والاستعانة : طَلَبُ العَوْنِ قال تعالى : ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾[٢] [البقرة: ٤٥] .

* وروده في القرآن الكريم :

ورد الاسم مرتان: في قوله عز وجل : ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف: ١٨] .

وقوله : ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٢] .

---

(١) « الصحاح » (٦/٢١٦٨ ـ ٢١٦٩) ، « اللسان » (٤/٣١٧٩ ـ ٣١٨٠) مادة (عون) .

(٢) « المفردات » للراغب (ص ٣٥٤).

* معنى الاسم في حق الله تعالى :

قال ابن جرير: وقوله: ﴿ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف:١٨] : يقول والله أستعين على كفايتي شرَّ ما تصفون من الكذب [١].

وقال في قوله: ﴿ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء:١١٢] : يقول جلَّ ثناؤه : وقل يا محمد وربُّنا الذي يرحم عباده ويعمهم بنعمته الذي أستعينه عليكم فيما تقولون وتصفون ، من قولكم لي فيما أتيتكم به من عند الله: ﴿ هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣] وقولكم : ﴿ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ [الأنبياء: ٥] وفي كذبكم على الله جلَّ ثناؤه وقيلكم :﴿ اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴾ [الأنبياء: ٢٦] فإنه هينٌ عليه تغيير ذلك ، وفَصْلُ ما بيني وبينكم بتعجيل العقوبة لكم على ما تصفون من ذلك [٢].

وفي « الأسنى » : قال ابن العربي : وهذا الاسم لم يرد في حديث أبي هريرة ولا ذكره علماؤنا ، وهو من أشرف الأسماء لشرف متُعلقه ، وقد تَضَمَّنت الفاتحةُ معناه فقال : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥].

قلت ـ أي القرطبي: قوله : ولا ذكره علماؤنا ، قد ذكره غيرُ واحد منهم الأُقْليشي .

فالمستعان معناه : الذي لا يَطْلُبُ العون ، بل يُطْلَبُ منه ، والعون الظهير على الأمر ، والجمع الأعْوان والمعونة والإعانة ، يقال : ما عندك معونة ولا مَعَانة ولا عَوْنَ ، وتقول : ما أخْلاني فلانٌ من معاونة ، وهو جمع معونة ، ورجل مِعْوَان كثيرُ العونِ للناس ، واستعنت بفُلان فأعانَني

(١) « جامع البيان » (١٢/ ٩٨).

(٢) المصدر السابق (١٧/ ٨٤ ـ ٨٥).

وعاونَنَي .

والله سبحانه بخلاف ذلك ، غَنيٌّ عن الظهير والمُعين والشريك والوزير ، بل كل إعانةٍ وعَوْنٍ فمنه وبه سبحانه لا إله إلا هو .

وهو مُسْتفعَل من العون ، وهو صفٌ ذاتي لله تعالى راجعٌ إلى صفةِ القوة .

وفيه معنى الإِضافة الخاصة لمن استعانه من عباده على طاعته [1].

❋ من آثار الإِيمان بهذا الاسم :

١ ـ الله تبارك وتعالى هو (المُسْتعانُ) الذي يُطلب منه العون والقوة على فعلِ الطاعات وترك المحرمات ، وجلب المنافع ودفع المضرات.

فهو سبحانه يُعين عباده ولا يستعين بأحد منهم لا في الأرض ولا في السموات قال تعالى : ﴿**قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ**﴾ [سبأ : ٢٢] .

قال ابن كثير : أي : وليس لله من هذه الأنداد من ظهير يستظهر به في الأمور ، بل الخلق كلهم فقراءُ إليه ، عبيدٌ لديه [2].

وقال سبحانه : ﴿**وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا**﴾ [الإسراء : ١١١] .

فقد حَمِدَ الله تبارك وتعالى نَفسَه المقدسة ، بأنه الأحدُ الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كُفُوًا أحد ، وأنه ليس له من يشاركه في

---

(١) الكتاب الأسنى (٢/ورقة ٤٢٥ ب ـ ٤٢٦ أ).

(٢) « تفسير القرآن العظيم » (٣/٥٣٦) .

الملك ولا في الخلق ولا في الأمر ، وأنه ليس بذليل فيحتاج إلى أن يكون له وليٌّ أو وزير أو مشير ، بل هو الله الواحدُ القهَّار ، الحي القيوم بنفسه فلا يحتاج في حياته وقيامه إلى أحد من خلقه ، وكلٌّ خلقه بحاجة إلى الاستعانة به ، بل لا قيام ولا حياة ولا وجود لهم إلا به وبقدرته وقوته لا شريك له .

٢ ـ وللإمام المحقق المدقق ابن القيم رحمه الله تعالى كلام جامع نفيس في « الاستعانة » وتعلقها بالعبادة وأنواع الناس في هذين الأصلين العظيمين ، إذ يقول :

و (الاستعانة) تجمع أصلين : الثقة بالله ، والاعتماد عليه ، فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس، ولا يعتمد عليه في أموره ـ مع ثقته به ـ لاستغنائه عنه . وقد يعتمد عليه ـ مع عدم ثقته به ـ لحاجته إليه ، ولعدم من يقوم مقامه ، فيحتاج إلى اعتماده عليه ، مع أنه غير واثق به .

و (التوكل) معنى يلتئم من أصلين : من الثقة ، والاعتماد ، وهو حقيقة ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ [الفاتحة: ٥] وهذان الأصلان ـ وهما التوكل ، والعبادة ـ قد ذُكرا في القرآن في عدة مواضع ، قرن بينهما فيها، هذا أحدها .

الثاني : قول شعيب ﴿ **وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ** ﴾ [هود : ٨٨] .

الثالث : قوله تعالى : ﴿ **وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ** ﴾ [هود: ١٢٣] .

الرابع : قوله تعالى حكاية عن المؤمنين : ﴿ **رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ** ﴾ [الممتحنة: ٤] .

الخامس : قوله تعالى :﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴿٨﴾ رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴾ [المزمل: ٨ـ ٩] .

السادس : قوله تعالى : ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٠] .

فهذه ستة مواضع يجمع فيها بين الأصلين ، وهما ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : ٥] .

وتقديم (العبادة) على (الاستعانة) في الفاتحة من باب تقديم الغايات على الوسائل ، إذ « العبادة » غاية العباد التي خلقوا لها ، و«الاستعانة» وسيلة إليها . ولأن ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ متعلق بألوهيته واسمه (الله) و ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ متعلق بربوبيته واسمه (الرب) فقدم ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ على ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ كما قدم اسم (الله) على (الرب) في أول السورة، ولأن ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ قسم الرب ، فكان من الشطر الأول ، الذي هو ثناءٌ على الله تعالى ، لكونه أولى به ، و ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قسم العبد . فكان الشطر الذي له ، وهو ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦] إلى آخر السورة.

ولأنَّ « العبادة » المطلقة : تتضمن « الاستعانة » من غير عكس ، فكل عابد لله عبودية تامة : مُستعين به ولا ينعكس ، لأن صاحب الأغراض والشهوات قد يستعين به على شهواته ، فكانت العبادة أكمل وأتم ، ولهذا كانت قسمَ الرب .

ولأن (الاستعانة) جزءٌ من (العبادة) من غير عكس ، ولأن (الاستعانة) طلب منه ، و (العبادة) طلب له.

ولأن (العبادة) لا تكون إلا من مخلص ، و (الاستعانة) تكون من مخلص ومن غير مخلص .

ولأن (العبادة) حَقُّه الذي أوجبه عليك ، و « الاستعانة » طلب العون على العبادة . وهو بيان صدقته التي تصدق بها عليك . وأداء حقه : أهم من التعرض لصدقته.

ولأن « العبادة » شكر نعمته عليك ، والله يحب أن يشكر ، و«الإعانة» فعله بك وتوفيقه لك . فإذا التزمت عبوديته ، ودخلت تحت رقِّهَا أعانك عليها . فكان التزامها والدخول تحت رقها سببًا لنيل الإِعانة، وكلما كان العبد أتم عبوديته كانت الإِعانة من الله له أعظم .

و « العبودية » محفوفةٌ بإعانتين : إعانة قبلها على التزامها والقيام بها، وإعانة بعدها على عبودية أخرى . وهكذا أبدًا ، حتى يقضي العبد نَحْبه .

ولأن ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ له ، و ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ به ، وما له مقدم على ما به ، لأن ما له متعلق بمحبته ورضاه ، وما به متعلق بمشيئته ، وما تعلق بمحبته أكمل مما تعلق بمجرد مشيئته ، فإن الكون كله متعلق بمشيئته ، والملائكة والشياطين والمؤمنون والكفار ، والطاعات والمعاصي ، والمتعلق بمحبته : طاعتهم وإيمانهم . فالكفار أهل مشيئته، والمؤمنون أهل محبته ، ولهذا لا يستقر في النار شيء لله أبدًا . وكل ما فيها فإنه به تعالى وبمشيئته.

فهذه الأسرار يتبين بها حكمة تقديم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وأما تقديم المعبود والمستعان على الفعلين ، ففيه : أدبهم مع الله

بتقديم اسمه على فعلهم ، وفيه الاهتمام وشدة العناية به ،وفيه الإِيذان بالاختصاص ، المسمى بالحصر ، فهو في قوة : لا نعبد إلا إياك ، ولا نستعين إلا بك ، والحاكم في ذلك ذوق العربية والفقه فيها ، واستقراء موارد استعمال ذلك مقدمًا ،وسيبويه نص على الاهتمام ،ولم ينف غيره.

[أقسام الناس في العبادة والاستعانة] :

إذا عرفت هذا،فالناس في هذين الأصلين ـ وهما العبادة والاستعانة ـ أربعة أقسام :

أجلُّها وأفضلها : أهل العبادة والاستعانة بالله عليها ، فعبادة الله غاية مرادهم وطلبهم منه أن يعينهم عليها ، ويوفقهم للقيام بها ، ولهذا كان من أفضل ما يُسأل الرب تبارك وتعالى : الإِعانةَ على مرضاته ، وهو الذي علَّمه النبي ﷺ لحبِّه معاذ بن جبل رضي الله عنه ، فقال : « **يا معاذ ، والله إني لأحبك ، فلا تنس أن تقول دبُرَ كل صلاة : اللهمَّ أعنِّي على ذِكرك وشُكرك وحسن عبادتك** ».

فأنفع الدعاء : طلبُ العون على مرضاته ، وأفضل المواهب : إسعافه بهذا المطلوب ، وجميع الأدعية المأثورة مدارها على هذا ، وعلى دفع ما يضاده ، وعلى تكميله وتيسير أسبابه ، فتأملها .

وقال شيخ الإِسلام ابن تيمية ـ قَدَّس الله روحه ـ : فتأملت أنفع الدعاء: فإذا هو سؤال العون على مرضاته ، ثم رأيته في الفاتحة في ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ [الفاتحة : ٥] .

ومقابل هؤلاء: القسم الثاني : وهم المعرضون عن عبادته والاستعانة به ، فلا عبادة ولا استعانة ، بل إنْ سأله أحدهم واستعان به، فعلى حظوظه وشهواته ، لا على مرضاة ربه وحقوقه . فإنه سبحانه يسأله من

في السموات والأرض : يسأله أولياؤه وأعداؤه ويمُدُّ هؤلاء وهؤلاء ، وأبغض خلقه : عدوه إبليس ، ومع هذا فقد سأله حاجة فأعطاه إياها ، ومتعه بها ، ولكن لما لم تكن عونًا له على مرضاته ، كانت زيادةً له في شقْوته ، وبُعده عن الله وطرده عنه ، وهكذا كل من استعان به على أمر وسأله إياه ، ولم يكن عونًا على طاعته : كان مبعدًا له عن مرضاته ، قاطعًا له عنه ولا بد .

وليتأمل العاقل هذا في نفسه وفي غيره . وليعلم أنَّ إجابة الله لسائليه ليست لكرامة السائل عليه ، بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها له ، وفيها هلاكه وشقوته ، ويكون قضاؤها له من هوانه عليه ، وسقوطه من عينه ، ويكون منعه منها لكرامته عليه ومحبته له ، فيمنعه حمايةً وصيانة وحفظًا لا بخلاً ، وهذا إنما يفعله بعبده الذي يريد كرامته ومحبته ، ويعامله بلطفه . فيظن ـ بجهله ـ أن الله لا يحبه ولا يكرمه ، ويراه يقضي حوائج غيره ، فيسيء ظنه بربه ! وهذا حشو قلبه ولا يشعر به ، والمعصوم من عصمه الله ، والإنسان على نفسه بصيرة ، وعلامة هذا : حمله على الأقدار . وعتابه الباطن لها ، كما قيل :

وعَاجزُ الرأى مِضياعٌ لفُرصته ... حتى إذا فاتَ أمرٌ عَاتَبَ القَدَرا

فوالله لو كشف عن حاصله وسره لرأى هناك معاتبة القدر واتهامه ، وأنه قد كان ينبغي أن يكون كذا وكذا ، ولكن ما حيلتي ، والأمر ليس إليّ ؟ والعاقل خصم نفسه ، والجاهل خصم أقدار ربه .

فاحذر كل الحذر أن تسأله شيئًا معينًا خِيرته وعاقبته مغيبة عنك ،إذا لم تجد من سؤاله بُدًا ، فعلِّقه على شرطِ علمه تعالى فيه الخيرة ، وقدم بين يدي سؤالك الاستخارة ، ولا تكن استخارة باللسان بلا معرفة ، بل

استخارة من لاعلم له بمصالحه ، ولا قدرة له عليها ، ولا اهتداء له إلى تفاصيلها ، ولا يملك لنفسه ضراً و لا نفعًا ، بل إن وُكِل إلى نفسه هَلَكَ كل الهلاك ، وانفرط عليه أمره.

وإذا أعطاك ما أعطاك بلا سؤال: تسأله أن يجعله عونًا لك على طاعته وبلاغًا إلى مرضاته ، ولا يجعله قاطعًا لك عنه ، ولا مبعداً عن مرضاته.

القسم الثالث : من له نوع عبادة بلا استعانة ، وهؤلاء نوعان :

أحدهما : القدرية ، القائلون بأنه قد فعل بالعبد جميع مقدوره من الألطاف ، وأنه لم يبق في مقدوره إعانة له على الفعل ، فإنه قد أعانه بخلق الآلات وسلامتها ، وتعريف الطريق ، وإرسال الرسل ، وتمكينه من الفعل ، فلم يبق بعد هذا إعانة مقدورة يسأله إياها ، بل قد سَاوَى بين أوليائه وأعدائه في الإعانة ! فأعان هؤلاء كما أعان هؤلاء ولكن أولياءه اختاروا لنفوسهم الإيمان ، وأعداءه اختاروا لنفوسهم الكفر ، من غير أنْ يكون الله سبحانه وفَّقَ هؤلاء بتوفيق زائد ، أوجب لهم الإيمان ، وخذل هؤلاء بأمر آخر ، أوجب لهم الكفر !

فهؤلاء لهم نصيب منقوص من العبادة ، لا استعانة معه ، فهم موكولون إلى أنفسهم ، مسدود عليهم طريق الاستعانة والتوحيد . قال ابن عباس رضي الله عنهما : الإيمان بالقدر نظام التوحيد ، فمن آمن بالله وكذب بقدره نقض تكذيبه توحيده.

النوع الثاني : مَنْ لهم عباداتٌ وأوراد ، ولكن حظهم ناقصٌ من التوكل والاستعانة ، لم تتسع قلوبهم لارتباط الأسباب بالقدر ، وتلاشيها في ضمنه ، وقيامها به ، وأنها بدون القدر كالموات الذي لا تأثير له ، بل كالعدم الذي لا وجود له ، وأن القدر كالروح المحرك لها ، والمعول

على المحرك الأول.

فلم تنفذ قوى بصائرهم من المتحرك إلى المحرِّك ، ومن السبب إلى المسبب ، ومن الآلة إلى الفاعل ، فضعُفت عزائمهم وقصرت هممهم ، فقل نصيبهم من ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ولم يجدوا ذوق التعبد بالتوكل والاستعانة ، وإن وجدوا ذوقه بالأوراد والوظائف.

فهؤلاء لهم نصيبٌ من التوفيق والنفوذ والتأثير ، بحسب استعانتهم وتوكلهم ، ولهم من الخذلان والضعف والمهانة والعجز بحسب قلة استعانتهم وتوكلهم ، ولو توكل العبدُ على الله حقَّ توكله في إزالة جبل عن مكانه ، وكان مأمورًا بإزالته ، لأزاله.

[معنى التوكل والاستعانة] :

فإن قلت : فما معنى التوكل والاستعانة ؟

قلت : هو حَالٌ ينشأ عن معرفته بالله ، والإيمان بتفرده بالخلق ، والتدبير والضر والنفع ، والعطاء والمنع ، وأنه ما شاء كان ، وإن لم يشأ الناس ، وما لم يشأ لم يكن ، وإن شاءه الناس ، فيوجبُ له هذا اعتمادًا عليه ، وتفويضًا إليه ، وطمأنينة به ، وثقةً به، ويقينًا بكفايته لما توكل عليه فيه ، وأنه مَلِيٌّ به ، ولا يكون إلا بمشيئته ، شاءه الناس أَمْ أَبَوْهُ.

فتشبه حالته حالة الطفل مع أبويه فيما ينويه من رغبة ورهبة هما مَلِيَّان بهما ، فانظر في تجرد قلبه عن الالتفات إلى غير أبويه ، وحبس هَمِّه على إنزال ما ينويه بهما . فهذه حال المتوكل ، ومن كان هكذا مع الله ، فالله كافيه ولا بد ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق: ٣] أي: كافيه . و« الحسب » الكافي ، فإن كان ـ مع هذا ـ من أهل التقوى كانت له العاقبة الحميدة ، وإن لم يكن من أهل التقوى فهو:

القسم الرابع : وهو من شهد تفرد الله بالنفع والضر ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ولم يَدُرْ مع ما يحبه ويرضاه . فتوكل عليه ، واستعان به على حظوظه وشهواته وأغراضه ، وطلبها منه ، وأنزلها به . فقضيت له ، وأُسْعِفَ بها ، سواء كانت أموالاً أو رياسة أو جاهًا عند الخلق ، أو أحوالاً من كشف وتأثير وقوة وتمكين ، ولكن لا عاقبة له ، فإنها من جنس المُلْك الظاهر والأموال ، لا تستلزم الإِسلام ، فضلاً عن الولاية والقرب من الله ، فإن الملك والجاه والمال والحال مُعطاةٌ للبر والفاجر ، والمؤمن والكافر ، فمن استدلَّ بشيء من ذلك على محبة الله لمن آتاه إياه ورضاه عنه ، وأنه من أوليائه المقربين ، فهو من أجهل الجاهلين ، وأبعدهم عن معرفة الله ومعرفة دينه ، والتمييز بين ما يحبه ويرضاه ، ويكرهه ويسخطه ، فالحال من الدنيا ، فهو كالملك والمال ، إنْ أعانَ صاحبه على طاعة الله ومرضاته ، وتنفيذ أوامره : ألحقه بالملوك العادلين البررة ، وإلا فهو وبالٌ على صاحبه ، ومبعد له عن الله ، ومُلْحِقٌ له بالملوك الظلمة ، والأغنياء الفجرة » اهـ [١] .

* * *

(١) «مدارج السالكين بين منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ » (١/ ٧٥ ـ ٨٢) . باختصار .

ذو المعارج
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(٩٥)

*** المعنى اللغوي :**

عَرَجَ في الدَّرَجَةِ والسُّلَّم يَعْرُجُ عُرُوجًا ، أي : ارتقى ، وعرج في الشيء وعليه يَعْرِج ويَعْرُج عروجًا أيضًا : رَقِيَ ، وعَرَجَ الشيء فهو عَرِيج : ارتفع وعلا .

وفي التنزيل : ﴿ تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ [المعارج: ٤] أي : تصعد .

والمَعْرج : المصْعَدُ والطريق الذي تصعد فيه الملائكة .

وعُرِجَ بالروح والعمل : صُعِد بهما [١] .

*** وروده في القرآن الكريم :**

ورد مرة واحدة في قوله عز وجل ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ۝٢ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾ [المعارج: ١ - ٣] .

*** معنى الاسم في حق الله تعالى :**

قال قتادة : ﴿ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾[المعارج :٣] ذي الفواضل والنعم[٢] .

---

(١) « الصحاح » (١/٣٢٨ ـ ٣٢٩) ، « اللسان » (٤/٢٨٦٩ ـ ٢٨٧١) مادة (عرج) ، و « شأن الدعاء » (ص ١٠٤) .

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٩/٤٤) عنه بسند حسن. =

وقال الفراء : وقوله : ﴿ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾ : من صفة الله عز وجل ، لأن الملائكة تعرجُ إلى الله عز وجل فوصف نفسه بذلك [(١)].

وقال ابن جرير : وقوله : ﴿ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾ يعني ذا العُلُوِّ والدرجاتِ والفواضل والنعم [(٢)].

وقال الخطَّابي : (ذو المعارج) : وهو الذي يُصْعَدُ إليه بأعمالِ العباد ، وإليه يُصعد بأرواحِ المؤمنين [(٣)].

وقال الحُلَيمي : (ذو المعارج) : وهو الذي إليه يُعْرجُ بالأرواح والأعمال . وهذا أيضًا يدخل في باب الإِثبات والتوحيد والإِبداع والتدبير، وبالله التوفيق [(٤)].

* من آثار الإِيمان بهذا الاسم :

١ - الله تبارك وتعالى هو الربُّ الملك الخالق المدبر (ذو المعارج) الذي تعرج إليه الملائكة والأرواح ، وتصعد إليه الأعمال والأقوال الصالحة الطيبة .

قال أبو القاسم الأصبهاني : ومن أسمائه (ذو المعارج) ومعناه : تعرج أعمال الخلق إليه كما قال عز وجل : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [فاطر: ١٠] فملائكة النهار تعرجُ بأعمالكم بالنهار ،

= وأخرجه عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿ذِي الْمَعَارِجِ ﴾ يقول : العلو والفواضل.

(١) « معاني القرآن » (٣/ ١٨٤).

(٢) « جامع البيان » (٢٩/ ٤٤) .

(٣) « شأن الدعاء » (ص١٠٤).

(٤) « المنهاج » (١/ ٢١٠) وذكره ضمن فصل : ولله جل ثناؤه أسماء سوى ما ذكرنا تدخل في أبواب مختلفة ، ونقله البيهقي في « الأسماء » (ص٩٣).

وملائكة الليل تعرج بأعمالكم [بالليل] فزيِّنوا صَحَائفكم بالأعمال الصالحة ، والمواظبة على الصلوات الخمس ، فإن الصلوات يُذْهِبْنَ السيئات ، قيل في التفسير : الحسنات : الصلوات الخمس (١).

قلت : وقد جاء في الحديث الصحيح قوله ﷺ : « **يَتَعاقَبونَ فيكم مَلائكةٌ بالليل وملائكةٌ بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يَعْرُجُ الذين بَاتُوا فيكم ، فيسألُهم ـ وهو أعلمُ بهم ـ : كيف تركتم عبادي؟ فيقولون : تركناهم وهم يُصلُّونَ ، وأتيناهم وهم يُصلُّون**»(٢).

٢ ـ وهذا الاسم يدل على علو الرب تعالى على عباده ، وأنه فوقهم فإن العروج هو الصعود كما تقدم (٣).

* * *

---

(١) « الحجة » (ق ١٢٤ ـ ب) .

(٢) رواه البخاري في المواقيت (٢/٣٣) وفي بدء الخلق (٦/٣٠٦) وفي التوحيد (١٣/٤١٥) ومسلم في المساجد (١/٤٣٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ومعنى « يتعاقبون » : أي: تأتي طائفة عقب طائفة ، ثم تعود الأولى عقب الثانية .

(٣) وقد سبق تقرير هذه المسألة في آثار الإيمان بـ (العلي ـ الأعلى ـ المتعال) .

ذو الطَّوْل

جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٩٦)

*** المعنى اللغوي :**

الطَّوْلُ بالفتح: المَنُّ ، يقال منه: طَالَ عليه وتَطوَّل عليه ، إذا امتنَّ عليه.

وطَالَ عليه واسْتطالَ وتَطَال : إذا علاه وترفَّعَ عليه.

والطَّوْلُ والطائِلُ والطائلةُ : الفضلُ والقدرةُ و الغنى والسَّعةُ والعُلُوُّ[1].

وقال الزجاجي : الطَّوْلُ : الفضل ، يقال : طال فلانٌ علينا طولاً : إذا أفضَل عليهم ، والطُّوْلُ خِلاف العَرض .

ويقال : لا أُكلمك طَوالَ الدهر : أي أبدًا .

والطِّوَلُ : الحبل [2].

*** وروده في القرآن الكريم :**

ورد مرة واحدة في مطلع سورة « غافر » في قوله سبحانه : ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [غافر: ٣] .

---

(١) « الصحاح » (٥/١٧٥٣ ـ ١٧٥٤) و « اللسان » (٤/٢٧٢٥ ـ ٢٧٢٨) مادة (طول) .

(٢) « اشتقاق أسماء الله » (ص ١٩٣ ـ ١٩٤) باختصار .

* معنى الاسم في حق الله تعالى :

قال قتادة : (ذي الطول) أي : ذي النعم [1].

وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى : (ذي الطولِ) : ذي التَّفَضُّلِ ، تقول العرب للرجل : إنه لذو طَوْل على قومه، أي: ذو فضل عليهم [2].

وقال ابن جرير : (ذي الطول) : يقول : ذي الفضل والنِعَم المبسوطة على من شاء من خلقه ، يقال منه : إن فلانًا لذو طولٍ على أصحابه إذا كان ذا فضل عليهم .

ثم ذكر قول قتادة المتقدم ، ثم قال : وقال بعضهم « الطول » : القدرة ، ونقله عن ابن زيد [3].

وقال الخطَّابي : و (ذو الطَّول) و (ذو الفَضل) معناه : أهلُ الطَّوْل والفضل ، و (ذو) : حرف النِّسْبَةِ ، كقوله تعالى : ﴿ **ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ** ﴾ [الرحمن: ٢٧] [4].

وقال الحُلَيمي : ومنها (ذو الطول) ومعناه : الكثير الخير ، لا يعوزه من أصناف الخَيرات شيء إنْ أرادَ أنْ يُكْرِم به عبده.

وليس كذي طولٍ من عباده ، قد يُحب أن يجود بالشيء ولا يجده[5].

---

(١) أخرجه ابن جرير عنه (٢٤ / ٢٨) بسند حسن .

(٢) « مجاز القرآن » (٢/ ١٩٤) .

(٣) « جامع البيان » (٢٤/ ٢٧ ـ ٢٨) وإسناده إلى ابن زيد صحيح .

(٤) « شأن الدعاء » (ص ١٠٥).

(٥) « المنهاج » (١/ ١٩٩) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع نفي التشبيه عن الله تعالى جده ، ونقله البيهقي في « الأسماء » (ص ٤٣) ووقع عنده العبارة : « وليس كذا طولُ ذي الطول من عباده » .

وقال ابن كثير بعد أن ذكر أقوال المفسرين : والمعنى أنه المتفضل على عباده ، المُتَطَوِّلُ عليهم بما هم فيه من المنَن والأنعام التي لا يُطيقون القيام بشكرِ واحدة منها﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم: ٣٤] الآية ، وقوله جلَّت عظمته ﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ [البقرة: ١٦٣] أي : لا نظير له في جميع صفاته ، فلا إله غيره ولا ربَّ سواه [١].

* * *

(١) « تفسر القرآن العظيم » (٤/ ٧٠) . وانظر من آثار الإيمان بهذا الاسم في الاسم التالي.

ذُو الفَضْل

جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٩٧)

*** المعنى اللغوي :**

الفَضْلُ والفَضِيلَةُ : خلاف النَّقص والنقيصة .

والإِفْضَال : الإِحسان .

ورجلٌ مِفْضَالٌ وامرأةٌ مِفضالةٌ على قومها ، إذا كانت ذات فضلٍ سمحةً .

وأفْضَلَ عليه وتفضَّل ، بمعنى.

والمُتَفَضِّلُ أيضًا : الذي يدَّعي الفضل على أقرانه ، ومنه قوله تعالى: ﴿ **يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ** ﴾ [**المؤمنون** : ٢٤]

والفَوَاضِلُ : الأيادي الجميلة [١].

وقال الراغب الأصبهاني : الفضل : الزيادةُ عن الاقتصار ، وذلك ضَرْبان : محمودٌ ، كفضلِ العلم والحلم ، ومذموم كفضل الغضب على ما يجب أن يكون عليه ، والفضل في المحمود أكثر استعمالاً ، والفُضُول في المذموم [٢].

*** وروده في القرآن الكريم :**

ورد اثنتي عشرة مرة في الكتاب منها :

---

(١) « الصحاح » (٥/١٧٩١) و « اللسان » (٥/٣٤٢٨ ـ ٣٤٢٩) مادة (فضل) وانظر: «الكتاب الأسنى» (ورقة ٤١٣ أ ـ ب) .

(٢) « المفردات » (ص ٣٨١).

قوله سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [البقرة: ١٠٥].

وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الأنفال: ٢٩].

*** معنى الاسم في حق الله تعالى :**

قال ابن جرير : وأما قوله ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الأنفال: ٢٩]: فإنه خبرٌ من الله جلَّ ثناؤه عن أنَّ كلَّ خيرٍ ناله عباده في دينهم ودنياهم ، فإنه من عنده ابتداءً وتفضُلاً منه عليهم ، من غير استحقاق منهم ذلك عليه ، وفي قوله : ﴿ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [البقرة : ١٠٥] تعريضٌ من الله تعالى ذكره بأهل الكتاب أن الذي آتى نبيه محمدًا ﷺ والمؤمنين به من الهداية : تفضلاً منه ، وأنَّ نِعَمه لا تُدرك بالأماني ، ولكنها مواهب منه يختصُّ بها من يشاء من خلقه [(١)].

وقال الحليمي : ومنها (ذو الفضل) : وهو المُنعم عما لا يلزمه[(٢)].

وقال القرطبي بعد ذكره لمعنى الاسم لغة : فالله سبحانه ذو الفضل العظيم ، والإحسان العميم ، أعطى خلقه ما لا يلزمه ، وتفضَّل عليهم بما لا يَجبُ عليه ، فسبحانه من كريم رؤوف رحيم ، تفضَّل على جميع خلقه بنعمته ، وعلى المؤمنين بدار كرامته ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٤] [(٣)].

---

(١) « جامع البيان » (١/ ٣٧٨).

(٢) « المنهاج » (١/ ٢٠٨) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه ونقله البيهقي « الأسماء » (ص٨٨).

(٣) الكتاب الأسنى (ورقة ٤١٣ب).

* من آثار الإيمان بهذين الاسمين (ذو الطَّول) و (ذو الفضل) :

١ - إن الله تعالى موصوفٌ بالطَّوْل والفضل والإحسان إلى عباده ، والقدرة على ذلك ، لا يمنعه مانع من إيصال فضله ونعمته إلى من يشاء ﴿ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [يونس: ١٠٧] وقال : ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [فاطر: ٢] بل الفضل كلُّه بيده يعطي من يشاء فضلاً ، ويمنع من يشاء عدلاً : ﴿ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [آل عمران: ٧٣، ٧٤] .

﴿ لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الحديد: ٢٩] [(١)] .

٢ - والله تبارك وتعالى مُتفضلٌ على عباده بأنواع النعم ، من غير سؤال منهم ، ولا استحقاق لها ، بل كل ما عندهم من نعم الدين والدنيا فهو من الله تعالى فضلٌ وكرمٌ وإحسانٌ ، وحتى الكافر يتقلَّب في فضل الله ورحمته في الدنيا ، قال تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥١] .

فمن فضله على عباده المؤمنين أنه يُنَجِّيهم من أعدائهم وكيدهم

---

(١) قوله تعالى : ﴿ لِئَلاَّ يَعْلَمَ ﴾ [الحديد: ٢٩] « لا » زائدة ، قال الفراء : والعرب تجعل «لا» صلة في كل كلام دخل في آخره أو أوله جحد ، فهذا مما جُعل في آخره جحد . والمعنى: ليعلم ﴿ أَهْلُ الْكِتَابِ ﴾ الذين لم يؤمنوا بمحمد ﴿ أَلاَّ يَقْدِرُونَ ﴾ أي أنهم لا يقدرون ﴿ عَلَىٰ شَيْءٍ مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ والمعنى: أنه جعل الأجرين لمن آمن بمحمد ﷺ ليعلم من لم يؤمن به أنه لا أجر لهم ولا نصيب في فضل الله . انظر: « زاد المسير » (١٧٩/٨).

ومكرهم إذا توكلوا عليه ووثقوا بقوته وقدرته ونصره ، كما حصل للنبي ﷺ وأصحابه لما خوَّفهم الناس بالمشركين وعددهم فقالوا : ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران: ١٧٣] قال تعالى بعد ذلك : ﴿ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ [آل عمران: ١٧٤] .

ومن فضله على عباده : تثبيته لهم على هذا الدين وعصمته لهم من الزَّيغ والخذلان واتباع الشيطان ، قال سبحانه : ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [النساء: ٨٣] .

وقال لنبيه ﷺ : ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ ﴾ [النساء: ١١٣] .

وامتن بما أنزل عليه فقال : ﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٣] .

ومن فضله على عباده : تركه مُعاجلة العصاة والكفار والمنافقين بالعقوبة في الدنيا ، وإمهالهم إلى يوم القيامة ، وبهذا فسَّر ابن جرير هذه الآية : ﴿ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ ﴾ [يونس: ٦٠] (١).

وقال سبحانه عن الذين خاضوا في حديث الإفك : ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١٤] .

ومن فضله : تنوير بصائر من اتقاه ، وتكفيره لسيئاته ومغفرته لذنوبه

---

(١) « جامع البيان » (١١/ ٨٩).

وتزكية نفسه ، قال سبحانه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

وقال : ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١] .

وإعطاؤهم فوق ما يستحقون من ثواب زيادةً وفضلاً ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ١٧٣] .

وقال : ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٨].

* * *

الغالب

جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٩٨)

* **المعنى اللغوي :**

غَلَبَهُ يغْلِبُهُ غلْبًا وغَلَبًا ـ وهي أفصح ـ وغَلَبَةً ومغْلَبا ومغْلَبة .

ورجال غالِبٌ من قوم غَلَبةٍ ، وغلاَّب من قومٍ غلاَّبين [١] .

* **وروده في القرآن الكريم :**

ورد مرة واحدة في قوله تعالى : ﴿ **وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [يوسف: ٢١] .

وورد بصيغة الفعل في قوله تعالى : ﴿ **كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾ [المجادلة: ٢١] .

* **معنى الاسم في حق الله تعالى :**

قال ابن جرير : ﴿ **وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ** ﴾ [يوسف : ٢١] يقول تعالى ذكره : والله مُسْتولٍ على أمر يوسف ، يسوسه ويدبره ويحوطه ، والهاء في قوله ﴿ **عَلَىٰ أَمْرِهِ** ﴾ عائدة على يوسف [٢] .

وقال الحليمي : (الغالب) : وهو البالغ مُراده من خلقه أحبوا أم كرهوا، وهذه إشارةٌ إلى كمال القدرة والحكمة ، وأنه لا يقهر ولا

(١) « الصحاح » (١/ ١٩٥) ، « اللسان » (/٣٢٧٨ ـ ٣٢٨٠) مادة (غلب) .

(٢) « جامع البيان » (١٣/ ١٠٤) ، ونقل عن سعيد بن جبير أنه قال في تفسيره : فعَّال .

يخدع[1].

وقال البغوي : ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ [يوسف : ٢١] قيل الهاء في ﴿أَمْرِهِ﴾ كناية عن الله تعالى ، يقول : إن الله غالبٌ على أمره يفعل ما يشاء ، لا يغلبه شيء ، ولا يردُّ حكمه رادٌّ .

وقيل : هي راجعةٌ إلى يوسف عليه السلام ، معناه : أنَّ الله مُستولٍ على أمر يوسف بالتدبير والحياطة ، لا يكله إلى أحد حتى يبلغه مُنتهى علمه فيه [2].

وقال ابن كثير ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ [يوسف:٢١] أي : فعَّالٌ لما يشاء [3] .

وقال السعدي : ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ [يوسف : ٢١] أي : أمره تعالى نافذ لا يبطله مُبطل ، ولا يغلبه مغالب [4].

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١ ـ أن الله تبارك وتعالى هو الغالب القاهر أبدًا ، لا يملك أحد أن يردَّ ما قضى ، أو يمنع ما أمضى ، فلا راد لقضائه ولا مُعقِّب لحكمه ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

قال القرطبي : فيجب على كلِّ مكلف أن يعلم أنَّ الله سبحانه وتعالى هو الغالب على الإطلاق ، فمن تمسَّك به فهو الغالبُ ولو أنَّ جميع من

---

(١) « المنهاج » (١٩٨/١) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع نفي التشبيه عن الله تعالى جده ، ونقله البيهقي في « الأسماء » (ص٤١).

(٢) « معالم التنزيل » (٢٧٣/٣).

(٣) « تفسير القرآن العظيم » (٤٧٣/٢).

(٤) « تيسير الكريم الرحمن » (٨/٤).

في الأرض طالب ، قال تعالى : ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١].

ومن أعرض عن الله تعالى وتمسَّك بغيره كان مغلوبًا ، وفي حبائل الشيطان مقلـوبـًا ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦] (١).

* * *

(١) « الكتاب الأسنى » (ق ٣٠٤ ب) .

الكافي

جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٩٩)

*** المعنى اللغوي :**

كَفَى يكفي كفايةً : إذا قام بالأمر .

ويقال استكفيْتُه أمرًا فكفانيه .

ويقال : كفاكَ هذا الأمر أي : حَسْبك ، وهذا رجل كافِيك من رجل: أي : حسبك .

والكُفاة : الخدم الذين يقومون بالخدمة ، جمعُ كافٍ .

والكُفْيَةُ بالضم: القوت ، والجمع الكُفَى .

وكافَيْتُهُ من المكَافَاة ، ورجوت مكَافَاتَك أي : كفايتك [١].

وقال الزجاجي : (الكافي) اسم الفاعل من كَفَى يكفي فهو كاف[٢].

*** وروده في القرآن الكريم :**

ورد مرة واحدة في قوله عز وجل : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر: ٣٦] .

---

(١) « الصحاح » (٦/٢٤٧٥) ، « اللسان » (٥/٣٩٠٧ ـ ٣٩٠٨) مادة (كفى).

(٢) « اشتقاق أسماء الله » (ص٨٢).

وورد بصيغة الفعل : في قوله تعالى : ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ [الأحزاب: ٢٥] .

وفي قوله : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٣٧].

وفي قوله : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ [الحجر: ٩٥].

*** معنى الاسم في حق الله تعالى :**

قال ابن جرير في قوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [الزمر : ٣٦]: اختلفت القراء في قراءة أليس الله بكاف عبده ، فقرأ ذلك بعض قرّاء المدينة وعامة قراء الكوفة ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عِبَادَهُ ﴾ [الزمر : ٣٦] على الجمع ، بمعنى : أليس الله بكاف محمدًا وأنبياءه من قبله ما خوفتهم أممهم من أن تنالهم آلهتهم بسوء.

وقرأ ذلك عامة قراء المدينة والبصرة وبعض قراء الكوفة ﴿ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ على التوحيد ، بمعنى : أليس الله بكاف عبده محمدًا .

والصواب من القول في ذلك أنهما قراءتان مشهورتان في قراءة الأمصار فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب لصحة معنييهما واستفاضة القراءة بهما في قراءة الأمصار [(١)].

وقال الزجاجي : ... فالله عز وجل كافي عباده لأنه رازقهم وحافظهم ومُصْلح شئونهم فقد كفاهم كما قال الله عز وجل : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [الزمر : ٣٦] .

وكفاية الإنسان من المعاش قدْر بُلغته وقوام أمره ، وتقول : كفيت

(١) « جامع البيان » (٥/٢٤).

الرجل الأمر أكفيه كفيًا وكفاية إذا قمت به دونه ، وأزلت عنه الاهتمام به[1] .

وقال الخطابي : وأما (الكافي) : فهو الذي يكفي عبادَه المُهِمَّ ، ويدفع عنهم المُلِمَّ [2]وهو الذي يُكتفى بِمعُونته عن غيره ، ويُستغنى به عمن سواه [3].

وقال الحليمي : ومنها (الكافي) لأنه إذا لم يكن له في الألوهية شريك ، صحَّ أنَّ الكفايات كلَّها واقعةٌ به وحده ، فلا ينبغي أن تكون العبادة إلا له ، ولا الرغبة إلا إليه ، ولا الرجاء إلا منه .

وقد ورد الكتاب بهذا أيضًا ، قال الله عز وجل : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [الزمر : ٣٦] وجاء ذلك أيضًا عن رسول الله ﷺ [4].

وقال السعدي : (الكافي) عباده جميع ما يحتاجون ويضطرون إليه، الكافي كفاية خاصة من آمن به وتوكل عليه واستمد منه حوائج دينه ودنياه[5].

* من آثار الإيمان بهذا الاسم :

١ ـ إن (الكافي) عباده رزقًا ومعاشًا وقوتًا ، وحفظًا وكلاءةً ، ونصرًا وعزًّا هو الله تبارك شأنه ، فهو الذي يُكتفى بمعونته عمن سواه .

---

(١) «اشتقاق أسماء الله » (ص٨٢).

(٢) إلى هنا قاله الاصبهاني في « الحجة في بيان المحجة » (ق٢٧ أ).

(٣) « شأن الدعاء (ص١٠١).

(٤) « المنهاج » (١/ ١٩٠) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات وحدانيته عزَّ اسمه ، ونقله البيهقي في « الأسماء » (ص١٥).

(٥) « تيسير الكريم » (٥ / ٣٠٤ ـ ٣٠٥).

وإذا كـــان ذلك كذلك وجـــب ألايكـــون الرجاء إلا منـــه والرغبـة إلا إليه (٤).

ونحن إذْ نقف عند هذا الاسم لا نعني الإِحاطة بكل الأسماء الحسنى الواردة في القرآن الكريم وإنما نرجو بذلك الدخول في موعود الرسول ﷺ إذْ يقول : « **لله تسعة وتسعين اسمًا مائة إلا واحدًا ، من أحصاها دخل الجنة** ».

ولمن وقف على كتابنا

آمين . . . آمين

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

* * *

(٤) وانظر مزيد بيان في آثار الإِيمان باسمه (الحسيب).

الفهـــــــــــــــــارس

* فهـرس الأحاديث .
* فهرس الموضوعات .

فهرس أطراف الحديث

طرف الحديث	الصفحة
من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا	٢/ ٣١٣
من قال استغفر الله الذي لا إله إلا هو	٢/ ٨٠
من قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة	١/ ٧٣
من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له	٢/ ٩٣
من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير	١/ ٣٠١
من لا يرحم الناس لا يرحمه الله	١/ ٩٢
من يضمن لي ما بين لحييه ورجليه	١/ ٣٥١
المسلم من سلم المسلمون من لسانه	١/ ١٢٧
نبي الرحمة	١/ ٩١
نعم ولك أجر	١/ ٣٨٩
هل تدرون ماذا قال ربكم	١/ ٣١٢
وأعطيت هذه الآيات من آخر سورة البقرة	١/ ١٣٣
واعلم أن الخلق كلهم لو اجتمعوا على	٢/ ٢٣٩
وأما السجود فأكثروا فيه الدعاء	٢/ ٣١٢
وأملك إن كان الله نزع منكم الرحمة	١/ ٩٢
والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن	١/ ٨
والذي نفسي بيده ما أُنزل في التورة ولا	١/ ٧
والذي نفسي بيده ما من رجل يدعو امرأته	١/ ٣٣٠
والله لا يؤمن والله لا يؤمن	١٢٧

* * *

فهرس المواضيع

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

المجلد الثاني

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
	٣٥٣

* * *

النهج الأسمى

في شرح أسماء الله الحسنى

تأليف

محمد الحمود النجدي

المجلد الثالث

القسم الثاني

طبعة جديدة منقحة ومزيدة

مكتبة الإمام الذهبي

الكويت

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

أما بعد :

فهذا القسم الثاني من كتابنا « النهج الأسْمى في شرح أسماء الله الحسنى» وهو الأسماء الحسنى الثابتة لله جل شأنه في حديث رسوله الأمين ﷺ ، شاء الله تعالى أن يتأخر عن القسم الأول هذه المدة ، ولله الأمر من قبل ومن بعد ، فنحمده عز وجل حمداً كثيراً طيبًا كما يحب ويرضى على ما وَّفق ويَسَّر لكتابة هذا الجزء ، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

والسنة هي المصدر الثاني الـذي يجب الرجوع إليه ، والتعويل عليه بعد كتاب الله عز وجل في هذا الباب وغيره من أبواب العقيدة والشريعة ، قـال تعـالى : ﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ [النساء: ١١٣].

وقال : ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ [البقرة: ١٢٩].

والحكمة : السُّنَّة.

وقال ﷺ : « **ألا إني أوتيتُ الكتاب ومثله معه...** »[1].

قال الإمام أحمد رحمه الله: « لا يُوصف الله إلا بما وَصَفَ به نفسه، أو وَصَفه به رسول ﷺ ، لا يتَجاوز القرآنُ والحديث»[2].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « ومن الإيمان بالله: الإيمانُ بما وَصَف به نفسَه في كتابه العزيز، وبما وَصَفه به رسوله محمد ﷺ من غير تحريفٍ ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل» [3].

ثم قال بعد أن ذكر جملة طيبة من آيات الأسماء والصفات:

« ثم في سنَّة رسول الله ﷺ ، فالسنَّةُ تُفسِّر القرآن وتُبيِّنه، وتدلُّ عليه، وتُعبِّر عنه، وما وَصفَ الرسول ﷺ بِهِ ربَّه عز وجل من الأحاديث الصِّحاح، التي تلقَّاها أهلُ المعرفة بالقبول، وجَبَ الإيمان بها كذلك»[4].

فمن تمام بحثنا ذكر ما ورد في السُّنة من الأسماء الحسنى.

ومن نهجنا فيه أننا لا نُثبت فيه اسمًا من الأسماء الحسنى إلا بحديث صحيح أو حسن ، لأن أسماءَه تعالى توقيفيةٌ كما قررنا قواعد السلف في الأسماء في أول الكتاب ، والأحاديث الضعيفة لا تصلح لذلك الإثبات وقد وردت بعض الأسماء في أحاديث صحيحة ، لكنني ترددت في إدخالها في أسماء الله تعالى ، خشية أن تكون قد أُريد بها الإخبار لا

(١) حديث صحيح ، رواه أحمد (٤/ ١٣١) ، وأبو داود في «السنة» (٤٦٠٤) عن حريز بن عثمان عن عبد الرحمن بن أبي عوف عن المقدام بن معد يكرب مرفوعًا به .

وإسناده صحيح

وله طرق أخرى عند الترمذي (٢٦٦٤ـ شاكر) ، وابن ماجة في المقدمة (١٢).

وشاهد عند الترمذي (٢٦٦٣)، وابن ماجه في المقدمة (١٣) من حديث ابي رافع.

(٢) «مجموع الفتاوى» لشيخ الإسلام ابن تيمية (٥/ ٢٦) .

(٣) « الواسطية» (ص ٦٥) ط دار الهجرة .

(٤) المصدر السابق (ص١٦١) .

التسمية ، وباب الأخبار أوسع من باب الأسماء ، كما مرَّ معنا في أول الكتاب في كلام ابن القيم رحمه الله تعالى وغيره .

مثل : « الطَّبيب » و « المسَعِّر » وغيرهما .

وقد رجعت إلى مصادر جديدة في شرح الأسماء ، وهي مصادر حديثية كـ « غريب الحديث » لأبي عبيد القاسم بن سلاَّم الهروي ، و«غريب الحديث » لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة خطيب السنَّة ، و « غريب الحديث » لأبي إسحاق الحربي ، و « النهاية في غريب الحديث والأثر » لأبي السعادات المبارك بن محمد بن الأثير وغيرها ، بالإضافة إلى المصادر التي اعتمدناها سابقًا في القسم الأول .

ونسأل الله تعالى أن ينفع به وأن يجعل له القبول وأن يكون خالصا لوجهه سبحان وتعالى .

ولا يفوتني أن أشكر صاحب مكتبة الذهبي الأخ الفاضل / بدر الفيلكاوي على حرصه على هذا الكتاب وخروجه بهذه الحلة البهية بقسميه الأول والثاني فجزاه الله خيراً .

اللهم تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، وتب علينا إنك أنت التَّواب الرحيم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

وكتبه

محمد الحمود النَّجدي

في الكويت صبيحة الجمعة لسبع عشرة

خلت من ربيع الأول سنة ١٤١٧هـ .

الرَّفيقُ
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(١)

* **المعنى اللغوي :**

الرِّفقُ ضد العنف .

رفق بالأمر وله وعليه ، يَرفُق رِفْقا : لَطَفَ ، وكذلك : تَرفَّق به .

قال الليث : الرِّفق لين الجانب ولطافةُ الفعل .

والرفيق : المُرافِق ، والجمع : الرُّفقاء .

وقال ابن الأعرابي : رَفَقَ : انتظر .

والرفيق ضد الأخرق .

والرِّفق والمِرفَق والمَرفِقُ والمَرفَقُ : ما استُعين به ، وقد ترفَّق به وارتَفَق ، وفي التنزيل ﴿ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾ [الكهف: ١٦][١].

* **وروده في الحديث الشريف :**

ورد في حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « **يا عائشة ! إنَّ اللهَ رفيقٌ يُحبُّ الرِّفقَ ، ويُعطي على الرِّفقِ مالايُعْطي على العُنْف ، ومالا يُعطي على مَا سِواه** »[٢].

---

(١) « اللسان » (٣/ ١٦٩٤ ـ ١٦٩٦) ، « الصحاح » (٤/ ١٤٨٢) .

(٢) رواه مسلم في « البر » (٤/ ٢٠٠٣ ـ ٢٠٠٤) من طريق عمرة بنت عبد الرحمن عنها .

وله طرق أخرى من حديث علي بن أبي طالب وأنس وأبي هريرة وعبد الله بن مغفل رضي الله عنهم ، انظرها في «إبطال التأويلات» (٢/ ٤٦٧ ـ ٤٦٨) للقاضي أبي يعلى بتحقيقنا.

وعنها رضي الله عنها قالت : لما مرضَ النبي ﷺ المرضَ الذي مات فيه جعل يقول : « **في الرفيق الأعلى** » وفي رواية : أنه رفع يده أو إصبعه ثم قال : « **في الرفيق الأعلى** » ثلاثًا ثم قَضَى ...[1].

*** معنى الاسم في حق الله تعالى :**

قال القرطبي بعد أن بيَّن المعنى اللغوي للاسم : ولله تعالى من ذلك ما يليق بجلاله سبحانه .

فهو الرفيق : أي الكثير الرفق ، وهوِ اللِّين والتسهيل ، وضده العنف و التَّشديد و التَّصعيب .

وقد يجيء الرفق بمعنى : الإرفاق ، وهو إعطاء ما يرتفق به ، وهو قول أبي زيد .

---

(١) رواه البخاري في « المغازي » (٨/١٣٦ ، ١٣٨) ، ومسلم (٤/١٧٢٢) بلفظ : « مع الرفيق الأعلى » .

قال الحافظ ابن حجر : وزعم بعض المغاربة أنه يحتمل أن يراد بالرفيق الأعلى الله عز وجل لأنه من أسمائه ... ثم ذكر حديث مسلم السابق ... قال : والرفيق يحتمل أن يكون صفة ذات كالحكيم ، أو صفة فعل ، قال : ويحتمل أن يراد به حضرة القدس ، ويحتمل أن يراد به الجماعة المذكورن في آية النساء ، ومعنى كونهم رفيقًا : تعاونهم على طاعة الله، وارتفاق بعضهم ببعض ، وهذا الثالث هو المعتمد ، وعليه اقتصر أكثر الشراح ، وقد غلَّط الأزهرى القول الأول ، ولا وجه لتغليطه من الجهة التي غلطه بها وهو قوله : «مع الرفيق » أو « في الرفيق » ، لأن تأويله على ما يليق بالله سائغ اهـ .

وفي « اللسان » (٣/١٦٩٦) : وقال شَمِرٌ في حديث عائشة : فوجدت رسول الله ﷺ يثقل في حجرى ... قال أبو عدنان : قوله في الدعاء : « اللهم ألحقني بالرفيق الأعلى » سمعت أبا الفهد الباهلي يقول : إنه تبارك وتعالى رَفيقٌ وَفيق ، فكأن معناه : ألحقني بالرفيق أي بالله ، يقال : الله رفيق بعباده من الرفق والرَّأفة ، فهو فعيل بمعنى فاعل .

ثم ذكر قول أبي منصور الأزهري الذي أشار إليه الحافظ آنفًا .

وكلاهما صحيحٌ في حقِّ الله تعالى .

إذْ هو الميسر والمُسهِّل لأسباب الخير كلها ، والمعطي لها وأعظمها: تيسير القرآن للحفظ، ولولا ما قال ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ﴾ [القمر: ١٧] ما قَدِرَ على حفظه أحد ، فلا تيسير إلا بتيسيره ، ولا منفعةَ إلا بإعطائه وتقديره .

وقد يجئ الرفق أيضًا بمعنى : التَّمهل في الأمور والتأني فيها ، يقال منه : وقفتُ الدابة ارفقها رفقًا ، إذا شَدَدت عَضُدها بحبلٍ لتبطئ في مشيها .

وعلى هذا يكون « الرفيق » في حق الله تعالى بمعنى « الحليم » فإنه لا يعجل بعقوبة العُصاة ليتوب مَن سَبَقَتْ له العناية ، ويَزداد إثمًا من سبقتْ له الشقاوة .

وقال الخطابي : قوله : « إن الله رفيق » معناه : ليس بعجول ، وإنما يعجل من يخاف الفوت ، فأما من كانت الأشياء في قبضته وملكه فليس يعجل فيها [١].

وقال النووي : وأما قوله ﷺ : « إن الله رفيقٌ » ففيه تصريح بتسميته سبحانه وتعالى ووصفه برفيق . قال المازري : لا يُوصف الله سبحانه وتعالى إلا بما سمى به نفسه أو سمّاه به رسول الله ﷺ أو أجمعت الأمة عليه ، وأما ما لم يرد إذن في إطلاقه ، ولا ورد منعٌ في وصف الله تعالى به ففيه خلاف : منهم من قال يبقى على ما كان قبل ورود الشرع ، فلا يوصف بحل ولا حرمة ، ومنهم من منعه .

قال : وللأصوليين المتأخرين خلافٌ في تسمية الله تعالى بما ثبت

(١) « الكتاب الأسنى » (ورقة ٤٢٩ ، أ ـ ب)

عن النبي ﷺ بخبر الآحاد ، فقال بعض حذاق الأشعرية : يجوز ، لأن خبر الواحد عنده يقتضي العمل ، وهذا عنده من باب العمليات لكنه يمنع إثبات أسمائه تعالى بالأقيسة الشرعية ، وإنْ كانت يعمل بها في المسائل الفقهية ، وقال بعض متأخريهم : يمنع ذلك ! فمن أجاز ذلك فَهِمَ مِن مسالك الصحابة قبولهم ذلك في مثل هذا ، ومَن منع لم يُسلم ذلك ، ولم يثبت عنده إجماعٌ فيه فبقي على المنع .

قال المازري : فإطلاق رفيق إن لم يثبت بغير هذا الحديث الآحاد ، جرى في جواز استعماله الخلاف الذي ذكرنا ، قال : ويحتمل أن يكون صفة فعل ، وهي : ما يخلقه الله تعالى من الرفق لعباده . هذا آخر كلام المازري .

قال النووي : والصحيح جواز تسمية الله تعالى رفيقًا وغيره مما ثبت بخبر الواحد ، وقد قدَّمنا هذا واضحًا في كتاب الإيمان في حديث « **إن الله جميل يحب الجمال** » في « باب تحريم الكبر » وذكرنا أنه اختيار إمام الحرمين [1].

وقال ابن القيم في « النونية » [2]:

وهو الرفيقُ يُحبُّ أهل الرفقِ   يُعطيهم بالرِّفقِ فوقَ أَمَانِ

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١- أن الله تعالى موصوف بالرفق ، وهو من صفاته ، إما صفةُ ذاتٍ

---

(١) مسلم بشرح النووي (١٦/ ١٤٥ ـ ١٤٦) . وما قاله النووي هو الحق الذي لا مرية في ، فإن التفريق في الاحتجاج بالمتواتر دون الآحاد في العقيدة ، بدعة اعتزالية لم يعرفها سلف الأمة رضوان الله عليهم .

(٢) « النونية » بشرح أحمد بن عيسى (٢/ ٢٢٩) .

أو صفة فعل ، وقد نقل إجماع الأمة على ذلك الإمام أبو يعلى الفراء ، وقال : لأنهم يقولون : يا رفيق ارفُقْ بنا في أحكامك [١].

٢- ورفقه سبحانه وتعالى بعباده يظهر في رأفته ورحمته بهم شرعًا وقدرًا ، وهو مالا يحصى ولا يعد [٢].

٣- ومن رفقه سبحانه بعباده إمهاله للعصاه منهم ليتوبوا إليه ، ولو شاء لعاجلهم بالعقوبة ، لكنه رفق بهم وتأنى ، ليحصل لهم ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة ، فله الحمد حمدًا كثيرًا طيبًا كما يحب ويرضى [٣].

٤- وهو سبحانه وتعالى رفيق يحب الرفق وأهله ، ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف ، قيل : من الثواب ، وقيل : يتأتى معه من الأمور ما لا يتأتى مع ضده [٤].

وقد حث الرسول ﷺ على استعماله حتى مع الأعداء أحيانا ، وقد بوب الإمام البخاري في « صحيحه » : « باب الرفق في الأمر كلِّه » ، وأورد فيه حديث عائشة رضي الله عنها قالت : دخل رهطٌ من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا : السَّامُ عليكم ، قالت عائشة : ففهمتُها فقلت : وعليكم السَّامُ واللعنة ، قالت : فقال رسول الله ﷺ : « **مهلاً يا عائشة ، إنَّ الله يحبُّ الرفقَ في الأمرِ كله** » ، فقلت : يا رسول الله ، أولم تسمعْ ماقالوا؟ قال رسول الله ﷺ : « **قد قلت وعليكم** » [٥].

---

(١) « إبطال التأويلات لأخبار الصفات » (٢/ ٤٦٧) .

(٢) انظر مظاهر رحمته تعالى في « الرحمن ـ الرحيم » .

(٣) انظر الكلام على اسمه « الحليم » .

(٤) انظر « الفتح » (١٠/ ٤٤٩) .

(٥) المصدر السابق ، وانظر ما فيه من الفوائد الأخرى في « الاستئذان » (١١/ ٤٣).

وعنها أيضًا رضي الله عنها : عن النبي ﷺ قال : « **إنَّ الرفقَ لا يكون في شيء إلا زَانَه ، ولا يُنْزَعُ من شيءٍ إلا شَانَه** »(١).

وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**مَنْ يُحْرَمِ الرفقَ يُحْرَمِ الخير** »(٢).

قال القرطبي : فينبغي لكل مسلم أن يكون رفيقًا في أموره ، وجميع أحواله ، غير عَجِلٍ فيها ، فإن العَجَلَة من الشيطان ، ولا تُفارقُهُ الخيبةُ والخُسْران ، وقال رسول الله ﷺ لأشج عبد القيس : « **إنَّ فيك لخَصْلَتين يُحبُّهما الله : الحِلْم والأناة** »(٣).

* * *

(١) رواه مسلم في « البر » (٤/٢٠٠٤) .

(٢) المصدر السابق (٤/٢٠٠٣) .

(٣) رواه مسلم في الإيمان (١/٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

السبُّوح
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(٢)

* **المعنى اللغوي :**

التسبيح : التنزيه .

قال الأزهري : وسبحان الله : معناه تنزيهًا لله من الصاحبة والولد .

وقيل : تنزيه الله تعالى عن كلِّ مالا ينبغي أن يُوصف به .

ونَصْبُهُ أنه في موضع فعلٍ على معنى تسبيحًا له ، تقول : سبَّحت الله تسبيحًا له ، أي : نَزَّهته تنزيها [١].

قال ثعلب : كلُّ اسم على « فعُّول » فهو مفتوح الأول ، إلا السُّبُّوح والقدوس فإن الضَّم فيهما أكثر .

وقال سيبويه : ليس في الكلام فُعُّول بواحدة [٢].

وقال الأزهري : وسائر الأسماء تجيء على فَعُّول ، مثل : سَفُّود وقَفُّور وقبور وما أشبهها .

قال : والفتح فيهما « أى السبوح والقدوس » أقيس ، والضم أكثر استعمالاً وهما من أبنية المبالغة والمراد بهما التنزيه [٣].

---

(١) « لسان العرب » (٣/ ١٩١٤) ، و« الصحاح » (١/ ٣٧٢) .

(٢) « الصحاح » (١/ ٣٧٢) .

(٣) « اللسان » (٣/ ١٩١٥) ، وانظر « النهاية » لابن الأثير (٢/ ٣٣٢) .

* وروده في الحديث الشريف :

ورد في حديث عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله ﷺ كان يقول في ركوعه وسجوده : « سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ ، ربُّ الملائكةِ والروح »[(1)].

* معنى الاسم في حق الله تعالى :

قال أبو إسحاق الزجاج : السُّبوح : الذي ينزه عن كل سوء[(2)].

وقال ابن سيده : سبوحٌ قدوس من صفة الله عز وجل ، لأنه يُسَبَّح ويُقدَّس[(3)].

وقال الحليمي : السُّبوح : ومعناه المنزه عن المعائب ، والصفات التي تعتور المحدثين من ناحية الحدث ، والتسبيح : التنزيه[(4)].

وقال النووي : وقال ابن فارس والزَّبيدي وغيرهما : سبُّوحٌ هو الله عز وجل ، فالمراد بالسبُّوح القدُّوس : المُسَبّح المُقدس ، فكأنه قال : مسبحٌ مقدس ربُّ الملائكة والروح ، ومعنى سبوح : المبرأ من النقائص والشريك ، وكل ما لا يليق بالإلهية ، وقدوس : المطهر من كل ما لا يليق بالخالق[(5)].

* من آثار الإيمان بهذا الاسم :

١- الله تبارك وتعالى منزه عن كلِّ عيب ونقص وسوء ، فله الكمال

---

(١) رواه مسلم في « الصلاة » (١/ ٣٥٣) ، وأبو داود (٨٧٢) ، والنسائي (٢/ ٢٢٤) .

(٢) « اللسان » (٣/ ١٩١٥) .

(٣) المصدر السابق .

(٤) « المنهاج في شعب الإيمان » (١/ ١٩٧) وذكره في الأسماء التي تتبع نفي التشبيه عن الله تعالى ، ونقله البيهقي في « الأسماء والصفات » (ص ٣٧) .

(٥) مسلم بشرح النووي (٤/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥) .

المطلق سبحانه وتعالى [1].

٢- الله جل شأنه يسبحه من في السموات ومن في الأرض ، بمختلف اللغات ، وأنواع الأصوات ، قال سبحانه ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] .

قال أبو إسحاق الزجاج : قيل إن كلاً ما خلق الله يُسبِّح بحمده ، وإن صَرير السقف وصرير الباب من التسبيح ، فيكون على هذا الخطاب للمشركين وحدهم ﴿وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ وجائز أن يكون تسبيح هذه الأشياء بما الله به أعلمُ لا نفقهُ منه إلا ما عُلِّمناه .

قال : وقال قوم : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ أي ما من دابة إلا وفيه دليل أن الله عز وجل خالقه ، وأن خالقه حكيم مبرأٌ من الأسْواء، ولكنكم أيها الكفار لا تفقهون أثر الصنعة في هذه المخلوقات !

قال أبو إسحاق : وليس هذا بشيء لأن الذين خُوطبوا بهذا كانوا مُقرِّين أن الله خالقهم وخالق السماء والأرض ومن فيهن ، فكيف يجهلون الخِلْقة وهم عارفون بها ؟[2].

قال الأزهري : ومما يدلك على أن تسبيح هذه المخلوقات تسبيح تَعبَّدتْ به قولُ الله عز وجل للجبال ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠] ومعنى ﴿ أَوِّبِي﴾ : سبحي مع داود النهار كلَّه إلى الليل ، ولا يجوز أن يكون معنى أمر الله عز وجل للجبال بالتأويب إلا تعبدًا لها .

وكذلك قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي

(١) انظر مبحث التنزيه عند أهل السنة في الكلام على القدوس .

(٢) « اللسان » (٣/ ١٩١٥) .

﴿الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ١٨] فسجود هذه المخلوقات عبادة منها لخالقها لا نفقهها عنها كما لا نفقه تسبيحها .

وكذلك قوله : ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤] ، وقد علم الله هبوطها من خشيته ولم يُعرِّفنا ذلك فنحن نؤمن بما أُعلمنا ، ولا ندعي بما لا نُكلَّف بأفهامنا من علم فعلها كيفيةً نحدُّها [١].

وهو كلام نفيس جار على مذهب السلف من إجراء النصوص على ظاهرها والبعد عن التأويل والتكلف المذمومين .

وقد ذهب إلى هذا ابن جرير الطبري رحمه الله ، فقال في تفسير ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ : وما من شيء من خلقه إلا يسبح بحمده .

واستدل لصحة ذلك بما رواه جابر عن النبي ﷺ قال : « **ألا أخبركم بشيء أمر به نوحٌ ابنه ، إن نوحًا قال لابنه : يابني آمرك أن تقول : سبحان الله وبحمده ، فإنها صلاة الخلق وتسبيح الحق ، وبها ترزق الخلق ، قال الله :** ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ » [٢].

---

(١) المصدر السابق .

(٢) « تفسير ابن جرير » (١٥/ ٦٥) ، وفيه موسى بن عبيدة وهو الربذي وفيه ضعف .
وهو حديث صحيح ، فقد رواه أحمد (٢/ ١٦٩ ـ ١٧٠ ، ٢٢٥) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٥٤٨) ، والحاكم (١/ ٤٨ ـ ٤٩) وصححه وافقه الذهبي ، والبيهقي في «الأسماء» (ص ١٠٣) من حديث ابن عمرو ، وإسناده صحيح .
ورواه البزار (٣٠٦٩) من حديث ابن عمر ، وفيه عنعنة ابن إسحاق .

٣- كان الرسول ﷺ يذكر هذا الاسم في ركوعه وسجوده ، داعيًا ربه عز وجل به ، كما مر معنا في الحديث السابق .

* * *

الشَّافي
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(٣)

*** المعنى اللغوي :**

الشِّفاء : البُرْءُ من المرض .

يقال : شفاهُ الله يَشفيه شفاءً .

والشِّفاء أيضا : ما يُبْرئُ من المرض.

يقال : أشْفاهُ الله عَسَلاً ، إذا جعله له شفاءً ، حكاه أبو عبيدة.

واسْتَشْفى : طلب الشِّفاء ، ونال الشفاء أيضا [١].

*** وروده في الحديث الشريف :**

ورد في حديث عائشة رضي الله عنها قالت : إن رسول الله ﷺ كان إذا أتى مريضًا أو أُتيَ به إليه قال عليه الصلاة والسلام : « **أذْهِب الباس ، ربَّ الناس ، اشْفِ وأنتَ الشافي، لاشفاءَ إلا شِفاؤُك ، شفاءً لايُغادِرُ سَقَمًا** » [٢].

(١) « اللسان » (٤/ ٢٢٩٤ ـ ٢٢٩٥) .

(٢) رواه البخاري في « المرضى » (١٠/ ١٣١ ، ٢٠٦ ، ٢١٠) ، ومسلم في « السلام » (٤/ ١٧٢٢).

قوله : « لا يغادر سقما » : أي لا يترك ، وفائدة التقييد بذلك أنه قد يحصل الشفاء من ذلك المرض فيخلفه مرضٌ آخر يتولد منه ، فكان يدعو له بالشفاء المطلق ، لا بمطلق الشفاء . « الفتح » (١٠/ ١٣١) .

وقد ورد في القرآن فعلاً ، في قوله تبارك وتعالى : ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠] .

*** معنى الاسم في حق الله تعالى :**

قال الحليمي : قد يجوز أن يقال في الدعاء : يا شافي يا كافي ، لأن الله عز وجل يشفي الصدور عن الشُّبه والشكوك ، ومن الحسد والغلول ، والأبدان من الأمراض والآفات ، لا يقدر على ذلك غيره ، ولا يُدْعى بهذا الاسم سواه .

ومعنى الشفاء : رفع ما يُؤذي أو يؤلم من البدن [(١)].

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١- الله تبارك اسمه هو الشافي الحقيقي لكل آفةوعاهة ومرض بدني أو نفسي ، فقوله ﷺ في الحديث « **اشف أنت الشافي** » دليل على أن الشافي على الإطلاق هو الله وحده جل شأنه .

قال القرطبي : فيجب على كل مكلف أن يعتقد ألا شافي على الإطلاق إلا الله وحده ، وقد بيَّن ذلك رسول الله ﷺ بقوله « **لا شافي إلا أنت** » فيعتقد الشفاء له وبه ومنه ، وأن الأدويةَ المستعملة لا تُوجب شفاءً، وإنما هي أسباب وأوساط يَخلق الله عندها فعله[(٢)] وهي الصحة

---

(١) « الأسماء » للبيهقي (ص ٩٠) .

(٢) هذا بناء على مذهب الأشاعرة ، فانهم أنكروا أن يكون شيء يؤثر في شيء ، وأنكروا « باء السببية » ! وقالوا : إن الأسباب علاقات لا موجبات ، فيقولون : إذا كسر الإنسان زجاجة فإنها ما انكسرت بكسره وإنما انكسرت عند كسره !

قالالشيخ محمد العثيمين حفظه الله تعالى: انقسم الناس في الأسباب إلى طرفين ووسط، =

التي لا يخلقها أحدٌ سواه فكيف ينسبها (١) إلى جمادٍ من الأدوية أو سواها ، ولو شاء ربُّك لخلق الشفاء دون سبب ، ولكن لما كانت الدنيا دار أسباب جرت السنة فيها بمقتضى الحكمة ، على تعليق الأحكام بالأسباب ، وإلى هذا أشار جبريل ﷺ وإياه أوضح بقوله لرسوله ﷺ : « بسم الله أرقيك ، اللهُ يشفيك » فبيّن أن الرقية منه ، وهي سببٌ لخلق الله وهو الشفاء (٢).

٢ ـ فمنه تعالى شفاء النفوس من أسقامها ، والأبدان من أمراضها ، فأنزل القرآن العظيم شفاء لعباده ورحمة ، كما قال سبحانه: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ

= فطرف من الناس غلا في إثبات الأسباب حتى جعلها مؤثرة بنفسها وأنكر ما يخرج عن سنة الأسباب ، ومن الناس مَنْ فَرَّط فيها ولم يجعل لها أثرًا في مسبباتها ، وقال: إن المُسَبَّب يحدث عند السبب لا بالسبب ، وكلا القولين خطأ ، فإنَّ من المعلوم ـ بالحس والعقل ـ أن الحجر إذا رُميَ على زجاجة انكسرت به ، وان الورق إذا أُلقي في النار احترق بها ، ولا أحدُ ينكر ذلك ، ومن قال : إنه احترق عند إلقائه في النار لا بالنار، أو أن الزجاجة انكسرت عند ملامسة الحجر لا بالحجر ! فقد أبعد النُّجعة ، ولكن نقول : إن الزجاجة انكسرت بالحجر ؛ لأن الله تعالى جعل هذه الصدمة سببًا للكسر ، والورقة احترقت بالنار، لأن الله جعل النار محرقة . ولهذا إذا أراد اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يتخلَّف المُسَبَّبُ عن السبب تخلَّف ، فها هو إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام أُلقِيَ في النار العظيمة التي أضرمها قومه المكذبون له ليحرقوه فقال الله تعالى للنار : ﴿كوني بردا وسلاما على إبراهيم﴾ فكانت بردًا وسلامًا عليه ولم يحترق بها ، وهذا دليلٌ على أن الله تعالى هو الذي يودع في الأسباب ما يجعلها مؤثرة . وأما من قال : إن الأسباب مؤثرة بذاتها ، وإنه لا يمكن أن يتخلَّف المسبَّب عن السبب فقوله ـ أيضًا ـ خطأ ، فإن هذا يستلزم إنكار خوارق العادات التي يجريها الله تعالى على غير الأسباب العادية ، ولا أحد عنده علم بالسمع أو عقل راجح إلا أنكر هذا القول . انتهى من « أحكام من القرآن الكريم » (ص ١٧٥ ـ ١٧٦) .

(١) كلمة لم أستطع قراءتها لسواد في المصورة .

(٢) « الكتاب الأسنى » (ورقة ٤٢٢ ب) .

الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢].

قال الإمام الطبري : يقول تعالى ذكره : وننزل عليك يا محمد من القرآن ما هو شفاءٌ يُستشفى به من الجهل من الضلالة ، ويُبصَّرُ به من العمى ، للمؤمنين ، ورحمة لهم دون الكافرين به ، لأن المؤمنين يعملون بما فيه من فرائض الله ، ويحلُّون حلاله ويحرِّمون حرامه فيدخلهم بذلك الجنة ، ويُنجيهِم من عذابه ، فهو لهم رحمةٌ ونعمة من الله ، أنعم بها عليهم .

﴿ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا ﴾ يقول : ولا يزيد هذا الذي نُنزل عليك من القرآن الكافرين به إلا خسارًا ، يقول : إهلاكًا ، لأنهم كلما نَزَل فيه أمرٌ من الله بشيء أو نهي عن شيء كفروا به ، فلم يأتمروا لأمره، ولم ينتهوا عما نهاهم عنه ، فزادهم ذلك خسارًا إلى ما كانوا فيه قبل ذلك من الخسار ، ورجْسًا إلى رجسهم قبل [١].

وأما الأبدان فإنه تعالى أنزل الداء وأنزل الدواء ، عَلمه مَن علمه وجهله من جهله ، كما قال ﷺ : « **ما أَنزلَ اللهُ داءً إلا أنزلَ له شفاء** » [٢].

وقال أيضًا : « **لكلِّ داءٍ دواءٌ ، فإذا أُصيبَ دواءُ الدَّاء برأ بإذن الله عز وجل** » [٣].

وقال : « **إن الله عز وجل لم ينزل داءً إلا أنزل له شفاءً ، عَلِمه من عَلِمه، وجهله مَن جهله** » [٤].

---

(١) « تفسير الطبري » (٥/ ٦٢) تهذيب بشار عواد وعصام فارس .

(٢) رواه البخاري في « الطب » (١٠/ ١٣٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) رواه مسلم في « السلام » (٤/ ١٧٢٩) من حديث جابر رضي الله عنه .

(٤) رواه أحمد (١/ ٣٧٧ ، ٤١٣ ، ٤٤٣ ، ٤٤٦ ، ٤٥٣) ، والحميدي (٩٠) ، وابن ماجه =

قال الحافظ ابن حجر بعد سياقه لطائفة من الأحاديث في الباب : وفي مجموع هذه الألفاظ ما يُعرف منه المراد بالإنزال في حديث الباب ، وهو : إنزال علم ذلك على لسان المَلَك للنبي ﷺ مثلاً ، أو عبَّر بالإنزال عن التقدير ، وفيها التقييد بالحلال فلا يجوز التداوي بالحرام .

وفي حديث جابر منها الإشارة إلى أن الشفاء متوقف على الإصابة بإذن ، وذلك أن الدواء قد يحصل معه مجاوزة الحد في الكيفية أو الكمية فلا ينجع ، بل ربما أحدث داءً آخر ، وفي حديث ابن مسعود الإشارة إلى أن بعض الأدوية لا يعلمها كل أحد ، وفيها كلها إثبات الأسباب ، وأن ذلك لا ينافي التوكل على الله لمن اعتقد أنها بإذن الله وتقديره ، وأنها لا تنجع بذواتها بل بما قدَّره الله تعالى فيها ، وأن الدواء قد ينقلب داءً إذا قدَّر الله ذلك ، وإليه الإشارة بقوله في حديث جابر « بإذن الله » فمدار ذلك كله على تقدير الله وإرادته .

والتداوي لا يُنافي التوكل كما لا ينافيه دفع الجوع والعطش بالأكل والشرب ، وكذلك تجنب المهلكات والدعاء بطلب العافية ودفع المضار وغير ذلك [1].

* * *

= (٣٤٣٨) ، وابن حبان (٦٠٦٢) ، والحاكم (٤/١٩٦ـ ١٩٧) من طرق عن عطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن السلمي عن ابن مسعود به . وهو حديث صحيح .

(١) « الفتح » (١٠/١٣٥) .

الطَّيِّبُ

جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٤)

*** المعنى اللغوي :**

الطَّيب خلاف الخبيث .

وتتسع معانيه فيقال : أرضٌ طيبة : للتي تصلح للنبات ، وريح طيبة : إذا كانت لينةً ليست بشديدةٍ ، وطُعْمةٌ طيبة : إذا كانت حلالاً ، وامرأةٌ طيبة : إذا كانت حَصَانًا عفيفة ، وكلمة طيبة : إذا لم يكن فيها مكروه ، وبلدة طيبة : أي آمنة كثيرة الخير ، ونكهة طيبة : إذا لم يكن فيها نتن ، ونفس طيبة : إذا كانت بما قُدِّر لها راضية .

وقد يرد الطَّيب بمعنى : الطَّاهر ، ومنه حديث علي رضي الله عنه قال : لما غسّل النبي ﷺ ذهب يَلْتمس منه ما يَلتمس من الميت فلم يجده ، فقال : بأبي الطَّيِّبُ ، طِبتَ حيًّا وطبت ميّتا » [1].

*** وروده في الحديث الشريف :**

ورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :
« أيها الناسُ ، إنَّ الله طيِّبٌ ولا يَقْبلُ إلا طيبًا ، وإن الله أَمَرَ المؤمنين بما أمر به

---

(١) حديث صحيح ، رواه ابن ماجه (١٤٦٧) .

وانظر : « الصحاح » (١/ ١٧٣) ، و« لسان العرب » (٤/ ٢٧٣١) ، و « النهاية في غريب الحديث » (٣/ ١٤٨) .

المرسلين ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [المؤمنون: ٥١] وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ [البقرة: ١٧٢] ثم ذكر الرجل يُطيلُ السفر أشعثَ أغبر ، يمدُّ يديه إلى السماء ، يا ربِّ يارَبِّ ومطعمُهُ حرام ، ومَشربه حرام ، ومَلبسه حرام وغُذِّي بالحرام ، فأنَّى يُستجاب لذلك » (١).

*** المعنى في حق الله تعالى :**

قال القاضي عياض : الطيِّب في صفة الله تعالى بمعنى : المُنَزَّه عن النقائص ، وهو بمعنى القدوس ، وأصل الطيب : الزكاة والطهارة والسلامة من الخبث (٢).

وفي تحفة الأحوذي : ومعنى الحديث أنه تعالى منزهٌ عن العيوب ، فلا يَقبل ولا ينبغي أن يُتقرَّب إليه إلا بما يناسبه في هذا المعنى ، وهو خيار أموالكم الحلال (٣).

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١ـ إن الله تعالى يوصف بالطِّيب ، والتَّنزه عن الخُبث والنقائص والعيوب .

كما قدمنا في الكلام على القدوس .

٢ـ وأنه سبحانه وتعالى طيب لا يقبل إلا الطيب ولا يصعد إليه من الأقوال والأعمال ، ولا ينبغي أن يتقرب إليه العباد إلا بالطيب من ذلك .

---

(١) رواه مسلم في « الزكاة » (٢/ ٧٠٣) .

(٢) « شرح مسلم » (٧/ ١٠٠) للنووي، وبنحوه في « إكمال إكمال المعلّم » للأبيّ (٣/ ٤٧٧).

(٣) (٨/ ٣٣٤) .

قال عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٧] .

وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « مَنْ تصدَّق بعَدْل تمرة من كسب طيب ـ ولا يقبل اللهُ إلا الطيب ـ فإن الله يتقبَّلها بيمينه ثم يُربيها لصاحبها كما يُرَبِّي أحدُكم فَلُوَّه ، حتى تكون مثل الجبل »[(١)].

فلا يقبل الله تعالى الصَّدقة بالحرام، لأنه تصرفٌ فيما لا يملك، فمن تصدَّق من ربا أو سرقة أو غلولٌ فإن الله تعالى لا يقبله ، كما قال ﷺ : « لا تُقبلُ صلاةٌ بغير طُهور ، ولا صدقةٌ من غُلُول »[(٢)].

وكذلك كل الأقوال والأعمال لا يقبل الله عز وجل منها إلا الطيب الصالح ، قال عز وجل : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [فاطر: ١٠] .

والكلم الطيب قيل هو : لا إله إلا الله ، وقيل : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، وقيل هو : القرآن .

والمختار أنه كل كلام هو ذكر الله تعالى ، أو هو لله سبحانه كالنصيحة والعلم[(٣)].

وفي حديث التشهد : « التحيَّاتُ لله والصَّلواتُ والطَّيِّباتُ ... »[(٤)].

---

(١) رواه البخاري في « الزكاة » (٣/٢٧٨) ، وفي « التوحيد » (١٣/٤١٥) ، ومسلم في «الزكاة» (٢/٧٠٢) .

(٢) رواه مسلم في « الطهارة » (١/٢٠٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما . والغلول : الخيانة ، وأصله السرقة من مال الغنيمة قبل القسمة .

(٣) انظر : « روح المعاني » للألوسي (٢٢/١٧٤) .

(٤) رواه مسلم في « الصلاة » (١/٣٠١ ـ ٣٠٣) من حديث عبد الله رضي الله عنه .

أي : أن التحيات والصلوات والكلمات الطيبات مستحقةٌ لله تعالى ، ولا تصلح غيرها له سبحان وتعالى .

٣ـ وكذا الطَّيبون أهل الإيمان به عز وجل ومن اتبع رضوانه وعَمَر قلبه بمحبته ، فإنهم لا يُحبون إلا الطَّيب من القول ، ولا يتكلمون إلا بالحَسَن من الكلام ، كما قال الله تعالى في وصفهم : ﴿ **الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** ﴾ [النور: ٢٦] .

قال مجاهد وابن جبير وأكثر المفسرين : المعنى : الكلماتُ الخبيثاتُ ـ من القول ـ للخبيثين من الرجال ، وكذا الخبيثون من الناس للخبيثات من القول ، وكذا الكلمات الطَّيبات من القول للطَّيبين من الناس، والطَّيبون من الناس للطيبات من القول (١).

وقيل المعنى : الخَبيثاتُ من النساء للخبيثين من الرجال ، وكذا الطَّيبات للطيبين (٢).

٤ ـ وأخبر عز وجل أنه يهدي أهل الجنة للكلمات الطيبة ، ويحفظ لسانهم عن الخبيث من القول ، فقال سبحانه : ﴿ **وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ** ﴾ [الحج: ٢٤] .

فإنهم كما جاء في الحديث الصحيح : « **يُلهمون التَّسبيحَ والتَّحميد**

---

(١) « تفسير القرطبي » (١٢/ ٢١١) ، وقال : قال النحاس في كتاب « معاني القرآن » : وهذا من أحسن ما قيل في هذه الآية .

ودلَّ على صحة هذا القول ﴿ أولئك مبرءون مما يقولون ﴾ أي عائشة وصفوان مما يقول الخبيثون والخبيثات .

(٢) المصدر السابق .

كما يُلهمون النَّفَس ».

وقد قال بعض المفسرين في قوله : ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي : القرآن ، وقيل : لا إله إلا الله ، وقيل : الأذكار المشروعة [1].

وهو لا ينافي الأول فإن الهداية لهذا : سَبَبٌ لدخول الجنة ، فإن الجنة لا يدخلها إلا من هداه الله تعالى للطيب من القول ، ولا إله إلا الله : مفتاح الجنة .

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى : ولما كان الشركُ أعظمَ الدواوين الثلاثة عند الله عز وجل[2] حرّم الجنة على أهله ، فلا تدخل الجنة نفسٌ مشركةٌ ، وإنما يدخلها أهلُ التوحيد ، فإن التوحيد هو مفتاح بابها ، فمن لم يكن معه مفتاح لم يُفتح له بابها ، وكذلك إنْ أتى بمفتاح لا أسنان له لم يمكن الفتح به ، وأسنان هذا المفتاح هي : الصلاة، والصيام ، والزكاة ، والحج ، والجهاد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة، وصلة الرحم ، وبر الوالدين ، فأي عبدٍ اتخذ في هذه الدار مفتاحًا صالحًا من التوحيد ، وركَّب فيه أسنانًا من الأوامر ، جاء يوم القيامة إلى باب الجنة ومعه مفتاحها الذي لا يفتح إلا به ، فلم يَعُقْه عن الفتح عائق ، اللهم إلا أن تكون له ذنوبٌ وخطايا وأوزار لم يذهب عنه أثرُها في هذه الدار بالتوبة والاستغفار ، فإنه

---

(١) انظر « تفسير ابن كثير » (٣/٢١٣) ، و « تفسير الطبري » (٥/٣٠٧) ط الرسالة .

(٢) ذكر أن الظلم ثلاثة دواوين :

أ ـ ديوانٌ لا يغفر الله منه شيئًا وهو الشرك .

ب ـ وديوان لا يترك الله تعالى منه شيئًا وهو ظلم العباد بعضهم بعضا ، فإن الله يستوفيه كله .

جـ ـ وديوان لا يعبأ الله به شيئًا ، وهو ظلم العبد نفسه بينه وبين ربه عز وجل .

يحبس عن الجنة حتى يتطهر منها ، وإن لم يطهره الموقف وأهواله وشدائده ، فلابدَّ من دخول النار ليخرج خبثه فيها ، ويتطهَّر مــن درنــه ووسخــه ثم يخرج منها ، فيدخــل الجنة ، فإنها دار الطيبيــن لا يدخلهــا إلا طيب ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ [النحل: ٣٢] وقال تعالى : ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

فعقَّبَ دخلوها على الطيب بحرف « الفاء » الذي يُؤْذن بأنه سبب ، أي : بسبب طيبكم قيل لكم : ادخولها .

وأما النار ، فإنها دار الخُبث في الأقوال والأعمال ، والمآكل والمشارب ، ودار الخبيثين ، فالله تعالى يجمع الخبيث بعضه إلى بعض فيَرْكمه كما يركم الشيء لتراكب بعضه على بعض ، ثم يجعله في جهنم مع أهله ، فليس فيها إلا خبيث .

ولما كان الناس ثلاث طبقات : طيِّب لا يشينه خبث ، وخبيث لا طِيب فيه ، وآخرون فيهم خُبثٌ وطِيبٌ ، كانت دورهم ثلاثة : دار الطِيب المحض ، ودار الخبيث المحض ، وهاتان الداران لا تفنيان ، ودارٌ لمن معه خُبثٌ وطيب ، وهي الدار التي تفنى وهي دار العصاة ، فإنه لا يبقى في جهنم من عصاة الموحدين أحدٌ ، فإنهم إذا عُذّبوا بقدر جزائهم أُخرجوا من النار فأُدخلوا الجنة ، ولا يبقى إلا دار الطيب المحض ، ودار الخُبث المحض [1].

---

(١) « الوابل الصيِّب من الكلم الطيب » (ص ٢٣ ـ ٢٤) ط دار البيان ١٣٩٩ هـ .

٥ ـ وقد وصف الله عز وجل منقلب المؤمنين في الآخرة بالطيب ، فحياتهم طيبة ، ومساكنهم طيبة ومطاعمهم ومشاربهم طيبة ، وذلك في غير ما آية من كتابه فقال سبحانه : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ٧٢] .

وقال سبحانه : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧] .

وقال سبحانه : ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ [الإنسان: ٢١] .

* * *

الجَميل

جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٥)

*** المعنى اللغوي :**

الجمال : الحُسْنُ .

والجَمال : مصدر الجميل ، والفعل : جَمُلَ .

وقوله عز وجل : ﴿**وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ**﴾ [النحل: ٦] أي : بهاءٌ وحسن .

قال ابن سيده : الجمال : الحُسن ، يكون في الفعل والخَلْق وقد جَمُل الرجل بالضم جمالاً فهو جميل وجُمَالٌ وجُمَّال [١] .

*** وروده في الحديث الشريف :**

روى عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال : « **لا يَدْخلُ الجنَّة مَنْ كان في قلبه مثْقالُ ذرَّة من كِبْرٍ** » قال رجل : إنَّ الرجل يُحب أن يكون ثوبهُ حَسَنًا ونَعْله حسنًا ، قال : « **إنَّ الله جميلٌ يحبُّ الجمال ، الكبر بَطَرُ الحقِّ وغَمْطُ الناس** » [٢] .

*** المعنى في حق الله تعالى :**

قال النووي : وقوله ﷺ : « **إن الله جميل يحب الجمال** » اختلفوا في

---

(١) « الصحاح » (/١٦٦١) ، و « اللسان » (١/ ٦٨٥) .

(٢) أخرجه مسلم في « الإيمان » (١/ ٩٣) .

معناه ، فقيل إن معناه : أن كلَّ أمره سبحانه وتعالى حسن جميل ، وله الأسماء الحسنى وصفات الجمال والكمال .

وقيل : جميل بمعنى : مُجْمِل ، ككريم وسميع بمعنى : مُكْرِم ومُسْمِع .

وقال الإمام أبو القاسم القشيري رحمه الله : معناه : جليل وحكى الإمام أبو سليمان الخطابي أنه بمعنى : ذي النور والبهجة أي مالكهما .

وقيل معناه : جميلُ الأفعال بكم باللُّطفِ والنَّظر إليكم ، يكلِّفكم اليسير من العمل ويُعين عليه ، ويُثيب عليه الجزيل ويشكر عليه [1].

وأول كلام الخطابي : الجميل : هو المُجْمِل المُحْسِن ، فعيل بمعنى مُفْعِل [2].

وقال الحليمي : ومنها : الجميل : وهذا الاسم في بعض الأخبار عن النبي ﷺ ومعناه : ذو الأسماء الحسنى ، لأن القبائح إذا لم تَلِقْ به ، لم يَجز أنْ يشتقَ اسمه من أسمائها ، وإنما تشتق أسماؤه من صفاته التي كلها مدائح ، والأفعال التي أجمعها حكمه [3].

---

(١) « شرح مسلم » (٢/ ٩٠) ، وقال : « واعلم أن هذا الاسم ورد في هذا الحديث الصحيح ، ولكنه من أخبار الآحاد ، وورد أيضًا في حديث الأسماء الحسنى وفي إسناده مقال . والمختار جواز إطلاقه على الله تعالى ، ومن العلماء من منعه » اهـ .

وقد سبق أن ذكرنا قوله في جواز إثبات الاسم لله تعالى مما ثبت بخبر الواحد ، انظر اسمه « الرفيق » .

(٢) « شأن الدعاء » (ص ١٠٢) ، وقد حكاه النووي بقوله : وقيل : جميل بمعنى مجمل ... ، واختاره البيهقي في « الاعتقاد » (ص ٦٨) .

(٣) « المنهاج » (١/ ١٩٨) . وذكره ضمن الأسماء التي تتبع نفي التشبيه عن الله تعالى جده ، ونقله البيهقي في « الأسماء » (ص ٤١ ـ ٤٢) .

وقال ابن الأثير : « إن الله تعالى جميل » أي حَسَنُ الأفعال ، كامل الأوصاف » [1].

وقال ابن القيم [2]:

وهو الجميلُ على الحقيقةِ كيفَ لا ... وجمـالُ سَائـرِ هذه الأكْـوان

مِـن بعـضِ آثارِ الجميـلِ فربُّهـا ... أولى وأجْدرُ عند ذي العِرْفانِ

فجمالُه بالذَّاتِ والأوْصاف والـ ... أفعـالِ والأسمـاءِ بالبُرهـان

لا شيءَ يُشبـه ذاتَـه وصفاتـه ... سبحانه عـن إفْكِ ذي البُهتَان

* من آثار الإيمان بهذا الاسم :

١ ـ أن الله تعالى هو الجميل على الحقيقة بلا كيفٍ نعلمه ، وجماله بالذات والأوصاف والأسماء والأفعال ، لاشيء يماثله في ذلك كما قال سبحانه عن نفسه : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وقال سبحانه : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] .

قال القاضي أبو يعلى الفرَّاء رحمه الله تعالى بعد أن ذكر حديث ابن مسعود السابق « إن الله جميل » : اعلم أنه غير ممتنع وصْفهُ تعالى بالجَمَال وأنَّ ـ ذلك صفةٌ راجعةٌ إلى الذات ، لأنَّ الجمال في معنى الحُسْن ، وقد تقدم في أول الكتاب قوله: « رأيتُ ربيِّ في أحسن صُورة » وبيَّنَّا أنَّ ذلك صفةٌ راجعة إلى الذات كذلك هاهنا ، ولأنه ليس في حمله على ظاهره ما يُحيل صفاته ولا يُخرجها عما تستحقه ، لأنَّ طَرِيقَه الكمال والمدح ، ولأنه لو لم يُوصف بالجمال جاز أنْ يُوصَفَ بضدِّه وهو القُبْح ، ولَمَّا لم

---

(١) « النهاية » (١/ ٢٩٩) .

(٢) « النونية » (٢/ ٢١٤) .

يَجزْ أن يُوصف بضده ؛ جاز أنْ يُوصف به ، ألا تَرَى أنَّا وصفناه بالعلم والقدرة والكلام لأن في نفيها إثباتُ أضدادها وذلك مستحيلٌ عليه ، كذلك ها هنا .

فإن قيل : قوله : « جميل » بمعنى : مُجْمِل مَنْ شاء مِنْ خَلْقه ، لأنَّ فعيل قد يجيء على معنى : مُفعل ، ومنه قولنا : حكيمٌ والمراد محكم لما فعله .

قيل : هذا غلطٌ ، لأن الخبر وَرَد على سبب ، وهوالحثُّ لهم على التَّجمُّل في صفاتهم لا على معنى التجميل في غيرهم فكان مقتضى الخبر : إنَّ الله جميلٌ في ذاته يجب أنْ تتجملوا في صفاتكم ، فإذا حُمِل الخبر على فعل التجميل في الغير ، عدل بالخبر عمَّا قُصِدَ به .

فإن قيل : معنى الجمال ها هنا الإحسان والإفضال ، فيكون معناه : هو المظهر النعمة والفضل على مَنْ شاء من خَلْقه برحمته .

قيل : هذا غلطٌ لأنَّه قد ذَكَر الجمال والإحسان والإفضال فقال : «**جميل يُحبُّ الجمالَ ، وجوادٌ يحبُّ الجود ، وكريمٌ يحبُّ الكرماء** » فإذا حَملنا الجمال على ذلك حُمِلَ اللفظُ على التكرار وعلى ما لا يُفيد .

وجواب آخر : وهو أن نِعَم الله ظاهرةٌ ، فَحَمْلُ الخبر على هذا يُسقط فائدة التخصيص بالجمال [1].

فهو سبحانه الأجمل والأحسن في سائر صفات الكمال ، وصفاته كلها كمال جلَّ وعلا .

قال ابن جرير في قوله تعالى : ﴿ **وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ** ﴾ [النحل: ٦٠] : وهو الأفضلُ والأطيب والأحسن والأجمل ، وذلك التوحيد والإذعان له

---

(١) « إبطال التأويلات لأخبار الصفات » (٢/ ٤٦٥ ـ ٤٦٦) .

بأنه لا إله غيره [١].

٢ ـ الله تبارك وتعالى هو مُجْمِلُ من شاء مِن خَلْقه ، واهبُ الجمال والحُسْن لمن شاء ، كما مرَّ معنا قول ابن القيم رحمه الله إذْ يقول :

وهو الجميلُ على الحقيقةِ كيفَ لا وجمـالُ سَائـرِ هذه الأكْوان
مِـن بعـضِ آثارِ الجميـلِ فربُّهـا أَولى وأَجْـدرُ عند ذي العِرْفانِ

وقد نبّه الله تعـالى النـاس إلى ذلك في آيات كثيـرة ، فقـال سبحانه : ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠] ، وقال سبحانه : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الكهف: ٧] .

فالله سبحانه هو الذي زيّن الأرضَ وجمّلهـا بأنـواع الحدائق والبساتين والأشجار والأزهار والخضرة ، ذات البَهجة والحُسن والجمال ، بحيث أن الناظر إليها يَبْتهج وتفرح نفسُه بها ، وينشرح صدره بسببها .

ومثله قوله سبحانه عن الأنعام : ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ٦] .

أي في الأنعام جمالٌ وزينة في أعين الناس ، لحسن صورتها وتركيبها، وتناسق أعضائها وتناسبها [٢].

---

(١) « التفسير » (١٤/ ٨٤ ـ ٨٥) .

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مختصر الفتاوى المصرية (ص ٢١) : ... بل النظر إلى الأشجار والخيل والبهائم إذا كان على وجه استحسان الدنيا والرياسة والمال =

وهو أيضًا جلّ وعلا يَمتنّ على بنى آدم بذلك إذ يقول : ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝٦ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦ - ٨] .

وقال سبحانه : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] .

فقد خلق الله تعالى الإنسان في أحسن صورة وأجمل تقويم ، وهم أيضًا متفاوتون في هذا الحُسن والجمال ، فقد أُعطي يوسف عليه الصلاة والسلام شطر الحُسن كما قال ﷺ(١) ولما رأته النسوة ﴿أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١] .

٣ ـ وقد أُعطي نبينا ﷺ من ذلك حظًّا وافرًا ، تناسبُ الأعضاء ، وتناسقها ، وجمال الوجه واستدارته واستنارته ، وحُسْنُ القوام ورَبْعته ، ولين الكف وطيب رائحته ، وغير ذلك مما جاء في وصفه .

فعن ربيعة بن أبي عبد الرحمن قال سمعت أنس بن مالك يَصف

= فهو مذموم ، لقول الله تعالى : ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

وأما إذا كان على وجه لا ينقص الدين ، وإنما فيه راحة النفس فقط ، كالنظر إلى الأزهار ، فهذا من الباطل الذي يستعان به على الحق .

وقد ينظر إلى الإنسان لما فيه من الإيمان والتقوى ، وهنا الاعتبار بقلبه وعمله لا بصورته .

وقد ينظر إليه لما فيه من الصورة الدالة على المصور ، فهذا حسن .

وقد ينظر من جهة استحسان خَلْقه .

فكل قسم من هذه الأقسام متى كان معه شهوة كان حرامًا بلا ريب ، سواء كانت شهوة يمتع نظره بها ، أو كانت نظرة لشهوة الوطء .

وفرق بين ما يجده الإنسان عند نظره إلى الأزهار وبين ما يجده عند نظره إلى النسوان والمردان ، فلهذا الفرقان فرِّق في الحكم الشرعي ... إلى آخر كلامه رحمه الله تعالى .

(١) رواه مسلم في « الإيمان » (١/١٤٦) من حديث ثابت البناني عن أنس رضي الله عنه

النبي ﷺ قال : « كان رَبْعةً من القَوم ، ليس بالطَّويلِ ولا بالقصير ، أزهر اللون، ليس بأبيض أمْهق ولا آدَمَ ، ليس بَجْعد قَططِ ولا سَبطٍ رَجِل ... » (١).

وعن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال : « كان رسول الله ﷺ أحسنَ الناسِ وجهًا ، وأحسنَه خَلْقًا ، ليس بالطويل البائن ولا بالقصير » (٢).

وعنه : « كان النبي ﷺ مَربُوعًا بعيدَ ما بين المنكبين ، له شَعَرٌ يبلُغُ شحمةَ أُذنيه ، رأيتُه في حُلَّةٍ حمراء لم أرَ شيئًا قطُّ أحسَنَ منه » (٣).

وسئل رضي الله عنهما : « أكان وجهُ النبي ﷺ مثلَ السيف ؟ قال : «لا ، بل مثلَ القمر » (٤).

٤ ـ وكان مع ذلك من أحسن الناس أخلاقًا : سَماحة وشجاعة ، وحلمًا وكرما ، ورحمة وشفقة ، وصلة وبرًا ، كما وصفته خديجة رضي الله عنها بقولها : « إنك لَتَصِلُ الرحم ، وتَحملُ الكَلَّ ، وتَكْسِبُ المعدوم ، وتَقْرِي الضَّيفَ ، وتُعينُ على نوائبِ الحق » (٥).

وعن أنس رضي الله عنه قال : « خَدَمتُ رسول الله ﷺ عشرَ سنين والله ما قال لي : أُفًّا قط ، ولا قال لي لشيءٍ : لم فعلتَ كذا ؟ وهلاَّ فعلتَ كذا » (٦).

(١) رواه البخاري في « المناقب » (٦/ ٥٦٤) .

(٢) المصدر السابق ومسلم في « الفضائل » (٤/ ١٨١٩) .

(٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق .

(٥) المصدر السابق في « بدء الوحي » (١/ ٢٢) وغيره .

(٦) رواه البخاري في « الأدب » (١٠/ ٤٥٦)، ومسلم في « الفضائل» (٤/ ١٨٠٤) واللفظ له .

وقال : « كان رسول الله ﷺ أَحسَنَ الناسِ خُلُقًا »[1].

وقال : « كان رسول الله ﷺ أَحسَنَ الناس ، وكان أَجْودَ الناس ، وكان أَشجع الناس ... »[2].

وعن ابن عمرو قال : لم يكن رسول الله ﷺ فاحِشًا ولا مُتفشحًا ، وأنه كان يقول : إن خيارَكم أحسنُكم أخلاقًا »[3].

قال الراغب : الجمالُ : الحُسْنُ الكثير ، وذلك ضَرْبان : أحدهما : جمالٌ يختصُّ به الإنسان في نفسه أو بدنه أو فِعلِه ، والثاني : ما يُوصل منه إلى غيره .

وعلى هذا الوجه ما روي عنه ﷺ أنه قال : « **إن الله جميلٌ يحب الجمال**» تنبيهًا أنه منه تفيضُ الخيرات الكثيرة فيُحب من يختصُّ بذلك[4].

فسبحان من جمع لرسوله ﷺ بين كمال الخَلْق والخُلُق .

٥ ـ وقد أمر الله تعالى بملازمة كل خُلُقٍ جميل ، وأوصى نبيه ﷺ وأمته بذلك في آيات عديدة .

فقال سبحانه : ﴿**فَاصبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً**﴾ [المعارج: ٥] أي صبرًا لا شكوى فيه لأحدٍ غير الله تعالى[5] وذلك في مقابل استهزاء الكفار ، وعدم إيمانهم

(١) رواه بهذا اللفظ مسلم في « الفضائل » (٤/ ١٨٠٥) .

(٢) رواه البخاري في « الجهاد » (٦/ ٣٥ ، ٩٥ ، ١٦٣)، ومسلم في «الفضائل» (٤/ ١٨٠٢).

(٣) رواه البخاري في « الأدب » (١٠/ ٤٥٦) ، ومسلم في « الفضائل » (٤/ ١٨١٠) .

والفاحش ذو الفحش ، والمتفحش : الذي يتكلف الفحش ويتعمده لفساد حاله .

(٤) « المفردات » (ص ٩٧) .

(٥) قال ابن القيم رحمه الله : ولا تضاده « أي الصبر الجميل » الشكوى لله ، فقد قال يعقوب عليه السلام: ﴿ **إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ** ﴾ [يوسف: ٨٦] مع قوله : ﴿ **فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ** ﴾ [يوسف: ١٨] . وأما إخبار المخلوق بالحال ، =

بما يدعوهم إليه من الإيمان بالله واليوم الآخر .

وقال سبحانه : ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً﴾ [المزمل: ١٠] أي اصبر على ما يقول المشركون وعلى أذاهم واهجرهم في الله هجرًا جميلاً ، أي : لا عتاب معه ، وقيل : لا جزَع فيه ، وقيل : الهجر في ذات الله كما قال عز وجل : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: ٦٨] (١).

ومثلها قوله تعالى : ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥] (٢).

وقال عز وجل لنبيه ﷺ : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً﴾ [الأحزاب: ٢٨]. وقال في السورة نفسها : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً﴾ [الأحزاب: ٤٩] .

أي طلقوهن طلاقًا خاليًا من الأذى ، وعاريًا عن منع الحقوق الواجبة، وهذا هو السَّراحُ الجميل الذي يحبه الله عز وجل ورسوله ﷺ

= فإن كان للاستعانة بإرشاده أو معاونته أو التوصل إلى زوال ضَرره ، لم يقدح ذلك في الصبر، كإخبار المريض للطبيب بشكايته ، وإخبار المظلوم لمن ينتصر به بحاله ، وإخبار المبتلى ببلائه لمن كان يرجو أن يكون فرجه على يديه ، وقد كان النبي ﷺ إذا دخل على المريض يسأله عن حاله ويقول : « كيف تجدك » [رواه الترمذي بسند حسن] وهذا استخبار منه واستعلام. « عدة الصابرين » (ص٣٢٣) وانظر : « بشرى المخبتين بفضل الصبر والصابرين » لمقيده (ص ٣٠) .

(١) انظر « تفسير الطبري » من كتابه (٧/٣٩٥) ، و « تفسير ابن كثير » (٤/٤٣٧) .

(٢) انظر : « تفسير ابن كثير » (٢/٥٥٨) .

ويأمر به الله ورسوله ﷺ [1].

٦ ـ الله سبحانه يحبُ التَّجمل في غير إسرافٍ ولا مخيلة ، ولا بَطَر ولا كِبْر ، كما جاء في الحديث السابــق « **إنَّ الله جميلٌ يحب الجمال** » وقد قاله ﷺ جوابًا لمن قال له : « إن الرجل يحب أن يكون ثوبُه حَسَنًا ونَعْله حسنًا » وبين أن مجرد فعل ذلك ومحبته لا يُدخل في الكبر المذموم .

و « ... الجنة دار المتواضعين الخاشعين لا دار المتكبرين الجبَّارين ، سواء كانوا أغنياءَ أو فقراء ، فإنه قد ثبتَ في الصحيح أنه « **لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر ، ولا يدخل النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان** » فقيل : يا رسول الله ! الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونَعله حسنًا أفمن الكبر ذاك ؟ فقال : « **لا ، إنَّ الله جميلٌ يحبُ الجمال ، ولكنَّ الكبر بَطَر الحقِّ وغَمْط الناس** » .

فأخبر ﷺ أن الله يُحب التَّجملَ في اللباس الذي لا يحصل إلا بالغنى ، وأن ذلك ليس من الكبر .

وفي الحديث الصحيح : « **ثلاثةٌ لا يكلِّمهم اللهُ ولا يَنْظُر إليهم يومَ القيامة ولا يزكيهم ولهم عذابٌ أليم : فقيرٌ مختال ، وشيخٌ زانٍ ، ومَلِكٌ كذَّابٌ** ».

وكذلك الحديث المروي : « **لا يزال الرجلَ يذهبُ بنفسه ، ثم يذهب بنفسه ، ثم يذهب بنفسه ، حتى يكتب عند الله جباراً ، وما يملك إلا أهله** » [2].

---

(١) انظر : في هذا ابن كثير (٣/ ٤٨١) وغيره .

(٢) رواه الترمذي (٢٠٠٠) ، والطبراني في « الكبير » (٦٢٥٤) ، والبغوي في « شرح السنة » (٣٥٨٩) من طريق عمر بن راشد عن إياس بن سلمة بن الأكــوع عن أبيه مرفوعًا به ، =

فعلم بهذين الحديثين : أن من الفقراء مَن يكون مختالاً ، لا يدخل الجنة ، وأن من الأغنياء مَن يكون مُتجملاً غير متكبر ، يحبُ الله جماله، مع قوله ﷺ في الحديث الصحيح : « **إنَّ اللهَ لا يَنظُرُ إلى صُورِكم ولا إلى أموالِكم ، وإنما يَنْظر إلى قلوبكم وأعْمالكم** »[1].

ومن هذا الباب قول هِرقل لأبي سفيان : **أفَضُعفاء الناسِ** اتَّبعه أم أشرافهم ؟ قال : بل ضعفاؤهم ، قال : وهم أتباع الأنبياء ، وقد قالوا لنوح : ﴿ **أنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ** ﴾ [الشعراء: ١١١] فهذا فيه أنَّ أهل الرئاسة والشرف يكونون أبعد عن الانقياد إلى عبادة الله وطاعته ، لأن حبهم للرئاسة يمنعهم ذلك بخلاف المستضعفين ، وفي هذا المعنى الحديث المأثور ـ إن كان محفوظًا ـ « **اللهم أحيني مِسكينًا وأمتني مسكينًا ، واحْشرني في زمرة المساكين** »[2].

فالمساكين ضد المتكبرين ، وهم الخاشعون لله ، المتواضعون لعظمته ، الذين لا يريدون علوًّا في الأرض ، سواء كانوا أغنياء أو فقراء»[3].

* * *

= لكن دون تكرير لجملة : « لا يزال الرجل يذهب... » قال الترمذي : حسن غريب . وفيه عمر بن راشد وهو ضعيف .

(١) رواه مسلم في « البر والصلة » (١٩٨٧/٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) الراجح فيه أنه حديث صحيح لطرقه ، ولبسط الكلام عليه موضع آخر .

(٣) من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ، « مجموع الفتاوى » (١١/١٢٩ ـ ١٣٠).

الوِتْر

جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٦)

*** المعنى اللغوي :**

الوِتْرُ والوَتْر : الفَرْد أو مالم يَتشفَّع من العدد .

وأَوْتَرَه : أَفَذَّه .

قال اللحياني : أهلُ الحجاز يُسمُّونَ الفَرْد الوَتْر ، وأهل نجدٍ يكسِرون الواو .

وفي قوله عز وجل : ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ [الفجر: ٣] قراءتان بالفتح والكسر [١].

وأوتر الرجل : صلَّى الوتر ، وهى ركعة تكون بعد صلاته مثنى مثنى من الليل [٢].

*** وروده في الحديث الشريف :**

ورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « **لله تسعةٌ وتُسعون اسمًا، مَن حَفِظها دخل الجنة، وإنَّ الله وِتْرٌ يُحبُّ الوتر** » [٣] .

---

(١) قرأ عاصم ونافع وابن كثير وأبو عمـرو وابن عامر بفتح الواو ، وقرأ حمزة والكسائي بالكسر .

(٢) « اللسان » (٦/٤٧٥٧ ـ ٤٧٥٨)، و« الصحاح » (٢/٨٤٢)، و «المفردات» (ص ٥١١) .

(٣) متفق عليه ، انظر تخريجه في الجزء الأول .

* المعنى في حق الله تعالى :

قال ابن قتيبة : اللهُ جل وعزَّ وِتْرٌ ، وهو واحد [1].

وقـال الخطـابي : « الوتـر » هو الفَرْد الـذي لا شريك له ولا نظير [2].

وقال الحليمي : ومنها الوتر : لأنه إذا لم يكن قديمٌ سواه ، لا إله ولا غيرَ إله ، لم ينبغي لشيءٍ من الموجودات أن يُضم إليه فيُعدَّ معه ، فيكون والمعدود معه شفعًا ، لكنه واحدٌ فردٌ وِتر [3].

وقال البيهقي : « الوتر » هو الفرد الذي لا شريك له ولا نظير (وهو قول الخطابي) وهذه أيضًا صفةٌ يستحقها بذاته [4].

وقال الحافظ ابن حجر : « الوتر » الفرد ، ومعناه في حق الله أنه الواحد الذي لا نظير له في ذاته ولا انقسام ! [5].

* من آثار الإيمان بهذا الاسم :

١ ـ أن الله تعالى واحد لا شريك له ولا نظير ، بل هو الإله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كُفُوًا أحد .

وهو سبحانه واحـد في ذاته وفي صفاتـه وفي أفعالـه، قال عـز

---

(١) « غريب الحديث » (١/ ١٧٢) .

(٢) « شأن الدعاء » (ص ١٠٤) .

(٣) « المنهاج » (١/ ١٩٠) وذكره في الأسماء التي تتبع إثبات وحدانيته ، ونقله البيهقي في «الأسماء » (ص ١٥) لكن عبارته : «... أن يضم إليه فيعبد معه ، فيكون المعبود معه شفعًا ... » .

(٤) « الاعتقاد » (ص ٦٨) .

(٥) « الفتح » (١١/ ٢٢٧) .

وجل : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى: ١١] .

وقال : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم: ٦٥][١] .

٢ ـ وهو جل وعلا يحب الوتر ويأمر به في كثير من الأعمال والطاعات ، كما في الصلوات الخمس ووتر الليل وأعداد الطهارة وتكفين الميت وفي كثير من المخلوقات كالسماوات والأرض [٢] .

فقد روى علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **يا أهل القرآن أَوْتروا ، فإن اللهَ وترٌ يحبُ الوتر** »[٣] .

قال القرطبي في معنى قوله ﷺ : « **وهو وتر يحب الوتر** » : الظاهر أن الوتر هنا للجنس ، إذْ لا معهود جرى ذكره حتى يحمل عليه ، فيكون معناه أنه : يُحبُ كلَّ وترٍ شرعه .

ومعنى محبته له : أنه أَمَر به وأثاب عليه ، ويصلح ذلك لعموم ما خَلَقه الله وترًا من مخلوقاته .

أو معنى محبته له : أنه خصصه بذلك لحكمة يعلمها . ويحتمل أن يريد بذلك وترًا بعينه ، وإنْ لم يجرِ له ذكر ثم اختلف هؤلاء ، فقيل : المراد صلاة الوتر .

وقيل : يوم الجمعة .

وقيل : يوم عرفة .

وقيل : آدم .

---

(١) وانظر : آثار الإيمان بـ : « الواحد ـ الأحد » في المجلد الثاني من هذا الكتاب .

(٢) « الفتح » (١١/ ٢٢٧) نقلا عن القاضي عياض .

(٣) يأتي تخريجه.

وقيل غير ذلك .

قال : والأشبه ما تقدَّم من حمله على العموم [1].

قال : ويظهر لي وجهٌ آخر وهو : أن الوتر يُراد به التوحيد ، فيكون المعنى : أن الله في ذاته وكماله وأفعاله واحدٌ يحبُ التوحيد .

أي : أن يُوحَّد ويعتقد انفراده بالألوهية دون خلقه ، فيلتئم أول الحديث وآخره ، والله أعلم [2].

قال الحافظ معقبًا : قلت : لعل من حَمَله على صلاة الوتر ، استند إلى حديث علي : « إنَّ الوترَ ليس بِحَتمٍ ، ولا كصلاتكم المكتوبة ، ولكن رسول الله ﷺ أوتر ثم قال : « **أَوْتروا يا أهلَ القرآن ، فإن الله وترٌ يحب الوتر** » .

أخرجوه في السنن الأربعة وصححه ابن خزيمة واللفظ له [3].

فعلى هذا التأويل تكون اللام في هذا الخبر للعهد ، لتقدم ذكر الوتر المأمور به .

لكن لا يلزم أن يحمل الحديث الآخر على هذا ، بل العموم فيه أظهر ، كما أن العموم في حديث علي محتمل أيضًا [4].

٣ ـ وقد وردت عن السلف آثار في ذلك :

---

(١) انظر ما ورد عن السلف في تفسير « الشفع والوتر » : « تفسير ابن جرير » (٣٠/١٠٨ ـ ١١٠) ، و« الدر المنثور » للسيوطي (٨/٥٠٢ ـ ٥٠٤) .

(٢) « الفتح » (١١/٢٢٧) .

(٣) حديث صحيح ، رواه أبو داود (١٤١٦) ، والترمذي (٤٥٣) ، والنسائي (٣/٢٢٨ ـ ٢٢٩)، وابن ماجه (١١٦٩) ، وابن خزيمة (١٠٦٧)وغيرهم من حديث أبي إسحاق عن عاصم بن ضمرة عن علي به .

(٤) « الفتح » (١١/٢٢٧) .

فقال مجاهد في قوله تعالى ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ [الفجر: ٣] : كل خلق الله شفع : السماء والأرض ، والبر والبحر ، والجن والإنس ، والشمس والقمر .

والله الوتر وحده .

وفي رواية عنه قال : الخلق كله شفع ووتر ، أقسم بالخلق (١).

وعن الحسن قال : الخلق كله شفع ، ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ قال : كان أبي يقول : كل شيء خلق الله شفع ووتر ، فأقسم بما خلق ، وأقسم بما تبصرون وبما لا تبصرون (٢).

قال ابن جرير : وقال آخرون : بل ذلك الصلاة المكتوبة ، منها الشفع كصلاة الفجر والظهر ، ومنها الوتر : كصلاة المغرب .

ذِكْر من قال ذلك .

وذكر آثارًا منها :

عن قتادة قوله : ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ : إن من الصلاة شفعًا ، وإن منها وترًا (٣).

---

(١) « تفسير ابن جرير » (١٠٩/٣٠) ، وعبد الرزاق (٣٦٩/٢) عن ابن أبي نجيح عنه .

ويشهد له : ما أخرجه ابن جرير من وجه آخر عن ابن جريج عنه قال : في قوله : ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين﴾ قال : الكفر والإيمان ، والسعادة والشقاوة ، والهدى والضلالة ، والليل والنهار ، والسماء والأرض ، والجن والإنس ، والوتر الله ، قال : وقال في الشفع والوتر مثل ذلك .

(٢) ابن جرير (١٠٩/٣٠) عن ابن ثور عن معمر عنه . ورواية معمر عن الحسن منقطعة ، قال أحمد : لم يسمع من الحسن ولم يره بينهما رجل . « جامع التحصيل » (ص ٣٥٠) .

وأخرجه عبد الرزاق (٣٧٠/٢) دون قوله : كان أبي يقول ...

(٣) المصدر السابق ، وسنده حسن .

ثم قال ابن جرير مرجحًا :

والصواب من القول في ذلك أن يُقال : إن الله تعالى ذكره أقسم بالشفع والوتر ، ولم يُخصص نوعًا من الشفع ، ولا من الوتر دون نوع، بخبر ولا عقل ، وكل شفع ووتر فهو مما أقسم به مما قال أهل التأويل أنه داخل في قَسَمِه هذا ، لعموم قسمه بذلك [1].

* * *

(١) المصدر السابق (٣٠/ ١١٠) .

المُقَدِّم ـ المُؤَخِّر
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(٧ ـ ٨)

لارتباط الاسمين ببعضهما ، جعلنا الكلام عليهما في مكان واحد .

* **المعنى اللغوي :**

قَدَمَ بالفتح يَقْدُم قَدْمًا ، أي تَقدَّم ، قال الله تعالى : ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود: ٩٨] .

وقَدُم الشيء بالضم قِدَمًا فهو قديمٌ ، وتقادم مثله ، والقِدَم خلاف الحدوث .

وأَقْدَمَ على الأمر إقدامًا ، والإقدام : الشجاعة .

وأَقْدَمه وقدَّمه بمعنى .

وقدَّم بين يديه أي تقدَّم ، قال تعالى : ﴿لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١].

والقَدَمُ : قدَمُ الرَّجُل وجمعه أقدام ، وبه اعتُبِر التَّقدُّم والتأخر .

والقَدَمُ أيضًا : السابقة في الأمر كما في قوله عز وجل : ﴿قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢] (١).

* **أما المؤخِّر :**

أَخَّرتُهُ فتأخَّر واستَأخَرَ مثل تأخَّر .

---

(١) « الصحاح » (٥/٢٠٠٦ ـ ٢٠٠٧) ، و « اللسان » (٥/٣٥٥٢) ، و « المفردات » (ص ٣٩٧).

والآخِرُ : بعد الأول ، تقول : جاء آخرًا أي أخيرًا .

والتأخُّرُ ضد التَّقدم ، والتأخير ضد التَّقديم ، كما في قوله : ﴿ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح : ٢].

وقد تأخّر عنه تأخُّرًا وتَأَخُّرَةً .

وأخَّرْتُهُ فتأخَّر واستَأْخَرَ .

وفي التنزيل : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴾ [الحجر : ٢٤].

وآخِرةُ العين ومُؤْخِرُها ومُؤْخِرَتُها : ما وَلِيَ اللِّحاظ (أي الذي يلي الصُدْغ) ، ومُقْدِمها : الذي يلي الأنف .

ومُؤْخِرَةُ الرَّحل ومُؤَخَّرَتُه وآخِرتُه وآخِرِه ، كلُّه خلاف قادِمَتِه وهي التي يستند إليها الراكب [(١)].

وقال الراغب : وقولهم أبْعدَ اللهُ الآخِرَ ، أي المتأخّرَ عن الفضيلة ، وعن تَحدِّي الحق [(٢)].

*** ورودهما في الحديث الشريف :**

١ ـ وردا في حديث أبي بُردة بن أبي موسى الأشعري عن أبيه عن النبي ﷺ أنه كان يدعو بهذا الدُّعاء : « **اللهم اغْفِر لي خَطِيئتي وجَهْلي ، وإسْرَافي في أمري ، وما أنت أعلمُ به منِّي ، اللهم اغْفِر لي جِدِّي وهَزْلي ، وخطئي وعَمْدي ، وكلُّ ذلك عندي ، اللهم اغفِر لي ما قدَّمتُ وما أخَّرتُ ، وما أَسْررتُ وما أَعلنتُ ، وما أنتَ أعلمُ به مني ، أنتَ المُقَدِّمُ وأنت المُؤَخِّرُ ،**

---

(١) « الصحاح » (٢/٥٧٦ ـ ٥٧٧) ، و« اللسان » (١/٣٨ ـ ٣٩) .

(٢) « المفردات » (ص ١٤) .

وأنتَ على كل شيءٍ قديرٌ » (١).

٢ ـ ووردا في حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه في وصفه لصلاة النبي ﷺ إذ يقول : « ... ثم يكون من آخر ما يقول بين التشهد والتَّسليم : اللهم اغفر لي ما قدَّمتُ وما أخَّـرتُ ، وما أسررتُ وما أعلنتُ ، وما أسْرفتُ ، وما أنتَ أعلمُ به منـي ، أنتَ المقدِّم وأنـت المؤخِّـر لا إله إلا أنتَ » (٢).

٣ ـ ووردا في حديث ابن عباس رضيَ اللهُ عنهما قال : « كان النبيُّ ﷺ إذا قام منَ الليلِ يتهجَّدُ قال : اللَّهمَّ لكَ الحمدُ أنتَ قيِّمُ السماوات والأرضِ ومن فيهنَّ ، ولكَ الحمدُ لكَ مُلكُ السماوات والأرضِ ومن فيهنَّ ، ولكَ الحمدُ أنَت نورُ السماوات والأرضِ ، ولكَ الحمدُ أنتَ مَلكُ السماوات والأرضِ ، ولك الحمد أنتَ الحَقُّ ، ووَعدُكَ الحقُّ ، ولقاؤكَ حقٌّ ، وقولُكَ حقٌّ، والجَنَّةُ حق ، والنَّارُ حق ، والنبيُّونَ حقٌّ ، ومُحمدٌ ﷺ حقٌّ ، والساعةُ حقٌّ، اللَّهمَّ لكَ أسلمتُ ، وبكَ آمنتُ ، وعليكَ تَوكلتُ ، وإليكَ أنبتُ ، وبكَ خاصمتُ ، وإليكَ حاكمتُ ، فاغفرْ لي ما قَدَّمتُ وما أخَّرتُ ، وما أسرَرتُ وما أعلنتُ ، أنتَ المقدِّمُ وأنتَ المؤخِّرُ لا إلهَ إلاَّ أنت أو لا إلهَ غيرُك » (٣).

* معنى الاسمين في حق الله تعالى :

قال الخطابي : « المقدم » هو المنزّل للأشياء منازلها ، يقدّم ما شاء منها ، ويؤخِّر ما شاء ، قدَّم المقادير قبل أن يَخلق الخَلْقَ .

وقدَّم مَن أحبَّ من أوليائه على غيرهم من عَبيده .

---

(١) اخرجه البخاري في « الدعوات » (١١/ ١٩٦)، ومسلم في «الذكر والدعاء» (٤/ ٢٠٨٧) .

(٢) أخرجه مسلم في « صلاة المسافرين » (١/ ٥٣٦) .

(٣) اخرجه البخاري في مواضع أولها : في « التهجد » (٣/٣) .

ورفعَ الخَلْق بعضهم فوق بعض درجات ، وقدّم مَن شاء بالتوفيق إلى مَقَامات السابقين .

وأَخَّر مَن شاء عن مراتبهم وثبَّطهم عنها .

وأخَّر الشيء عن حين تَوقعه ، لعلمه بما في عواقبه من الحكمة .

لا مقدِّم لما أخَّر ، ولا مؤخر لما قدم .

قال : والجمع بين هذين الاسمين أحسن من التفرقة [1].

وقال الحليمي : « المقدِّم » : وهو المُعْطِي لَعَوالي الرُّتب .

ومنها « المؤخّر » : وهو الدافع عن عوالي الرُّتب [2].

وقال البيهقي : « المقدم والمؤخر » : هو المنزّلُ للأشياء مَنازلها ، يُقدّم ما شاء ومَنْ شاء ، ويُؤخِّر ما شاء ومَن شاء [3].

وقال ابن الأثير : في أسماء الله تعالى « المقدِّم » : هو الذي يُقدم الأشياء ويضعها في مواضِعها ، فمن استحق التقديم قدَّمه[4].

وقال في « المؤخر » : هو الذي يُؤخر الأشياء فيضَعُها في مواضعها، وهو ضد المقدم[5].

وقال النووي : يُقدّم مَن يشاء من خَلْقه إلى رحمته بتوفيقه ويُؤخِّر مَن يشاء عن ذلك لخِذلانه [6].

---

(١) انظر : « الأسماء والصفات » للبيهقي (ص ٨٦) .

(٢) « المنهاج » (ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨)، وذكرهما ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٨٦) ، والقرطبي في «الأسنى» (ورقة ٣٦٢ أ).

(٣) « الاعتقاد » (ص ٦٣) .

(٤) « النهاية » (٤/ ٢٥) ، ونقله ابن منظور في « اللسان » (٥/ ٣٥٥٢) ولم يعزه .

(٥) المصدر السابق (١/ ٢٩) ، و« اللسان » (١/ ٣٨) .

(٦) « شرح مسلم » (١٧/ ٤٠) .

وقال ابن القيم :

وهو المقدِّمُ والمؤخّـــرذَانك الـ ـصِّفتان للأفْعالِ تابعتانِ
وهما صفاتُ الذَّات أيضًا إذْ هما بالذَّاتِ لا بالغيرِ قائمتانِ

إلى آخر كلامه رحمه الله [1].

*** من آثار الإيمان بهذين الاسمين :**

١ ـ « من أسمائه سبحانه « المقدّم » و « المؤخر » ، وهما من الأسماء المتقابلة التي لا يجوز إفراد أحدها عن مُقابِلِه ، كما قدمنا ذلك في المعزّ والمذل ، والخافض والرافع ، والقابض والباسط ، والمانع والمعطي ، ونحوها .

فهو سبحانه المقدم لبعض الأشياء على بعض ، إما تقديمًا كونيًّا ، كتقديم بعض المخلوقات في الوجود على بعض ، وكتقديم الأسباب على مُسبباتها ، والشروط على مشروطاتها .

وإما تقديمًا شرعيا معنويا ، كتفضيل الأنبياء عليهم السلام على سائر البشر ، وتفضيل بعض النَّبيين على بعض ، وتفضيل العباد كذلك بعضهم على بعض .

وهو سبحانه المؤخر لبعضِ الأشياء عن بعض ، إما بالزمان أو بالشرع كذلك .

والتقديم والتأخير صفتان من صفات الأفعال التابعة لمشيئته تعالى

---

(١) « النونية » (٢/ ٢٤١) بشرح أحمد بن عيسى .
وقد وقع في البيت الأول « الصفان » ، « تابعان » ، وكلاهما خطأ .
وقد وقعا على الصواب في مطبوعة الهراس رحمه الله (٢/ ١٠٩) .

وحكمته وهما أيضًا صفتان للذات ، إذْ قيامها بالذات لا بغيرها .

وهكذا كل صفات الأفعال هي من هذا الوجه صفات ذات حيث أنَّ الذات مُتصفةٌ بها ، ومن حيث تعلقها بما ينشأ عنها من الأقوال والأفعال تُسمى صفات أفعال .

ولهذا غلط علماء الكلام من الأشاعرة حين ظنوا أن هناك نوعين مختلفين من الصفات : أحدهما : قائم بالذات لازمٌ لها . كصفات المعاني السبعة التي هي : ١ ـ العلم ، ٢ ـ والقدرة ، ٣ـ والإرادة ، ٤ ـ والحياة ، ٥ ـ والسمع ، ٦ ـ والبصر ، ٧ ـ والكلام .

والثاني : صفات أفعال لا تقوم عندهم بالذات ، بل هي نِسَبٌ إضافية عدمية ، تنشأ من إضافة المفعول لفاعله ، ولا يعقل لها وجود إلا بتلك الإضافة ، فوجودها أمرٌ سلبي ، وليس لها وجودٌ في نفسها ، فليس ثمت عندهم موجود إلا المفعولات ، وأما الأفعال فنسبٌ وإضافات!!

وهذا قولٌ باطل ! مخالف كما قدمنا لما دلَّ عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف ، بل والعقل أيضًا ، الذي يَقضي بأن تكون صفات الأفعال قائمة بمن فعلها ، ويكن متَّصفًا بها من قالها أو عملها ، إذْ لا يُتَصورَّ في العقل مفعولٌ من غير فعل ، ولا مخلوقٌ من غير خالق ، كما لا يَتصور أحدٌ اسمًا مشتقا ولا يكون دالاً على صفةٍ في المحل المسمى به .

والذي أوقعهم في هذا الغلط الشنيع : أن صفات الأفعال عندهم لا تكون إلا حادثة ! لتعلُّقها بالمفعولات الحادثة .

فيستحيل عندهم قيامها بذاته تعالى ، لأن قيامَ الحوادث به مستلزمٌ

لحدوثه ، فارتكبوا بهذه الأُكذوبة أعظم جناية على الدين ، حيث نَفَوا كلَّ الصفاتِ الفعلية التي جاء بها الكتاب والسنة ، من الاستواء على العرش والنزول إلى السماء الدنيا وتكليمه لبعض عباده في بعض الأزمنة ، وحبه ورضاه وغضبه ومقته ...إلخ .

كما نَفَوا أفعاله التي يوجدها شيئًا بعد شيء تبعًا لحكمته ، وأقواله التي يتكلم بها شيئًا بعد شيءٍ كذلك!

ولا شك أن هذا التعطيل لأفعاله لهو كتعطيل الجهمية والمعتزلة لصفات ذاته بلا فرق أصلاً ، فإذا كان هذا التعطيل لصفاته الذاتية باطلاً بإقرار هؤلاء أنفسهم ، فيجب أن يكون التعطيل لصفاته الفعلية باطلاً كذلك »[1].

٢ ـ وقال القرطبي بعد ذكر حديث ابن عباس السابق : « خرجه الأئمة ، وأجمعتْ عليهما الأمة ، ولا يجوز الدعاء بأحدهما دون الآخر ، قاله الحليمي .

وكلاهما ظاهرُ المعنى ، وهما من صفات الأفعالِ ، يَرفع من يشاء ، ويَخفض من يشاء ، ويُعز من يشاء ، ويُذلُّ من يشاء ، ويُقرّب من يشاء ، ويُبعد من يشاء ، فمن قُدِّم فقد نال المراتبَ العُلى ، ومَن أُخِّر فقد رُدَّ إلى السُّفلى .

قال الحليمي : « المقدم » : هو المُعطي لعوالي الرتب ، و« المؤخر » هو الدافع عن عوالي الرتب .

فقرَّب أنبياءَه وأولياءه بتقريبه وهدايته ، وأخْزى أعداءَه بإبعاده ،

(١) من كلام الشيخ محمد خليل هراس رحمه الله على « النونية » (٢/ ١١٠ ـ ١١١) .
وانظر شرح الشيخ أحمد بن عيسى إن شئت (٢/ ٢٤٢) وما بعدها .

وضَرب الحجاب بينه وبينهم .

قدَّر المقادير قبل أن يخلقَ الخَلْق ، وقَدَّم مَن أحب من أوليائه على عبيده ، ورفع الخَلْق بعضَهم فوق [بعضٍ] درجات ، ﴿ **لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ** ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وكلٌّ ممكن إنما تخصَّص في زمانه وصفاته وسائر أحواله ، بإرادة الخالق سبحانه .

وقد يُراد بالتقديم والتأخير : بعض الموجوداتِ على بعض في الإبداع ، وتأخير بعضها على بعض .

وقد يُراد بهما : تقديم بعض الموجوداتِ على بعض في الرُّتبه والشَّرف ، وتأخير بعضها على بعض ، كما ذكرنا .

فعلى هذا ، قد يكون الشيء مُقدَّمًا في الإبداع والشَّرف معًا ، وقد يكون مقدَّما في الإبداع مُؤخَّرًا في الشَّرف .

وقد يكون مُؤَخَّرًا في الإبداع مُقدَّمًا في الشرف ، كمحمدٍ ﷺ الذي هو آخر الأنبياء وهو أشرفهم .

وكنوع الإنسانِ الذي أبْدعه اللهُ بعد موجوداتٍ كثيرة ، وفَضَّله على كثيرٍ منها ، وقدَّم إبليس قبل موجوداتٍ كثيرة ، وهو شرٌّ منها كلها .

وقد يجتمع لبعض الموجوداتِ تقديم الإبداع والشرف ، كالعرش والكرسي والقلم والعقل ، الذي هو من أول المبتدعات ، وهي عند الله مُشَرَّفات » [1].

---

(١) « الكتاب الأسنى » (٢/ورقة ٣٦٢ أ ـ ب) ، وهو بنحو ما قال الغزالي في « المقصد » (ص ٨٥) .

٣ ـ فيجب على كل ملكف أن يعتقد أن الله تعالى هو المقدم المؤخر بكل اعتبار ، قدَّم من شاء وأخَّر من شاء ، في الخَلْق والرُّتبة ، أو الرتبة دون الخَلْق ، وهو سبحانه على كلِّ شيء قدير .

وإذا كان هذا فحقٌّ على الإنسان أن يقدّم ما قدَّمه الله ، ويؤخر ما أخَّره الله ، فإنه تعالى الخافض الرافع ، فيعزُّ من أعزَّه الله بطاعته من إخوانه المؤمنين ، ويهجر من أذَلَّه الله بمعصيته ، ثم إذا تابَ عَطَفَ عليه وقدَّمه بحسب درجته [١].

فمن أراد أن يرفعه الله تعالى ، ويُقدمه على غيره ، فليسابق إلى طاعته والعمل بمرضاته ، والتقرب إليه بما استطاع من محبوباته فإنه سبيل التقديم إلى مراتب الشرف والكرامة والخير والرحمة في الدنيا والآخرة .

وأما من تراخى عن الأخذ بمعاقد العزِّ والشرف ، وتكاسل عن القيام بما أوجب الله عز وجل عليه من الواجبات وتخلَّف ، وتعدَّى حدود الله ، وللتوبة سَوَّف ، فإنه المتأخر عن درجات الخير والثواب ، المؤخر في الآلام والعذاب .

فعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ رأى في أصحابه تأخُّرًا فقال لهم : « **تَقدَّموا فأتموا بي ، وليأتمَّ بكم مَن بعدَكم ، لا يزال قومٌ يتأخرونَ حتى يؤخرهم** » [٢].

وفي رواية : رأى رســـول الله ﷺ قومًا في مَؤخَّرِ المسجد فذكر مثله [٣].

---

(١) المصدر السابق باختصار وتصرف .

(٢) أخرجه مسلم في « الصلاة » (١/ ٣٢٥) ، وأبو داود (٦٨٠) ، والنسائي (٢/ ٨٣) ، وابن ماجة (٩٧٨) .

(٣) أخرجها مسلم في الموضع السابق .

وقد قيل : إن معنى « يؤخرهم الله » : أي عن رحمته .

وقد ورد ما يشبه هذا .

فعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « **لا يزالُ قومٌ يتأخَّرون عن الصفِّ الأول ، حتى يؤخرهم الله في النار** »[1].

ولهذا حثَّ ﷺ أصحابه إلى التقدم إلى الصفوف الأولى والتسابق عليها ، والتبكير إلى المساجد ، فقال عليه الصلاة والسلام :« **لو يعلم الناسُ ما في النِّداء والصفِّ الأول ثم لم يجدوا إلا أن يَسْتهموا عليه لاسْتَهموا، ولو يعلمون ما في التَّهجير ، لاستَبَقوا إليه ، ولو يَعلمون ما في العَتَمةِ والصُّبحِ لأَتَوْهُما ولو حَبْوًا** »[2].

وقد قال عز وجل : ﴿ **وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وقال سبحانه : ﴿ **سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** ﴾ [الحديد: ٢١].

فمن كان سبَّاقًا إلى الخيرات وعمل الصالحات في الدنيا ، كان من السابقين لدخول الجنات في الأخرى ، والناس في هذا درجات .

ففي الحديث في صفات المارِّين على الصراط يقول ﷺ : « ... **فَيَمرُّ أَوَّلُكم كالبرقِ ، قال : قلتُ : بأبي أنت وأمي ، أي شيء كمرِّ البرق ؟ قال: أَلم تروا إلى البَرق كيف يمرُّ ويرجعُ في طرفةِ عين ؟ ثم كمرِّ الريح ، ثم**

---

(١) صحيح ، أخرجه أبو داود (٦٧٩) ، وعبد الرزاق في « المصنف » (٢٤٥٣) ، وابن خزيمة (١٥٥٩) ، وابن حبان (٥/ ٢١٥٦) وفي سنده لين لكنه يتقوى بما قبله .

(٢) رواه مسلم في « الصلاة » (١/ ٣٢٥) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه .

كمر الطَّير وشَدِّ الرجال ، تجري بهم أعمالُهم ، ونبيكم قائمٌ على الصراط يقول: ربِّ سلِّم سلِّم ، حتى تعجز أعمالُ العباد ، حتى يجيءَ الرَّجُلُ فلا يستطيعُ السيرَ إلا زَحْفًا ، قال : وفي حافتي الصراط كلاليب مُعلَّقةٌ مأمورةٌ بأخذ من أُمِرت به ، فمخدوش ناجٍ ومكدوس في النارِ » [1].

ويذكر ﷺ من أخِّر عن دخول الجنة حتى دخل أهل الجنة كلهم إلى منازلهم وبقي هو ، فيقول ﷺ عنه : « ... ثم يَفرُغ اللهُ تعالى من القضاء بين العباد ، ويَبقى رجلٌ مقبلٌ بوجهه على النار ، وهو آخرُ أهل الجنة دخولاً الجنة، فيقول : أي ربِّ ! اصْرِف وجهي عن النار ، فإنه قد قشبني ريحُها وأحرقني ذكاؤُها فَيَدعو الله مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَدْعُوا ، ثُمَّ يقولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : هَلْ عَسَيْتَ إنْ فَعَلْتُ ذَلكَ بكَ أَنْ تَسْأَلَ غَيْرَهُ ! فَيَقُولُ : لاَ أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ ، وَيُعْطِي رَبَّهُ مِنْ عُهُود وَمَوَاثِيقَ مَا شَاءَ اللهُ ، فَيَصْرِفُ اللهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّار ، فَإِذَا أَقْبَلَ عَلَى الْجَنَّة وَرَآهَا سَكَتَ مَاشَاءَ اللهُ أَنْ يَسْكُتَ . ثُمَّ يَقُولُ : أَيْ رَبِّ ! قَدِّمْنِي إِلَى بَاب الجَنَّة، فَيَقُولُ اللهُ لَهُ : أَلَيْسَ قَدْ أَعْطَيْتَ عُهُودَكَ وَمَوَاثِيقَكَ لاَ تَسْأَلُنِي غَيْرَ الَّذي أَعْطَيْتُكَ وَيْلَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مَا أَغْدَرَكَ ! فَيَقُولُ : أَيْ رَبِّ ! وَيَدْعُو اللهَ حَتَّى يَقُولَ لَهُ : فَهَلْ عَسَيْتَ إِنْ أَعْطَيْتُكَ ذَلكَ أَنْ تَسْأَلَ غَيْرَهُ ! فَيَقُولُ : لاَ وَعِزَّتكَ ! فَيُعْطِي رَبَّهُ مَا شَاءَ اللهُ مِنْ عُهُود وَمَوَاثِيقَ ، فَيُقَدِّمُهُ إِلَى بَاب الجَنَّة ، فَإِذَا قَامَ عَلَى بَاب الجَنَّة انفهقَتْ [2] لَهُ الجَنَّةُ ، فَرَأَى مَا فِيهَا مِنَ الخَيْرِ وَالسُّرُور ، فَيَسْكُتُ مَاشَاءَ اللهُ أَنْ يَسْكُتَ ، ثُمَّ يَقُولُ : أَيْ رَبِّ ! أَدْخِلْنِى الجَنَّةَ ، فَيَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ: أَلَيْسَ قَدْ أَعْطَيْتَ عُهُودَكَ وَمَوَاثِقَكَ أَنْ لاَ تَسْأَلَ غَيْرَ مَا أُعْطِيتَ ، وَيْلَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مَا أَغْدَرَكَ ! فَيَقُولُ : أَيْ رَبِّ ! لاَ أَكُونُ أَشْقَى خَلْقكَ ، فلاَ يَزَالُ يَدْعُو

(١) رواه مسلم في « الإيمان » (١/ ١٨٧) من حديث أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما .

(٢) أي انفتحت واتسعت .

اللهَ حتَّى يَضْحَكَ اللهُ تَبَارَكَ وتَعَالَي منْهُ ، فَإذَا ضَحكَ اللهُ منْهُ ، قَالَ : ادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَإذا دَخَلَهَا قَالَ اللهُ لَهُ : تَمَنَّهْ ، فَيَسْأَلُ رَبَّهُ ويَتمنَّى ، حَتَّى إنَّ اللهَ لَيُذَكِّرُهُ منْ كَذَا وكَذَا[1] ، حتَّى إذَا انْقَطَعَتْ به الأَمَانيُّ . قَالَ اللهُ تَعالَى : ذَلكَ لَكَ ومثْلُهُ معهُ » .

قَالَ عطَاءُ بْنُ يَزِيدَ : وأَبُو سَعِيد الْخُدْرِيُّ مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ لاَ يَرُدُّ عَلَيْه منْ حَديثه شَيْئًا . حتَّى إذَا حَدَّثَ أَبُو هُرَيْرَةَ : إنَّ اللهَ قَالَ لذَلكَ الرَّجُلِ : «وَمثْلُهُ مَعَهُ » . قَالَ أَبُو سَعيد : وَعَشَرَةُ أَمْثَاله مَعَهُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ! قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : مَا حَفظْتُ إلاَّ قَوْلَهُ : « ذَلكَ لَكَ ومثْلُهُ معهُ » . قَالَ أَبُو سَعيد : أَشْهَدُ أَنِي حفظتُ من رسول الله ﷺ قوله « ذَلكَ لَكَ وعَشَرةُ أَمْثَاله » قال أبو هريرة: وذلك الرجلُ آخر أهل الجنة دخولاً الجنة[2].

* * *

(١) أي يقول له ربه : تمنَّ من الشيء الفلاني والشيء الفلاني ، يسمي له أجناس ما يتمنى ، فسبحان الملك الرؤوف الرحيم .

(٢) رواه البخاري في « الرقاق » (١١/ ٤٤٥) ، وفي « التوحيد » (١٣/ ٤٢٠) ، ومسلم في «الإيمان» (١/ ١٦٥ ـ ١٦٧) . من حديث عطاء بن يزيد الليثي عن أبي هريرة رضي الله عنه به

الدَّيَّانُ

جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٩)

*** المعنى اللغوي :**

الدِّينُ : الجزاء والمكافأة .

يقال : دانَه دَينا أي : جازاه ، يقال : كما تَدين تُدَانُ .

أي : كما تُجَازِي تُجَازَى ، أي : تجازَى بفعلك وبحسب ما عملت .

وقوله تعالى : ﴿أَئِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصافات: ٥٣] أي : مجزيون محاسبون[١] .

ومنه : ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] أي يوم الحساب .

قال الجوهري : ومنه الدَّيان في صفة الله تعالى [٢].

والدِّين : الذُّل ، والمَدِين : العبد ، والمَدِينة : الأَمَةُ ، كأنهما أذلَّهما العمل .

والدِّين : الطاعة ، ودَانَ له أي : أطَاعه .

ومنه : الدِّين والجمع أديان .

يقال : دَانَ بكذا ديانةً وتَديَّنَ به ، فهو دِيِّنٌ ومُتَدَيِّنٌ .

---

(١) وقال الفراء : في قوله تعالى ﴿فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها﴾ : غير مدينين أي : غير مملوكين ، قال : وسمعت : غير مَجْزِيين « اللسان » (٢/١٤٦٩) .

(٢) « الصحاح » (٥/٢١١٨) .

والدَّيان : القَهَّار ، وهو فعَّال ، من : دانَ الناس ، أي : قهرهم على الطاعة . ودِنْتُ الرجل : حَمَلْتُه على ما يكره .

والدِّين : العادة والشأن والحال .

تقول العرب : ما زال ذلك ديني ودَيْدني ، أي عادتي .

والدَّين : واحد الدُّيون ، تقول : دِنْتُ الرجل أقرضته ، فهو مَدِينٌ ومَدْيون (١).

وأَدَنْتُهُ جَعَلْتُه دائنًا وذلك بأن تعطيه دَيْنًا .

والدِّين : يقال للطاعة والجزاء واستعير للشريعة .

والدِّين كالملة ، لكنه يقال اعتبارًا بالطاعة والانقياد للشريعة ، قال تعالى : ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩] .

وقال : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء:١٢٥] أي طاعةً (٢).

*** وروده في الحديث الشريف :**

ورد فيه حديث جابر بن عبد الله يقول : بلغني حديث عن رجل سمعه من رسول الله ﷺ فاشتريت بعيرًا ثم شددت عليه رحلي فسرت إليه شهرًا حتى قدمت عليه الشام فإذا عبد الله بن أنيس ، فقلت للبواب : قل له جابر على الباب فقال : ابن عبد الله ؟ قلت : نعم ، فخرج يطأ ثوبه فاعتنقني واعتنقته ، فقلت : حديثا بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ في القِصاص فخشيت أن تموت أو أموت قبل أن أسمعه ،

(١) انظر : « الصحاح » (٥/٢١١٧ ـ ٢١١٩) ، و « اللسان » (٢/١٤٦٧ ـ ١٤٧٠) ، و «غريب الحديث » لأبي عبيد (٣/ ١٣٥ ـ ١٣٦) .

(٢) « المفردات » للراغب (ص ١٧٥) .

قال : سمعت رسولَ الله ﷺ يقول : « يُحشرُ الناسُ يومَ القيامة ـ أو قال العباد ـ عُراة غُرلاً بُهْمًا » ، قال : قلنا : وما بُهْما ؟ قال : « ليس معهم شيءٌ، ثم يُناديهم بصَوت يَسمعه من بَعُد كما يَسمعه مَنْ قَرُب : أنا الملكُ ، أنا الديّان ، ولا ينبغي لأحدٍ من أهلِ النار أنْ يدخلَ النار ، وله عند أحدٍ من أهلِ الجنة حقٌّ ، حتى أقُصَّه منه ، ولا ينبغي لأحدٍ من أهلِ الجنة أن يدخُلَ الجنة ولأحدٍ من أهلِ النار عنده حقٌّ ، حتى أقصه منه حتى اللَّطمة » ، قلنا : كيف! وإنا إنما نأتي الله عز وجل عُراةً غرلاً بُهْمًا؟ قال: « بالحَسَنات والسَّيئات».

زاد في رواية الحاكم والبيهقي : وتلا رسول الله ﷺ : ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ﴾ [غافر: ١٧][1].

---

(١) صحيح، أخرجه ابن أبي عاصم في « السنة » (١/ ٢٢٥) ، وأحمد (٣/ ٤٩٥) ، والبخاري تعليقًا (١٣/ ٤٥٣) مختصرًا ، وفي « الأدب المفرد » (٩٧٠) ، وفي « خلق أفعال العباد » (ص ١٤٩ ـ ١٥٠) ، والحارث بن أبي أسامة (٤٤ـ زوائد) ، والطبراني في « الكبير » ـ كما في المجمع (١/ ١٣٣) ـ ، والحاكم (٢/ ٤٣٧ ـ ٤٣٨) (٤/ ٥٧٤ ـ ٥٧٥) ، وعنه البيهقي في « الأسماء » (ص٧٨ ـ ٧٩) ، والخطيب في « الرحلة في طلب الحديث » (٣١، ٣٢) كلهم عن همام بن يحيى عن القاسم بن عبد الواحد المكي عن عبد الله بن محمد بن عقيل أنه سمع جابرًا...

قال الحاكم : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي .

وقال الهيثمي : رواه أحمد ، والطبراني في « الكبير » ، وعبد الله بن محمد ضعيف !

قلت : حديثه لا ينزل عن رتبة الحسن .

قال الترمذي : صدوق ، وقد تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه ، وسمعت محمد ابن إسماعيل « يعني البخاري » يقول : كان أحمد وإسحاق والحميدي يحتجون بحديث ابن عقيل ، قال محمد بن إسماعيل : وهو مقارب الحديث .

والحديث فيه : القاسم بن عبد الواحد المكي ، قال ابن أبي حاتم عن أبيه : يكتب حديثه ، قلت : يحتج به ؟ قال : يحتج بحديث سفيان وشعبة .

أي: هو ليس بالمرتبة العليا . وذكره ابن حبان في « الثقات » .

وورد في حديث أبي قِلابة عن أبي الدرداء : البِرُّ لا يَبْلَى ، والإثمُ لا يُنسى ، والدَّيان لا يَنَام ، فَكُنْ كما شئتَ ، كما تَدِينُ تُدان [(١)].

= وله طريق آخر يتقوى بها :

قال الحافظ في « الفتح » : وله طريق أخرى أخرجها الطبراني في « مسند الشاميين » ، وتمام في « فوائده » من طريق الحجاج بن دينار عن محمد بن المنكدر عن جابر ... فذكر نحوه.

قال الحافظ : وإسناده صالح « الفتح » (١/ ١٧٤) .

وله طريق أخرى : عند الخطيب ، وهي ضعيفة ، أنظر تعليقنا على « مناظرة في خلق القرآن» لابن قدامة (ص ٧٠ ـ ٧٢) .

* والحديث فيه : إثبات صفة الكلام لربنا سبحانه ، وأنه يتكلم بصوت يُسمع ، وحرف يُفهم ، وهو معتقد السلف رحمهم الله .

(١) موقوف رجاله ثقات ، أخرجه أحمد في « الزهد » (ص ١٤٢) عن عبد الرزاق أنبأنا معمر عن أيوب عن أبي قلابة به .

ورجاله ثقات ، لكن في سماع أبي قلابة من أبي الدرداء نظر ، قال الحافظ في « الفتح » (٨/ ١٥٦) : أبو قلابة لم يدرك أبا الدرداء .

قلت : أبو قلابة واسمه عبد الله بن زيد الجرمي من فقهاء التابعين ، وروايته عن مالك بن الحويرث ، وأنس بن مالك ، وثابت بن الضحاك متصلة وهي في الكتب الستة .

وكذا روايته عن عائشة في « صحيح مسلم » [كما في « جامع التحصيل » (ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨)] .

فالجزم بعدم إدراكه لأبي الدرداء فيه ما فيه ، والله أعلم .

وله شاهد : يرويه المروزي في « زوائد الزهد » لابن المبارك (١١٥٥) ، وأبو نعيم (١/ ٢١١ ـ ٢١٢) عن الأعمش عن عبد الله بن مرة عن أبي الدرداء : اعبدوا الله كأنكم ترونه ، وعدُّوا أنفسكم في الموتى ، واعلموا أن قليلا يكفيكم خير من كثير يلهيكم ، واعلموا أن البر لا يبلى ، وأن الإثم لا ينسى .

وعبد الله بن مرة ثقة روى عن ابن عمر وغيره .

وقد جاء الأثر مرفوعًا : عند البيهقي في « الأسماء والصفات » (ص ٧٩) من طريق عبد الرزاق أنبأنا معمر عن أيوب عن أبي قلابة قال : قال رسول الله ﷺ : ... فذكره . =

* **معنى الاسم في حق الله تعالى :**

قال الخطابي : الدَّيان : وهو المُجَاري .

يقال : دِنْت الرجل إذا جزيته ، أَدينُه .

والدِّين : الجزاءُ ، ومنه المَثَل : « كما تَدينُ تُدان » .

والدَّيان أيضًا : الحاكم ، ويقال : مَنْ دَيَّانُ أرضكم ؟ أي : مَنْ الحاكمُ بها ؟ (١).

وقال الحليمي : ومنها « الدَّيان » ، أخذ من ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وهو: الحاسبُ والمُجاري ، ولا يُضيع عملاً ، ولكنه يَجزي بالخير خيرًا، وبالشَّر شرًّا (٢).

وقال ابن الأثير : في أسماء الله تعالى « الدَّيَّان » قيل : هو القَهَّار .

وقيل : هو الحاكمُ القاضي .

وهو فعَّالٌ ، من : دَانَ الناس أي : قهرهم على الطاعة .

يقال : دِنْتُهم فدانوا ، أي : قهرتُهم فأطاعوا (٣).

= قال البيهقي : هذا مرسل .

وقال الحافظ : وله شاهد موصول من حديث ابن عمر أخرجه ابن عدي وضعفه .

قلت : هو في ترجمة محمد بن عبد الملك الأنصارى (٦/٢١٦٨) ، ورواه أيضًا أبو نعيم، والديلمي كما في « الضعيفة » (١٥٧٦) .

ومحمد بن عبد الملك قال النسائي : متروك.

وقال مرة : منكر الحديث . وكذا قال الشافعي ومسلم .

(١) « شأن الدعاء » (ص ١٠٦) مختصرًا ، ونقله الأصبهاني في « الحجة » (١/١٦٤) .

(٢) « المنهاج » (١/٢٠٦) وذكره في الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه ، ونقله البيهقي في « الأسماء » (ص ٧٨) ، والحافظ في « الفتح » (١٣/٤٥٨) وعنده : لا يضيع عمل عامل .

(٣) « النهاية » (٢/١٤٨) ، ونقله ابن منظور في « اللسان » ، ولم يعزه له.

* من آثار الإيمان بهذا الاسم :

١ ـ أن الله تعالى هو الدَّيان المحاسب والمجازي للعباد ، وهو الحاكم بينهم يوم المعاد ، كما قال سبحانه : ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] وقال : ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧] .

فمن وجد خيرًا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يَلومنَّ إلا نفسه : ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠] .

وقال سبحانه : ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقال سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

قال القرطبي : فيجب على كل مكلَّفٍ أن يعلم أن الله سبحانه هو «الديَّان» يوم القيامة ، الذي يُجازي كُلاً بعمله ، فيقتصُّ للمظلوم من الظالم ، ومن السيد لعبده ، كما في حديث عائشة أن رجلاً قَعَد بين يدي النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنَّ لي مملوكين ... الحديث خرَّجه الترمذي(١) وقد تقدم في اسمه الحاسب .

---

(١) حديث صحيح ، أخرجه أحمد (٦/ ٢٨٠) ، والترمذي (٣١٦٥) عن عبد الرحمن بن غزوان أبي نوح حدثنا ليث بن سعد عن مالك بن أنس عن الزهري عن عروة عن عائشة : ان رجلاً قَعَد بين يدي النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني وأشتمهم وأضربهم فكيف أنا منهم ؟ قال : « يُحْسبُ ما خانوكَ =

وروى مسلم[1] عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أَتَدرونَ مَا المُفْلس ؟ » قالوا : المفلسُ فينا مَن لا دِرهمَ له ولا مَتَاع ، قال : « إن المُفْلس من أُمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي وقد شَتَم هذا ، وقَذَفَ هذا ، وأكَل مالَ هذا ، وسفكَ دَمَ هذا ، وضربَ هذا ، فَيُعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فإن فَنيتْ حسناته قبل أن يُقْضى ما عليه أُخذَ من خَطَايَاهم فَطُرِحتْ عليه ثم طُرِحَ في النار » .

ثم عليه أن يَدين بطاعته .

وكما يَدين يُدان .

وهل جزاءُ الإحسانِ إلا الإحسان .

فإذا دَانَ نفسه بالطاعة ، وَحكَم قَلبه الذي هو الأميرُ على رعاياه التي هي جوارحه ، واشْتدَّ في الحكم لدين الله الذي به نبيه ﷺ ، وأشَاع هذا في الخَلق ، وأَظهر دين الله بالحق ، فهو دَيَّانٌ من دَيَّاني هذه الأُمة ، وقد استوجب يومَ الدين : عظيمَ الحُرْمة [2].

= وعَصَوكِ وكذبوك وعقابُك إياهم ، فإنْ كان عِقابُك إيَّاهم بقدر ذنوبهم كان كفافًا ، لا لك ولا عليك ، وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلاً لك ، وإن كان عقابُك إياهم فوق ذنوبهم اقتصَّ لهم منك الفَضْل » قال فتنحَّى الرجل فجعل يبكي ويهتف ، فقال رسول الله ﷺ : « أما تقرأ كتابَ الله ﴿ ونضعُ الموازين القِسْط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئًا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ فقال الرجل : والله ما أجد ... ولهؤلاء شيئًا خيرًا من مفارقتهم ، أشهدكم أنهم أحرارٌ كلهم .

وإسناده صحيح ، رجاله ثقات رجال الشيخين سوى عبد الرحمن بن غزوان المعروف بقُراد فثقة من رجال البخاري وحده . وقال الحافظ : ثقة له أفراد .

(١) مسلم في « البر » (٤/١٩٩٧) .

(٢) « النكت ... الأسنى » (٢/ ورقة ٣٨١ ب ٣٨٢ أ) .

٢ ـ ينبغي للعبد أن يحاسب نفسه قبل أن يُحاسب ويستعد للقاء ديان السموات والأرضين قبل مجيء يوم الدين .

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا وزِنوا أنفسكم قبل أن تُوزنوا ، فإنه أهون عليكم في الحساب غدًا ، أن تحاسبوا أنفسكم اليوم ، وتَزَيَّنوا للعَرض الأكبر ، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية [١].

وقد ورد في حديث جابر السابق أن الناس يحشرون يوم القيامة عُراة غرلاً بُهْما ـ أي : ليس معهم شيءٌ ـ ثم يناديهم بصوت يسمعه البعيد كما يسمعه القريب قائلا لهم : أنا الملكُ أنا الديان ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحدٍ من أهل الجنة حقٌّ ، حتى أَقُصَّهُ منه .

ولا ينبغي لأحدٍ من أهل الجنة أن يَدخل الجنة ولأحدٍ من أهل النار عنده حقٌّ حتى أقصَّه منه حتى اللَّطمة .

فسأل أصحاب النبي ﷺ عن كيفية القصاص وقد حشروا حفاةً عراة بُهْمًا ليس معهم درهم ولا دينار ؟!

فأجابهم ﷺ : أن القصاص يكون بالحسنات والسيئات ، أي : يأخذ المظلوم من حسنات الظالم ، فإنْ لم يكن عنده حسنات أُخذ من سيئات المظلوم فوضعت على الظالم ، ثم تلا رسول الله ﷺ الآية: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ [غافر : ١٧].

قال القرطبي[٢]: ولقد أحسن أبو العتاهية في قوله حين حبسه الرشيد:

---

(١) أثر موقوف حسن ، رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس والإزراء عليها » برقم (٢) . وذكره الترمذي تعليقًا في « صفة القيامة » (٤/٦٣٨).

(٢) «الكتاب الأسنى » (٢/ ورقة ٣٨١ أ) .

أَمَــا واللهِ إنَّ الظُّلْــمَ لُؤْمٌ ... ومازال المُسِيءُ هو الظَّلومُ
إلى ديَّانِ يومِ الدِّين نَمْضي ... وعند اللهِ تجتمعُ الخُصُومُ

❋ ❋ ❋

الحَنَّانُ
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(١٠)

*** المعنى اللغوي :**

الحَنَان : الرحمة .

يقال منه : حَنَّ عليه يَحِنُّ حنانًا .

ومنه قوله تعالى : ﴿ **وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا** ﴾ [مريم: ١٣].

والحَنَّان بالتشديد : ذو الرحمة ، والذي يحنُّ إلى الشيء .

وتحنَّنَ عليه : تَرحَّم .

والعرب تقول : حَنَانَك يا رب ، وَحَنَانَيْكَ يا رب ، بمعنى واحد ، أي : رحمتك ، وحنانًا بعد حنان .

وقال ابن سيده في معناه : كلما كنتُ في رحمةٍ منك وخيرٍ فلا ينقطعنَّ ، وليكن موصولا بآخر من رحمتك [١].

وقال طَرَفة :

أَبَا مُنْذِرٍ أَفْنَيتَ فاستَبْقِ بعضَنَا حَنَانَيكَ بعضُ الشرِّ أَهْونُ من بعضِ

والحَنين : الشوقُ وتَوَقَانُ النفس .

---

(١) وقال ابن قتيبة في « غريب الحديث » (١/ ٢٢٠) : حَنانيك ربنا ، أي : هبْ لنا رحمةً بعد رحمة ، أو رحمة مع رحمة ، وكما قالوا : سعديك ، أي سعدًا مقرونًا بسعد .

تقول منه : حَنَّ إليه يحِنُّ حنينًا فهو حَانٌّ .

وحنينُ النَّاقة : صوتُها في نزاعها إلى ولدها .

والحَنُون : ريحٌ لها حَنينٌ كحنين الإبل .

وما له حانَّةٌ ولا آنَّةٌ : أي ناقة ولاشاة .

وحَنَّةُ الرجل : امرأتُه ، لتحننه عليها .

وطريق حنَّان : بيِّنٌ واضح منبسط [1].

*** وروده في الحديث الشريف :**

ورد في حديث أنس رضي الله عنه قال : كنتُ جالسًا مع النبي ﷺ في المسجد ورجلٌ يُصلِّي فقال : اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنتَ الحنَّان المنَّان ، بديع السموات والأرض ، يا ذا الجلالِ والإكرام، يا حيُّ يا قيوم ، فقال النبي ﷺ : « **دَعَا اللهَ باسمه الأعظم ، الذي إذا دُعي به أجاب ، وإذا سُئِل به أعْطى** » [2].

---

(١) « الصحاح » (٥/ ٢١٠٤ ـ ٢١٠٥) ، و« اللسان » (٢/ ١٠٢٩ ـ ١٠٣١) ، و« المفردات » (ص ١٣٣) ، و« غريب الحديث » للهروي (٤/ ٤٠١) ، وابن جرير (١٦/ ٤٤) .

(٢) حديث صحيح ، سبق تخريجه في الجزء الأول من الكتاب .

فقول ابن العربي ـ كما في « الكتاب الأسنى » (٢/ورقة ٣٢١ أ) ـ : « وهذا الاسم لم يرد به قرآن ولا حديث صحيح وإنما جاء من طريق لا يعوّل عليه ، غير أن جماعة من الناس قبلوه وتأوّلوه وكثُر إيراده في كتب التأويل والوعظ » .

مما لا يعول عليه ، لأن الحديث صحيح .

وقد قال القرطبي معقبًا عليه : قد اجتلبنا فيه من الأخبار ما صحَّ به مورده وثبت معناه وذكره جماعةٌ من العلماء ...

* ملاحظة : أما حديث أنس مرفوعا : « إن عبدًا في جهنم لينادي ألف سنة : يا حنان يا منان ، قال : فيقول الله عز وجل لجبريل اذهب فائتني بعبدي هذا فينطلق جبريل فيجد =

* **معنى الاسم في حق الله تعالى :**

جاء عن ابن عباس أنه قال : لا والله ما أدري ما حَنَانا [(١)].

وذلك في قوله تعالى : ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٣].

وروى عنه أنه قال : ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ يقول : ورحمةً من عندنا [(٢)].

ونحوه عن قتادة [(٣)].

قال الأزهري : هو بتشديد النون صحيح . قال : وكان بعض مشايخنا أنكر التَّشديد فيه ، لأنه ذهب به إلى الحنين ، فاستوحش أن يكون الحنين من صفات الله تعالى ، وإنما معنى « الحنَّان » : الرحيم ، من الحنان وهو الرحمة [(٤)].

= أهل النار مكبين يبكون ، فيرجع إلى ربه فيخبره فيقول : ائتني به فإنه في مكان كذا وكذا ، فيجيء به فيوقفه على ربه عز وجل فيقول له : ياعبدي كيف وجدت مكانك ومقيلك ؟ فيقول : أي ربِّ شر مكان وشر مقيل ، فيقول : ردُّوا عبدي ، فيقول : يارب ما كنت أرجو إذْ أخرجتني منها أن تردّني فيها ، فيقول : دعوا عبدي » .

فهو حديث ضعيف ، رواه أحمد (٣/ ٢٣٠)، والبيهقي في «الأسماء» (ص ٨٤) وغيرهما.

وفيه : أبو ظِلال واسمه : هلال بن ميمون ، قال ابن معين : ضعيف ليس بشيء ، وقال النسائي والأزدي : ضعيف ، وقال ابن عدي : عامة ما يرويه لا يتابعه الثقات عليه ، وقال البخاري : عنده مناكير . « الميزان » (٤/ ٣١٦) .

(١) إسناده صحيح ، أخرجه ابن جرير (١٦/ ٤٣) ، وأبو عبيد في « غريب الحديث » (٤/ ٤٠٢) عن حجاج - وهو ابن محمد المصيصي - عن ابن جريج أخبرني عمرو بن دينار عن عكرمة به ورجاله ثقات ، وابن جريج قد صرح بالتحديث عند ابن جرير .

(٢) رواه ابن جرير (١٦/ ٤٣) وهو من رواية علي بن أبي طلحة عنه ، وروى البيهقي في «الأسماء» (ص٨٤) عنه قال : التعطف بالرحمة وسنده صحيح .

(٣) المصدر السابق ، بسندين عنه ، وهو صحيح .

(٤) « اللسان » (٢/ ١٠٢٩) .

وقال الخطابي : « الحنَّان » معناه : ذو الرحمةِ والعَطْف .

والحَنَان مخفَّف : الرحمة (١).

وقال الحليمي : ومنها « الحنان » : وهو الواسعُ الرحمة ، وقد يكون المُبالغُ في إكرامِ أهلِ طاعته ، إذا وافوا دار القرار ، لأن من حنَّ إلى غيره من الناس ، أكرمه عند لقائه ، وكَلِفَ به عند قدومه (٢).

وقال ابن الأعرابي : « الحنَّان » من صفات الله الرحيم (٣).

وقال ابن الأثير : في أسماء الله تعالى « الحنَّان » وهو بتشديد النون: الرحيم بعباده ، فعَّال ، من الرحمة للمبالغة(٤).

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١ ـ أن الله تعالى هو الرحيم بعباده ، ذو العطف والحنان ، يكرم المحسنين ، ويغفر ويصفح للمسيئين ، إن تابوا إليه فهو حبيبهم ، وإن أعرضوا عنه فهو طبيبهم، يتحبب إليهم بالنِّعم، ويتبغضون إليه بالمعاصي، خيره إليهم نازل ، وشرهم إليه صاعد ! وهذا والله هو الحال العجيب .

٢ ـ وإذا كان هذا حال الرب مع العبد ، فالأولى أن يكون العباد كذلك مع بعضهم البعض ، يرحم بعضهم بعضا ، فيتحنن الأخ على أخيه ويعطف عليه ، ويصفح عن زلته ، ويقيل عثرته ، ويكون كما

---

(١) « شأن الدعاء » (ص ١٠٥) ، وبنحوه قال البيهقي في « الاعتقاد » (ص ٦٧) ، والأصبهاني في « الحجة » (١/ ١٦٤) .

(٢) « المنهاج » (١/ ٢٠٧) ، وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه، ونقله البيهقي في « الأسماء » (ص ٨٤) .

(٣) «الأسماء والصفات» للبيهقي (ص ٨٥) ، و «الكتاب الأسنى» للقرطبي (٢/ ورقة ٣٢٢ ب).

(٤) « النهاية » (١/ ٤٥٣) .

وصف نبي الرحمة ﷺ المؤمنين بقوله : « **مثل المؤمنين في توادِّهم وتَراحُمهم وتعاطُفهم ، مثل الجَسَدِ ، إذا اشتكي منه عُضْوٌ ، تَدَاعى له سائرُ الجَسَدِ بالسَّهر والحُمَّى** »[1].

قال القرطبي : فيجب على كل مسلم أن يتخلَّقَ بهذين الاسمين : (يعني : الحنان والمنان) وسائر الأسماء ... رقيق القلب ، لأن الحنان حقيقته في المخلوق رقةٌ في النفس ، وميلٌ مُفْرطٌ في الجِبلَّة والطبع ، لشوقٍ مزعج وتوق مُفْرط .

فَرِقَّة القلب تَحْملُ على التَّعطف والرحمة والرأفة والشفقة ، وعنها تكون الأُلْفة والفُرقة .

وقد ذَمَّ اللهُ غِلَظ القلب فقال : ﴿**وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال عليه السلام : « **أتاكم أهلُ اليَمنِ ، هم أَضْعفُ قلوبًا ، وأرقُّ أفئدةً** » وفي رواية : « **ألين قلوبًا** » بدل « **أضعف** »[2].

مَدَحهم بذلك .

كما ذَمَّ الفدَّادين فقال : « **القَسْوة وغِلظ القلوب في الفدادين** »[3].

---

(١) رواه مسلم في « البر والصلة والآداب » (٤/١٩٩٩ ـ ٢٠٠٠) من حديث الشعبي عن النعمان بن بشير رضي الله عنه .

(٢) رواه البخاري في « المغازي » (٨/ ٩٨ ، ٩٩) ، ومسلم في « الإيمان » (١/ ٧١ ، ٧٢، ٧٣) من طرق عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) رواه البخاري في « بدء الخلق » (٦/ ٣٥٠)، وفي «المناقب » (٦/ ٥٢٦)، وفي « المغازي» (٨/ ٩٨)، وفي « الطلاق » (٩/ ٤٣٩) ، ومسلم في « الإيمان » (١/ ٧١) من حديث قيس ابن أبي حازم عن أبي مسعود قال: أشار النبي ﷺ بيده نحو اليمن فقال : « ألا إنَّ الإيمان ههنا ، وإنَّ القَسْوة وغِلَظ القلوبِ في الفدَّادين عند أصول أذناب الإبل ، حيث يطلعُ =

وجعل ﷺ رِقَّةَ القلب علامةَ الجنة ، فقال : « أهل الجنة ثلاثةٌ : ذو سلطانٍ مُقْسط متصدِّق موفَّق ، ورجلٌ رحيمٌ رقيقُ القلب لكلِّ ذي قُرْبى ومسلمٍ ، وعفيفٌ متعفِّفٌ ذو عيال »[1].

ويجب عليه الشكر لنعم الله وآلائه في المزيد من فضله ، ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧][2].

* * *

= قرنا الشيطان في رَبيعة ومُضر » واللفظ لمسلم .

والفدادين : جمع فدَّاد وهو من الفديد وهو : الصوت الشديد ، فهم الذين تعلو أصواتهم في إبلهم وخيلهم وحروثهم ونحو ذلك (نووي) .

وللحديث ألفاظ أخرى من رواية أبي هريرة وجابر رضي الله عنهما .

(١) رواه مسلم في « الجنة وصفة نعيمها وأهلها » (٤/ ٢١٩٧ ـ ٢١٩٨) من حديث مطرف ابن عبد الله عن عياض بن حمار المجاشعي وأوله : أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته : « ألا إنَّ ربي أمرني أن أعلِّمكم ما جهلتم مما علَّمني يومي هذا ، كلُّ مالٍ نحلته عبدًا حلالٌ ، وإني خلقتُ عبادي حنفاءَ كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرَّمتْ عليهم ما أحللت لهم ...» الحديث .

(٢) « الكتاب الأسنى » (٢/ ورقة ١٣٢٣ ـ ب) .

المَنَّان

جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(١١)

*** المعنى اللغوي :**

مَنَّ عليه يَمُنُّ مَنًّا : أحسنَ وأنعم .

والاسم : المِنَّةُ ، وهي العطية ، والمنُّ : العطاء .

ومَنَّ عليه وامْتَنَّ وتمنَّنَ : قَرَّعه بمِنَّةٍ .

يقال : المِنَّةُ تهدم الصَّنيعة .

والمَنُّ : القَطْعُ ، ويقال : النقص ، ومنه قوله تعالى : ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت: ٨].

والمَنُّ : شيء حلو كالطَّرَنْجبين ، في قوله تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ [البقرة: ٥٧].

وفي الحديث : « الكمأة من المن »[١].

المُنَّةُ بالضم : القُوة[٢].

*** وروده في الحديث الشريف :**

ورد في حديث أنس السابق .

---

(١) رواه مسلم في « الأشربة » (٣/١٦١٩ ـ ١٦٢١) من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه

(٢) « الصحاح » (٦/٢٢٠٧) ، و« اللسان » (٦/٤٢٧٧ ـ ٤٢٧٩) .

وورد في التنزيل فعلاً ، قال الله تعالى : ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وقال : ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١٧].

* معنى الاسم في حق الله تعالى :

قال الزجاجي : « المنَّان » فعالٌ من قولك : مننتُ على فلان ، إذا اصطنعت عنده صنيعة وأحسنت إليه .

فالله عز وجل منَّانٌ على عباده بإحسانه وإنعامه ورزقه إياهم .

وفلان يمنُّ على فلان : إذا كان يعطيه ويحسن إليه [(١)].

وقال الخطابي : وأما « المنَّان » فهو كثير العطاء [(٢)].

وقال الجوهري : و « المنَّان » من أسماء الله تعالى [(٣)].

وقال الحليمي : ومنها : « المنان » وهو عظيمُ المواهب ، فإنه أعطى الحياة والعقل والنطق ، وصَوَّر فأحسن الصور ، وأَنْعم فأَجزل ، وأَسْنَى النِّعم ، وأكثر العطايا والمِنَح ، قال ـ وقوله الحق ـ : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤][(٤)].

وقال أبو بكر ـ هو الأنباري ـ : وفي أسماء الله تعالى الحنَّان المنَّان ، أي الذي يُنْعِم غيرَ فاخرٍ بالإنعام .

وقال في موضع آخر في شرح المنان :

---

(١) « اشتقاق أسماء الله » (ص ١٦٤) .

(٢) « شأن الدعاء » (ص ١٠٠) ، وبنحوه قال البيهقي في « الاعتقاد » (ص ٦٧) .

(٣) « الصحاح » (٦/٢٢٠٧) .

(٤) « المنهاج » (١/٢٠٣) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه ، ونقله البيهقي في « الأسماء » (ص ٦٥) .

معناه : المُعْطي ابتداءً ، ولله المِنَّةُ على عباده ، ولا مِنَّة لأحدٍ منهم عليه ، تعالى الله علوًا كبيرًا [1].

وقال ابن الأثير : في أسماء الله تعالى « المنَّان » : هو المُنْعم المعطي ، من المنِّ : العَطاء ، لا من المنة .

وكثيرًا ما يَردُ المنُّ في كلامهم بمعنى الإحسان إلى من لا يَسْتَثيبُه ولا يطلب الجزاء عليه .

فالمنّان من أبنية المبالغة ، كالسَّفَّاك والوهاب [2].

وقال القرطبي : ومنها المنان جل جلاله وتقدست أسماؤه .

قال : يقال منه : مَنَّ يمنُّ منًّا فهو المنَّــان ، والاسم : المِنَّة واشتقاقــه في موضـــوع اللســـان من المَـــنّ وهو العطـــاء دون طلب عوض .

ومنه قوله تعالى : ﴿فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ﴾ [ص: ٣٩] في أحد وجوهه .

ويكون أيضًا مشتقًا من : المِنَّة ، التي هي التَّفاخر بالعطية على المُعْطى ، وتعديد ما عليه .

والمعنيان في حقِّ الله تعالى صحيحان .

ويتَّصف أيضًا بهما الإنسان ، لكن يتصف بالمعنى الواحد على طريق المدح ، وبالمعنى الثاني على طريق الذَّم .

فالأول : الذي هو ممدوح ، نحو أن يكون عطاؤه أو منُّه لوجه الله تعالى ، لا لنيل عوضٍ من الدنيا .

---

(١) « اللسان » (٦/٤٢٧٩) .

(٢) « النهاية » (٤/٣٦٥) .

ومن هذا القسم قوله عليه السلام : « وإنَّ مِن أَمَنِّ الناسِ عليَّ في ماله أبو بكر » .

وقوله : « ما أَحَدَ أمنَّ عليَّ من ابن أبي قُحافة » [1].

والقسم الثاني : وهو أن يَمنَّ الإنسان بالعطية ، أي : يَذكرها ويُكررها، فهو المذموم .

ومنه قوله تعالى : ﴿ لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وقال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا يُكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذابٌ أليم : المُسْبِل ، والمنَّان ، والمُنَفِّقُ سِلْعَتَه بالحلفِ الكاذب » .

والمنَّان : الذي لا يُعطي شيئًا إلا مَنَّة ، كذا جاء مفسَّرًا في كتاب مسلم [2].

والمنان أيضًا : الذي يَمنُّ على الله بعمله .

وهذا كله في حقِّ المخلوق حرامٌ مذمومٌ .

---

(١) رواهما البخاري في « الصلاة » (١/٥٥٨) ، وغيره ، وأحمد (١/ ٢٧٠) (٣/ ٤٧٨) (٣/ ٢١١ ـ ٢١٢) من حديث أبي سعيد الخدري وابن عباس وأبي المعلى رضي الله عنهم بألفاظ متقاربة .

ولفظ حديث ابن عباس : خرج رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه عَاصبًا رأسَه بخِرقة فقعد على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « إنه ليس من الناس أحدٌ أمنَّ علي في نفسه وماله من أبي بكر بن أبي قحافة ، ولو كنت متخذًا من الناس خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن خلة الإسلام أفضل ، سدوا عني كل خوخةٍ في هذا المسجد غيرَ خوخة أبي بكر » .

(٢) رواه في « الإيمان » (١/١٠٢) من حديث أبي ذر .

والتفسير المذكور جاء مرفوعا فيه من قوله ﷺ .

وهو الذي قال فيه الرسول ﷺ : « لا يَدْخل الجنَّةَ منَّان »[1].

ولما كان الباريُ سبحانه يُدر العطاء على عباده منًّا عليهم بذلك وتفضُّلاً ، كانت له المنة في ذلك .

فيرجع المنان إذا كان مأخوذًا من المنِّ الذي هو العطاء إلى أوصاف فعله .

ويرجع المنان إذا أخذتَه من المنَّة التي هي تِعداد النعمة وذكرها والافتخار بفعلها في معرض الامتنان ، إلى صفة كلامه تعالى[2].

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١ ـ إن الله تعالى هو المنَّان الذي مَنَّ على عباده بأنواع الإحسان والإنعام والأرزاق والعطايا .

وهو سبحانه كثير العطاء ، فلا نهاية لتوسعته : ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧].

وقال : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وقد ذكَّر الله تعالى عباده ببعض مننه عليهم فمن ذلك قوله : ﴿ لَقَدْ

---

(١) حديث صحيح، رواه احمد (٢/ ٢٠١، ٢٠٢)، والدارمي (٢/ ١١٢)، والنسائي (٨/ ٣١٨)، وابن خزيمة في « التوحيد» (ص ٣٦٥ ـ ٣٦٦)، وابن حبان (١٣٨٢ ، ١٣٨٣ ـ زوائد)، والطحاوي في « المشكل » (١/ ٣٩٥) عن سالم بن أبي الجعد عن جابان عن عبد الله بن عمرو مرفوعا به ، وتمامه : « ... ولا عاق والديه ، ولا مدمن خمر ، ولا ولد زنية » .
وقد أعلّه ابن خزيمة بجهالة جابان وباسقاطه نبيط من هذا الإسناد ، لكن هو مذكور في الإسناد عند النسائي .
وللحديث شواهد يتقوى بها ، انظر تعليقنا على « إبطال التأويلات » (٢/ ٣٥٦ ـ ٣٥٧) .

(٢) « الكتاب الأسنى » (٢/ ورقة ٣١٨ ب ـ ٣١٩ ب) .

مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾

[آل عمران: ١٦٤].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ٩٤].

فذكَّرهم سبحانه وتعالى بنعمة هدايته لهم وقد كانوا في ظلمات الكفر يترددون، وعلى شفير جهنم هم قائمون.

ونحوها قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾

[الحجرات: ١٧].

وقوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ [القصص: ٥، ٦].

فيها امتنان على بني إسرائيل وما حصل لهم من العزة والقوة والتمكين في الأرض بعد أن كانوا في ذلة واستضعاف وتبعية لفرعون وملائه.

ومثلها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الصافات: ١١٤ - ١١٨].

ويوسف نبي الله عليه الصلاة والسلام يذكر نعمة ربه عليه وعلى

أخيه، وأنه سبحانه لم يضع صبره وتقواه بل أورثه ذلك حسن العاقبة ، فيقول لإخوته : ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

وكذا أهل الجنة يذكرون حالهم في الدنيا وخوفهم من ربهم ثم يذكرون نعمة الله عليهم في الجنان ، ونجاتهم من سموم النيران ، فيقولون : ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٦ - ٢٨].

قال القرطبي : فيجب على كلِّ مسلمٍ أن يعلم أن لا منَّان على الإطلاق إلا الله وحده ، الذي يبدأ بالنَّوَال قبل السؤال .

ثم يعترف بالمنَّة لله وحده .

كما روي أن النبي ﷺ لما جَمَعَ الأنصار فذكَّرهم ، وقال : « أَلَم يكن أمركم شيئًا فَجمَعه اللهُ بي ، أَلم تكونوا عَالةً فَأغناكم الله بي ، أَلم تكونوا خائفين فأَمَّنكم اللهُ بي » وهم في ذلك يقولون : اللهُ ورسوله أَمَنُّ ... الحديث إلى آخره (١).

(١) أخرجه بنحوه البخاري في «المغازي» (٤٧/٨)، وفي « التوحيد » (٣٢٥/١٣)، ومسلم في «الزكاة» (٧٣٨/٢ ـ ٧٣٩) عن عبد الله بن زيد بن عاصم قال : « لما أفاءَ اللهُ على رسولِه ﷺ يومَ حُنَينٍ قسمَ في الناس في المؤلفةِ قلوبهم ولم يُعطِ الأنصارَ شيئًا ، فكأنهم وَجَدوا إذ لم يُصِبهم ما أصابَ الناسَ ، فخطَبهم فقال : يا مَعشَرَ الأنصار ، ألم أجدْكم ضُلالا فهَداكم اللهُ بي ، وكنتم متفرِّقين فألَّفكم اللهُ بي ، وعالةً فأغناكم اللهُ بي ؟ كلَّما قال شيئًا قالوا : اللهُ ورسولُه أمنُّ . قال : ما يَمنعُكم أن تجيبوا رسولَ الله ﷺ ؟ قال : كلَّما قال شيئًا قالوا : اللهُ ورسولُه أمنُّ . قال : لو شئتم قلتم : جئتنا كذا وكذا . ألا ترضَونَ أن يذهبَ الناسُ بالشاةِ والبعيرِ ، وتذهبونَ بالنبيِّ ﷺ إلى رِحالكم ؟ لولا الهجرةُ ، لكنتُ امرءًا من الأنصار . ولو سلكَ الناسُ واديًا وشعبًا لَسلكتُ واديَ الأنصارِ وشعبَها ، الأنصارُ شِعار ، والناسُ دِثار ، إنكم ستَلقَونَ بعدي أثرة ، فاصبروا حتى تَلقَوني على الحَوض». =

(فأقرُّوا) لله ثم لرسوله بالنعمة ، وولَّوا النعمة لربِّ النعمة ، والله أعلم. ثم إذا أَعْطى أحدًا من خلقه مما أنْعم الله تعالى به عليه فلا يَمنّ به، بل يَستصغره ، ويَتَناساه ، ويَرى الفضل لغيره في قَبوله منه ، لا له.

وقال بعضهم : المنُّ التَّحدُّثُ بما أعطى حتى يبلغ ذلك المُعْطَى فيؤذيه .

قال العلماء : وإنما على المرء أن يُريد وجه الله تعالى وثوابه بانفاقه على المُنْفَق عليه ، ولا يرجو منه شيئًا ، ولا ينظر من أحواله في حالٍ سوى أن يُراعي استحقاقه .

قال الله تعالى : ﴿ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً ﴾ [الإنسان: ٩].

ومتى أنفقَ ليريد من المنفق عليه جزاء بوجهٍ من الوجوه ، فهذا لم يُردْ به وجه الله ، فهذا إذا أخْلَف ظنَّه فيه ، مَنَّ بإنفاقه وآذاه .

وكذلك من أنفقَ مضطراً دافعَ غُرمٍ ، إما لأنه المُنْفِقُ عليه ، أو لعلة أخرى ، من اعتناء مُعْتنٍ ، فهذا لم يُرد به وجه الله ، وإنما يقبل ما كان عطاؤه لله ، وأكبر قصده ابتغاء ما عند الله (١).

= قال الحافظ في « الفتح » (٨/ ٥٠) : وقد رتَّب ﷺ ما منَّ الله عليهم على يده من النعم ترتيبًا بالغًا ، فبدأ بنعمة الإيمان التي لا يُوازيها شيءٌ من أمر الدنيا ، وثنَّى بنعمة الألفة وهي أعظم من نعمة المال ، لأن الأموال تبذل في تحصيلها وقد لا تحصل ، وقد كانت الأنصار قبل الهجرة في غاية التنافر والتقاطع لما وقع بينهم من حرب بُعاث وغيرها كما تقدم في أول الهجرة ، فزال ذلك كله بالإسلام كما قال الله تعالى : ﴿ لو أنفقتَ ما في الأرض جميعًا ما ألَّفت بين قلوبهم ولكن الله ألَّف بينهم ﴾ .

وقال (ص ٥٢) : وفيه : أن المنَّة لله ورسوله على الإطلاق .

(١) « الكتاب الأسنى » (٢/ورقة ٣١٩ ب ـ ٣٢٠ ب) باختصار .

وهناك بعض الكلمات وجدت صعوبة في قراءتها بسبب انطماسها ، فكتبتها كما ظهرت لي ومن سياق الجملة .

٢ ـ قد ذكرنا حديث الرسول ﷺ في حرمة المنّ ، وأن المنان من الثلاثة الذين لا يُكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذابٌ أليم ، وهو أنه لا يعطي شيئًا إلا منَّه .

وقد قسم الإمام ابن القيم رحمه الله المنَّ في الناس إلى قسمين في كلامه عن المنفقين وأنواعهم فقال :

فالمن نوعان : أحدهما منٌّ بقلبه مِن غير أنْ يُصَرَّحَ به بلسانه ، وهذا إنْ لم يبطلْ الصدقة ، فهو من نقصان شهودِ منَّة الله عليه في إعطائه المال وحِرمان غيره ، وتوفيقه للبذل ومنع غيره منه ، فللَّه المنة عليه من كل وجه ، فكيف يشهد قلبه منة لغيره ؟

والنوع الثاني : أنْ يمنَّ عليه بلسانه ، فيعتدى على من أَحسنَ إليه بإحسانه ، ويُريه أنه اصطنعه وأنه أوجب عليه حقا وطوَّقه مِنةً في عنقه فيقول : أما أعطيتك كذا وكذا ؟ ويعدد أياديه عنده .

قال سفيان : يقول أعطيتك فما شكرت .

وقال عبد الرحمن بن زياد كان أبي يقول : إذا أعطيت رجلا شيئًا ورأيت أن سلامك يثقل عليه فكف سلامك عنه ، وكانوا يقولون : إذا اصطنعتم صنيعةً فانسوها ، وإذا أُسْدِيتْ إليكم صنيعة فلا تنسوها .

وفي ذلك قيل :

وإنْ امرءًا أَهْدى إليَّ صَنِيعةً ... وذَكَّرنِيها مرةً لَبَخيلُ

وقيل : صِنْوانٌ مَنْ مَنْحَ سائله ومنَّ ، ومَن مَنعَ نائله وضَنَّ .

*** ثم ذكر اختصاص الله تعالى بالمنّ وأسباب ذلك فقال :**

وحظر الله على عباده المنَّ بالصنيعة واختص به صفة لنفسه لأنَّ منَّ

العباد تكديرٌ وتَعيير ، ومَنُّ الله سبحانه وتعالى إفضال وتذكير .

وأيضًا : فإنه هو المنعم في نفس الأمر والعباد وسائط ؛ فهو المنعم على عبده في الحقيقة .

وأيضًا فالامتنان استعباد وكسر وإذلال لمن يمن عليه ولا تصلح العبودية والذل إلا لله .

وأيضًا فالمنة أن يشهد المعطي أنه هو ربُّ الفضل والإنعام وأنه ولي النعمة ومُسديها، وليس ذلك في الحقيقة إلا الله .

وأيضًا فالمانُّ بعطائه يشهد نفسه مترفعًا على الآخذِ مُستعليًا عليه غنيا عنه عزيزًا ، ويشهد ذلَّ الآخذ وحاجته إليه وفاقته ، ولا ينبغي ذلك للعبد.

وأيضًا فإنَّ المُعْطي قد تولى الله ثوابه وردَّ عليه أضعاف ما أعطى ، فبقي عِوضَ ما أعطى عند الله ، فأيُّ حق بقى له قبل الآخذ ؟ فإذا امتن عليه فقد ظَلَمه ظُلمًا بيِّنًا ، وادَّعى أنَّ حقه في قلبه ، ومن هنا ـ والله أعلم ـ بَطَلَت صدقته بالمن ، فإنه لما كانت معاوضته ومعاملته مع الله ، وعِوض تلك الصدقة عنده ، فلم يرضَ به ولاَحَظ العوض من الآخذ والمعاملة عنده فمنَّ عليه بما أعطاه ، أبطَلَ معاوضته مع الله ومعاملته له.

*** ثم بيَّن رحمه الله تعالى أن المنَّ ولو كان بعد الإنفاق بمدة ضرَّ بصاحِبِه ، فقال :**

فتأمل هذه النصائح من الله لعباده ، ودلالته على ربوبيته وإلهيته وحده، وأنه يُبْطلُ عملَ مَنْ نازعه في شيءٍ من ربوبيته وإلهيته ، لا إله غيره ولا رب سواه . ونبَّه بقوله : ﴿**ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى**﴾ على أن المنَّ والأذى ولو تراخى عن الصدقة وطالَ زمنه ضرَّ بصاحِبِه ،

ولم يَحصل له مقصود الإنفاق ، ولو أتى بالواو وقال : ولا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى ، لأوهمْت تقييد ذلك بالحال ، وإذا كان المنُّ والأذى المتراخي مُبْطلاً لأثر الإنفاق مانعًا مِنَ الثواب فالمقارن أولى وأحرى .

وتأمَّل كيف جَرَّد الخبر هنا عن الفاء فقال : ﴿ **لهم أجرهم عند ربهم** ﴾ وقرنه بالفاء في قوله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ** ﴾ [البقرة: ٢٧٤] فإنَّ الفاء الداخلة على خبر المبتدأ الموصول أو الموصوف تفهم معنى الشَّرط والجزاء وأنه مستحقٌ بما تضمنه المبتدأ من الصِّلة أو الصفة، فلما كان هنا يقتضي بيان حصر المستحق للجزاء دون غيره ، جَرَّد الخبر عن الفاء ، فإنَّ المعنى : إن الذي ينفق ماله لله ، ولا يمنّ ولا يؤذي ، هو الذي يستحق الأجر المذكور ، لا الذي ينفق لغير الله ، ويَمنُّ ويُؤذي بنفقته ، فليس المقام مقام شرطٍ وجزاء ، بل مقام بيان للمستحق دون غيره .

وفي الآية الأخرى : ذَكَرَ الإنفاق بالليل والنهار سرا وعلانية ، فذكر عموم الأوقات وعموم الأحوال ، فأتى بالفاء في الخبر ليدل على أن الإنفاق في أي وقتٍ وُجِدَ من ليلٍ أو نهار ، وعلى أي حالة وُجد من سر وعلانية فإنه سبب للجزاء على كل حال ، فليبادر إليه العبد ولا ينتظر به غير وقته وحاله . ولا يُؤخر نفقة الليل إذا حضر إلى النهار ، ولا نفقة النهار إلى الليل ، ولا ينتظر بنفقة العلانية وقت السر ولا بنفقة السر وقت العلانية ، فإن نفقته في أي وقت وعلى أي حال وجدت سبب لأجره وثوابه ، فتدبر هذه الأسرار في القرآن فلعلك لا تظفر بها [فيما] يمر بك في التفاسير ، والمنة والفضل لله وحده لا شريك له .

* [ردُّ السائل بالقول المعروف والعفو عنه خيرٌ من التصدق عليه ثم إيذائه بالمنِّ والقول] :ـ

ثم قال تعالي : ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٣] فأخبر أن القولَ المعروف: وهو الذى تَعرفه القلوب ولا تُنكره ، والمغفرة وهي: العفو عمن أساءَ إليك ، خيرٌ من الصَّدقة بالأذى ، فالقول المعروف إحسانٌ وصدقة بالقول ، والمغفرة إحسان بترك المؤاخذة والمقابلة ، فهما نوعان من أنواع الإحسان ، والصدقة المقرونة بالأذى حسنة مقرونة بما يبطلها ، ولا ريب أنَّ حسنتين خير من حسنة باطلة .

ويدخل في المغفرة : مغفرته للسائل إذا وَجَدَ منه بعضَ الجفوة والأذى له بسبب رده ، فيكون عفوه عنه خيرًا منْ أن يتصدَّق عليه ويؤذيه. هذا على المشهور من القولين في الآية .

والقول الثاني : أن المغفرة من الله ، أي : مغفرة لكم من الله بسبب القول المعروف والرد الجميل خير من صدقة يتبعها أذى .

وفيها قول ثالث : أي مغفرة وعفو من السائل إذا رُدَّ وتعذر المسئول، خيرٌ من أن ينال بنفسه صدقة يتبعها أذى .

وأوضح الأقوال هوالأول ، ويليه الثاني ، والثالث ضعيف جدًا لأن الخطاب إنما هو للمنفق المسئول لا للسائل الآخذ .

والمعنى أن قول المعروف له والتجاوز والعفو خير لك من أنْ تتصدَّق عليه وتؤذيه .

ثم ختَم الآية بصفتين مناسبتين لما تضمنته فقال :﴿ وَاللَّهُ غَنِيٌّ

حَلِيمٌ ﴾ ، وفيه معنيان : أحدهما أنَّ الله غنيٌّ عنكم لن يناله شيء من صدقاتكم ، وإنما الحظ الأوفر لكم في الصدقة ، فنفعها عائدٌ عليكم لا إليه سبحانه وتعالى ، فكيف يَمنُّ بنفقته ويُؤذي مع غنى اللهالتام عنها ، وعن كلِّ ما سواه ، ومع هذا فهو حليمٌ إذْ لم يُعاجل المانَّ بالعقوبة ، وضمن هذا الوعيد والتحذير .

والمعنى الثاني : أنه سبحانه وتعالى مع غناه التام من كل وجهٍ فهو الموصوف بالحلم والتجاوز والصفح ، مع عطائه الواسع وصدقاته العميمة ، فكيف يُؤذي أحدُكم بمنِّه وأذاه ، مع قلة ما يعطي ونزارته وفقره !

*** [المنُّ والأذى مما يُحبط الصدقات] :-**

ثم قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦٤] تضمنت هذه الآية الإخبار بأن المن والأذى يحبط الصدقة ، وهذا دليل على أنَّ الحسنة قد تحبط بالسيئة مع قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات: ٢] وقد تقدم الكلام على هذه المسألة في أول هذه الرسالة فلا حاجة إلى إعادته .

وقد يقال : إنَّ المنَّ والأذى المقارن للصَّدقة هو الذي يُبطلها دون ما يلحقها بعدها ، إلا أنه ليس في اللفظ ما يدل على هذا التقييد ، والسياق

يدل على إبطالها به مطلقًا ، وقد يقال : تمثيله بالمُرَائي الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر يدل على أن المنَّ والأذى المُبْطل هو المقارن كالرياء وعدم الإيمان ، فإنَّ الرياء لو تأخر عن العمل لم يبطله .

ويجاب عن هذا بجوابين : أحدهما : أن التشبيه وقع في الحال التي يَحْبط بها العمل ، وهي حال المرائي والمانّ المؤذي في أن كل واحد منهما يحبط العمل .

الثاني : أنَّ الرياء لا يكون إلا مقارنًا للعمل، لأنه « فِعال » من الرؤية التي صاحبها يَعمل لِيَرَى الناسُ عمله فلا يكون متراخيًا ، وهذا خلاف المن والأذى فإنه يكون مُقارنا ومُتراخيا ، وتراخيه أكثر من مُقارنته.

وقوله : ﴿كَالَّذِي يُنفِقُ﴾ إما أن يكون المعنى كإبطال الذي يُنفق فيكون قد شبَّه الإبطالَ بالإبطال ، أو المعنى : لا تكونوا كالذي يُنفق ماله رئاء الناس ، فيكون تشبيهًا للمنفق بالمنفق .

وقوله : ﴿فَمَثَلُهُ﴾ أي مثل هذا المنفق الذي قد بَطَلَ ثواب نفقته ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ : وهو الحَجَر الأملس ، وفيه قولان : أحدهما : أنه واحد، والثاني : جَمْع صفوة ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ﴾ وهو المطر الشديد ﴿فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ :وهو الأملس الذي لا شيءَ عليه من نباتٍ ولا غيره ، وهذا من أبلغِ الأمثال وأحسنها ، فإنه يتضمن تشبيه قلب هذا المُنفق المُرائي ـ الذي لم يَصدر إنفاقه عن إيمان بالله واليوم الآخر ـ بالحجر لشدته وصلابته وعدم الانتفاع به .

وتضمن تشبيه ما عَلق به من أثر الصدقة بالغبار الذي عَلِقَ بذلك الحجر ، والوابلُ الذي أزال ذلك التراب عن الحجر فأذهبه بالمانع الذي أبطل صدقته وأزالها ، كما يُذْهب الوابلُ الترابَ الذي على الحجر فيتركه

صَلْدًا فلا يقدر المنفق على شيء من ثوابه لبطلانه وزواله .

وفيه معنى آخر وهو أن المنفق لغير الله هو في الظاهر عامل عملاً يرتب عليه الأجر ، ويزكو له كما تزكو الحبة التي إذا بُذِرتْ في التراب الطَّيب أنبتت سبعَ سنابل في كل سنبلة مائة حبة ، ولكن وراء هذا الإنفاق مانعٌ يَمنع من نموه ، وزكاته ، كما أن تحت التراب حجرا يمنع من نبات ما يبذر من الحب فيه فلا ينبت ولا يخرج شيئًا .

*** [مثل الذي يُنفق في سبيل الله تعالى لا يريد من الناس جزاء ولا شكوراً ولا يمنُّ ولا يؤذي] :ـ**

ثم قال : ﴿ **وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ [البقرة: ٢٦٥] هذا مَثَلُ الذي مَصْدر نفقته على الإخلاص والصدق ، فإن ابتغاء مرضاته سبحانه هو الإخلاص ، والتَّثبت مِنَ النفس هو : الصِّدقُ في البَذْل ، فإن المنفق يعترضه عند إنفاقه آفتان، إنْ نجا منهما كان مثله ما ذكره في هذه الآية : إحداهما طلبه بنفقته محمدة أو ثناء أو غرضًا من أغراضه الدنيوية ، وهذا حال أكثر المنفقين .

والآفة الثانية : ضعفُ نفسه وتقاعسها وترددها : هل يفعل ، أم لا ؟ فالآفة الأولى تزول بابتغاء مرضاة الله ، والآفة الثانية تزول بالتثبيت ، فإنَّ تثبيت النفس : تشجيعها وتقويتها والإقدام بها على البذل ، وهذا هو صدقها . وطلب مرضاة الله إرادة وجهه وحده وهذا إخلاصها .

فإذا كانَ مصدرُ الإنفاق عن ذلك ، كان مثله كجنة ـ وهي البستانُ الكثير الأشجار ـ فهو مجتنٌّ بها ، أي : مستتر ليس قاعًا فارغًا . والجنة بربوة ـ وهو المكان المرتفع ـ فإنها أكمل من الجنة التي بالوهاد

والحضيض ، لأنها إذا ارتفعتْ كانت بمدرجة الأهوية والرياح ، وكانت ضاحيةً للشمس وقت طلوعها واستوائها وغروبها ، فكانت أنضجَ ثمرًا وأطيبه وأحسنه وأكثره ، فإن الثمار تزداد طيبا وزكاء بالرياح والشمس ، بخلاف الثمار التي تَنشأ في الظلال .

وإذا كانت الجنة بمكان مرتفع لم يُخش عليها إلا من قلة الماء والشراب فقال تعالى : ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ وهو المطرُ الشَّديد العظيم القدر فأدتْ ثمرتها ، وأعطت بركتها فأخرجت ثمرتَها ضعفي ما يُثمر غيرها أو ضعفي ما كانت تثمر بسبب ذلك الوابل ، فهذا حالُ السابقين المقربين .

﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ فهو دون الوابل ، فهو يكفيها لكَرم منبتها، وطيبِ مغرسها فتكتفي في إخراج بركتها بالطَّل ، وهذا حال الأبرار المقتصدين في النفقة ، وهم درجات عند الله ، فأصحاب الوابل أعلاهم درجة ، وهم الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية ، ويُؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خَصَاصة .

وأصحاب الطَّل مقتصدوهم .

فمثَّل حال القسمين وأعمالهم بالجنة على الربوة ونفقتهم الكثيرة بالوابل والطَّل . وكما أن كل واحد من المطرين يوجب زكاء أو ثمر الجنة ونحوه بالأضعاف فكذلك نفقتهم ـ كثيرة كانت أو قليلة ـ بعد أنْ صَدَرتْ عن ابتغاءِ مرضاة الله والتثبيت من نفوسهم ، فهي زاكيةٌ عند الله نامية مضاعفة .

واختلف في الضِّعفين ، والصواب أن الضعفين هما المثلان فقط : الأصل ومثلـه ، وعليه يدل قـوله تعـالى : ﴿فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٦٥]. أي : مِثْلين ، وقوله تعالى : ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾

[الأحزاب: ٣٠] أي مثلين ، ولهذا قال في الحسنات: ﴿نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣١] وأما ماتوهموه من استواء دلالة المفرد والتثنية فوهم منشأه ظن أن الضعف هو المثل مع الأصل ، وليس كذلك ، بل المثل له اعتباران : إن اعتبر وحده فهو ضعف ، وإن اعتبر مع نظيره فهما ضعفان والله أعلم .

واختلف في رافع قوله : ﴿فَطَلٌّ﴾ فقيل : هو مبتدأ خبره محذوف أي : وطلُّه يكفيها ، وقيل : خبر مبتدأه محذوف ، فالذي يُرويها ويصيبها طَلٌّ ، والضمير في ﴿أَصَابَهَا﴾ إما أن يرجع إلى الجنة أو إلى الربوة وهما متلازمان [١].

٣ ـ روى سعيــد بن زيد بن عمرو بن نفيل رضي الله عنــه ، عن رسول الله ﷺ قال : « **الكَمأة من المنِّ ، وماؤُها شفاءٌ للعين** » [٢].

قال أبو عبيد : « الكمأة من المن » يقال ـ والله أعلم ـ إنه إنما شبهها بالمن الذي كان يَسقط على بني إسرائيل ، لأن ذلك كان يَنْزل عليهم عفواً بلا علاجٍ منهم ، إنما كانوا يصبحون وهو بأفنيتهم فيتناولونه [٣].

وكذلك « الكمأة » ليس على أحدٍ منها مؤنة في بَذْرٍ ولا سقي ولا غيره ، وإنما هو شيء يُنبته الله في الأرض حتى يصير إلى مَنْ يَجتْنيه [٤].

* * *

---

(١) « طريق الهجرتين وباب السعادتين » (ص٣٦٥ ـ ٣٧٠) باختصار يسير .

(٢) سبق تخريجه قريبا .

(٣) كما قال عز وجل ممتنًا عليهم : ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧].

(٤) « غريب الحديث » (٢/١٧٣) .

الحَيِيُّ
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(١٢)

* المعنى اللغوي :

استَحْياه واستَحْيا منه ، بمعنى ، من الحَيَاء .

ويقال استَحَيتُ بياء واحدة ، وأصله استَحييتُ مثل : استَعْيَيت ، فأعلُّوا الياء الأولى وألقَوا حركتها على الحاء ،

وقال أبو الحسن الأخفش : استَحَى بياءٍ واحدة : لغة تميم ، وبياءين لغة أهل الحجاز ، وهو الأصل .

قال الأزهري : والقرآن نزل بهذه اللغة الثانية ، في قوله عز وجل : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً﴾ [البقرة: ٢٦].

والحيا مقصورٌ : المطرُ والخصب .

والحياءُ ممدود : الاستِحْياء .

ورَجَلٌ حَيِيٌّ ذو حياء ، بوزن فَعيل .

وامرأة حَيِيَّةٌ [١].

وعرف الراغب الحياء عند المخلوق بقوله : انْقباضُ النفس عن القبائح وتركه لذلك [٢].

---

(١) « الصحاح » (٦/ ٢٣٢٤) ، و« اللسان » (٢/ ١٠٧٩ ـ ١٠٨٠) مادة (حيا) .

(٢) « المفردات » (ص ١٤٠) .

* وروده في الحديث الشريف :

١ - ورد في حديث يعلى بن أمية رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ رأى رَجلاً يغتسلُ بالبَرَازَ بلا إزار ، فصعد المنبر ، فحمدَ الله وأثنى عليه، ثم قال ﷺ : « **إنَّ الله عز وجل حَيِيٌّ ستِّيرٌ يُحبُ الحياءَ والسَّتْرَ ، فإذا اغْتَسَلَ أحدُكم فَلْيَسْتَتِرْ** »(١).

٢ - وفي حديث سلمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**إنَّ ربَّكم تبارك وتعالي حَيِيٌّ كريم ، يَستحي من عَبْدِهِ إذا رفع يَديه إليه أنْ يَردَّهما صِفْرًا** »(٢).

* وقد ورد بصيغة الفعل في الكتاب العزيز في قوله عز وجل : ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا**﴾ [البقرة: ٢٦].

١ - وفي حديث أبي واقدٍ اللَّيثي أن رسول الله ﷺ بينما هو جالسٌ في المسجد والناسُ معه إذْ أقبل ثلاثةُ نفر ، فأقبل اثنان إلى رسول الله

(١) حديث صحيح ، أخرجه أبو داود (٤/ ٤٠١٢) ، والنسائي (١/ ٢٠٠) ، والبيهقي من طريق أبي داود (١/ ١٩٨) عن النُّفيلي حدثنا زهير عن عبد الملك بن أبي سليمان العَرزمي عن عطاء عن يعلى به .

ورجاله ثقات ، عطاء هو ابن أبي رباح ، وزهير هو ابن معاوية .

وانظر بقية تخريجه في كتابنا « إبطال التأويلات » (٢/ ٤١١) .

(٢) حديث صحيح ، أخرجه أبو داود (٢/ ١٤٨٨) ، ومن طريقه البيهقي في « الأسماء والصفات» (ص ٩٠) ، والترمذي (٥/ ٣٥٥٦) ، وابن ماجه (٣٨٦٥) ، وصححه ابن حبان (٢٤٠٠) ، والحاكم (١/ ٤٩٧) ، والخطيب في تاريخه (٣/ ٢٣٥ - ٢٣٦) من طرقٍ عن جعفر بن ميمون عن أبي عثمان النهدي عن سلمان مرفوعًا به .

قال الذهبي في « العلو » (ص ٥٢) : هذا حديث مشهور .

وحسنه الحافظ في « الفتح » (١١/ ١٤٣) وهو كما قال .

وله طرق أخرى وشواهد يتقوى بها ، انظر : « إبطال التأويلات » الموضع السابق .

ﷺ وذهبَ واحدٌ ، قال : فوقَفَا على رسول الله ﷺ فأما أحدُهما فرأى فُرْجةً في الحَلْقَةِ فجلس فيها ، وأما الآخر فجلس خَلْفهم ، وأما الثالثُ فأدْبرَ ذاهبًا ، فلما فَرِغَ رسول الله ﷺ قال : « **ألا أُخبركم عن النَّفَر الثلاثة؟ أما أحدُهم فآوى إلى الله فآواه الله ، وأما الآخر فاستَحيا فاستَحيا اللهُ منه ، وأما الآخر فأعْرضَ فأعْرضَ الله عنه** »[1].

٢ ـ وفي حديث أم سلمة رضي الله عنها قالت : جاءت أم سُليم إلى النبي ﷺ فقالت : يا رســول الله ! إنَّ الله لا يَسْتحيي من الحقِّ ، فهل على المرأة من غُسلٍ إذا احتلمت ؟ فقال رسول الله ﷺ : « **نعم إذا رأتِ الماء ...** »[2].

*** معنى الاسم في حق الله تعالى :**

قال ابن الجوزي : الحياء بالمد : الانقباض والاحتشام ، غير أن صفات الحق عز وجل لا يُطَّلع لها على ماهية ، وإنما تُمَرُّ كما جاءت ، وقد قال النبي ﷺ : « **إن ربَّكم حيي كريم** »[3].

وقال ابن القيم[4]:

وهو الحَيِيُّ فليسَ يَفْضَحُ عَبْدَه ... عند التَّجاهــرِ منـه بالعِصْيان

لكنــه يُلْقِــي عليــه سِتْــرهُ ... فهو السِّتِّيرُ وصاحبُ الغُفْران

---

(١) أخرجه مالك (٢/ ٩٦٠ ـ ٩٦١) ، ومن طريقه البخاري في « العلم » (١/ ١٥٦) ، وفي «الصلاة» (١/ ٥٦٢) ، ومسلم في « السلام » (٤/ ١٧١٣) عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة أن أبا مُرة مولى عقيل بن أبي طالب أخبره عن أبي واقد الليثي به .

(٢) رواه مسلم في « الحيض » (١/ ٢٥١) .

(٣) « زاد المسير » (١/ ٥٤) .

(٤) « النونية » (٢/ ٢٢٧) بشرح أحمد بن عيسى .

وقال المباركفوري : قوله : « إن الله حيي » فَعيلٌ من الحياء ، أي كثير الحياء .

ووصفه تعالى بالحياء يُحمل على ما يَليق له ، كسائرِ صفاته ، نُؤمنُ بها ولا نكيفها [١].

وذكر « الاستحياء » في صفات الله تعالى شيخ الحرمين : أبو الحسن محمد بن عبد الملك الكرجي في كتابه الذي سمّاه « الفصول في الأصول عن الأئمة الفحول إلزامًا لذوي البدع والفضول » وكان من أئمة الشافعية، ونقله إقرارًا له شيخ الإسلام ابن تيمية [٢].

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١ ـ إثبات صفة الحياء لربنا تبارك وتعالى على ما يليق بجلاله وكماله، إثباتًا من غير تمثيل لها بخلقه .

قال الإمام أبو يعلى الفراء بعد أنْ ساق الأحاديث الواردة في صفة الحياء : اعلم أنه غير ممتنعٍ وَصفُ الله تعالى بالحياء ، لا على معنى ما يُوصف به المخلوقين من الحياء الذي هو انقباضٌ وتغيُّرٌ وخَجَل ، لاستحاله كونه جسمًا متغيرًا تحلُّه الحوادث [٣].

لكن نُطلق هذه الصفة كما أطْلقنا وَصفه سبحانه بالإرادة وإنْ خالفت

---

(١) « تحفة الأحوذي » (٩/٥٤٤) .

(٢) « مجموع الفتاوى » (٤/١٨١) .إذْ قال في أول كلامه : وقد ذكرنا في غير هذا الجواب ، مذهب سلف الأمة وأئمتها بألفاظها وألفاظ من نقل ذلك من جميع الطوائف ، بحيث لا يبقى لاحدٍ من الطوائف اختصاص بالإثبات . ومن ذلك : ما ذكر شيخ الحرمين أبو الحسن محمد بن عبد الملك ... إلخ

(٣) الصواب الإعراض عن ذكر هذا النفي ، لعدم وروده في الكتاب أو السنة .

إرادة المخلوقين ، لأن إرادته تقتضي وجوب المراد ، وإرادتنا لا تقتضي وجوبه .

وكذلك علمه يقتضي العلم بالمعدوم والموجود خلاف علمنا[١] .

وقال الهراس : ورد في السنة وَصْفُه تعالى بالحياء ، كقوله ﷺ : **«إن الله حيي يستحي من عبده إذا مدَّ يديه إليه أن يردهما صِفْرا»** . وكقوله عليه السلام في شأن النفر الثلاثة الذين وقفوا على مجلسه : **«أما أحدُهم فأقبل فأقبل الله عليه ، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله عز وجل منه ، وأما الثالث فأعرض فأعرض الله عز وجل عنه»** .

وحياؤُه تعالى وصفٌ يليق به ، ليس كحياء المخلوقين الذي هوَ تغير وانكسار يَعْتري الشخص عند خوفِ ما يُعاب أو يُذم ، بل هو تركُ ما ليس يتناسب مع سعةِ رحمته ، وكمالِ جوده وكرمه ، وعظيم عفوه وحلمه .

فالعبد يجاهره بالمعصية مع أنه أفقرُ شيءٍ إليه ، وأضعفه لديه ، ويستعين بنعمه على معصيته ، ولكن الربَّ سبحانه مع كمال غناه وتمام قدرته عليه ، يَستحي من هَتْكِ ستره وفضيحته ، فيستره بما يُهيؤه له من أسباب السَّتر ، ثم بعد ذلك يعفو عنه ويغفر ، كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما : **«إنَّ الله عز وجل يُدْني المؤمنَ فيضع عليه كَنَفه ثم يسأله فيما بينه وبينه : ألم تفعل كذا يوم كذا ؟ حتى إذا قرَّره بذنوبه ، وأيقن أنه قد هلك ، قال له : سترتُها عليك في الدنيا وأنا أغْفرها لك اليوم»**[٢].

وكذلك يستحي سبحانه من ذي الشَّيبة في الإسلام أنْ يُعذبه[٣].

---

(١) «إبطال التأويلات» (٢/ ٤١٢) .

(٢) الحديث في الصحيحين .

(٣) ضعيف جدا ، أخرجه ابن حبان في «المجروحين» (١/ ١٦٨)، ومن طريقه ابن الجوزي =

ويستحي ممن يدعوه ويمدُّ إليه يديه أن يردهما خاليتين .

وهو من أجل أنه حَيِيٌّ ستير : يحب أهل الحياء والسَّتر من عباده ، فمن ستَرَ مسلمًا ستر اللهُ عليه في الدنيا والآخرة ، ويكره المجاهرة بالفسوق والإعلان بالفاحشة ، وإنَّ من أَمْقت الناس عنده من بات على معصيةٍ والله يَسْتره ، ثم يُصبح فيكشف ستر الله عليه .

وقد توعَّد الذين يُحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا بأن لهم عذابًا أليمًا في الدنيا والآخرة (1).

وفي الحديث : « **كلُّ أمتي معافى إلا المجاهرين** » (2) (3).

٢ ـ أوَّلَ كثير من العلماء صفة الحياء الثابتة له سبحانه في الأحاديث الصحيحة المتقدمة : بالترك تارة وبالكراهية تارة ، وبالرحمة تارة ، وعدم

= في «الموضوعات» (١/ ١٧٧) عن سويد بن عبد العزيز عن نوح بن ذكوان عن أخيه أيوب ابن ذكوان عن الحسن عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ عن الله عز وجل : « إني لأستحي من عبدي وأمتي يشيب راس أمتي وعبدي في الإسلام ثم أعذبهما في النار ... » قال ابن حبان عن أيوب بن ذكوان : منكر الحديث .

وفيه أيضًا سويد بن عبد العزيز وهو ضعيف .

وله طرق أخرى ، انظر : « إبطال التأويلات » (٢/ ٤١٠ ـ ٤١١) .

(1) في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [النور: ١٩] .

(2) وهو حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : كلُّ أُمتي معافى إلا المجاهرين ، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجلُ بالليل عملاً ثم يصبح وقد ستَرَه الله ، فيقول : يا فلان عملتُ البارحةَ كذا وكذا ، وقد بات يستره ربُّه ويُصبح يكشف سترَ الله عنه » .

رواه البخاري في « الأدب » (١٠/ ٤٨٦) ، ومسلم في « الزهد » (٤/ ٢٢٩١) .

(3) « شرح النونية » (٢/ ٨٠ ـ ٨١) للشيخ محمد خليل هراس رحمه الله تعالى .

العقاب والعذاب أخرى ، وكلها من لوازم الحياء .

أ ـ منهم الحليمي في قوله ﷺ : **« إنَّ الله حيي كريم يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفراً »** .

قال : ومعناه أنه يكره ! أن يردَّ العبد إذا دعاه فسأله ما لا يمتنع في الحكمة إعطاؤه إياه ، وإجابته إليه ، فهو لا يفعل ذلك ، إلا أنه لا يخاف من فعله ذمًّا ، كما يخافه الناس فيكرهون لذلك فعلَ أمورٍ وتركَ أمور ، فإنَّ الخوف غير جائز عليه [1].

ب ـ والبيهقي في قوله : **« فاستحيا فاستيحا الله منه »** قال : أي جازاه على استحيائه بأن ترك عقوبته على ذنوبه [2].

جـ ـ والنووي في قوله ﷺ : **« وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه ... »** الحديث .

قال : أي رَحِمه ولم يُعذِّبه ، بل غَفر ذنوبه .

وقيل : جازاه بالثواب [3].

د ـ والحافظ ابن حجر في الحديث نفسه قال : أي رَحِمه ولم يُعاقبه[4].

هـ ـ والأُقليشي إذْ يقول : **وأما وصف الله تعالى بأنه « حيي » فوزنه فعيل من الحياء ، وهذا الوصف في حق الله تعالى مُتأوَّل !!**

---

(١) نقله البيهقي عنه في « الأسماء » (ص٩١) ، والقرطبي في « الأسنى » (٢/ورقة ٤٢٢ ب) مع اختلاف في أوله .

(٢) الكتاب « الأسنى » (٢/ورقة ٤٢٣ أ) .

(٣) شرحه على مسلم (١٤/١٥٩) .

(٤) « الفتح » (١/١٥٧) ، وبنحوهما قال الراغب كما في « الذريعة » (ص ١٨٨) .

إذْ العبد هو الموصوف بالحياء ، لأنها حالة يجدها العبد في نفسه ، تَحمله على إجلال المُسْتَحْيا منه .

ولما كان الله تعالى مُتكرِّمًا على سائله ، وقاضيًا حوائج داعيه ، لا يردهم بكرمه ، وَصَفَ نفسه بالحياء الذي يُوصف به مَن كَرُمت نفسه ، وكانت له سَجِيةٌ حيِّيه ، فإنه من أوصاف المدح في الخَلْق ، وكل وصف كان للمخلوق حسنًا ، فللَّهِ منه الحظُّ الأكمل ، وإنْ كان فيه إيهامٌ فإنه في حقه متأوَّل .

وقد وَصفَ نفسه بأنه يستحي من العبد ، ووصف نفسه بأنه لا يستحيي من الحقِّ ، فحياؤه من عبده يرجع إلى قضاء حاجته ، بصفة كرمه ، وكونه لا يَستحيي من الحق يرجع إلى صفة عَدْله ، القاضية بجريان الحق على أهله ، ولكلٍّ صفةٍ مقام ، وكيف ، فكان هذا الوصف من أوصاف الأفعال ، لأنه عبارةٌ عن إظهار كرمه ، وإدْرار نِعَمه [1].

و ـ والسندي قال : « حيي » بكسر أولى الياءين مخففة ، ورفع الثانية مشددة ، أي : الله تعالى تاركٌ للقبائح ، ساتر للعيوب والفضائح ، يحب السَّتر من العبد ، ليكون مُتخلِّقًا بأخلاقه تعالى !! فهو تعريضٌ للعباد ، وحث لهم على تحري الحياء [2].

---

(١) « الكتاب الأسنى » (٢/ ورقة ٤٢٢ ب) .

وقد أوَّلَ الحياء بلوازمه : من إجابة داعيه بكرمه وإحسانه ، وحبه لجريان الحق لعدله والأصل أن تثبت الصفة لله تعالى ثم تثبت لوازمها .

(٢) حاشيته على النسائي (١/ ٢٠٠) .

وقوله : « ليكون متخلقًا بأخلاقه تعالى » . من عبارات الفلاسفة وأهل الكلام ، ولم يأت في الكتاب ولا السنة ولا في أقوال سلف الأمة القول بأن لله اخلاقًا !! وإنما له نعوت كمال ، وصفات جلال ، فتنبه ! =

وغيرهم ممن أخطأ في هذا الباب ، عفا الله عنا وعنهم بمنِّه وكرمه .

٣ ـ ولما كان الله تعالى موصوفًا بالحياء ، فإنه يحبُّ أهلَه والمتَّصفين به من عباده ، كما ذكرنا سابقًا أنه تعالى عليمٌ يحبُّ العلماء ، كريمٌ يحب الكرماء ، حليم يحب الحلماء ، جميل يحب الجمال .

وقال أبو موسى رضي الله عنه : اللهم إنك مؤمنٌ تحب المؤمن، ومهيمن تحب المهيمن ، سَلامٌ تحب السَّلام ، صادقٌ تحبُّ الصادق (١).

بل قد جعله رسول الهُدى ﷺ شُعبةً من شُعب الإيمان ، وخصلةً من خصال عباد الرحمن .

فقال ﷺ : **« الإيمـانُ بِضْعٌ وستـون شُعْبَةً ، والحيـاءُ شُعبةٌ من الإيمان »** (٢).

ومرَّ ﷺ على رجلٍ من الأنصار وهو يَعظُ أخاه في الحياء ـ وفي رواية : يقول : إنك لتستحي حتى كأنه يقول : قد أضَرَّ بك ـ فقال

= قال ابن القيم بعد أن ذكر أن أدعية الرسل مشتملة على دعاء الله تعالى بأسمائه والثناء عليه بها : وهذه العبارة أولى من عبارة من قال : يتخلَّق بأسماء الله ، فإنها ليست بعبارة سديدة، وهي منتزعة من قول الفلاسفة بالتشبه بالإله على قدر الطاقة .

وأحسن منها عبارة أبي الحكم بن برهان وهي : التَّعبد ، وأحسن منها : العبارة المطابقة للقرآن وهي : الدعاء ، المتضمن للتعبد والسؤال .

فمراتبها أربعة : أشدها إنكارًا عبارة الفلاسفة وهي التَّشبه ، وأحسن منها عبارة من قال : التخلق ، وأحسن منها عبارة من قال : التعبد ، وأحسن من الجميع : الدعاء ، وهي لفظ القرآن اهـ . « بدائع الفوائد » (١/ ١٦٤) .

(١) أثر صحيح ، رواه ابن أبي شيبة (١٠/ ٢٦٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٥٩) .

(٢) رواه البخاري في « الإيمان » (١/ ٥١) ، ومسلم في « الإيمان » (١/ ٦٣) من حديث أبي هريرة وزاد فيه : « فأفضَلُها : قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء ... » .

رسول الله ﷺ : « **دَعْهُ ، فإن الحياء من الإيمان** »[(١)].

وكان هو ﷺ من أشدِّ الناس حياءً ، كما وصفه أصحابه ، قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه : كان النبي ﷺ أشدَّ حياءً من العَذْراءِ في خِدْرِها »[(٢)].

أي أشد حياء من البكر إذا دُخل عليها في خلوتها[(٣)].

فإنْ قيل : الحياء من الغرائز ، فكيف جُعل شعبةً من الإيمان ؟

أجيب بأنه : قد يكون غريزةً وقد يكون تخلُّقا ، ولكن استعماله على وفق الشرع يحتاج إلى اكتساب وعلمٍ ونية ، فهو من الإيمان لهذا .

ولكونه باعثًا على فعل الطاعة وحاجزًا عن فعل المعصيةِ[(٤)].

ولا يقال : رب حياء يمنع عن قول الحق أو فعل الخير ، لأنَّ ذاك ليس شرعيا .

فإن قيل : لِمَ أفرده بالذكر هنا ؟

أجيب بأنه : كالداعي إلى باقي الشعب ، إذْ الحيي يخاف فضيحة

---

(١) رواه البخاري في « الإيمان » (١/ ٧٤) ، وفي « الأدب » (١٠/ ٥٢١) ، ومسلم في «الإيمان » (١/ ٦٣) من حديث سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه رضي الله عنه .

(٢) رواه البخاري في « المناقب » (٦/ ٥٦٦) ، وفي « الأدب » (١٠/ ٥١٣ ، ٥٢١) ، ومسلم في « الفضائل » (٤/ ١٨٠٩ ـ ١٨١٠) وزاد : وكان إذا كره شيئًا عرفناه في وجهه .

(٣) معنى كلام الحافظ في « الفتح » (٦/ ٥٧٧) وقال : ومحل وجود الحياء منه ﷺ في غير حدود الله ، ولهذا قال للذي اعترف بالزنا : أنكتها ، لا يكني ، كما سيأتي بيانه في الحدود انتهى . وانظر « الحدود » (١٢/ ١٣٥) .

(٤) كما ورد في تعريف الحياء أنه : خُلُقٌ يَبعث على اجتناب القبيح ، ويمنع من التقصير في حق ذي الحق ، « الفتح » (١/ ٥٢) .

ولهذا جاء في الحديث الآخر : « الحياء خيرٌ كله » .

الدنيا والآخرة ، فَيَأْتَمر ويَنزجر [1].

٤ ـ اعلم ـ رحمني الله وإياك ـ أن أعظمَ الحياءِ ينبغي أن يكون من الله تعالى ، الذي نتقلب في نعمه وإحسانه الليل والنهار ، ولا نستغني عنه طرفة عين ، ونحن تحت سمعه وبصره ، لا يغيب عنه من حالنا وقولنا وفعلنا شيء ، كما قال عز وجل : ﴿ **وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** ﴾ [يونس: ٦١].

وقال بعض السلف : عَلِمتُ أن الله تعالى مطلعٌ علي فاستَحييتُ أن يراني على معصية .

وقد أحسن من قال :

وإذا خَلَوتَ بريبةٍ في ظُلمةٍ والنَّفسُ داعيةٌ إلى العصيان
فاستْحي من نَظَرِ الإلهِ وقُلْ لها إنَّ الذي خَلَقَ الظَّلام يَراني

وحكي عن بعض السلف : خفِ الله على قَدْر قدرته عليك ، واستحي منه على قَدر قربه منك [2].

قال الراغب : والذي يستحي منهم الإنسان ثلاثة :

البشر : وهو أكثر ما يستحي منه .

ثم نفسه .

ثم الله عز وجل .

---

(١) « الفتح » (١/ ٥٢) .

(٢) المصدر السابق (١/ ٧٥) .

ومن استحيا من الناس ولم يستحي من نفسه ، فنفسه أخسُّ عنده من غيره .

ومن استحيا منهما ولم يستحي من الله عز وجل ، فلعدم معرفته به .

فإن الإنسان يستحي ممن يُعظمه ويَعلم أنه يراه ، ويَسمع نجواه ، ومَنْ لا يعرف الله فكيف يَسْتعظمه ؟ وكيف يعلم أنه مطلع عليه ؟

وقوله ﷺ : « استحيوا من الله حق الحياء »[١] في ضمنه حثٌّ على معرفته .

وقال الله عز وجل : ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤] تنبيهًا على أن العبدَ إذا علم أن ربه يراه استحيا من ارتكاب الذنب .

وسُئل الجُنيد عما يُولِّد الحياء من الله تعالى ، فقال : رؤية العبد آلاءَ الله عليه ، ورؤية تقصيره عن شكره[٢].

قال القرطبي : فيجب على كلٍّ مكلف أن يستحي من خَالقه ، وذلك بأن لا يراه حيث نهاه ، وذلك أن المؤمن يقتضي تعظيم من آمن به، فينزجر عن القبائح حياءً من نَظَره إليه ، حتى كان بعضهم لا يغتسل إلا وعليه مِئْزرٌ يستره ، ولا يقوم قائمًا منتصبًا بل يتضامُّ ما استطاع في غُسْله[٣] .

---

(١) يأتي تخريجه .

(٢) « الذريعة إلى مكارم الشريعة » (ص ١٨٨ ـ ١٨٩) ط دار الكتب العلمية سنة ١٤٠٠ هـ .

(٣) كما جاء في حديث معاوية بن حيدة رضي الله عنه قال : قلت : يانبي الله ! عوراتُنا ما نأتي منها وما نَذَر ؟ قال : « احفظْ عورتَك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك » قلتُ : يا رسول الله ! إذا كان القوم بعضهم في بعض ؟ قال : « إنْ استطعت أن لا يَراها أحدٌ فلا يراها » قال قلت : يانبي الله ! إذا كان أحدُنا خاليا ؟ قال : « فالله أحقُّ أن يُستحيا منه » وفي رواية : « فالله أحق أن يَستحي منه الناس » . =

وكان موسى عليه السلام حَيِيًّا ستيرا يغتسل بناحيةٍ من قومه [1].

وروى الترمذي : عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « استَحيوا من الله حقَّ الحياء » قال فقلنا : إنا نَستحي والحمد لله ، قال : «ليس ذاك ! ولكن الاستحياء من الله حقَّ الحياء ، أنْ تحفظَ الرأسَ وما وَعَى ، والبطنَ وما حوَى ، وتَذكرَ الموتَ والبِلَى ، ومَنْ أرادَ الآخرة تركَ زينةَ الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حقَّ الحياء » .

قال : حديث غريب [2].

فمن كَثُر من الله حياؤه انقبضتْ نفسُه عن مجاهرتِه بالعصيان ، إذْ علمه معه في كل مكانٍ فمن عصاه فقد جاهره ، ثم مهما أفشى معصيته في الخَلْق فعلا وقولا فقد أعظم المجاهرة ، إذْ من لا يستحي من الناس لا يستحي من الله ، ولذلك كان الحياء الغريزي محموداً في العبد لكونه منقبضًا به عن مجاهرة الخَلْق فيما يُنكرونه من الفعل .

= وإسناده حسن ، رواه أحمد (٥/ ٣ ـ ٤) ، والترمذي (٢٧٦٩ ـ ٢٧٩٤) وغيرهما .

(١) أخرجه البخاري في « الأنبياء » (٦/ ٤٣٦)، وفي « التفسير » مختصراً (٨/ ٥٣٤) من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن موسى كان رجلا حَيِيًا ستيرًا لا يُرى من جلده شيء استحياء منه ، فآذاه مَن آذاه من بني إسرائيل فقالوا : ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده : إما برص وإما أُدْرَة وإما آفة ... » الحديث .

(٢) حديث حسن ، رواه الترمذي في « صفة القيامة » (٢٤٥٨) ، وأحمد (١/ ٣٨٧) ، وأبو يعلى (٨/ ٤٦١) ، والحاكم (٤/ ٣٢٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٦/ ٧٧٣٠) (٨/ ١٠٥٦١) ، والبغوي في « شرح السنة » (١٤/ ٢٣٤) وفي سنده : الصباح بن محمد الأحمسي الكوفي ، ضعيف .

لكن له طريق آخر ، رواه الطبراني في « الكبير » (١٠/ ١٨٨) ، وفي « الصغير » (١/ ١٧٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٢٠٩) يتقوى به .

وله شاهد مرسل ، انظر تعليقنا على كتاب « الورع » لابن أبي الدنيا رقم (٥٩) .

وفي البخاري عن أبي مسعود قال : قال النبي ﷺ : « إنَّ مما أدركَ الناسُ من كلام النبوة الأُولى : إذا لم تَسْتحي فاصْنَعْ ما شئت » [1].

وعن ابن عمر مَرَّ النبي ﷺ على رَجلٍ وهو يعاتبُ في الحياء، يقول: إنَّك تستحي حتى كأنه يقول : قد أضرَّ بك ، قال رسول الله ﷺ : «دَعْه! فإن الحياءَ من الإيمان » [2][3].

٥ ـ والوقاحة مذمومةٌ بكل إنسان ، إذْ هي انْسلاخٌ من الإنسانية .

وحقيقتها : لجاج النَّفس في تعاطي القبيح .

واشتقاقه : من حافرٍ وَقَاحٌ ، أي : صُلْب .

وبهذه المناسبة قال الشاعر :

يا ليتَ لي من جِلْد وجْهك رِقْعةً ... فأَقُـدُّ منها حَافـرًا للأشْهـبِ

---

(١) رواه البخاري في « الأنبياء » (٦/ ٥١٥) ، وفي « الأدب » (١٠/ ٥٢٣) .

وقوله : « من كلام النبوة الأولى » أي مما اتفق عليه الأنبياء .

وقوله : « فاصنع ما شئت » هو أمر بمعنى الخبر ، أو هو للتهديد أي : اصنع ما شئت فإنَّ الله يجزيك ، أو معناه : انظر إلى ما تريد أن تفعله فإن كان مما لا يُستحى منه فافعله ، وإن كان مما يستحي منه فدعه . « الفتح » (٦/ ٥٢٣) .

وقد قال أبو عبيد في « غريب الحديث » (٣/ ٣١ ـ ٣٢) : إنما وجهه عندي أنه أراد بقوله: « إذا لم تستحي فاصنع ما شئت » إنما هو مَن لم يستحي صَنَع ما شاء ، على جهة الذَّم لترك الحياء ، ولم يُرِد بقوله: « فاصنع ما شئت » أن يأمر بذلك أمرًا ، وهذا جائز في كلام العرب أن يقول : افعل كذا وكذا ، وليس يأمره ، ولكنه أمر بمعنى الخبر ، ألم تسمع حديث النبي عليه السلام : « من كذب علي متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار » أي : كان له مقعد من النار ، إنما هي لفظة أمرٍ على معنى الخبر وتأويل الجزاء ، وإنما يراد من الحديث أنه يحث على الحياء ويأمر به ويعيب تركه اهـ .

(٢) تقدم تخريجه قريبًا .

(٣) « الكتاب الأسنى » (٢/ ورقة ٤٢٣ أ ـ ب) .

وما أصدق قول الشاعر :

صَلاَبَةُ الوجهِ لم تَغْلبْ على أحدٍ   إلا تكَاملَ فيه الشَّرُّ واجْتَمَعا [1].

* * *

(١) « الذريعة » (ص ١٨٨) للراغب .

السِّتِّير

جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(١٣)

*** المعنى اللغوي :**

سَتَرَ الشيء يَسْتُرُه ويَسْتِرُه سَتْرًا وسَتَرًا : أخفاه .

والسَّتْرُ بالفتح : مصدر سَتَرْتُ الشيءَ أسْتُرُه إذا غطيتُه ، فاستَتَر هو .

وتَسَتَّر أي : تغطَّى .

ورجلٌ مَسْتُورٌ وسَتِيرٌ : أي عَفيف ، والجارية سَتِيرة .

والسِّتْر معروف : ما سُتِرَ به ، والجمع أَسْتَار وسُتُور وسُتُر . والسُّتْرُ: التُّرس .

والسُّتْرَةُ ما استَتَرتَ به من شيء كائنًا ما كان [1].

*** وروده في الحديث الشريف :**

١ ـ ورد في حديث يعلى بن أمية رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يغتسل بالبَراز بلا إزار ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال ﷺ : **« إنَّ الله عز وجل حَيِيٌّ سِتيرٌ ، يحبُّ الحياءَ والسَّتر ، فإذا اغتسل أحدكم فَلْيَسْتَتر »** [2].

وللستير روايتان : إحداهما : كسر السين وتشديد التاء مكسورة .

---

(١) « الصحاح » (٢/٦٧٦)، و « اللسان » (٣/١٩٣٥) ، و « المفردات » (ص ٢٢٣) ، مادة « ستر ».

(٢) سبق تخريجه .

والثانية : فتح السين وكسر التاء مخفَّفة [1].

* **معنى الاسم في حق الله تعالى :**

قال البيهقي : وقوله « ستير » يعني أنه ساتِرٌ يَسْتر على عباده كثيرًا ، ولا يَفضحهم في المَشاهد .

كذلك يحبُّ من عباده السَّتْر على أنفسهم ، واجتناب ما يَشينهم ، والله أعلم [2].

وقال ابن الأثير : « إن الله حيي ستيرٌ يحب الحياء والستر » : ستير : فعيل بمعنى فاعل ، أي : من شأنه وإرادته حبُّ السَّتر والصون [3].

وقال ابن القيم [4]:

وهو الحَيِيُّ فليس يَفضحُ عَبْدَه ... عند التَّجاهرِ منه بالعصْيان
لكنه يُلْقي عليه سِتْره ... فهو السِّتِّيرُ وصَاحبُ الغُفْران

وقال المُنَاوي : « ستير » بالكسر والتشديد ، أي : تاركٌ لحب القبائح ، ساتر للعيوب والفضائح ، فعيل بمعنى فاعل .

وجَعْلُه بمعنى مفعول ، أي : مستورٌ عن العيون في الدنيا ، بعيدٌ من السَّوق ، كما لا يَخفى على أهل الذَّوق [5].

---

(١) انظر حاشية سنن أبي داود (٤/ ٣٠٢) ، و« مختصر السنن » (٦/ ١٥) للحافظ المنذري بتحقيق أحمد شاكر ومحمد الفقي رحمهما الله تعالى .

(٢) « الأسماء والصفات » (ص ٩١) .

(٣) « النهاية » (٢/ ٣٤١) .

(٤) « النونية » (٢/ ٢٢٧) بشرح أحمد بن عيسى .

(٥) « فيض القدير » (٢/ ٢٢٨) .

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١ ـ إن الله تعالى ستِّير يحبُّ السَّتر والصَّون ، فيستر على عباده الكثير من الذنوب والعيوب ، ويكره القبائح والفضائح والمجاهرة بها .

٢ ـ وقد أمر تبارك وتعالى بالسَّتر ، وكره المفاخرة بالمعصية ، أو مجرد محبة ذكرها وشياعها بين المؤمنين .

قال سبحانه : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [النور: ١٩].

أي : الذين يريدون ويقصدون أن تَنْتشرَ الفاحشة في أهل الإيمان وتفشو فيهم ، والفاحشة : هي الفعلة القبيحة ، قيل هي : الزنا ، وقيل: الرمي بالزنا ، ﴿ **لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا** ﴾ مما يصيبهم من البلاء كالشلل والعمى ﴿ **وَالآخِرَةِ** ﴾ من عذاب النار ونحوه .

وفي الآية دليل : على أن أعمال القلب السيئة ، كالحقد والحسد ومحبة شيوع الفاحشة ، يُؤاخذ بها العبد إذا وطَّن نفسه عليها [١].

وأخبر الرسول ﷺ أن المجاهر بالمعاصي لا يُعافى منها فقال : « **كلُّ أمتي مُعافى إلا المجاهرين ، وإنَّ من المُجاهَرَة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يُصبح وقد ستَرهُ الله فيقول : يا فلان عملتُ البارحةَ كذا وكذا ، وقد باتَ يَسْتُره ربُّه ، ويُصبح يكشفُ سترَ الله عنه** » [٢].

قال الكرماني : ومحصل الكلام : كلُّ واحدٍ من الأمة يُعفى عن ذنبه، ولا يؤاخذ به إلا الفاسق المُعْلن [٣] .

---

(١) انظر : « روح المعاني » (١٨/ ١٢٢) وغيره .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) « الفتح » (١٠/ ٤٨٦) .

وقال ابن بطَّال : في الجهر بالمعصية استخفاف بحق الله ورسوله وبصالحي المؤمنين ، وفيه ضربٌ من العناد لهم ، وفي الستر بها : السلامة من الاستخفاف ، لأن المعاصي تذل أهلها ، من إقامة الحدِّ عليه إنْ كان فيه حدٌّ ، ومن التعزير إنْ لم يوجب حدًّا ، وإذا تمحَّضَ حقُّ الله فهو أكرمُ الأكرمين ، ورحمته سبقت غضبه ، فلذلك إذا ستره في الدنيا، لم يفضحه في الآخرة .

والذي يُجاهر يفوته جميع ذلك [1].

٣ ـ وأما المؤمن فإنه لو وقع في معصية أو تقصير في واجب بالغ في السَّتْر على نفسه ، كما ورد عن بعض السلف : أنه خرج إلى الصلاة فاستقبله الناس خارجين من المسجد ، فغطَّى وجهه ورجع .

وجاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رجلا سأله : كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النَّجوى ؟ قال : « **يَدْنوا أحدُكم من ربه حتى يضع كنَفَه عليه ، فيقول : عملتَ كذا وكذا ؟ فيقول : نعم ، ويقول : عملتَ كذا وكذا ؟ فيقول : نعم ، فَيُقرِّره ثم يقول : إني سَتَرتُ عليك في الدنيا ، فأنا أغفرها لك اليوم** » [2].

وفي رواية : « **فإني قد سَتَرتُها عليك في الدنيا وإني أغفِرها لك اليوم ، فيُعطى صحيفةَ حَسَناته ، وأما الكفارُ والمنافقون فيُنَادى بهم على رُؤوس الخلائق : هؤلاء الذين كَذَبوا على الله** » [3].

---

(١) المصدر السابق » (٤٨٧/١٠) .

(٢) رواه البخاري في « الأدب » (٤٨٦/١٠) ، وفي « التوحيد » (٤٧٥/١٠) .

(٣) رواها البخاري في « المظالم » (٩٦/٥) ، وفي « التفسير » (٣٥٣/٨) ، ومسلم في «التوبة» (٢١٢٠/٤) .

وقد جاءت البشارة بذلك للمؤمنين : أن مَنْ سَتَرَ الله عيبه في الدنيا، فإنه سيستره في الآخرة .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لا يَسْتُرُ اللهُ على عَبدٍ في الدنيا ، إلا ستَرَه الله يوم القيامة »[1].

٤ ـ كما حثَّ ﷺ على الستر على عباد الله ، ورغَّب في ذلك لموافقته رضى مولاه ، وصِفةَ خالقه ، فقال : « ... ومَن ستَرَ مُسْلمًا ستَرهُ اللهُ يومَ القيامة »[2].

ولما جاء رجل اليه ﷺ فقال : يا رسول الله ، إني عَالجتُ امرأةً في أقصى المدينة ، وإني أصبتُ منها مادون أن أمسَّها ، فأنا هذا فاقض فيَّ ماشئت ، فقال له عمر : لقد ستَرَكَ اللهُ ، لو سترتَ على نَفسك قال : فلم يَرُدَّ النبي ﷺ شيئًا ، فقام الرجل فانطلق ، فأتْبعه النبي ﷺ رُجلاً دعاه وتلا عليه هذه الآية : ﴿وأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤] فقال رجلٌ من القوم : يانبي الله ، هذا له خاصة ؟ قال : « بل للناس كافة »[3].

وسكوته ﷺ على مقولة عمر دليل رضاه ومحبته لها ، إذ هو لا يُقر أحدًا على باطل كما هو معلوم .

ونهى عليه الصلاة والسلام عن تتبع عورات المسلمين والبحث عنها

---

(١) رواه مسلم في « البر والصلة والأدب » (٤/ ٢٠٠٢) .

(٢) رواه البخاري في «المظالم » (٥/ ٩٧) ، ومسلم في « البر والصلة » (٤/ ١٩٩٦) من حديث سالم بن عبد الله عن أبيه مرفوعًا وأوله : « المُسْلم أخو المسلم ، لا يظلمه ... » .

(٣) رواه مسلم في « التوبة » (٤/ ٢١١٦) من حديث عبد الله رضي الله عنه .

وكشفها ، فقال : « يا معشرَ من آمن بلسانه ولم يَدْخلِ الإيمانُ قلْبَه ، لا تغتابوا المسلمين ، ولا تَتَّبعوا عَوراتهم ، فإنه مَن يَتَّبعْ عوراتهم ، يَتَّبع اللهُ عورته، ومَنْ يتَّبعْ عورتَه يَفْضَحْه في بيته »[1].

٥ ـ وكان من دعائه ﷺ في هذا الباب : ما حفظه ابن عمر رضي الله عنه قال : لم يكن رسول الله ﷺ يَدَع هؤلاء الدعوات حين يُمسي وحين يُصبح : « اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة ، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي ، وأهلي ومالي ، اللهم استُر عوراتي وآمنْ روعاتي ، اللهم احفظني من بين يدي ومَن خَلفي ، وعن يميني وشمالي ، ومن فوقي ، وأعوذُ بعظمتك أن أُغتال من تحتي »[2].

تنبيه : جرى على ألسنة كثير من الناس اسم « ساتر » فيقولون : يا ساتر، ولم يرد هذا الاسم في سنَّة صحيحة ـ فيما أعلم ـ فينبغي أن يقال: يا ستِّير ، فتنبه!

* * *

---

(١) حديث صحيح ، أخرجه أحمد (٤/ ٤٢٠ ـ ٤٢١) ، وأبو داود (٥/ ٤٨٨٠) عن الأسود بن عامر حدثنا أبو بكر بن عياش عن الأعمش عن سعيد بن عبد الله بن جريج عن أبي برزة الأسلمي مرفوعًا به .

وسنده حسن ، سعيد بن عبد الله صدوق ربما وهم ، قاله الحافظ .

وللحديث طرق أخرى يتقوى بها ، لبسطها موضع آخر .

(٢) حديث صحيح .

انظر تخريجه في الجزء الأول من الكتاب .

القَابِض ـ البَاسِط
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(١٤ ـ ١٥)

* **المعنى اللغوي :**

قَبَضْتُ الشيءَ قَبْضًا : أخذته .

والقَبْضُ : خلاف البسطِ .

ويقال : صار الشيءُ في قبضتك ، أي في مِلْكك .

والانْقباض : خلاف الانبساط .

والقَبْضُ أيضًا : الأخذُ بجميعِ الكفِّ ، والقَبْص : بأطراف الأصابع .

والقَبَضُ بالتحريك : ما قُبِضَ من الأموال والغنائم وغيرها .

وقُبِضَ الرجل : مات ، فهو مَقبوض [١].

وقال الراغب : فقَبْضُ اليد على الشيء جمعُها بعد تناوله وقَبْضها عن الشيء جمعُها قبل تناوله ، وذلك إمساكٌ عنه ومنه قيل لإمساك اليد عن البذل : قبضٌ .

قال تعالى : ﴿يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] أي : يمتنعون من الإنفاق[٢].

---

(١) « الصحاح » (٣/١١٠٠) ، و« اللسان » (٥/٣٥١٢) ، و « غريب الحديث » لأبي عبيد (٤/٤٦٨) ، و« اشتقاق الأسماء » للزجاجي (ص٩٧) .

(٢) « المفردات » (ص ٣٩١) .

وأما الباسط :

فالبَسْط نقيضُ القَبْضِ

وبَسَط الشيء : نَشَرَه ، وبالصاد أيضًا .

والبَسْطَةُ : السَّعةُ .

وانْبَسطَ الشيء على الأرض .

وتَبَسَّطَ في البلاد : أي سار فيها طُولاً وعرضًا .

والبِسَاط : ما يُبْسط .

والبَسَاط : الأرض الواسعة .

ورجل بَسِيط اليدين : مُنْبسِطٌ بالمعروف .

وبَسَط يده : مدَّها .

ويَدٌ بِسْطٌ أي مُطْلَقةٌ .

وفي قراءة عبد الله « بل يَدَاه بِسْطانِ » أي : مبسوطتان .

وفلانٌ بَسيطُ الجسم : فيه سعة وامتداد وزيادة وطول كما في قوله تعالى عن طالوت : ﴿ **إنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ** ﴾ [البقرة: ٢٤٧][1].

وقال الراغب : وبَسْط الكفُّ يُستعمل تارةً للطلب نحو : ﴿ **كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ** ﴾ [الرعد: ١٤].

وتارةً للأخذ نحو : ﴿ **وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ** ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وتارةً للصَّوْلة والضرب ، قال تعالى : ﴿ **وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ** ﴾ [الممتحنة: ٢].

---

(١) « الصحاح » (٣/١١١٦) ، و« اللسان » (١/٢٨٢ - ٢٨٤) ، و« اشتقاق الأسماء » للزجاجي (ص٩٩) .

وتارة للبَذْل والإعطاء نحو : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] [(١)].

*** وروده في الحديث الشريف :**

ورد في حديث أنس رضي الله عنه قال : غَلاَ السِّعْـر على عهد رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله ، لو سَعَّرتَ ، فقال : « **إنَّ الله هو الخَالقُ القَابِضُ الباسِط الرازِق المُسَعِّر ، وإني لأرجو أن ألْقى الله ولا يَطْلبني أحَدٌ بمظْلَمةٍ ظلمتها إياه في دمٍ ولا مالٍ** » [(٢)].

وقد وردت فِعلاً في القرآن في قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وفي أحاديث كثيرة ، كقوله ﷺ : « **إنَّ اللهَ يَبْسطُ يدَه بالليل ، ليتوبَ مُسيء النهار ، ويَبْسط يده بالنهار ليتوب ...** » [(٣)].

وقوله ﷺ : « **يَقْبِضُ اللهُ الأرضَ يوم القيامة ويَطوي السماء بيمينه ...** » الحديث [(٤)].

*** معنى الاسمين في حق الله تعالى :**

قال الزجَّاجي « القابض » اسم الفاعل من قَبَضَ فهو قابض ،

---

(١) « المفردات » (ص ٤٦) .

(٢) حديث صحيح ، أخرجه أحمد (٣/١٥٦ ، ٢٨٦) ، وأبو داود في « البيوع » (٣٤٥١) ، والترمذي في « البيوع » أيضًا (١٣١٤) ، وابن ماجه (٢٢٠٠)، والدارمي (٢/٢٤٩) ، وابن حبان (١١/ ٤٩٣٥) ، وابن جرير (٢/ ٣٧٢) ، والبيهقي في « الأسماء والصفات » (ص٨٥) ، وفي السنن (٦/ ٢٩) من طرقٍ عن حماد بن سلمة عن ثابت وقتادة وحميد عن أنس مرفوعًا به .

ورجاله ثقات رجال الشيخين ، سوى حماد فمن رجال مسلم .

(٣) رواه مسلم في « التوبة » (٤/٢١١٣) ، وأحمد (٤/ ٣٩٥ ، ٤٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري.

(٤) سبق تخريجه في الكتاب .

والمفعول مقبوض ، وذلك على ضروب .

فأما في هذه الآية التي ذُكر فيها هذا الحَرْف في سورة البقرة في قوله عزّ وجل : ﴿ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ ﴾ [البقرة: ٢٤٥] فقالوا : تأويله : يُقتِّر على مَن يشاء ، ويتوسع على مَن يشاء على حسب ما يرى من المصلحة لعباده.

فالقَبضُ هاهنا : التَّقتير والتَّضييق .

والبسط : التَّوْسعة في الرزق والإكثار منه .

فالله عزَّ وجل القابضُ الباسط ، يُقتِّر على من يشاء ، ويُوسِّع على من يشاء .

ومخرجُ ذلك من اللغة ، أن أصلَ القبض : ضَمُّ الشيء المنبسط من أطرافه ، فيَقْبضه القابضُ إليه أولاً أولاً حتى يَحوزه ويجمعه والبَسط : نَشرُ الشيء المجتمع أو المنضم أو المطْوي .

فمن قُبضَ رزقُه فقد ضُيِّقَ عليه ، ومَن بُسط رزقه فقد فُسح له فيه ، ووُسِّعَ عليه .

ومن ذلك قيل : فلانٌ قَبِيض ، أي : بخيل شديد كأنه لا يبسط كفَّه بخير إلى أحد ، ولا يَسمح بذلك ، وفلان باسط الكف ، وباسط الجاه، وإنما يُراد به السخاء وبذله ماله وجاهه [١].

وقال في الباسط : الباسط الفاعل من بسط يَبسط فهو باسط ، فالله عز وجل كما ذكرنا باسط رزق مَن أراد من عباده أن يوسع عليه ، ومقتر على من أراد ، كما يَرى في ذلك من المصلحة لهم ، وهو كما قال عز

---

(١) « اشتقاق الأسماء » (ص ٩٧) .

وجل : ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٢٧].

فهذه الآية قد بيَّنتْ لك معنى الباسط ، وبيَّنت أيضًا أنه عز وجل إنما يَقبض ويَبسط على حسب ما يراه عز وجل من المصلحة لعباده .

والباسط أيضًا : باسطُ الشيء الذي ليس بمفروش يَبسطه ويفرشه ، كما بَسَطَ الأرضَ للأنَام ، وبثَّ فيها أقواتهم [(١)].

وقال الحليمي : ومنها « الباسط » : ومعناه النَّاشر فضله على عباده، يرزق ويوسّع ويَجود ويُفضّل ويُمكّن ويُخوّل ، ويُعطي أكثر مما يحتاج إليه.

قال : ومنها « القابض » : يَطوي بره ومعروفه عمن يريد ، ويُضيّق ويُقتّر أو يَحْرم فيُفْقر .

ولا ينبغي أن يُدْعى ربَّنا جل جلاله باسم : القابض ، حتى يقال معه: الباسط [(٢)].

وقال البيهقي : « القابض الباسط » هو الذي يوسِّع الرزق ويقتره ، يبسطه بجوده ورحمته ، ويقبضه بحكمته .

وقيل : القابض : الذي يَقبض الأرواح بالموت الذي كَتَبه على العباد.

والباسط : الذي بَسَطَ الأرواحَ في الأجساد [(٣)].

---

(١) « اشتقاق الأسماء » (ص ٩٩) .

(٢) « المنهاج » (١/ ٢٠٣) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه ، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٦٤ ـ ٦٥) ، والقرطبي في «الأسني» (٢/ ورقة ٣٥٧ أ ـ ب).

(٣) « الاعتقاد » (ص ٥٧) .

وقال الغزالي : « القابض الباسط » هو الذي يَقبض الأرواح عن الأشباح عند الممات ، ويَبسط الأرواح في الأجساد عند الحياة .

ويَقبض الصَّدقات من الأغنياء ، ويبسط الأرزاق للضعفاء ، ويَبْسطُ الرِّزقَ على الأغنياء حتى لا يَبقى فاقَةٌ ، ويَقبضه عن الفقراء حتى لا يَبقى طَاقة .

ويقبض القلوب فيضيقها بما يكشف لها من قلةِ مبالاته وتعاليه وجلاله ، ويبسطها بما يتقرب إليها من بره ولطفه وجماله [(١)].

وقال ابن الأثير : في أسماء الله تعالى « القابض » : هو الذي يمسك الرزق وغيرَه من الأشياء عن العباد بلطفه وحكمته ، ويقبض الأرواح عند الممات [(٢)].

وقال : في أسماء الله تعالى « الباسط » : هو الذي يَبسط الرزق لعباده ، ويُوسِّعه عليهم بجوده ورحمته ، ويَبسط الأرواح في الأجساد عند الحياة [(٣)].

وقال قوَّام السنة الأصبهاني : ومن أسماء الله تعالى « القابض الباسط » : قال تعالى : ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ﴾ [البقرة: ٢٤٥] .

ومعناه : يُوسِّع الرزقَ ويُقتِّره ، يَبسطه بجُوده ، ويقبضه بعدْله ، على النَّظَر لعبده ، قال الله تعالى : ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٧][(٤)].

---

(١) « المقصد الأسنى » (ص ٥٢) .

(٢) «النهاية » (٤/٦) .

(٣) المصدر السابق (١/ ١٢٧) ، ونقلهما عنه ابن منظور في « اللسان » ولم يشر إليه .

(٤) « الحجة في بيان المحجة » (١/ ١٤٠) .

وقال السعدي : « القابض الباسط » : يقبض الأرزاق والأرواح ، ويَبْسط الأرزاق والقلوب ، وذلك تَبَعٌ لحكمته ورحمته [1].

*** اقتران الاسمين :**

الأدب في هذين الاسمين ، أن يُذْكرا معًا ، لأن تمام القُدرة بذكرهما معًا .

ألا ترى أنك إذا قلت : إلى فلانٍ قبضُ أمري وبَسْطُه ، دَلاَّ بمجموعهما أنك تريد أن جميع أمرك إليه ؟

وتقول : ليس إليك من أمري بَسْطٌ ولا قبض ، ولا حَلٌّ ولا عقدٌ ، أراد ليس إليك منه شيء .

قاله الزجاج [2].

وقال الخطَّابي : قد يَحْسُنُ في مِثل هذين الاسميــــن أن يُقْرَن أحدُهما في الذِّكر بالآخر ، وأن يوصلَ به ليكون ذلك أنْبأ عن القُدْرة ، وأدلَّ على الحكمة ، كقوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥] .

وإذا ذكرتَ القابضَ مُفردًا عن الباسط ، كنتَ كأنك قد قَصَرْتَ بالصفةِ على المنع والحرمان .

وإذا أوْصلتَ أحدَهما بالآخر فقد جمعت بين الصفتين ، مُنْبِئًا عن وجه الحكمة فيهما .

ثم قال :

---

(١) « تيسير الكريم الرحمن » (٥/٣٠٣) .

(٢) « تفسير أسماء الله الحسنى » (ص ٤٠) .

فالقابض الباسط : هو الذي يُوسع الرزق ويُقتِّره ، ويَبسطه بجوده ورحمته ، ويَقبضه بحكمته ، على النظر لعبده ، كقوله : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ﴾ [الشورى: ٢٧].

فإذا زاده لم يَزِدْه سَرَفًا وخَرَقًا ، وإذا نَقَصه لم ينقُّصه عَدَمًا ولا بُخلا .

وقيل : القابض : هو الذي يَقبض الأرواح بالموت الذي كتبه على العباد [١].

وقال ابن القيم[٢] :

هو قابضٌ هو باسِطٌ هو خَافضٌ   هو رَافِــعٌ بالعَــدْل والميـزانِ

قال الهراس في شرحه : هذه الأسماء الكريمة من الأسماء المتقابلات التي لا يجوز أن يُفردَ أحدهما عن قرينه ، ولا أنْ يُثنى على الله عز وجل بواحدٍ منها إلا مقرونًا بمقابلة ، فلا يجوز أن يُفرد القابض عن الباسط ، ولا الخافض عن الرافع ... إلخ .

قال : لأنَّ الكمال المطلق إنما يَحصل بمجموع الوصفين .

فهو سبحانه القابض الباسط ، يقبض الأرواح عن الأشباح عند الممات ، ويبسط الأرواح في الأجساد عند الحياة ، ويقبض الصدقات من الأغنياء ، ويَبسط الأرزاق للضعفاء ، ويبسط الرزق لمن يشاء حتى لا تبقى فَاقة ، ويَقبضه عمن يشاء حتى لا تبقى طاقة .

ويقبض القلوب فَيُضيِّقها حتى تصير حَرجًا كأنما تصَّعَّدَ في السماء ، ويبسطها بما يُفيض عليها من معاني بِره ولُطفه وجماله ، قال تعالى :

(١) « شأن الدعاء » (ص ٥٨) .

(٢) «النونية » (٢/ ٢٣٦) بشرح أحمد بن عيسى .

﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥][1].

* من آثار الإيمان بهذين الاسمين :

١ ـ إن الله تعالى هو القابض الباسط ، وهما من الطَّي والنَّشر ، والتوسعة والتضييق ، والأخذ والعطاء ، وهو يتناول أموراً كثيرة ، كما مرَّ معنا في أقوال العلماء .

قال ابن الحصار : وهذان الاسمان يختصان بمصالح الدنيا والآخرة، قال الله العظيم : ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٢٧] .

وذلك يتضمَّن قوام الخَلْق باللُّطف والخِبْرة، وحُسن التَّدبير والتقدير، والعلم بمصالح العباد في الجملة والتفاصيل ، وبحسب ذلك يُرسل الرياح ، ويُسخِّر السحاب ، فيُمطر بلداً ، ويمنع غيره ، ويُقل ويُكثر [2].

وكذلك يُصرِّف جُملة العوالم لجملة العالمين .

وقال بعض العلماء : إنَّ أعظمَ البسطِ : بَسْطُ الرحمة على القلوب حتى تَستضيءَ ، وتخرجَ من وَضَرِ الذنوب ، وهذا هو الشرح المذكور في قوله عز وجل : ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

وقوله : ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وضده المذكور في قوله : ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا

(١) « النونية » بشرح الهراس رحمه الله (٢/ ١٠٤) .

(٢) كما في قوله تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [الروم: ٤٨].

﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] .

فأما قوله عز وجل : ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤].

وقوله : ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٣].

إلى آخر المعنى ، فليس بفتحٍ عليهم ولا بسط لهم ، وإنما حقيقته : مَكْرٌ بهم ، واستدراجٌ لهم ، لحرمانٍ شاءه بهم .

كذلك ليس المذكور في قوله عز وجل : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ﴾ [التوبة: ١٦].

وقوله : ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٣].

وما ذَكرَ من خطيئة آدم عليه السلام ، وداود ، وبلاء أيوب عليهما السلام ، وشبه ذلك ليس بقبضٍ في الحقيقة ، لكن ذلك محنة عاجلة موصلة إلى جُوده[1] المتصل لهم في الآجل .

قال القرطبي معقبًا : قلت : وهذا من هذا العالِم إشارة إلى أنَّ ما أصابَ المؤمنَ من مِحن الدنيا نعمةٌ ، وما أصابَ الكافر من نِعَم الدنيا فتنةٌ[2].

٢ ـ وقال ابن جرير في تفسير قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥]. يعني تعالى ذكره بذلك : أنه الذي بيده

---

(١) في الأصل : وجوده ! ولا معنى لها .

(٢) « الكتاب الأسنى » (٢/ورقة ٣٥٧ ب ـ ٣٥٨ أ) .

قَبْضُ أرزاق العباد وبسطها دون غيره ممن ادَّعى أهل الشرك به أنهم آلهة، واتخذوه ربًّا دونه يعبدونه ، وذلك نظير الخبر الذي روى عن رسول الله ﷺ ... عن أنس قال : غلا السعر على عهد رسول الله ﷺ قال : فقالوا: يا رسول الله ، غَلاَ السعر فأَسْعِر لنا ، فقال رسول الله ﷺ : «إنَّ **الله الباسط القَابضُ الرازق ، وإني لأرجو أن ألقى الله ليس أحدٌ يَطْلُبني بمظلمة في نفسٍ ومال** »[1].

قال أبو جعفر : يعني بذلك ﷺ أن الغَلاءَ والرُّخصَ والسَّعةَ والضيق بيد الله دون غيره ، فكذلك قوله تعالى ذكره : ﴿**وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ**﴾ يعني بقوله : ﴿ **يَقْبِضُ**﴾ يُقتِّر بقبضهِ الرزق عمن يشاء من خلقه ، ويعني بقوله: ﴿ **وَيَبْصُطُ**﴾ يوسع ببسطه الرزق على مَن يشاء منهم ، وإنما أراد تعالى ذكره بِقيله ذلك : حثَّ عباده المؤمنين الذين قد بَسَط عليهم من فضله فوسَّع عليهم من رزقه ، على تَقْوية ذوي الإقتار منهم بماله ، ومعونته بالإنفاق عليه ، وحَمُولته على النهوض لقتال عدوه من المشركين ـ في سبيله ـ فقال تعالى ذكره : من يُقَدِّم لنفسه ذُخرًا عندي بإعطائه ضعفاء المؤمنين ، وأهل الحاجة منهم ما يستعين به على القتال في سبيلي فأضاعف له من ثوابي أضعافًا كثيرة مما أعطاه وقَوَّاه به ، فإني أنا المُوسِّع الذي قبضتُ الرزقَ عمن نَدَبْتُك إلى معونته وإعطائه ، لأبتليه بالصَّبر على ما ابْتَليته به ، والذي بَسَطتُ عليك لأمتحنك بعملك فيما بَسطتُ عليك فأنظر كيف طاعتك إياي فيه ؟ فأُجازي كلَّ واحدٍ منكما على قَدْر طاعتكما لي فيما ابْتَليتكما فيه وامتحنتكما فيه ، من غِنًى وفاقةٍ ، وسَعَةٍ وضيق ، عند رجوعكما إليَّ في آخرتكما

---

(١) تقدم تخريجه قريبا .

ومَصيركما إليَّ في مَعَادكما [1].

٣ ـ ثم حذَّر الله تعالى من استعمال ما بَسَطَ من الرزق في معاصيه فقال : ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يعني تعالى ذكره بذلك : وإلى الله معادكم أيها الناس ، فاتقوا الله في أنفسكم أن تُضيِّعوا فرائضه ، وتتعدوا حدوده ، وأن يَعمل مَن بسط عليه منكم في رزقه بغير ما أَذِن له بالعمل فيه ربُّه ، وأن يحمل بالمقتر منكم فيقبض عنه رزقه اقتاره على معصيته ، والتقدم على ما نَهَاه ، فيستوجب بذلك منه ـ بمصيره إلى خالقه ـ ما لا قِبَل له به من أليم عقابه .

وكان قتادة يتأول قوله : ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وإلى التراب ترجعون [2].

٤ ـ فينبغي لمن امتن الله عليه ببسطةٍ في المال أو العلم أو الجسم أو الجاه ، أن يتفضَّلَ على عباد الله تعالى كما تفضَّل الله عليه وأحسن ، فإن هذا من شكر هذه النعم .

ويجب على من ضيق عليه في شيء من ذلك أن لا يلجأ إلا إلى القابض الباسط الذي يملك ما يتمنى ويريد ، وأن يعلم أن ذلك بعدله سبحانه وهو لا يظلم أحدًا .

قال القرطبي : فيجب على كل مكلَّفٍ أن يعتقد أن لا قابضَ ولا باسطَ إلا الله سبحانه ، هو الذي يَقبض الجميع ويبسطه ، وهو الذي يَبسطُ القلوبَ والألسنةَ والأيدي وسائر الأسباب .

فإنْ كنتَ مبسوطَ القلب بالمعارف، والحقيقة والعلوم الدينية، فابْسطْ

---

(١) « جامع البيان » (٢/ ٣٧٢) .

(٢) المصدر السابق (٢/ ٣٧٣) . وما ذكره عن قتادة رواه عنه بعد ذلك بسند حسن .

بساطَك، وابسطْ وجْهك، واجلسْ للناس حتى يَقتبسوا من ذلك النِّبْراس.

وإنْ كنت ذا بسطة في الجسم ، فابْسطه في العبادة التي تُفْضي بك إلى السعادة ، وفي الصَّولة على الأعداء ، بما خُوِّلتَ من المنَّة والشِّدة .

وإنْ كنت ذا بَسط في المال ، فابسطْ يدكَ بالعَطَاء ، وأزِلْ ما على مالك من الغِطَاء ، ولا تُوكِي[1] فيوكي الله عليك ، ولا تُحْصي فيحصي اللهُ عليك.

وإنْ كنت لم تَنَلْ حظًا من هذه البَسَطاتِ فابسط قلبكَ لأحكام ربِّك ، ولسانَك لذكره وشكره ، ويدك لبذل الواجبات عليك ، ووجهك للَخلْق، كما قال ﷺ في بَذل المعروف : « **فإن لم تَجِدْ فالْقَ أخاكَ بوجه طَلْقٍ** » ويروى « **طليق** » .

ولقد أحسنَ القائل :

بُنَيَّ إنَّ البِـرَّ شـيءٌ هَيِّـن وَجـهٌ طليـقٌ ولسـانٌ لَيِّـنٌ[2] .

٥ ـ ما ورد في النصوص السابقة من إثبات القبض والبسط لله تعالى، هو من الأدلة الكثيرة التي تؤيد ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة من إثبات صفة « اليد » لله جل شأنه على ما يليق بذاته سبحانه من غير تمثيل، إذْ هو ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ [الشورى: ١١].

وذلك أن القَبضَ والبسط قد ورد إضافتهما إلى أشياء محسوسة تُقبض باليد الحقيقية ، ولا يَصح حملها على القبض والبسط المعنوي ، كقوله جلَّ ذكره : ﴿ **وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ [الزمر: ٦٧].

---

(١) من الوكاء وهو رباط القربة ، أي : لا تمنع العطاء فيمنع الله عنك عطاءه .

(٢) « الكتاب الأسنى » (٢/ ورقة ٣٥٨ ب) .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «يَطوي اللهُ عز وجل السماواتِ يوم القيامة ثم يَأخذُهنَّ بيده اليمنى ثم يقول: أنا المَلكُ أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ ثم يطوي الأرضينَ بشماله ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ »[1].

وعن عبد الله بن مسعود قال : جاء حَبرٌ إلى النبي ﷺ فقال : يا محمد ! أو يا أبا القاسم ! إن الله تعالى يُمْسِكُ السماواتِ يومَ القيامة على إصْبَع ، والأرضين على إصْبع ، والجبال والشجر على إصْبع ، والماءَ والثَّرى على إصبع ، وسائر الخَلْق على إصْبع ، ثم يهزُّهن فيقول : أنا الملك أنا الملك ، فضحك رسول الله ﷺ تعجبًا مما قال الحَبر ، تَصديقًا له ، ثم قرأ : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر: ٦٧][2].

وعن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ الله خَلَقَ آدمَ من قَبْضة قَبَضها من جميعِ الأرض ، فجاء بنو آدم منهم الأحمر والأسود والأبيض وبينَ ذلك ، والسَّهل والحَزْن ، والخَبيث والطَّيب »[3].

---

(١) سبق تخريجه في الجزء الأول من الكتاب .

(٢) سبق تخريجه في الموضع السابق .

(٣) حديث صحيح ، أخرجه ابن سعد (١/ ٢٦) ، وأحمد (٤/ ٤٠٠ ، ٤٠٦) ، وأبو داود (٤٦٩٣) ، والترمذي (٥/ ٢٠٤) ، وابن جرير في تفسيره (١/ ١٧٠) ، وابن خزيمة في «التوحيد » (ص ٦٤) ، وابن حبان (٨/ ١١) وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٠٤) (٨/ ١٣٥)، والحاكم (٢/ ٢٦١ ـ ٢٦٢) ، والبيهقي في « الأسماء » (ص ٣٢٧ ، ٣٨٥) وفي « السنن » (٩/ ٣) من طرق عن عوف الأعرابي عن قسامة بن زهير المازني البصري عن أبي موسى الأشعري مرفوعًا به.

قال الترمذي : حديث حسن صحيح .

وقال الحاكم : صحيح الإسناد ووافقه الذهبي . وهو كما قالوا .

وعن أبي نضرة قال : إن رجلا من أصحـــاب النبي ﷺ يقال له : أبو عبد الله دخل عليه أصحابه يعودونه وهو يبكي ، فقالوا له : ما يبكيك ؟ ألم يقل لك رسول ﷺ : « **خُذْ من شاربك ، ثم أقره حتى تلقاني**» قال : بلى ، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إن الله قَبَضَ قبضةً بيمينه وقال : هذه لهذه ولا أُبالي ، وقَبَضَ قَبْضةً أخرى بيده الأخرى جلَّ وعلا فقال: هذه لهذه ولا أُبالي ، فلا أدري في أيِّ القبضتين أنا ؟** »[(١)].

وغيرها من الأحاديث .

وقد بَيَّن الأمام أبو بكر بن خزيمة في كتاب « التوحيد » أن ذِكْر القبضة في الأحاديث دليل على إثبات صفة اليد لربنا سبحانه .

فقال : باب ذكر صفة آدم عليه السلام .

والبيان الشافي أنه خلقه بيده لا بنعمته ، على ما زعمت الجهمية المعطِّلة ، إذْ قالت : إن الله يقبض بنعمته ! من جميع الأرض قبضةً فيخلق منها بشراً .

وهذه السُّنَّة السادسة في إثبات اليد للخالق الباري جل وعلا .

ثم ذكر حديث أبي موسى الأشعري المتقدم [(٢)].

وقال الشيخ الهراس معلقًا على تأويل الجهمية القبض بالنِّعمة : وهذا تأويل باطل ! فإن القبض إنما يكون باليد الحقيقية لا بالنعمة ! فإن قالوا:

---

(١) حديث صحيح ، أخرجه أحمد (٤/١٧٦ ، ١٧٦ ـ ١٧٧) (٥/٦٨) عن حماد بن سلمة حدثنا الجريري عن أبي نضرة به .

قال الهيثمي في « المجمع » (٧/١٨٦) : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

وهو كما قال .

وله طرق انظرها في « إبطال التأويلات » (١/١٧٥) .

(٢) « التوحيد » (ص ٦٣ ـ ٦٤) .

إن الباء هنا للسببية ، أي بسبب إرادته الإنعام .

قلنا لهم : وبماذا قَبَضَ ؟ فإنَّ القبض محتاجٌ إلى آلة فلا مناص لهم لو أَنصفوا من أنفسهم ، إلا أنْ يعترفوا بثبوت ما صَرَّح به الكتابِ والسنة[1].

وقال الإمام عثمان بن سعيد الدارمي في كتابه « الرد على بشر المريسي العنيد » : وأما دعواك أيها المريسي في قول الله : ﴿**بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ**﴾ [المائدة: ٦٤] فزعمتَ أن تفسيرها عندك : رزقاه رزقٌ موسع ورزق مقتور ، ورزقٌ حلال ورزق حرام .

فقوله يداه عندك رزقاه ! فقد خرجت بهذا التأويل من حدِّ العربية كلها ، ومن حدِّ ما يفقهه الفقهاء ، ومن جميع لغات العرب والعجم ، فممن تلقيته ؟ وعمن رَوَيته من أهل العلم بالعربية والفارسية ؟

وإنك جئت بمحال لا يَعْقله أعجميٌّ ولا عربي ، ولا نعلم أحدًا من أهلِ العلم والمعرفة سبقك إلى هذا التفسير ، فإنْ كنت صادقًا في تفسيرك هذا فأثره عن صاحب علمٍ أوصاحب عربية ، وإلا فانك مع كفرك بها من المدلسين .

وإن كان تفسيرهما عندك ما ذهبت إليه فإنه كذب محالٌ ، فضلاً عن أن يكون كفرًا ، لأنك ادعيت أن لله رزقًا موسعًا ، ورزقًا مُقتَّرا ، ثم قلت: إنَّ رزقيه جميعًا مبسوطان ، فكيف يكونا مبسوطين ، والمقتور أبدًا في كلام العرب غير مبسوط ؟ وكيف قال الله : إن كلتيهما مبسوطتان ، وأنت تزعم أن إحداهما مقتورة ؟

---

(١) المصدر السابق .

فهذا أولُ كذبك وجهالتك بالتفسير ، وقد كفانا الله ورسوله مَؤُنة تفسيرك هذا بالناطق من كتابه ، وبما أخبر الله على لسان رسوله .

أما الناطق من كتابه فقوله : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص: ٧٥] . وقوله : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ [المائدة: ٦٤].

وقوله : ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح: ١٠].

وقوله : ﴿ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ﴾ [آل عمران: ٢٦].

وقوله : ﴿ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ ﴾ [الحديد: ٢٩].

وقوله : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ [الملك: ١].

وقوله : ﴿ لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [الحجرات: ١].

فهل يجوز لك أنْ تتأوَّل في جميع ما ذكرنا من كتابه أنه رزقاه ، فتقول : برزقه الخير ! وبرزقه الفضل ! وبرزقه المُلك ! ولا تقدموا بين رزق الله ورسوله !!

وأما المأثور من قول رسول الله ﷺ فقوله : « **إنَّ المُقْسطِينَ على منابرَ من نورٍ عن يمين الرحمن ، وكِلتا يديه يمين** »(١).

فتفسير قول النبي ﷺ في تأويلك أيها المريسى : أنهم على منابر من نور عن رزقي الرحمن ، وكلتا رزقيه يمين !!

وعن ابن عمر قال : سعمت رسول الله ﷺ يقول : « **يأخُذُ الجبار سمواته وأرضه بيديه ـ وقبض كفيه أو قال يديه ـ فجعل يَقبضها ويَبسطها ، ثم يقول : أنَا الملك ، أنَا الجبار ، أين المتكبرون** » ويميل رسول الله ﷺ عن يمينه وعن شماله حتى نظرتُ إلى المنبر أسفل شيءٍ منه حتى إني لأقول:

---

(١) رواه مسلم (١٤٥٨/٣) ، وأحمد (٢/ ١٦٠) من حديث ابن عمرو رضي الله عنهما .

أَسَاقطٌ هو برسول الله ﷺ ؟ »[١].

فيجوز أيها المريسي أن تتأول هذا الحديث أنه يأخذ السموات والأرض برزقيه ! مَوْسُوعه ومقتوره ، وحلاله وحرامه ! وما أراك إلا وستعلم أنك تتكلم بالمُحال ، لتُغَالط بها الجهال ، وتروج عليهم الضلال. وقول النبي ﷺ : « **والذي نفسي بيده** » و « **نفس محمد بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا** ... » الحديث[٢].

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « **يقبض الله الأرض يوم القيامة ، ويطوي السماء بيمنه ، ثم قال : أنا الملك أين الملوك ؟** »[٣].

أفيجوز أن يطوي الله السموات بأحد رزقيه ؟ فأيهما الموسع عندك من المقتور ؟ وأيهما الحلال من الحرام ؟ لأن النبي ﷺ قال : « **كلتا يديه يمين** » .

وادعيت أنت أن أحدهما موسع والآخر مقتور .

وعن أبي موسى عن النبي ﷺ قال : « **إنَّ اللهَ يَبْسطُ يده بالليل ليتوب مُسِيءُ النَّهار ، يَبسطُ يَدَه بالنهار ليتوب مُسيءُ الليل ، حتى تطلعَ الشمس من مغربها** »[٤].

أَفَيجوز أن يقال: يبسط حلاله بالليل وحرامه بالنهار ليتوب المسيئان؟

فلو أنك إذْ أردت معاندة الله ورسوله ومخالفة أهل الإسلام احتججت بكلامٍ أستر عورة ، وأقل استحالة من هذا ، لكان أنجع لك في قلوب

(١) سبق تخريجه في الجزء الأول .

(٢) سبق تخريجه في الجزء الأول .

(٣) سبق تخريجه في الجزء الأول .

(٤) سبق تخريجه قريبًا .

الجهال ، من أنْ تأتي بشيء لايشك عاقلٌ ولا جاهل في بُطُوله واستحالته [1].

٦ ـ قد ثبت عن النبي ﷺ أنه دعا ربَّه وأثنى عليه ، بذكر قبضه وبسطه وتفرده في ذلك سبحانه .

فعن عبيد بن رفاعة الزرقي عن أبيه قال لما كان يوم أحد وانْكَفأ المشركون قال رسول الله ﷺ : « **استَوُوا حتى أُثني على ربي** » فصاروا خلفه صفوفًا فقال : « **اللهم لكَ الحمدُ كلُّه ، اللهم لا قابضَ لما بَسَطتَ ، ولا باسطَ لما قبضتَ ، ولا هاديَ لما أَضْلَلتَ ، ولا مضلٌّ لمن هَدَيت ، ولا مُعطي لما منعتَ ، ولا مانعَ لما أَعطيتَ ، ولا مُقرِّبَ لما باعدت ولا مُباعدَ لما قرَّبت ، اللهم ابْسطْ علينا من بركاتك ورحمتك وفضْلك ورزقك ، اللهم إني أسألكَ النَّعيمَ المُقيم الذي لا يَحول ولا يزول ، اللهم إني أسألك النَّعيم يوم القيامة[2] والأمنَ يومَ الخوف ، اللهم إني عائذٌ بك من شرِّ ما أَعطيتنا ، وشرِّ ما مَنعتَ ، اللهم حبِّبْ إلينا الإيمانَ وزيِّنه في قلوبنا ، وكرِّه إلينا الكفرَ والفُسوق والعصيان ، واجْعلنا من الراشدين ، اللهم تَوفَّنا مسلمين ، وأَحْينا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين ، غير خزَايا ولا مَفْتُونين ، اللهم قَاتل الكفرةَ الذين يُكَذِّبون رسلك ، ويَصدون عن سبيلك ، واجعلْ عليهم رِجْزَكَ وعَذَابك ، اللهم قاتلْ الكفرةَ الذين أُوتوا الكتاب ، إله الحقِّ** » [3].

---

(١) رد الدارمي على المريسي (ص ٣٠ ـ ٣٣) باختصار .

(٢) كذا عند البزار ، وعند أحمد : العلية ! وفي المجمع : الغلبة !

(٣) إسناده حسن ، رواه أحمد (٣/ ٤٢٤) ، والبزار (١٨٠٠ ـ زوائد) عن مروان بن معاوية حدثنا عبد الواحد بن أيمن المكي عن عبيد بن رفاعة الزرقي عن أبيه مرفوعًا به .
قال البزار : لا نعلمه مرفوعًا إلا من حديث رفاعة ولا رواه عن عبيد إلا عبد الواحد (وقع في المطبوعة عبد الرحمن وهو خطـأ وهو مشهور لا بأس به روى عنه أهل العلم . =

. . . .

= قلت : وهو عبد الواحد بن أيمن أبو القاسم المكي وثقه ابن معين ، وقال أبو حاتم : صالح الحديث ، وقال النسائي : ليس به بأس ، وهو من رجال الصحيحين .

وقال الهيثمي في المجمع : رواه أحمد والبزار واقتصر على عبيد بن رفاعة عن أبيه وهو الصحيح ، وقال اللهم قاتل كفرة أهل الكتاب ، ورجال أحمد رجال الصحيح .اهـ .

وعبيد بن رفاعة تابعي ثقة وهو من رجال الأربعة ، ومروان قال مرة : عبيد الله بن عبد الله الزرقي ، عند أحمد ، والصواب الأول والله أعلم .

السَّــيِّد
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(١٦)

*** المعنى اللغوي :**

سَادَ قومه يَسودُهم سيادةً وسُودَدًا وسَيْدودةً فهو سَيِّدُهم ، وهم سادةٌ، تقديره : فَعَلَةٌ بالتحريك .

لأن تقدير سيد : فَعِيلٌ .

وقال أهل البصرة : تقدير سيِّد فَيْعِلٌ ، وجُمع على فَعَلَة .

والسُّؤْدُد : الشَّرَف .

قال ابن شُمَيل : السيد الذى فاق غيرَه بالعقل والمال والدَّفع والنَّفع، والمُعْطي ماله في حقوقه ، المُعين بنفسه ، فذلك السيد .

وقال عكرمة : السَّيِّد الذي لا يَغلبه غَضبُه .

وقال أبو خَيْرَة : سُمِّي سيدًا لأنه يَسود سوادَ الناس ، أي : عُظْمِهم.

وقال الأصمعي : العرب تقول : السيد كلُّ مقهورٍ مغمورٍ بحلمه .

وقيل : السيد الكريم .

وقال الفراء : السَّيِّد المَلك ، والسَّيِّد الرئيس ، والسيد السَّخي ، وسيّد العبد مولاه والأنثى من كل ذلك بالهاء ، وسيد المرأة زوجها ،

وفي التنزيل ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ ﴾ [يوسف: ٢٥].

وسيدُ كل شيء أشْرَفُه وأرفعه (١).

وقال الراغب : السَّيد : المتولِّي للسَّواد ، أي : الجماعةِ الكثيرة ، ويُنْسب إلى ذلك فيقال : سيِّد القوم ، ولا يقال : سيد الثوب وسيد الفَرَس ، ويقال : ساد القومَ يَسودُهم .

ولما كان من شَرَطِ المتولِّي للجماعةِ أن يكون مهذَّبَ النَّفس ، قيل لكلٍّ من كان فاضلاً في نفسه : سَيِّدٌ ، وعلى ذلك قوله : ﴿ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا ﴾ [آل عمران: ٣٩] وقوله : ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا ﴾ [يوسف: ٢٥] فسمَّى الزوج سيّدًا لسياسة زوجته ، وقوله : ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا ﴾ [الأحزاب: ٦٧] أي : وُلاتَنا وسَائسِينا (٢).

*** وروده في الحديث الشريف :**

جاء في حديث مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير قال : قال أبي : انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ فقلنا : أنتَ سيِّدنا ، فقال : « **السَّيدُ اللهُ تباركَ وتعالى** » قلنا : وأَفْضَلنا فضلاً وأَعْظَمنا طَوْلاً ، فقال : « **قُولُوا بقولكم ، أو بعضِ قولكم ، ولا يَسْتَجرِيَنَّكم الشَّيطان** » (٣).

---

(١) « الصحاح » (٢/ ٤٩٠ ـ ٤٩١) ، و« اللسان » (٣/ ٢١٤٤ ـ ٢١٤٥) .

(٢) « الراغب » (ص ٢٤٧) .

(٣) حديث صحيح ، أخرجه أحمد (٤/ ٢٤ ـ ٢٥) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٢١١) ، وأبو داود (٥/ ٤٨٠٦) واللفظ له ، ومن طريقه البيهقي في « الأسماء » (ص ٢٢) والنسائي في « عمل اليوم والليلة » (٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧) من طرق عن مطرف به . قال الحافظ في « الفتح » (٥/ ١٧٩) : ورجاله ثقات وقد صححه غير واحد .

* **المعنى في حق الله تعالى :**

قال الخطابي : قوله « السَّيدُ الله » ويريد : أن السُّؤْدُد حقيقةً لله عز وجل ، وأن الخلقَ كلَّهم عبيدٌ له [(١)].

وقال الحليمي : ومنها « السيد » وهو اسمٌ لم يأت به الكتاب ، ولكنه مأثورٌ عن النبي ﷺ ، فإنه روي عنه أنه قال لوفد بني عامر : « **لا تقولوا السيد فإن السيد الله** » .

ومعناه : المحتاج إليه بالإطلاق .

فإن سيد الناس إنما هو رأسهم الذي إليه يرجعون ، وبأمره يعملون، وعن رأيه يَصْدرون ، ومن قوله يَستَهدون .

فإذا كانت الملائكةُ والإنس والجن خَلْقًا للباري جل ثناؤه ، ولم يكن بهم غُنْية عنه في بدءِ أمرهم وهو الوجود ، إذْ لو لم يوجدهم لم يوجدوا، ولا في الإبقاءِ بعد الإيجاد ، ولا في العَوَارض العارضة أثناء البقاء ، كان حقًّا له جل ثناؤه أن يكون سَيدًا ، وكان حقًّا عليهم أن يَدْعوه بهذا الاسم [(٢)].

وقال الأزهري : وأما صفةُ الله جل ذكره بالسَّيد فمعناه : أنه مالك الخَلْق ، والخَلْق كلُّهم عبيده [(٣)].

وقال ابن الأثير في قوله «السيد الله»: أي هو الذي تَحِقُّ له السيادةُ[(٤)].

---

(١) « معالم السنن » بهامش مختصر السنن للمنذري (٧/ ١٧٦) .

(٢) « المنهاج » (١/ ١٩٢) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات الابتداع والاختراع له ، ونقله البيهقي في « الأسماء » (ص ٢٣) .

(٣) « اللسان » (٣/ ٢١٤٤) .

(٤) « النهاية » (٢/ ٤١٧) .

وقال الأصبهاني : ومن أسمائه تعالى : « السيد » وهذا اسم لم يأتِ به الكتاب ، وإنما ورد في الخبر عن النبي ﷺ . ثم ذكر الخبر ، وذكر نحوًا من كلام الغزالي المتقدم [(١)].

وقال ابن القيم [(٢)]:

وهو الإلهُ السَّيِّـدُ الصَّمَـدُ الذي صَمَدَتْ إليه الخلـق بالإذْعَانِ

الكَامِلُ الأوصـافِ مِن كلِّ الوُجُوهِ كمَالَهُ مـا فيه مِـن نُقْصانِ

وقال : السيد إذا أُطلق عليه تعالى فهو بمعنى : المَالِك والمولى والربّ ، لا بالمعنى الذي يُطلق على المخلوق ، والله سبحانه وتعالى أعلم [(٣)].

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١ ـ الله تبارك وتعالى هو السَّيد الذي قد كَمُل في سُؤْدُدِه ، والشَّريف الذي قد كمُل في شرفه ، والعظيم الذي قد كمل في عَظَمته ، والحليم الذي قد كمل في حِلْمه ، والغني الذي قد كمل في غناه ، والجبَّار الذي قد كمل في جَبروته ، والعَالم الذي قد كمل في عِلمه ، والحكيم الذي قد كمل في حِكْمته ، وهو الذي قد كمل في أنواع الشَّرف والسُّؤْدُد ، وهذه صفاتٌ لا تنبغي إلا له وحده لا شريك له [(٤)].

٢ ـ يجوز إطلاق هذا الاسم على المخلوق ، فقد قال تعالى عن نبيه يحيى بن زكريا عليهما السلام : ﴿**وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ**

(١) « الحجة في بيان المحجة » (١/ ١٥٥ ـ ١٥٦) .

(٢) « النونية » (٢/ ٢٣١ ـ ٢٣٢) .

(٣) « الفوائد » (٣/ ٢١٣) .

(٤) روي عن ابن عباس نحوه ، انظر : آثار الإيمان بالصمد في الجزء الثاني من الكتاب .

الصَّالِحِين﴾ [آل عمران: ٣٩] .

قال ابن الأنباري : إن قال قائل : كيف سمَّى الله عز وجل يحيى سيدًا وحصورًا ، والسَّيد هو الله ، إذْ كان مالك الخلق أجمعين ، ولا مالك لهم سواه ؟

قيل له : لم يُرِدْ بالسَّيد ههنا المالك ، وإنما أراد الرئيسَ والإمامَ في الخير ، كما تقول العرب : فلانٌ سيدنا ، أي : رئيسنا والذي نُعظِّمه[1] .

ونحوه ما جاء في حديث مطرف السابق إذْ قالوا للنبي ﷺ : أنتَ سيدنا ، فقال : « **السيد الله تبارك وتعالى** » قلنا : وأَفْضلنا فضلاً ، وأعظمنا طولا ، فقال : « **قولوا بقولكم أو بعض قولكم ولا يستجرينكم الشيطان** » .

قال أبو منصور الأزهري : كره النبي ﷺ أن يُمدح في وجهه ، وأحبَّ التواضع لله تعالى ، وجَعلَ السيادة للذي ساد الخلق أجمعين وليس هذا بمخالف لقوله لسعد بن معاذ حين قال لقومه الأنصار: « **قوموا إلى سيدكم** » أراد أنه أفضلكم رجلاً وأكرمكم .

وأما صفة الله جلَّ ذكره بالسيد فمعناه أنه مالكُ الخلقِ ، والخَلقُ كلُّهم عبيده .

وكذلك قوله : « **أنا سيِّدُ وَلَدِ آدم ولا فخرَ** » أراد أنه أولُ شفيعٍ وأولُ من يُفتح له بابُ الجنة ، قال ذلك إخبارًا عما أكرمه اللهُ به من الفَضل والسُّؤْدَدِ ، وتحدُّثًا بنعمة الله عنده ، وإعلامًا منه ليكونَ إيمانُهم به على حَسَبه وموجبه .

---

(١) « اللسان » (٣/ ٢١٤٥) .

ولهذا اتْبَعَه بقوله : « **ولا فخر** » أي : إنَّ هذه الفضيلة التي نلتُها كرامةٌ من الله ، لم أنَلها من قِبَل نفسي ، ولا بَلغتُها بقوتي فليس لي أن أفْتخَر بها .

وقيل في معنى قوله لهم لما قالوا له : أنت سيدنا : « **قولوا بقولكم** » أي: ادعوني نبيًا ورسولاً كما سمَّاني الله ، ولا تُسموني سيِّدًا كما تُسمون رُؤساءَكم، فإني لست كأحدِهم ممن يَسودُكم في أسباب الدنيا [1].

وقال الخطابي : وإنما منعهم ـ فيما نرى ـ أن يَدْعوه سيدًا ، مع قوله: « **أنا سيد ولد آدم** » وقوله لبني قريظة[2] : « **قوموا إلى سيدكم** » يريد سعد بن معاذ ، من أجل أنهم قومٌ حديثٌ عهدهم بالإسلام ، وكانوا يحسبون أن السِّيادة بالنبوة كهي بأسباب الدنيا ، وكان لهم رؤساء يعظمونهم ، وينقادون لأمرهم ، ويسمونهم السادات ، فعلمهم الثناء عليه وأرشدهم إلى الأدب في ذلك فقال : « **قولوا بقولكم** » يريد : قولوا بقول أهل دينكم وملتكم ، وادعوني نبيا ورسولاً ، كما سماني الله عز وجل في كتابه فقال: ﴿ **يا أيها النبي** ﴾ ﴿ **يا أيها الرسول** ﴾ ولا تُسموني سيداً كما تُسمون رؤساءَكم وعظماءكم ، ولا تجعلوني مثلهم فإني لست كأحدهم ، إذْ كانوا يَسُودنكم بأسباب الدنيا ، وأنا أسُودكم بالنبوة والرسالة فسموني نبيا ورسولاً .

وقوله : « **بعض قولكم** » فيه حذفٌ واختصار ومعناه : دعوا بعض قولكم واتركوه ، يديد بذلك الاقتصار في المقال ، قال الشاعر :

---

(١) « المصدر السابق » (٣/ ٢١٤٤).

(٢) كذا جاء في المطبوعة وأشار المحققان إلى أنه هكذا وجد في نسختين خطيتين وصوابه : لبني الخزرج قبيلة سعد .

فبعــضَ القــول عاذِلتي فإني سَيكْفينــي التَّجــاربُ وانْتِســابي

وقوله : « لا يستجرينكم الشيطان » معناه : لا يتخذنَّكم جَرِيًّا والجَرِيُّ: الوكيل ، ويقال : الأجير أيضًا [١].

وقال الإمام المحقق ابن القيم رحمه الله تعالى :

اختلف الناس في جواز إطلاق السيد على البشر ، فمنعه قومٌ ونُقل عن مالك ، واحتجوا بأنه ﷺ لما قيل له: يا سيدنا قال: «إنما السيد الله».

وجوزه قومٌ واحتجوا بقول النبي ﷺ للأنصار : « قوموا إلى سيدكم » وهذا أصح من الحديث الأول .

قال هؤلاء : السيد أحدُ ما يُضاف إليه ، فلا يقال لتميمي : إنه سيدُ كندة ولا يقال لمالك أنه سيد البشر ، قال : وعلى هذا فلا يجوز أن يطلق على الله هذا الاسم !

وفي هذا نظر ، فإنَّ السيد إذا أُطلق عليه تعالى فهو بمعنى: المالك والمولى والرب لا بالمعنى الذي يطلق على المخلوق ، والله سبحانه وتعالى أعلم [٢].

ومما يؤيد جواز إطلاقه على المخلوق ، قوله ﷺ : « إذا نَصَحَ العبدُ سيِّده وأحسن عبادة ربِّه ، كان له أجره مرتين » [٣].

---

(١) « معالم السنن » بهامش مختصر السنن (٧/١٧٦ ـ ١٧٧) .

تنبيه : لم يثبت لفظ السيادة للنبي ﷺ في التشهد ولا في الشهادة له بالرسالة في شيء من الأحاديث ، كما استقرأ ذلك جماعة من المحققين ومنهم الحافظ ابن حجر والقاسمي . انظر : « معجم المناهي » للشيخ بكر أبو زيد (ص ١٨٩) .

(٢) « الفوائد » (٣/٢١٣) .

(٣) رواه البخاري في « العتق » (٥/١٧٧) ، ومسلم في « الإيمان » (٣/١٢٨٤) من حديث نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما .

وقوله : « لا يَقلْ أحدُكم : أطعم ربَّك ، وَضِّئ ربك ، وليَقُل : سيدي مولاي ، ولا يَقُل أحدُكم : عبدي ، أمتي ، وليَقُل : فَتَاي وفتاتي وغُلامي »[1].

وقول عمر رضي الله عنه : « أبو بكر سيِّدُنا ، وأعتقَ سيِّدَنا ، يعني بلالاً »[2].

وقال الحافظ ابن حجر بعد أن ذكر حديث « السيد الله » : ويمكن الجمع بأن يُحمل النهي عن ذلك على إطلاقه على غير المالك ، والإذن بإطلاقه على المالك .

وقد كان بعض أكابر العلماء يأخذ بهذا ويكره أن يخاطب أحداً بلفظه أو كتابته بالسيد ، ويتأكَّد هذا إذا كان المخاطب غير تقي ، فعند أبي داود والمصنف في « الأدب » من حديث بريدة مرفوعًا : « لا تقُولوا للمنافقِ سيِّداً » الحديث ونحوه عند الحاكم[3].

* * *

---

(١) رواه البخاري (٥/١٧٧) ، ومسلم في « الألفاظ من الأدب » (٤/١٧٦٥) من حديث همام ابن منبه عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه البخاري في « فضائل الصحابة » (٧/٩٩) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه .

(٣) « الفتح » (٥/١٧٩) .

وحديث « لا تقولوا للمنافق ...» في سنن أبي داود (٤٩٧٧) ، والبخاري في « الأدب » (٧٦٠) وهو صحيح .

المُحْسن
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(١٧)

* **المعنى اللغوي :**

الحُسْنُ : نقيض القُبح ، والجمع مَحَاسِن على غير قياس ، كأنه جمع مَحْسَن .

ويقال : رجل حَسَنٌ ، وامرأة حَسَنَةٌ وحَسْناء وجمع الحَسَنَ : حِسَان.

وحسَّنتُ الشيء تَحْسينًا : زيَّنْتُه وأَحْسنتُ إليه وبه .

وروى الأزهري عن أبي الهيثم أنه قال في قوله تعالى في قصة يوسف على نبينا وعليه الصلاة والسلام : ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ [يوسف: ١٠٠] أي : قد أحسنَ إليَّ .

وقوله تعالى : ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ [الليل: ٦] قيل : أراد الجنة .

وكذلك قوله تعالى : ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

فالحسنى : الجنة ، والزيادة : النظر إلى وجه الله تعالى [١].

والمحاسن في الأعمال ضد المساوئ.

وقوله تعالى : ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦] الذين يحسنون التأويل .

(١) وهو تفسير الرسول ﷺ للآية كما في حديث صهيب رضي الله عنه عند مسلم .

وقوله عز وجل : ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [لقمان: ٢٢].

قال ثعلب : هو الذي يتبع الرسول ﷺ .

والمَحاسِن : المواضعُ الحسنة من البدن ، يقال : فلانة كثيرةُ المحاسن .

ووجهه مُحَسَّنٌ : حَسَنٌ ، حَسَّنَه الله تعالى (١).

وقال الراغب : والإحسان يقال على وجهين :

أحدهما : الإنعام على الغير ، يُقال أحسَنَ إلى فلان .

والثاني : إحْسَانٌ في فعله ، وذلك إذا عَلِمَ عِلْمًا حَسَنًا ، أو عَمِل عملاً حسنا .

وعلى هذا قول أمير المؤمنين رضي الله عنه : الناسُ أبناء ما يحسنون، أي : مَنْسوبون إلى ما يَعْلمون ، وما يعملونه من الأفعال الحسنة .

قال : وقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠] .

فالإحسان فوق العَدْل ، وذاك أن العَدْل هو أنْ يُعطِيَ ما عليه ويأخذَ ما له ، والإحسانُ أن يُعطي أكثر مما عليه ويأخذ أقلَّ مما له .

فالإحسان زائدٌ على العدْل ، فتحري العدل واجبٌ ، وتحري الإحسان نَدْبٌ وتطوُّعٌ ، وعلى هذا قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥].

وقوله : ﴿وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ١٧٨].

ولذلك عظَّم الله تعالى ثوابَ المحسنين فقال تعالى : ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ

---

(١) « الصحاح » (٥/٢٠٩٩) ، و« اللسان » (٢/٨٧٧ ـ ٨٧٩) .

الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩][1].

وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وقال تعالى : ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ﴾ [التوبة: ٩١].

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ [الزمر: ١٠][2].

*** وروده في الحديث الشريف :**

١ـ ورد في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **إذا حكَمتُم فاعْدلوا ، وإذا قُلتم فأَحْسِنوا ، فإن الله محسنٌ يحبُ الإحْسان** »[3].

٢ـ وورد في حديث شدَّاد بن أوس قال : حفظت من رسول الله ﷺ اثنتين أنه قال : « **إن الله عز وجل مُحْسنٌ يُحبُّ الإحسان ، فإذا قتلتم فأحْسنُوا القتْلةَ ، وإذا ذَبحتُم فأحسنوا الذّبْحِ ، وليُحِدَّ أحدُكم شَفْرتَه ثم لِيُرِحْ ذَبيحتَه** »[4].

---

(١) في المطبوعة : « إن الله مع المحسنين » وهو خطأ ! .

(٢) « المفردات » (ص ١١٩) .

(٣) سنده حسن ، رواه ابن أبي عاصم في « الديات » (ص ٥٦) ، وابن عدي في « الكامل » (٦/ ٢١٤٥) ، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان » (٢/ ٢١٣) من طرق عن محمد بن بلال التمار ثنا عمران القطان عن قتادة عن أنس به .

عمران القطان هو ابن داور قال أحمد : أرجوه أن يكون صالح الحديث ، وقال أبو داود : هو من أصحاب الحسن وما سمعت إلا خيرًا ، وقال النسائي : ضعيف ، وقال الحافظ : صدوق يهم.

ومحمد بن بلال ذكره ابن حبان في الثقات ، وقال ابن عدي : أرجو أنه لا بأس به . وقال الحافظ : صدوق يغرب .

والحديث ذكره الألباني في « الصحيحة » (٤٧٠) .

(٤) صحيح ، رواه عبد الرزاق في مصنفه (٨٦٠٣) ، ومن طريقه الطبراني في « الكبير » =

* المعنى في حق الله تعالى :

قال القرطبي : المحسن جل جلاله وتقدست أسماؤه ، لم يرد في القرآن اسمًا ، وإنما ورد فعلاً ، فقال : ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ ﴾ [يوسف: ١٠٠].

ومعناه راجع إلى معنى المُفضلِ وذي الفَضل والمنَّان والوهَّاب[١] .

وقال : المُحْسن اسم فاعل من أحسن ، ولا خفاءَ بإحسان الله تعالى إلى خَلْقه ، ومَنِّه عليهم بما غَمَرهم من الإحْسان والفَضل والجود والإنعام [٢].

وقال ابن العربي : وأما مُحسن ومُجْمل ومفضل ، فلم يرد بها توقيف[٣] ولكنها ألفاظ كريمة المعاني ولا يسمَّى إلا بما سمَّى به نفسه ، أكثر من أن الفعل منها قد جاء ، والتصريف لها قد وَرَدَ ، قال تعالى : ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾ [يوسف: ١٠٠].

وجاء في الحديث « جميل » وقيل أنه بمعنى : مُجمل .

وجاء : ذو الفضل العظيم [٤].

= (٧/ ٧١٢١) عن معمر عن أيوب عن أبي قلابة عن أبي الأشعث الصنعاني عن شداد به .

ورجاله ثقات رجال الشيخين ، سوى أبي الأشعث الصنعاني واسمه شراحيل بن آدة فمن رجال مسلم .

وأصله في صحيح مسلم ، فقد رواه (٣/ ١٥٤٨) عن إسماعيل بن علية عن خالد الحذَّاء عن أبي قلابة به ، بلفظ : « إنَّ الله كتب الإحسان على كلِّ شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة ... » الحديث .

(١) « الكتاب الأسنى » (٢/ ورقة ٤١٤ أ) .

(٢) المصدر السابق (٢/ ورقة ٤١٤ب) .

(٣) كذا قال ! وقد مرَّ معك ثبوت الحديث في « المحسن » .

(٤) « الكتاب الأسنى » (٢/ ورقة ٤١٤ أ) .

وقال المُناوي في قوله ﷺ : « **إن الله تعالى محسن** » أي : الإحسان له وصفٌ لازمٌ لا يخلو موجودٌ عن إحسانه طَرْفَةَ عين ، فلابدَّ لكل مُكوَّن من إحسانه إليه بنعمة الإيجاد ونعمة الإمداد (1).

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١ ـ ربنا تبارك وتعالى هو المُحسنُ الذي غَمرَ الخلق جميعًا بإحسانه وفضله ، برهم وفاجرهم ، مؤمنهم وكافرهم ، لاغنىً لهم عنه طرفة عين، ولا قيام لهم ولا بقاء إلا به سبحانه وبجوده وإنعامه ، ولو غفل عن ذلك الغافلون، وجَحَد به الجاحدون، وأعْرض عن شكره العاصون .

وللأُقليشي توسع جميل في بيان الجود والفضل والإحسان وأنواعه على الخلق ، إذْ يقول : وذلك ينحصر في ثلاثة أقسام : قاعدة وواسطة ومُتممة.

● أما القاعدة : فتشتمل من الإحسان والمن على ثلاث شعب :

الأولى : إخراجه من عدمٍ إلى وجود ، بمقتضى صفة الكرم والجود، وقد ذكَّره بهذا في مَعرض الامتنان ،فقال جل وعز : ﴿ **هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا** ﴾ [الإنسان: ١].

الشُعبة الثانية : بعد خلقه تصويره في صورة آدم ، وهي أحسنُ صورِ العالَم ، وقد امتنَّ عليه بذلك في قوله : ﴿ **وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ** ﴾ [غافر: ٦٤] إلى غير ذلك من الآي المتكرره في هذا النوع .

الشعبة الثالثة : جَعْلُه إياه عاقلاً لا معتُوها ولا سفيها حتى يمتاز من البهائم ، وقد ذكَّره بهذا الثَّناء فقال : ﴿ **إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ** ﴾ [الإنسان: ٣].

وقال : ﴿ **وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ** ﴾ [البلد: ١٠].

---

(١) « فيض القدير » (٢/ ٢٦٤) .

وقال : ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾ [النحل: ٧٨].

إلى غير ذلك من هذه الأمثلة .

● وأما الواسطة فهي للقسمين رابطة ، ويشتمل من الإحسان والإنعام والمنِّ على ستِ شُعَب :

الأولى : هدايته إياه للإسلام .

وهذا أعظمُ الإحسان والإنعام ، وهو المراد بما ذكر في القرآن من الهدي والنور ، والشَّرح للصدور ، وغير ذلك من هذا النوع[1] .

الثانية : إحسانه إليه أن جَعَلَه من أُمةِ محمد عليه السلام : خير الأنبياء وخير الأمم ، وعلى هذا نبّه بقوله : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] أي : كنتم في الغيب حتى خرجتم إلى الوجود علي وفاق العلم .

الثالثة : إحْسانه إليه بأن حفِظ كتابه العظيم حتى يكون مُعبِّرًا عن كلام ربه بلسانه ، وراغبًا إليه بجنابه ، وهذا من أعظم إحسانه ، وقد قال ابن عباس في قوله عز وجل : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨] أنه القرآن .

الرابعة : عَلَّمه بعد حفظه من معانيه ، ومن شريعة نبيه ، ومن حقائق علمه أثرًا ونظرًا ، وقد قال تعالى : ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وقال : ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

---

(١) قال القرطبي هنا : قلت : ومن هذا المعنى ما روي عن وهب بن منبه قال : رؤس النعم ثلاثة : فأولها نعمة الإسلام التي لا تتم نعمةٌ إلا بها . والثانية : نعمة العافية التي لا تطيبُ الحياةُ إلا بها . والثالثة : نعمة الغِني التي لا يتم العيشُ إلا بها .

الخامسة : ما أحسنَ به إليه ، وأنعم عليه من : العمل بما عَلم ، وهذا هو ثمرةُ العلم ، وقد قال تعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

السادسة : إحسانه إليه وتوفيقه حتى يَنْشرَ ما علم في عباده ، ويكون نور بلاده ، يُسْتَضاءُ بسِراجه ، ويُقْتَفَى واضحَ مِنهاجه ، وبهذا يَستحقٌّ أن يُدْعى عظيمًا في مَلكوت السماء ، ويكونَ من أشرافِ العلماءِ الوارثين للأنبياء .

● وأما المتمِّمة : فهو ما أنعمَ به عليه ، وأحسنَ إليه ، من إظهارِ عَوارف ، وإدْرار لطائف ، شرفَ بها نوعَه ، وأكمل بها وَصْفه ، ويشتمل على أربع شُعبٍ :

الأول : ما أنعمَ به عليه : من كمال الصُّورة ، واعتدال الخلْقة ، وفصاحة اللسان ، وسلامة الهيئة من تشوهٍ ، ونقصِ عضوٍ ، ولحوقِ خَلَلٍ ، حتى يبقى صحيحًا سليما ، ويسلك من طاعة الله طريقًا قويمًا ، وتستحْسنُ الأبصار والبصائر صورتَه ، ولا تمج الطباع خلقته ، وهذه نعمة من الله عليه ، وهي مَوهبةٌ وخصوصية .

الثانية : ما أنعم به عليه : من انْتظامِ الحال ، واتِّساعِ المال ، حتى لا يحتاج إلى أحدٍ من الخلق في اكتساب الرزق ، ويحتاج إليه غيره فيعُمهم خيره ، وهذه نعمةٌ يجب شكرها ، إذْ ليس كل أحدٍ يُعطاها .

الثالثة : ما أنعمَ به عليه : من عصبَةٍ وعَشيرة وأصحابِ وأتباع ، تألَّفت قلوبهم على محبته واصطفائه ، وقاموا جُنَّةً بينه وبين أعدائه ، فلم يطرقه من الأعداء طارق ، بل عاش في أمنٍ من جميع الخلائق ، يُنْظر إليه بعَين الإجْلال والوقار ، وتقضى حوائجه في قطره وفي جميع

الأقطار، ويثني عليه الحاضر ، ويفخر بذكره الأعاصر .

الرابعة : ما يُنعمُ به عليه : من المرأة الصالحة الموافقة ، فتسكن إليها نفسه ، ويتم له بها أُنْسه ، ويكْثر منها نَسْله حتى يكونَ من ذُريَّته في أمة محمد ﷺ عَدَدٌ وَافر ، وكلُّهم لله موحدٌ ، ولآلائه ذاكرٌ شاكر ، فَيَشْتَدُّ بهم في الدنيا أَزْره ، ويحبط بهم في الآخر وِزْره .

قلت (أي القرطبي) : وشعبة خامسة : وهي ما أنعمَ عليه من صحة الجسم ، وفَراغِ البال ، قال ﷺ : « **نعْمتان مَغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس: الصحة والفراغ** » خرجه البخاري [(١)][(٢)].

٢ ـ ذكرنا مراراً أن الله تعالى يحب من خلقه التعبد بمعاني أسمائه وصفاته ، فهو عليم يحب العلماء ، جميل يحب الجمال ، محسنٌ يحب الإحسان ، ولذا كتب الإحسان على كل شيء حتى في القتل والذبح [(٣)].

قال سبحانه : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [المائدة: ١٣].

والإحْسان نوعان : إحسانٌ في عبادة الله تعالى وهو « أن تعبد الله تعالى كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » كما جاء في حديث جبريل عليه السلام المشهور .

وإحسان إلى عباد الله تعالى، وذلك بإيصال جميع أنواع الخير لهم، وكليهما قد وعده الله تعالى بالثواب فقال: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [التوبة: ١٢٠].

قال ابن القيم رحمه الله في بيان أسباب شرح الصدر : ومنها :

(١) البخاري في أول « الرقاق » (١١/ ٢٢٩) .

(٢) « الكتاب الأسنى » (٢/ ورقة ٤١٤ ب ـ ٤١٦أ) .

(٣) فأمر الرسول ﷺ بأن تحدَّ الشفرة وتُشحذ لئلا تؤذي الذبيحة ، وأن لا يكون ذلك أمامها ، وأن يريح ذبيحته فلا يربط قوائمها . يسوقها سوقًا جميلا .

الإحسان إلى الخَلق ونفعُهم بما يمكنه من المال والجاه والنفع بالبدن ، وأنواع الإحسان ، فإن الكريم المحسنَ أشرحُ الناس صدرًا ، وأطيبهم نفسًا ، وأنعمهم قلبًا ، والبخيلُ الذي ليس فيه إحسان أضيق الناس صدرًا، وأنكدهم عَيشًا ، وأعظمُهم همّا وغما .

وقد ضرب رسول الله ﷺ في الصحيح مثلاً للبخيل والمتصدِّق ، كمثل رجلين عليهما جُنَّتَان من حديد ، كلَّما همَّ المتصدِّق بصدقةٍ اتَّسعت عليه وانبسطت حتى يَجُرَّ ثيابه ويُعْفي أثَره ، وكلما همَّ البخيل بالصدقة ، لَزِمَتْ كلُّ حَلقةٍ مكانها ، ولم تتَّسع عليه [1].

فهذا مَثَلُ انشراح صدر المؤمن المتصدِّق ، وانفساح قلبه ، ومثلُ ضيق صدر البخيل وانحصار قلبه [2].

٣ـ ومن أعظم الإحسان إلى الخلق : تعليمهم ما ينفعهم في دينهم ، ويكون سببًا في نجاتهم في الدنيا والآخرة ، من علوم الكتاب والسنة وفقه السلف، وإرشادهم إلى طرق الخيرات والقربات، وتحذيرهم مسالك الشرِّ والهلكات، وهي وظيفة الرسل وأتباع الرسل، وبهذا كانوا أعظمَ الناس إحسانًا إلى الخلق ، ولهم عليهم من المنة والفضل مالا يُؤدى شكره .

قال تعالى : ﴿ **لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

* * *

(١) هو معنى حديث أخرجه البخاري في مواضع أولها في « الزكاة » (٣/ ٣٠٥) ، ومسلم في «الزكاة» (٢/ ٧٠٨ ـ ٧٠٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) « زاد المعاد » (٢/ ٢٥ ـ ٢٦) .

الفهـــــــــــارس

* فهـرس أطراف الحديث .

* فهرس المواضيع .

فهرس أطراف الحديث

فهرس المواضيع

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة